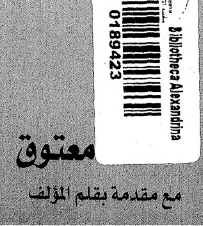
غوردون طوماس

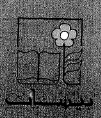
انحطاط الموساد

اغتيالات وأكاذيب وارتزاق



معتوق

مع مقدمة بقلم المؤلف



غوردون طوماس

إنحطاط الموساد

ترجمة

د. محمد معتوق



* الكتاب: إنحطاط الموساد.
* تأليف: غوردون طوماس.
* ترجمة: د. محمد معتوق.
* الطبعة الأولى: نيسان 2000 م.

* الناشر: بيسان للنشر والتوزيع والاعلام
■ ص. ب 5261-13 بيروت ـ لبنان
■ هاتف: 351291 ـ فاكس 747089-1-961

مقدمة المترجم

تختلف صورة جهاز الاستخبارات الإسرائيلي الخارجي (الموساد) عندنا ، نحن آباء الضحايا وأمهاتهم وأخوتهم وأخواتهم وأبناءهم وبناتهم ، عن الصورة التي يرسمها كاتب غربي استقصى معلوماته ، كلّها أو جلّها ، من مسؤولي هذا الجهاز الحاليين والسابقين ، وجميعهم قتلة لا يخجلون ، وبعضهم يتباهى بأنه يقتل بيديه ويتلذّذ لمرأى ضحيته وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة .

صورة الموساد عندنا هي صورة سيّارة مفخّخة قتلت طفلاً وأباه البطل ،

وصورة السائح الذي يأتي إلى بلادنا فنستقبله على الرحب والسعة ثم يغادر تحت جنح الظلام مخلّفاً وراءه ضحايا منّا ،

وصورة اليهودي الذي لم نَرتَبْ به وهو يسكن في جوارنا ، وكنّا نعتبره واحداً منّا ، ونقدمه مثالاً على أن الصهيونية لم تستقطب كلَّ اليهود وأن ليس كل يهوديّ صهيونياً ، فإذا به يختفي بعد مجزرة كبرى ينفّذها الموساد .

فنحن العدو . نحن "الإرهابيون" و"المخربون" .

نحن "البعبع" الذي يخوّفون به الغرب وأميركا على رأسه ويوهمونهما بأنهم وحدهم يستطيعون أن يردوا عنهما خطرنا ، فيتسلّحون منهما ضدّنا ويتموّنون ، وينصّبون أنفسهم وكيلاً ومستشاراً ، ثم لا يلبثون أن يصادروا قرار المنطقة ، بل لا يلبثون أن يعضّوا اليد التي أطعمتهم وكستهم – هل تذكرون جوناثان بولارد؟

نحن أصحاب الأرض وهم مغتصبوها . نحن أصحاب العنق وهم ذابحوه .

بطلُهم جزّارنا وبطلُنا إرهابيُّهم الذي يقتلونه في زنازينهم أو يصطادونه على الطريق في بلده أو خارجه .

لذلك ، فإن كتاباً عن الموساد يستند إلى سجلاتهم ومروياتهم وتلفيقاتهم وأكاذيبهم لن يرضي توقاً لدى بعضنا للتشفّي ولا ميلاً لدى بعضنا الآخر للاستخفاف بالعدو كجزء من تمرين على تعزيز الثقة بالنفس . بل لا بدّ أن يمجّد مهارات عملائهم وكفاءاتهم العالية وقربهم من صور الشخصيات الخيالية في أفلام التجسّس الغربية .

وما كتبه غوردون طوماس ليس شذوذ القاعدة . فهذا كاتب إيرلندي دعاه الموساد إلى الاطلاع على ما لديه من وثائق ، واستجاب رؤساء الموساد السابقون والحاليون لدعوته إلى استجوابهم ، فوجد في ذلك فرصة نادرة سانحة لكتابة سيرة للموساد لم يكتب قبله أحدٌ ما يضاهيها في أصلية المصادر واتّساع نطاقها . مثل هذه الفرصة لا يفوّتها صحافي مجرّب ومحنّك مثل غوردون طوماس كان في غير حادثة من الحوادث المثيرة التي يرويها شاهدَ عيان .

لكنها تجربة نادرة ومن يخوضها لا بد أن يُفتتن بالغرابة والإثارة وألعاب الخفّة والمهارات المتقنة ، ولا بدّ أن تستهويه أجواء الأحابيل والمؤامرات التي تنتهك الحقوق والقوانين والشرائع والأعراف ، فيغادر أحياناً موقفه الأخلاقي الشاجب للتجاوز ، ولكن لبرهة قصيرة فقط يعود بعدها إلى حالته الطبيعية ، فيدين حيث يجب ويتحفّظ حيث يجب ويحذّر في كل حال من الانهيار الأخلاقي العام . ذلك الانهيار الذي "حرف" الموساد عن غايته المرسومة وهي حماية الكيان الصهيوني المهدّد بوجوده ليصبح عصابات من القتلة يعملون كمرتزقة بتكليف من رؤسائهم أنفسهم .

ولكن ألم يكن هذا الانحراف محتوماً؟

والواقع أن غوردون طوماس يعرف الجواب كما نعرفه نحن الضحايا . فعنده أن الموساد يتبنّى "قانون النفعية اللاأخلاقية غير المكتوب" الذي جعله يضحّي بعميل مثل إسماعيل صوّان الفلسطيني من أجل تحسين العلاقات مع بريطانيا . وهو القانون نفسه الذي جعل الموساد على أعلى المستويات يستجيب لدعوة ملك المغرب لمساعدته على اغتيال زعيم المعارضة المغدور المهدي بن بركة ، وهو القانون نفسه الذي سوّغ للموساد ترتيب عملية خطف الوزير النيجيري السابق عمرو ديكو في منفاه في لندن .

ما حتّم هذا الانحراف هو الدور الذي انتدبت إسرائيل نفسها للقيام به وهو دور

الشرطي في هذا الجزء من العالم ، بل وفي غير جزء من العالم . وكشرطي تعمل إسرائيل وموسادها على درء الخطر عنها أينما كان . وتحت ذريعة مطاردة مصادر الخطر يجوب هذا الشرطي المأفون العالم ويتوهّم أعداءه في كل الناس في استعادة دموية للدونكيخوطية . هكذا أوهم الموساد نفسه أنه سيفيد من وجود عميل له في قلب فندق "ريتز" في باريس حيث ينزل تجّار الأسلحة ومصادر اتصالاتهم في المنطقة العربية ، فسعى لتجنيد ذلك العميل وانتهى به الأمر إلى التآمر على حياة أميرة ويلز دايانا وصديقها الثري المصري دودي الفايد . كذلك أوهم الموساد نفسه بأن مساعدة تركيا في القبض على عبد الله أوج ألان - برغم أن ذلك يهدّد علاقة إسرائيل ببعض الأوساط الكردية في شمال العراق - من شأنها أن تعزّز أمن الكيان الصهيوني .

ولكن كيف يمكن لإسرائيل أن تبرّر إنتاجها فيروساً معدّلاً وراثياً لإبادة غير اليهود فيما لا تزال ماكينة الدعاية الصهيونية تطارد وتحاصر وتتّهم كل من يشكّك بـ"المحرقة النازية" أو بعدد الملايين من اليهود الذين قضوا فيها؟

ولماذا يتغاضى العالم عن نشاطات الموساد التجسّسية الدموية ، فلا تتحفّظ دولة عليها إلا عندما تفشل عمليةٌ ما فشلاً ذريعاً ، وتكون ساحة تلك العملية أراضي الدولة المتكدّرة؟ ولا يطول أمد العلاقات الباردة بين الموساد وبين هذه الدول ، فلا تلبث حكوماتها أن تستعين بالجهاز الإسرائيلي في حروبها الداخلية لقتل المعارضين بدم بارد ، كما في حالة عناصر "الجيش الجمهوري الإيرلندي" في جبل طارق . والأخطر من ذلك أن تعاقب هذه الحكومات حكومةً أخرى لأنها ضبطت جاسوساً للموساد بالجرم المشهود وأنزلت به العقوبة القصوى ، كما حدث في قضية الصحافي الإيراني المنشق فرزاد بازوفت الذي اعترف بجاسوسيته للمحققين العراقيين فأُعدِم ، فقامت قيامة حكومة ثاتشر على حكّام بغداد .

والجواب هو أن الحكومات الغربية تسير على خطى جدعون الشخصية التوراتية التي جعلها رؤساء الموساد المتعاقبون مثلهم الأعلى . إنها الثقافة اليهودية في التصوّر الصهيوني التي اعتُبرت والمسيحية أساسَ الحضارة الغربية ، فكان في ذلك تحريف للحقيقة وافتئات عليها ومسخ للمسيحية الجليلة لا يقترفه إلا مسوخ . وكان في ذلك - وهو الأهم - إنكار ظالم لدور حضارتنا في التأسيس للتمدّن الإنساني . لقد سرقوا تراثنا الحضاري وجرّدونا من ثقافتنا ومن هويتنا القومية ليمهّدوا لاغتصاب أرضنا .

***

غوردون طوماس كاتب صحافي وخامة قصّاص روائي من طراز رفيع . وهو إيرلندي الجنسية ، كاثوليكي الديانة . كتب كتاباً أولاً عن استخدام العلوم الطبيّة في استجواب المعتقلين السجناء ، فكان إدانة لـ"فن" أميركي لم يلبث أن وجد أتباعاً له في أنحاء مختلفة من العالم . وكان كتابه "رحلة داخل الجنون" أول رحلة له في عالم الاستخبارات السري الغامض المليء بالمؤامرات والحوادث الغريبة . وقد لاقى كتابه الذي سيظهر بالعربية قريباً رواجاً كبيراً لكشفه أسراراً أصبحت في ما بعد أخباراً مؤكّدة ، ولأسلوبه الروائي المتميّز بدقة الملاحظة وكثافة التفصيلات .

وحين أدخله زعماء الموساد إلى عالمهم السريّ أبقى غوردون طوماس دفاعاته ثابتة في وجه الهجوم المعلوماتي الذي شنّه هؤلاء ومصادرهم . ولم تضعف مقاومته ، فكان يلجأ إلى أستروفسكي وبنمناشي ، وكلاهما عميلان سابقان غير مرضي عنهما في أوساط الموساد ، للتحقّق من صحة الروايات . وبمقارنة المعلومات على الجانبين كان يصل إلى التصوّر الأقرب إلى الحقيقة .

وتمكّن غوردون طوماس في كتابه عن الموساد أن يكشف أسراراً خطيرة ، فهو من أماط اللثام عن العميل الإسرائيلي الرفيع المستوى في البيت الأبيض وأسمه الرمزي "ميغا" والذي يرجّح الكاتب أن الموساد أعدّ فضيحة مونيكا لوينسكي ليردع الرئيس كلينتون عن البحث عن هويته . وغوردون طوماس في كتابه الجديد هو من كشف عن أن الموساد كان يسجّل مكالمات كلينتون – لوينسكي الهاتفية الجنسية من جانب لوينسكي ، وأن كلينتون تنبّه إلى ذلك وأطلع مونيكا على الأمر . وبرغم إنكار البيت الأبيض للرواية فقد وردت في الشهادة التي أدّتها مونيكا تحت القسم .

وغوردون طوماس هو من كشف أن هنري بول مسؤول الأمن في فندق "ريتز" الباريسي الذي قاد دايانا ودودي الفايد إلى حتفهما وقضى نحبه في حادثة السير نفسها كان هدفاً للموساد ، وأنهم حاولوا تجنيده وضغطوا عليه لقبول مهمة التجسّس بعدما هدّدوه بكشف قبوله الرشى من "الباباراتزي" (المصورين المهرة الذين يلتقطون صوراً للمشاهير) لاطلاعهم على برامج زيارات هؤلاء المشاهير وهو أمر كان سيكلّفه وظيفته لو علم به ربُّ عمله الثري المصري محمد الفايد .

وفي الكتاب الذي بين أيدينا أيضاً يكشف غوردون طوماس تفصيلات جديدة عن

عمالة روبرت ماكسويل الثري اليهودي البريطاني صاحب مجموعة "ميرور" الصحافية السابق للموساد . وهو يكشف للمرة الأولى أن ما سرقه ماكسويل من أموال طائلة من صندوق تقاعد موظفيه ضخّه في حساب مصرفي للموساد ، وعندما طالب باستعادته وهدّد بكشف ما يعرفه تخلّصوا منه فقتلوه بطريقة غامضة لا تزال موضوع تخمينات وتكهّنات . ويكشف الكتاب أيضاً تفصيلات جديدة عن قتل رسام الكاريكاتور الفلسطيني المشهور ناجي العلي في لندن وعن توريط نزار هنداوي في محاولة تفجير طائرة "العال" الإسرائيلية بصديقته الحامل بطفله . وطوماس من الصحافيين الغربيين القلائل الذين أثاروا علامات استفهام حول ما جرى في مطار هيثرو في ذلك اليوم ، فهل كانت المتفجرات حقيقية؟ ذلك مستبعد . إذاً فلماذا حُكم على الهنداوي بالسجن لأطول مدة في تاريخ بريطانيا القضائي الجديد إذا لم تكن صديقته الإيرلندية تحمل متفجرات حقيقية؟

***

وهذه الترجمة ليست للطبعة الأولى من كتاب : (Gideon's Spies - Mossad's Secret Warriors) التي صدرت العام الماضي عن دار مكميلان بل الطبعة الثانية التي تصدر هذا العام . وبين الطبعتين فوارق مهمة .

أولاً : لقد تابع غوردون طوماس تطوّرات التحقيقات في حادثة مقتل الأميرة ديانا ودودي الفايد ، كما تابع تطورات حادث تفجّر طائرة شحن تابعة لشركة "العال" الإسرائيلية في مطار شيبول البلجيكي وتكشّف وجود مواد كيماوية ممنوعة دولياً على الطائرة التي دمّرت حي المطار ونكبت سكانه .

ثانياً : أعاد غوردون طوماس التوازن إلى مصادر معلوماته فاستشهد أكثر بآري بنمناشي المنشق عن الموساد ، كما أضاف إلى مصادره بعض الصحافيين اللبنانيين المقيمين في لندن الذين زوّدوه بمعلومات وتقييمات ساعدته على تصويب بعض الروايات .

وتزيد المادة الجديدة على خمسين صفحة من الكتاب وهي تقدّم قراءة دسمة للقارئ المهتم .

أما مادة الطبعة الأولى فقد أبقيت على حالها ، وفيها من المعلومات ما تحوّل مادة لروايات صحافية مثيرة احتلت الصفحات الأولى لعدد من الصحف الأوروبية والأميركية المعتبرة . لكن الترجمة استغنت عن بعض التفصيلات التي نقلها الكاتب إلى نصّه من

محادثاته مع جواسيس الموساد بدون أن يتنبّه إلى أنها تدمغه بدمغة التحيّز . ولا تعدو هذه حدود التعليقات السطحية ولا تتناول المادة بالذات .

وعلى رغم أن غوردون طوماس لم يضع كتابه وفي ذهنه أنه سيترجم حرفياً لقراء العربية ، فهو أيضاً لم يقصد منه تمجيد الموساد . ولذلك فحين أثرت معه مسألة المفردات والتعابير التي تسلّلت إلى كتابه من الخطاب الإسرائيلي المعادي سارع إلى إعطاء موافقته على معالجة هذه المفردات بالصورة المناسبة اتقاء لإثارة حساسيات قارئنا . وقد فعلت ذلك بقدر ما استطعت ، على أن الكتاب وما فيه من معلومات تبقى عمل غوردون طوماس نفسه ، ولا أدّعي أنني شريك بأي حال ، كما لا أتفق مع الكاتب في ما يزعمه من روايات تتّهم بعض الأطراف في مؤامرات هزّت العالم .

يبقى أخيراً أن هذا الكتاب ثمرة جهد عظيم بذله صحافي غربي أقام في المنطقة العربية ردحاً من الزمن ، وشهد بنفسه ووضع تقارير صحافية عن حوادث ذات شأن وقعت في المنطقة أو لها مساس بأحوالها السياسية والأمنية وغيرها . وهو جهد يحتاج إلى صبر وطول أناة وإلى حذر شديد واطلاع واسع وجرأة في التفكير . وهي صفات يمتلكها غوردون طوماس بلا شك . وهذا ما يجعل مادة الكتاب مشوّقة ومثيرة .

وإذ ننقل هذا الكتاب إلى العربية فنحن لا نتبنّى غرض الكاتب وهو القول بأن الموساد جهاز نشأ لعالم غير هذا العالم ولم تعد ثمة حاجة - مع اقتراب السلام - إلى الإبقاء على الدور الذي يتولاّه . فعندنا أن إسرائيل نفسها كدولة لليهود نشأت لعالم غير هذا العالم ولم تعد ثمة حاجة لبقائها .

د. محمد معتوق

مقدمة الطبعة العربية

بقلم المؤلف

هذا الكتاب نشر في أنحاء العالم ولكنني لم أُسعد كما سعدت لظهوره في اللغة العربية ، لأنه يتيح لشعب أكنّ له الإعجاب ليرى بنفسه مكائد إسرائيل وجهاز أمنها السرّي ، الموساد .

تربطني بالعالم العربي علاقة عاطفية عاشت معي طوال حياتي . كنت طفلاً عام 1939 عندما أُرسلت إلى ثانوية القاهرة للصبيان حيث تعلّمت أول ما تعلمته من الكلمات العربية ، ويؤسفني أنها امّحت من ذاكرتي . كان والدي في القوة الجوية الملكية البريطانية المتمركزة في قناة السويس . وقد عدّت إلى المنطقة في ما بعد كمراسل صحافي لدى اندلاع النزاع على السويس عام 1956 . وبعدها غطّيت مختلف النزاعات الأخرى مع إسرائيل وأزمة احتجاز الرهائن في لبنان والحرب العراقية – الإيرانية وتسلُّم العقيد القذّافي مقاليد الحكم في ليبيا والاضطرابات الداخلية في أجزاء أخرى من شمال أفريقيا .

لكن كلّ أعمال العنف لم تنسني جمال الأرض العربية ، ولم تقلّل إعجابي بالشعوب العربية . وصرت مقتنعاً بأن السلام يجب أن يأخذ فرصته وأن دعاة العنف والتطرّف سيفقدون نفوذهم ولو ببطء .

وفيما أكتب هذه الكلمات اليوم ، أشعر حقاً بأن قطار السلام قد وُضع على السكة وأن من يودّون لو ينحرف هذا القطار عن مساره يقفون متوحّدين في المحطة . وآمل ألا يجدوا في سبيلهم إلا الظلمة ونسيان ذكرهم .

وإذا لم يكن من فائدة من هذا الكتاب سوى تقريب موعد رحيلهم النهائي يكن قد

أدى الغرض منه ، بل وأكثر . إن هذا الكتاب يقدّم نظرة داخلية خاصة إلى كيفية ولادة عملية السلام وذلك بتسليط الضوء الساطع على التاريخ المظلم ، لإحدى أشدّ أسلحة إسرائيل الفتّاكة ، عنيت الموساد .

أن معظم من كتبوا عن الموساد هم صحافيون وكتّاب لم يحتكوا مباشرة بالمصادر الرئيسية ، وأعني أولئك الرجال الذين أسهموا في وضع سياسات إسرائيل وكذلك سياسات العالم العربي .

خلال حوالي سنتين ونصف السنة تمتّعت بحرية لم تعطَ لأحد للوصول إلى جميع مستويات الموساد . في الأول تساءلت لماذا ترغب أكثر وكالات التجسّس سرّية أن تكشف أوراقها؟ في تلك اللحظات انتابني الشعور ذاته الذي ينتاب عالِم البراكين وهو يقف على حافة صخرة ينبعث منها الدخان ويدقّق النظر في ما ينطوي تحت طَبقات الدخان واللهب .

ثم جاء يوم كنت أتمشّى في صحراء النقب مع مئير عميت الذي كان أعتى المديرين العامين للموساد ، قال لي : "لقد سئمنا من الكلام الفارغ الذي كتب عنا مرّات عديدة . ولا نريد منك إلا أن تروي كيف كانت الأحوال – وكيف أصبحت عليه" .

وكان هذا الكتاب الذي استغرق وضعه مدة سنتين ونصف السنة كنت خلالها اعتصم دائماً بمقدار لائق من الشك .

ولم أُرد من هذا الكتاب أن يكون كتاباً سياسياً صريحاً ، على أنني آمل أن يؤكد أموراً لا تزال حتى الآن مجرّد تخمينات وتتعلّق بسبل استخدام سياسيي إسرائيل لأجهزتهم الأمنية .

وبوسعي الزعم أنني علمت بنشاطات الموساد خلال معظم سنيّ حياتي العملية . فقد التقيت بعملائه خلال أزمة السويس عام 1956 عندما كنت مراسلاً أثناء تلك الحرب أغطّي أخبارها من الجانب المصري تارةً ومن وراء الخطوط الإسرائيلية طوراً . يومها اطّلعت على أمر لم يغب عن مخيلتي منذ ذلك الوقت . فلا العرب على علم بما جرى لليهود في أوروبا خلال حكم هتلر ولا الإسرائيليون قادرون حقاً على التفكير بالتعاطف مع المعاناة العربية . ومن هنا عبرت إلى السؤال الآخر : لماذا لا يستطيع شعبان ودودان وموهوبان كالإسرائيليين والعرب أن يجدوا سبيلاً إلى حل خلافاتهما العميقة؟

بعد ذلك بسنوات عدة خلصت إلى أن أحد هذه الأسباب هو سلوك الموساد . لقد

أعطى هذا السلوك إحساساً لإسرائيل بالتفوّق الساحق ، وأحياناً كثيرة غروراً غالباً ما تماهى مع أنماط التفكير البالية . وولّد الموساد كرهاً عميقاً في العقل العربي للدور الخطير والمبهم الذي لعبه في حياتهم على مدى خمسين عاماً .

وكما سيتّضح من قراءة هذا الكتاب فليس ثمة جهاز أمن شبيه بالموساد . فعناصره يزعمون أن ما قاموا به ولا يزالون يقومون به قد دفع بعملية السلام في الشرق الأوسط ، بالفعل ، إلى حيث هي الآن ، وصرنا نتبيّن فيها علامات الديمومة .

لكن هناك جهات أخرى داخل إسرائيل وخارجها تغالط بشدّة مثل هذا الزعم .

وأدّى هذا الاختلاف في وجهات النظر إلى تشديد الحاجة إلى الموازنة بين الموقفين إذا كان لهذا الكتاب أن يلاقي احتراماً لدى القرّاء العرب . ومن البيّن أن هذا الكتاب ليس سيرة تقديسية للموساد ولم أرغب بأن يكون كذلك . وعندما انكببت على تأليف هذا الكتاب كنت قد عرفت عن نشاطات الموساد ما يكفي لتبيّن الحاجة إلى اتباع توجيه مثير عميت فأروي "كيف كانت الأحوال – وكيف أصبحت عليه" .

وكان من حسن حظّي أن ترجمة هذا الكتاب قد تولّته دار بيسان التي يفخر أي كاتب لصدور عمله تحت شعارها . وقد اطمأنيت إلى أن الترجمة المجازة أبدت حرصاً عظيماً على مراعاة حساسية العالم العربي وأريد أن أسجل شكري لذلك .

وأختم بدعوتكم إلى تقليب صفحات هذا الكتاب والتعرّف ربما للمرة الأولى إلى عالم شديد القرب منكم ومع ذلك فقد بقي حتى الآن مغلّفاً بالسرية والغموض .

غوردون طوماس

إيرلندا

آب (أغسطس) 1999

شكر وتقدير

إلى مئير عميت ، ياكوف كوهين ، أليكس دورون ، ران إيديليست ، رافائيل إيتان ، إيسر هاريل ، ديفيد كيمحي ، آرييل ميراري ، روفن مرحاف ، داني ناجير ، يوئيل بن بورات ، أوري ساغي ، زفي سبيلمان ، باري تشاميس وغيرهم ممن لا يزالون في الخدمة ولا تجوز تسميتهم .

وكذلك إلى : محمد الفايد ، شون كاربري ، سبستيان كودي ، كارولين ديمبسي ، أرت دووركن ، هيذر فلورنس ، بيير-أريك هورثورن ، ديانا جونسون ، أماندا هاريس ، ايميري كابونغو ، اوتو كورميك ، زهير قصيباتي ، مارتن لتماير ، جون ماغي ، جون ماكنمارا ، لاوري ماير ، مادلين موريل ، سمير سعداوي ، سوزانا طربوش ، مايكل طوق ، ريتشارد طوملينسون ، راسل وارن-هاو ، ستيوارت وينتر ، كاثرين ويتّكر ، فكلٌ منهم ساعدني على طريقته الخاصة .

وأخيراً وليس آخراً :

وليام بكلي ووليام كيسي ويواكيم كرينر الذين أوحوا لي بفكرة الكتاب ،

وبالطبع أديث

وطوم بيرك محرّر الكتاب الذي أدين له بالكثير .

المؤلف

الفصل الأول

خلف المرآة

أضاء اللون الأحمر على الهاتف المجاور للسرير في الشقة الباريسية القائمة قرب مركز بومبيدو في الدائرة الرابعة التي تدبّ بالنشاط ، فدار جهاز تسجيل أوتوماتيكي متطور . كان خبير إسرائيلي بتقنية المواصلات أتى جواً من تل أبيب هو من ركّب المسجل ومدّ شريط الضوء ، وذلك حتى لا يثير شكوك الجيران ، إذا ما رن جرس الهاتف في الشقة في أوقات غير مستحبّة . كان الخبير التقني عضواً في وحدة الموساد المكلفة وضع تجهيزات آمنة في البيوت السرية التي تستخدمها وكالة الاستخبارات الإسرائيلية .

ولا تختلف شقة باريس عن غيرها من شقق الموساد . فهي مزوّدة بباب أمامي مضاد للقنابل وزجاج نافذة مثل زجاج النوافذ في البيت الأبيض يحرف أدوات الفحص الدقيق . وثمة عشرات الشقق المماثلة في مدن العالم الرئيسية التي يملكها جهاز الاستخبارات أو يستأجرها لمدد طويلة .

وكان عدد كبير منها غير مشغول لفترات طويلة بانتظار أن تدعو الحاجة لاستخدامها في إحدى العمليات . وإحدى هذه العمليات أُديرت من شقة باريس منذ حزيران (يونيو) 1997 لدى وصول السيد موريس الذي يتكلم الفرنسية بطلاقة وبلكنة سكان وسط أوروبا . وعلى امتداد السنوات السابقة قابل جيرانه عدداً من أمثاله : رجالاً وأحياناً نسوة يصلون بلا سابق إنذار ويمضون أسابيع أو أشهراً إلى جانبهم ثم يرحلون فجأة . وكما فعل أسلافه أحبط موريس بأدب جمّ اهتمام الجيران به أو بعمله .

كان موريس عميلاً ميدانياً للموساد . من الناحية الجسدية ، كان شخصاً يصعب

وصفه . وقيل انه حتى لو سار في شارع خاوٍ فلا يكاد يتنبّه إلى وجوده أحد .

جرى تجنيده في "العصر الذهبي" للموساد عندما كانت شهرة الجهاز ملء الأسماع . وقد لوحظت قدراته خلال الخدمة العسكرية الإلزامية في إسرائيل عندما أنهى فترة التدريب مع مجندي الأسطول البحري وتجنّد في استخبارات القوات الجوية . ولوحظت لديه قابلية لتعلّم اللغات (كان يتقن الفرنسية والإنكليزية والألمانية) ، بالإضافة إلى ميزات أخرى ، منها إجادته ملء الفراغ في الحالات الدراسية واستخراج الحقائق من التكهّنات ، وكان يعرف حدود الافتراض المبني على حسن الاطلاع . ولكنه قبل كل شيء كان يحسن بصورة طبيعية التأثير بالناس ، فكان يحث ويداهن فإذا لم يفلح لجأ إلى التهديد .

منذ تخرّج موريس من معهد التدريب التابع للموساد عام 1982 عمل في أوروبا وجنوب أفريقيا والشرق الأقصى . وفي مرات مختلفة كان يزاول نشاطه متخفياً كرجل أعمال أو كاتب رحلات أو بائع . وقد استخدم عدداً من الأسماء والسِيَر التي عثر عليها في مكتبة الأسماء المستعارة التي يحتفظ بها الموساد . وهو الآن موريس ومرة أخرى يظهر كرجل أعمال .

كانت تبلغ أسماعه ، خلال عمله لفترات مختلفة في الخارج ، أخبار التطهيرات في "المعهد" وهو الاسم الذي يطلقه الموظفون على الموساد : شائعات مزعجة عن حياة عملية انتهت بالخزي أو بالدمار ، وبتغييرات على مستوى القمة ، وكيف أن كل مدير جديد للموساد يضع قائمة أولوياته الخاصة . لكن كل هذه التدابير لم تستطع وقف انهيار المعنويات في الجهاز . وقد زادت حدة التدهور مع وصول بنيامين نتنياهو ، أصغر رئيس وزراء إسرائيلي إلى الحكم . وإذ كان ذا خلفية استخبارية معروفة ، كان يفترض أن يعرف كيف تدار الأمور وراء الستار ومتى يصغي وإلى أي حد يمضي . ولكنه بدلاً من ذلك ، ومنذ البداية ، أدهش نتنياهو ضباط الاستخبارات المتمرّسين باشتغاله بالتفاصيل العملياتية كهاوٍ .

في بادئ الأمر قيل أن ذلك ليس سوى حماسة زائدة ، فها أن مكنسة جديدة تريد أن تقول إنها ستبحث في كل خزانة حتى تطمئن إلى عدم وجود أسرار خافية عليها . لكن الأمور بلغت حد الخطر عندما لم يقتصر التدخل على رئيس الوزراء بل شمل أيضاً زوجته سارة التي أرادت أن تتعرّف إلى عالم الاستخبارات السرّي في إسرائيل . وقد دعت عدداً من كبار ضباط الموساد إلى منزلها لتطرح عليهم عدداً من الأسئلة زاعمة أنها تحذو حذو

هيلاري كلينتون التي أظهرت اهتماماً بعالم وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية (سي . آي . أي) .

وتردّدت في ممرات المقر الرئيسي للموساد في تل أبيب أصداء الهمسات المرتاعة عن مطالبة سارة نتنياهو بالاطلاع على التقييم النفسي لقادة العالم التي كانت وزوجها تعتزم استضافتهم أو زيارتهم . وقد طلبت على وجه الخصوص تفاصيل عن نشاطات الرئيس بيل كلينتون الجنسية . كما طلبت مراجعة الملفات الخاصة بالسفراء الإسرائيليين الذين ستحل عليهم ضيفةً خلال زياراتها الخارجية ، معربة عن اهتمامها بنظافة المطابخ في تلك البيوت ووتيرة تغيير أغطية الأسرّة في أجنحة الضيوف .

وقد أوضح ضباط الموساد الذين أدهشتهم طلبات زوجة رئيس الوزراء إن الحصول على مثل هذه المعلومات ليس في نطاق مهمة جمع المعلومات السرية .

وأقصي عدد من المخضرمين عن العمليات الرئيسية في جهاز الاستخبارات وتسلّموا مسؤوليات في عمليات صغرى لم تكن تتطلّب منهم أكثر من إعداد التقارير التي لم يكن أحد يقرأها . وإذ تحقق هؤلاء من جمود حياتهم المهنية استقالوا أو تبعثروا في طول البلاد يشغلون أنفسهم بالقراءة وخصوصاً في كتب التاريخ فيما كانوا يحاولون اقناع أنفسهم بأنهم أبناء الأمس .

كل هذا جعل موريس يشعر بالسعادة لكونه خارج تل أبيب وفي قلب الميدان .

وقد وفّرت العملية التي جاء من أجلها إلى باريس فرصةً ليظهر فيها أنه عميل منهجي ويقظ وكفوء . في هذه القضية كان العمل سهلاً نسبياً ، فلم يكن هناك خطرٌ حقيقي يتهدّده باستثناء الإحراج الذي سيصيبه إذا اكتشفت السلطات الفرنسية ما يقوم به ورحّلته بهدوء . كان السفير الإسرائيلي يعرف أن موريس في باريس ألا انه لم يُخطر بمهمته . هكذا جرت العادة . . فإذا انفضح الأمر أمكن للسفير أن يدّعي الجهل .

كانت مهمة موريس تجنيد أحد المخبرين . وكان هذا الأسلوب يعرف بلغة الموساد السرية بـ"المقاربة الباردة" ، أي شراء ذمة أحد الأجانب . وقد بذل موريس جهداً صبوراً استغرق شهرين وبات يعتقد أنه الآن يقترب من النجاح .

كان هدفه هو هنري بول ، مساعد مدير فندق "ريتز" في المدينة والذي كان يقوم بدور السائق لكبار الزوّار .

أحد هؤلاء الشخصيات البارزة جوناثان أيتكن ، الوزير في حكومة المحافظين البريطانية الأخيرة . وقد كُلّف مسؤولية تنسيق مبيعات الأسلحة فتجمّعت لديه مجموعة كبيرة من العقود مع تجار الأسلحة في الشرق الأوسط . وأدى ذلك إلى نشر تقارير بالغة الإساءة عبر برنامج التحقيقات التلفزيونية "وورلد إن أكشن" وصحيفة "الغارديان" تتحدث عن علاقات أيتكن بأشخاص لا يؤلَف وجودهم بصحبة الوزراء ، فلجأ أيتكن إلى القضاء طالباً حمايته وإنصافه من القدح والذم . وبقيت القضية معلّقة على هوية الشخص الذي دفع فاتورة حساب الفندق بالنيابة عن أيتكن عندما أقام في "الريتز" وقابل فيه عدداً من المسؤولين العرب . وقد أقسم أيتكن أمام المحكمة بأن زوجته هي من سدّد الحساب .

وعمد الموساد عبر فريق ثالث إلى إبلاغ المحققين العاملين إلى جانب الجهة المدعى عليها ، (سراً) أن زوجة ايتكن لم تكن في باريس في ذلك الوقت . فانهارت الدعوى . وهكذا تمكن الموساد الذي طالما رأى في نشاطات أيتكن تهديداً لأمن إسرائيل من القضاء عليه .

عام 1999 وبعد محاكمة جنائية مطوّلة جرت في لندن دين أيتكن بجرم الحنث باليمين وحكم عليه بالسجن بعدما هجرته امرأته . وبات هذا الرجل الذي رتع في السلطة لسنوات عدة يواجه مستقبلاً كئيباً .

أحد الذين ابدوا تفهمهم المستغرب ، وهو أمر يختلف عن التعاطف ، هو آري بنمناشي (انظر الفصل الثامن وبعده) . فقد سبق له أن اختبر مصاعب سجن نيويورك بعدما لحق به العار عندما كان منسّق الاستخبارات في عهد رئيس الوزراء اسحق شامير . كان هذا المنصب قد أتاح لبنمناشي الاطلاع على صورة داخلية نادرة لعمل الموساد وغيره من أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية . وبرأيه فأن أيتكن "خذله اعتقاده بأنه يستطيع أن يبزّ الآخرين بذكائه . وقد نجح في ذلك لسنوات لكنه أخطأ إذ استخفّ بالموساد . فهؤلاء لا تأخذهم بأحدٍ رحمة" .

وعلى عكس جوناثان أيتكن الذي لا ينتظره مستقبل عظيم بعد خروجه من السجن ، تمكّن بنمناشي من التعافي من أزمته بصورة مؤثّرة . وبحلول عام 1999 صار يمتلك شركة راسخة في ميدان جمع المعلومات السرّية مقرها مونتريال في كندا ، وفي عداد زبائنها عددٌ كبير من البلدان الأفريقية بالإضافة إلى بلدان أوروبية . وتسعى الشركات المتعددة الجنسيات إلى شراء خدماته بعدما تأكّد لها أن بنمناشي يحرص على كتمان هوياتها .

وفي عداد موظفي بنمناشي ضباط سابقون في أجهزة الاستخبارات الكندية وغيرهم ممن سبق لهم العمل في خدمة منظمات إسرائيلية وأوروبية مشابهة . وتقدّم الشركة تشكيلة واسعة من الخدمات الاقتصادية والصناعية والحمائية . فالموظفون متمرّسون في عالم تجار الأسلحة ويفهمون جيداً قواعد التفاوض مع الخاطفين . ولا تخلو مدينة في العالم من مصدر معلومات لهم ، وهي مصادر غذّى بنمناشي عدداً كبيراً منها منذ إشغاله منصبه الخطير في عالم الاستخبارات الإسرائيلية . ويستمر هو ومساعده في الاطلاع على المتغيّرات في ميدان التحالفات السياسية المتقلّبة وغالباً ما تمكّنوا من توقّع سقوط حكومات في العالم الثالث ومعرفة من سيحلّ محلها . وقد انشأ بنمناشي شركته الصغيرة على نموذج الموساد . وهو يبدي سعادته إذ يعترف بأنهم يتحركون "كاللصوص في الظلام . فهذه هي الطريقة الصحيحة في نوع عملنا" . والمردود مجزٍ .

وقد وجد بنمناشي ، الذي اصبح يحمل الجنسية الكندية ، نفسه مرة أخرى في خدمة "أمراء وملوك هذا العالم... المشهورين وأولئك الذين يستخدمون ثرواتهم لاستئجار حماية أفضل . وعندهم أن المعرفة قوة ومن صلب عملي تقديم تلك المعلومات الضرورية" .

وبنمناشي ضيف مفضّل في فندق "سافوي" في لندن . أما في باريس ففندق "ريتز" يستقبله بالاحترام .

ولم يلبث بنمناشي أن اكتشف أن الفندق لا يزال ملتقى سماسرة الأسلحة في الشرق الأوسط ومصادر معلوماتهم الأوروبيين . وقد أثار المسألة مع زملائه في الموساد ، فعرف منهم مدى أهمية الفندق في استراتيجية الموساد العامة . وإذ كان بنمناشي بالفطرة جامع معلومات وهو يقول "من زمان بعيد ، تعلمت أن ما من شيء أسمعه يذهب سدى" ، فقد قرر أن يراقب تطوّر الأمور . وكان هذا القرار ما سيجعله على علاقة مباشرة في ما بعد بمصير ديانا أميرة ويلز وعشيقها دودي الفايد الابن المستهتر لصاحب فندق "ريتز" العظيم الثروة محمد الفايد .

وقرّر الموساد أن يجنّد مخبراً في فندق "الريتز" يستطيع أن يرفع التقارير عن تلك النشاطات . وقد بادر بادئ ذي بدء إلى الحصول على قائمة بأسماء موظفي الفندق ، وتم ذلك عن طريق عمل قرصنة أدخله إلى نظام الحاسوب في الفندق . ولم يرَ ضالته في أي من كبار موظفي الإدارة في الفندق ، كذلك فإن صغار الموظفين لا يملكون صلاحيات تقربهم

من نشاطات النزلاء كما تستدعي المهمة . لكن مسؤولية هنري بول عن الأمن تيسّر له الدخول إلى أي مكان في "الريتز" . وكان مفتاحه قادراً على فتح خزنة أي نزيل . ولم يكن طلب الحصول على نسخة عن فاتورة حساب الفندق لأي شخص يثير التساؤل ، كما لا يثير الشك طلبه أن يرى سجل المكالمات الهاتفية في الفندق والذي يطّلع منه على تفاصيل الاتصالات التي يجريها تجّار الأسلحة ومصادر معلوماتهم . وكان بمقدوره أن يعلم من من النساء جنّدها أحد تجّار السلاح للاتصال بأحد مصادر المعلومات . ولما كان سائقاً لسيارات كبار الزوار فانه كان يستطيع أن يتنصت على محادثاتهم ، ويشاهد عيانياً تصرفاتهم ، ويعرف أين ذهبوا وبمن التقوا .

وكانت الخطوة التالية رسم صورة عن الحالة النفسية لبول . وعلى مدى عدة أسابيع عثر أحد ضباط الموساد المقيمين في باريس على معلومات عن أحواله ، مستخدماً بذلك عدداً من الشخصيات المنتحلة كشخصية موظف في شركة تأمين وشخصية مسؤول مبيعات في شركة هاتف . وتبين لضابط الموساد أن بول عازب ولا يرتبط بعلاقة نسوية ثابتة ، وانه يعيش في شقة زهيدة الإيجار ويقود سيارة "ميني" سوداء اللون ، لكنه يعشق السيارات السريعة ويهوى التسابق بدراجة نارية لا يملكها وحده . وكان موظفو الفندق قد تحدّثوا عن حبّه لتناول الكحول . وترددت تلميحات بين الحين والآخر عن أنه يزور عاهرة تتلقى أجراً عالياً عن خدماتها التي توزّعها بينه وبين بعض نزلاء الفندق .

وتولّى أحد العلماء النفسيين في الموساد تقييم هذه المعلومات ، فخلص إلى أن في هنري بول نقطة ضعف متأصّلة ، وأوصى بأن أفضل طريقة لتجنيده هي زيادة الضغط المطّردة عليه وتلازم ذلك مع وعد بمكافأة مالية ضخمة لتسديد نفقات حياة بول الاجتماعية . وقد تستغرق العملية وقتاً طويلاً وتتطلب صبراً ومهارة عظيمين . واتُّفق على إرسال موريس إلى باريس بدلاً من الاستمرار بالاستعانة بضابط الموساد المقيم .

وكما في عمليات مماثلة للموساد ، اتبع موريس إرشادات مجرّبة ، أولها القيام بعدد من الزيارات للتآلف مع فندق "الريتز" وجواره . وسرعان ما تعرف على هنري بول نفسه : رجل قوي العضلات في مشيته نوع من الخيلاء ، وهو لا يخفي عدم اهتمامه بكسب استحسان أحد من الناس .

ولاحظ موريس وجود علاقة غريبة بين بول و"البابارازي" الذين يرابطون أمام "الريتز" ،

وهم متأهبون لالتقاط صور خاطفة للضيوف المشهورين والأغنياء الذين تتحدث عنهم وسائل الإعلام . وبين الحين والآخر كان بول يأمر المصورين بالمغادرة ، فيذعنون في العادة ويروحون يدورون على دراجاتهم النارية حول صف البيوت الملتصقة بالفندق قبل أن يقفلوا عائدين . خلال هذه الرحلات القصيرة كان بول يخرج أحياناً من مدخل موظفي الفندق ويمازح "الباباراتزي" العابرين .

ولاحظ موريس إن بول كان يؤم ليلاً إحدى الحانات القريبة من "الريتز" كما يفعل موظفون آخرون بعد انتهاء عملهم ، وكان يتناول الشراب مع عدد من "الباباراتزي" .

وفي التقارير التي كتبها موريس إلى تل أبيب عن مبلغ التقدّم في العملية كان يصف قدرة بول على تجرّع كميات هائلة من الكحول من دون أن تبدو عليه علائم السكر . وأكد موريس أيضاً أن صلاح بول لدور المخبر يعفي من التوقف عند عاداته الشخصية : فقد بدا أن نفوذه يوصله إلى المعلومات وأنه يتمتع بثقة عالية .

واكتشف موريس في مرحلة من مراحل رصده الخفيّ كيف يخون بول هذه الثقة . فكان يتقاضى المال من "الباباراتزي" عن تزويدهم بالتفاصيل المتوافرة عن تحركات النزلاء حتى يتمكنوا من اختطاف صور الشخصيات الشهيرة .

وكانت عملية مقايضة المعلومات بالمال تجري إما في إحدى الحانات أو في شارع "كامبون" الضيق حيث يقوم مدخل موظفي "الريتز" .

وبحلول منتصف آب (أغسطس) تركزت المقايضة على زيارة ديانا ، أميرة ويلز ، المتوقعة إلى "الريتز" بصحبة عشيقها الجديد دودي الفايد نجل صاحب الفندق ، حيث ستقيم ودودي في الجناح الملكي الخرافي .

وكان جميع موظفي "الريتز" قد تلقّوا تعليمات مشدّدة بعدم الإفضاء بأي معلومات تفصيلية عن وصول ديانا تحت طائلة الطرد الفوري . وعلى رغم ذلك تابع بول المخاطرة بوظيفته وتزويد عدد من "الباباراتزي" بتفاصيل عن الزيارة المرتقبة . وقد تلقّى من كل من هؤلاء المصورين مبالغَ من المال .

ورأى موريس أن بول قد بدأ أيضاً يبالغ بالشرب وسمع موظفي "الريتز" يشكون من أن مساعد رئيس الأمن أصبح أشبه ما يكون بالضابط المتشدد في تطبيق النظام . فقد طرد إحدى الخادمات عندما ضبطها تسرق لوحاً من الصابون من غرفة أحد النزلاء . وقال عدد

من موظفي الفندق أن بول كان يتناول العقاقير الطبية ، وتساءلوا عما إذا كان يتناولها للسيطرة على سورات غضبه . واتفق الجميع على ان بول أصبح غريب الأطوار : فمرةً يبدو في مزاج لطيف وفي اللحظة التالية يظهر اهتياجاً عظيماً إزاء إهمال موهوم . عندها قرر موريس أن الوقت قد حان للتحرّك .

كان الاتصال الأول في حانة "هاريز بار" في شارع "دونو" . عندما دخل بول كان موريس يتناول كأساً من الكوكتيل . فتح ضابط الموساد الحديث بسلاسة وقَبِل رجل الأمن دعوته لتناول كأس من الشراب بعدما ذكر موريس أن بعض أصدقائه يقيمونَ في "الريتز" . وقال موريس إن أصدقاءه دهشوا إزاء ضخامة عدد النزلاء من العرب الأثرياء .

كانت رميةً من غير رامٍ ، أحدثت نتيجة مدهشة . فقد ردّ بول بالقول إن عدداً من العرب جلفاء ومغرورون ويتوقعون منه أن يكون رهن بنانهم . والأسوأ إطلاقاً هم السعوديون . فذكر موريس انه سمع أن النزلاء اليهود لا يقلّون غلظة . لكن بول لم يوافقه الرأي ، وأصرّ على القول بان اليهود كانوا نزلاء ممتازين .

بعد هذه الملاحظة الواعدة انتهت السهرة بتوافق على اللقاء ثانية في غضون أيام قليلة لتناول العشاء في مطعم يقع بالقرب من "الريتز" . وخلال العشاء أكدّ بول ، رداً على أسئلة احسن موريس توقيت توجيهها ، صحة كثير مما كان ضابط الموساد يعرفه . تحدّث مسؤول الأمن في الفندق عن شغفه بالسيارات السريعة وحبه لقيادة طائرة صغيرة . لكن ممارسة هذه الهوايات لشخصٍ يتقاضى مثل راتبه أمرٌ صعب .

ولعلّ هذه كانت اللحظة التي بدأ فيها موريس يمارس ضغوطه . فالعثور على المال الكافي للإنفاق على مثل هذه الهوايات مشكلة فعلاً لكنها ليست مستعصية على الحلّ . وكما كان متوقّعاً فان هذا الكلام أثار اهتمام بول .

أعقب ذلك تطوّر تناغم خاص : لقد ألقى موريس الطعم وأظهر بول حماسةً عظيمةً لالتقاطه . وإذ علقت الصنارة كان على موريس أن يسحب السمكة بما اكتسب من مهارات في معهد التدريب في الموساد .

ففي لحظة ما ، بثّ موريس فكرة إمكان مساعدته ، ولعله ذكر انه يعمل في شركة تبحث دائماً عن سبل تطوير معلوماتها ، وهي مستعدة للدفع بسخاء لمن يمكّنها من ذلك . هذه كانت أحدى النقلات الافتتاحية المفضّلة لدى ضباط الموساد الذين يقومون بعمليات

التجنيد المسماة "المقاربة الباردة" . بعد هذا يصبح من السهل إبلاغ بول أن لدى عدد من نزلاء "الريتز" ولا شك نوعاً من المعلومات التي تهمّ الشركة .

وربما أحجم بول فجأة لشعوره بالضيق من تطوّر سير الحديث . عندئذ ينتقل موريس إلى المرحلة التالية فيقول انه يفهم تحفظّات بول لكنه فوجئ بها . فالجميع يعرف أن بول تلقّى المال عن معلومات زوّد بها "البابارازتي" . فلماذا يرفض فرصة سنحت للحصول على مبلغ كبير من المال؟

ويستعيد بنمناشي الحادث في ذاكرته فيقول أن العملية تطوّرت عند هذا الحد وفقاً للقواعد الكلاسيكية . "استناداً إلى معلوماتي الشخصية ليس هناك أفضل من موريس (أسمه لهذه العملية بالذات) لمثل هذا الأمر . إن إدارة عملية مقاربة باردة تتطلب دقّة عالية . فزيادة السرعة قد تفسد عملية الصيد وإطالة الوقت قد تولّد الشك والخوف . إن تجنيد العملاء فنٌ قائم بنفسه والتعامل مع أوروبي مثل هنري بول مختلف تماماً عن التعاطي مع عربي من الضفة الغربية أو قطاع غزة" .

ولعل براعة موريس الأكيدة في تقديم اقتراحه والمعلومات المثيرة التي ارفقه بها عن مبلغ معرفته بأحوال بول استُخدمت جميعاً بنوع من التفهّم الناضج المتمازج بالإقناع مع بعض الضغط اللازم الخفي . ولا بد انه كان لهذا تأثيره على بول .

ولعله عرف ، حتى لو لم يسأل ، أن الرجل الجالس قبالته على مائدة العشاء ضابط استخبارات أو على الأقل مسؤول التجنيد في جهاز استخبارات .

ولعل هذا كان وراء رد فعله . ويقول مصدر في الاستخبارات الإسرائيلية ملمٌّ بمقدار ما بالمسألة : "كان هنري بول صريحاً ومباشراً . هل يعرض عليه أن يتجسس؟ إذا كان هذا فما هي الصفقة؟ هكذا ببساطة . لا تردّد ولا كلام فارغ . فقط ما هي الصفقة – ولمن سوف يعمل؟ وعندها قد يكون على موريس أن يقرّر . فهل أخبر بول انه سيعمل لدى الموساد؟ ليست هناك سلسلة إجراءات عملانية ثابتة لمثل هذا الأمر . لكل هدف خاصيته . لكن هنري بول وقع في المصيدة" .

وإذا صحّ هذا الافتراض فربما يكون موريس قد اطلع بول على المطلوب منه ، أي الحصول على معلومات عن النزلاء ، وربما حتى تثبيت أجهزة تنصّت في شققهم ومعرفة الأشخاص الذين يستقبلونهم فيها . وربما جرت محادثات في شأن الدفع ، تخلّلها عرض بفتح حساب

في مصرف سويسري أو دفع مبالغ نقدية لبول إذا اقتضى الأمر . وربما يكون موريس قد أوحى بأن مثل هذه القضايا ليست ذات بال . وربما كشف عند هذا الحد لبول انه سيعمل في خدمة الموساد . كل هذه الأمور نموذجية للنجاح في عمليات "المقاربة الباردة" .

ومن المرجح جداً أن يكون بول قد ذعر لسماع ما يُطلب منه . فليس الأمر متعلقاً بإخلاصه لفندق "الريتز" . فهو كغيره من المواطنين أغراه للعمل في الفندق ارتفاع أجره النسبي والفوائد المعنوية . ولعل بول ذُعر وهو يظن انه قد وقع في ورطة ، وربما اقتيد إلى السجن إذا ضبط وهو يتجسّس على نزلاء الفندق .

ومع ذلك فلو أنه ذهب إلى الشرطة فماذا كانوا سيفعلون؟ قد تكون الشرطة على علم بأنه سيتلقّى عروضاً للتعاون . وما دام أنه قد رفض العرض فممَّ الخوف؟ ولو بلغ علم إدارة الفندق بأنه قد خان أثمن ممتلكات "الريتز" طراً - السرية - بإفشاء المعلومات إلى "البابارازي" فقد يطرد من وظيفته وربما لاحقوه قضائياً .

وشعر هنري بول في تلك الأيام الأخيرة من آب (أغسطس) 1997 بأنه وقع في ورطة . تابع تناول الشراب وتناول العقاقير والغطّ في نوم متقطع ، واضطهاد الموظفين دونه . كان رجلاً يتأرجح على شفا الهاوية .

واستمر موريس في ممارسة الضغوط . وغالباً ما ارتاد الحانة في الوقت الذي كان بول هناك يتناول الشراب بعد انتهاء العمل . ولم يكن مجرّد حضور الضابط إلا تذكيراً آخر لمسؤول الأمن بما يراد منه . واستمر موريس في ارتياد "الريتز" حيث يحتسي على مهل شراباً مقبّلاً للشهية في إحدى حانات الفندق أو يتناول طعام الغداء في مطعمه أو القهوة في فترة ما بعد الظهر في صالة الزوار . وبدا لهنري بول وكأن موريس اصبح ظلّه الذي لا يفارقه . ولعل ذلك زاد من شدة الضغوط عليه وذكّره بأن لا مفر أمامه .

وزاد الطين بلّة الزيارة المرتقبة للأميرة ديانا ودودي الفايد . فقد انتُدب بول للسهر على أمنهما خلال إقامتهما في الفندق وتولّي المسؤولية في إبعاد "البابارازي" عن طريقهما . في تلك الأثناء ، كان المصورون يتّصلون به على هاتفه الخلوي سعياً وراء المعلومات عن الزيارة ، وكانت تُعرض عليه أموال ضخمة ليجود بالتفاصيل . وكان بول يواجه ضغط العروض المغرية ، فكان محاصراً من كل جانب وحيثما أدار وجهه طالعته الضغوط .

كان هنري بول في طور الانحلال العقلي وذلك على رغم نجاحه في إخفاء حالته . كان

يتناول حبوباً لمكافحة الاكتئاب وحبوباً منوِّمة وحبوباً منشّطة للقيام بأود مهامه خلال اليوم . هذا الخليط من الأدوية والعقاقير زاد من وهن قدرته على التفكير المنطقي .

يقول بنمناشي انه لو كان هو من يدير العملية "الكنت انسحبت منها عند هذا الحد . فقد كان من المحتمل أن يتمكّن هنري بول من إخفاء حالته العقلية عن معظم من هم حوله لكنها لا تخفى على عميل استخبارات خبير ، مثل موريس ، مدرّب إلى درجة عالية على مراقبة مثل هذه الحالات . من المرجّح أن يكون موريس قد أبلغ المسؤول عن العملية في تل أبيب ، داني ياتوم ، أن يوقف العملية... أن انه الأمر . لكن لأسباب لا يعلمها إلا ياتوم وحده لم توقف . لم يكن مضى على ياتوم أكثر من عام في منصبه الرفيع ، وقد أراد أن يبني لنفسه شهرة" . أن الغرور كالتكبّر أحد أكبر الأخطار في ميدان الاستخبارات . وياتوم يتمتع بمقدار كبير من كلا الخطرين . ولا ضير في ذلك لولا انه يحجب الحقيقة . والحقيقة هي انه كان على الموساد أن ينسحب من العملية" . لكنه لم يفعل . كان دافع ياتوم القوي حاجته الماسة إلى عميل داخل "الريتز" . لكن حوادث أخرى غير متوقّعة كانت تتطوّر بصورة خطيرة .

كان النور الوامض في جهاز الهاتف في شقة موريس إشارة إلى محاولة اتصال هاتفية ، أيقظت موريس من النوم . وقد سجلت عند الساعة 1:58 صباح يوم الأحد 31 آب 1997 . كان المتصل يعمل في وحدة الحوادث التابعة لدرك مدينة باريس وقد جنّده الموساد قبل بضع سنوات . وهو في تصنيف أجهزة الحاسوب لدى الموساد "مابواب" ، أي مخبر غير يهودي . كان أحد أقلّ عملاء موريس السريين في باريس أهمّية .

ومع ذلك فان ما نقله الرجل من معلومات عن حادث سير أصاب موريس بالذهول . وقع الحادث قبل أقل من ساعة عندما صدمت سيارة مارسيدس عموداً من الباطون المسلح على الجانب المتجه نحو الغرب من نفق يمر تحت شارع "بلاس دو لاكا" ، وهي إحدى بقاع المدينة المعروفة بكثرة حوادث السير فيها .

كان القتلى ديانا ، أميرة ويلز ووالدة ملك إنكلترا المقبل ، ودودي الفايد ، ابن محمد المصري المولد وصاحب متجر "هارودز" على منطقة "نايتسبريدج" الذي يتبضع منه أفراد العائلة الملكية ، وهنري بول . أما الحارس الشخصي لديانا ودودي فقد أصيب بجروح خطيرة .

وبعد ساعات من وقوع الحادث عاد موريس عن طريق الجو إلى تل أبيب مخلفاً وراءه أسئلة حائرة .

ماذا كان دور الضغوط التي مارسها موريس في وقوع الحادث؟ هل فقد هنري بول سيطرته على سيارة "المارسيدس" فتسبّب بارتطامها بعمود الباطون المسلح الثالث عشر في الممر النفقي تحت "بلاس دو لاكا" لأنه فقد الأمل بالخلاص من براثن الموساد؟ هل هناك علاقة بين الضغط الذي مارسه والمستوى العالي للعقاقير التي عُثر عليها في فحص الدم؟ عندما غادر فندق "الريتز" مع الركاب الثلاثة هل كان عقله لا يزال يتأرجح إزاء ما يجب أن يفعله لمقاومة الضغوط؟ هل كان أيضاً ضحية لوكالة استخبارات لا ترحم بالإضافة إلى كونه مسؤولاً عن حادث سير مروّع؟

بقيت الأسئلة تتقيّح في عقل محمد الفايد حتى صرّح في شباط (فبراير) 1998 علناً "أن ما جرى لم يكن حادثاً . إنني مقتنع بذلك في أعمق أعماقي . ولا يمكن إخفاء الحقيقة إلى الأبد" .

بعد خمسة أشهر على ذلك عرضت شبكة التلفزيون البريطانية المستقلة "آي . تي . في" فيلماً وثائقياً زعم أن هنري بول كان على علاقة وثيقة بالاستخبارات الفرنسية . لم يكن بول كذلك . وألمح البرنامج أيضاً إلى أن وكالة استخبارات لم يسمّها كانت على علاقة بالحادث . وقد صدرت تلميحات سوداوية إلى أن الوكالة قامت بدورها لأن المؤسسة البريطانية خشيت أن يكون لحب ديانا لدودي "مضاعفات سياسية" ناشئة عن كونه مصرياً .

وحتى اللحظة بقيت علاقة الموساد بهنري بول سراً مغلقاً كما شاء لها جهاز الاستخبارات أن تبقى . ولم يكن الموساد يعمل بوصيّة أي جهة خارج إسرائيل . والواقع أن أحداً خارج صفوف الموساد لا علم له بدور قام به هذا الجهاز في مقتل مَن كانت أشهر امرأة في العالم .

واستمر محمد الفايد يرد على ما اعتبره حملة إعلامية إنكليزية لتشويه سمعته بالزعم بأن أجهزة استخبارات لم يسمّها كانت مجندة ضد ابنه وضد ديانا . وفي تموز (يوليو) 1998 نشر صحافيان من مجلة "تايم" الأميركية كتاباً ضمّناه زعماً بأنه ربما كانت لهنري بول علاقات بالاستخبارات الفرنسية . ولم يتمكن لا الفايد ولا الصحافيان من تقديم أي دليل قاطع على أن هنري بول كان عميلاً للاستخبارات أو حتى مخبراً – ولم يتوصل أي منهم إلى تحديد علاقة الموساد به .

في ذلك الوقت، طرح محمد الفايد عدداً من الأسئلة في كتاب بعث به إلى جميع أعضاء البرلمان في بريطانيا يحثّهم على إثارة تلك الأسئلة في مجلس العموم. وزعم الفايد أن "هناك قوة تعمل لحجب الأجوبة التي أريدها". كان هناك من يرى في سلوك الفايد سلوك أب حزين يخبط في كل اتجاه. وتستحق أسئلة الفايد تكرارها ليس لأنها تلقي أي ضوء على دور الموساد في الأسابيع الأخيرة من حياة هنري بول، بل لأنها تظهر كيف اكتسبت المأساة قوة دفع لا يمكن وقفها إلا بإعلان الحقائق المؤكدة.

رَسَم الفايد ما أسماه خطة التخلّص من ديانا وولده، وحاول إيجاد رابطة بين جميع أنواع الحوادث المتباينة وأسئلته:

"لماذا استغرق نقل الأميرة إلى المستشفى ساعة وأربعين دقيقة؟ لماذا امتنع بعض المصوّرين عن تقديم بعض الصور التي التقطوها؟ لماذا اقتُحم عنوةً في تلك الليلة منزلٌ في لندن يقيم فيه مصوّر يسوّق صور "الباباراتزي"؟ لماذا لم تلتقط أي من الكاميرات التلفزيونية العاملة في ذلك الجزء من باريس أي صورة؟ لماذا كانت كاميرات ضبط السرعة على تلك الطريق بلا فيلم ولم تكن كاميرات المرور شغّالة؟ لماذا لم يطوّق مكان حادث الاصطدام ويُعزَل بدلاً من إعادة فتحه أمام حركة السير بعد ساعات قليلة؟ من كان الشخص المجهول في مجموعة الصحافيين القابعين عند مدخل "الريتز" والذي كان مجهزاً بكل لوازم مصوّري الصحافة؟ من كان الشخصان المجهولان اللذان اختلطا بالجمهور المحتشد ثم جلسا في ما بعد في حانة "الريتز"؟ لقد قدّما طلبهما من الشراب بالإنكليزية وكانا يراقبان ويصغيان بطريقة لافتة؟".

لم يكن الموساد مهتماً بالعلاقة التي بين ديانا ودودي. كان همّه الوحيد تجنيد هنري بول كمخبر يعمل لحسابه في "الريتز". أما في ما يتعلق بالمصور الصحافي الغامض فقد سبق للموساد أن أجاز لعملائه التخفي كصحافيين. وربما كان موريس، وكان يقوم بالمناوبة عند مدخل الفندق. وربما كان الرجلان المجهولان في حانة الفندق على علاقةٍ ما بالموساد. وما من شك بأن محمد الفايد سيتعزّى إذا ما تأكدت صحة هذه الافتراضات.

بحلول عام 1999 كان اعتقاد محمد الفايد بوجود "مخطط" قد تقوّى إلى حد أنه بات يرى أن هناك " مؤامرة إجرامية بكل معنى الكلمة". وقد أصرّ على أن المؤامرة من صنع جهازي "أم. آي. 5" و"أم. آي. 6" البريطانيين والاستخبارات الفرنسية، وان الموساد "كان

يشارك ببراعة من وراء الستار" . كان عدد الذين يصغون إليه في تراجع دائم ، وكان يشير إلى رئيس تحرير صحيفة لندنية وصديق مقرب من ديانا على أنهما مرتبطان "بعلاقات مباشرة" بأجهزة الاستخبارات البريطانية .

كان واضحاً تماماً في ذهن محمد الفايد ما هي الأسباب التي جعلت هذه الأجهزة تتورّط في "المؤامرة" . فهو يقول : "إن النظام اتخذ قراراً على أعلى مستوياته بعدم السماح لديانا بالزواج من مسلم حتى لا يكون لملك إنكلترا المقبل الأمير وليام رابٌ (زوج الأم) مسلم وجدٌ مسلم . وكانت هناك خشية حقيقية من أنني سأمدّ ديانا بالمال لتقارع ملكة إنكلترا . وكان النظام على استعداد للقيام بأي عمل لإنهاء علاقة ابني بالمرأة الوحيدة التي أحبها بإخلاص" .

ولم تظهر الحقائق الدامغة التي تدعم مثل هذا الزعم الذي إذا صح فسيعجّل حتماً بنهاية العائلة الملكية في بريطانيا وربما مهّد الطريق لأزمة ثقة قد تؤدي إلى إطاحة الحكومة . ومع ذلك فقد رخص الفايد للمتحدث باسمه لاوري ماير وهو مسؤول أخبار سابق في إحدى شبكات التلفزيون التي يملكها ريوبرت ميردوخ ، بالقول لوسائل الإعلام "أن محمداً يعتقد جازماً بأن ديانا ودودي تعرّضا للقتل على يد عملاء تابعين للتاج البريطاني وان هناك وكالات أخرى متورطة تماماً في هذه الجريمة . وهو يعتقد أيضاً أن هناك عنصرية متأصلة داخل النظام" .

وحتى يثبت الفايد صحة الزعم بأن هذه الجريمة النكراء وقعت بالفعل ، استعان بمهارات رجل تحري سابق رفيع الشأن في شرطة "سكوتلاند يارد" ويدعى جون ماكنمارا . وفي أوائل 1999 كان المحقق الرقيق الكلام يطوف العالم بحثاً عن الأدلة . وفي هذه الأثناء تعرّف في جنيف في سويسرا على ضابط سابق في جهاز "أم . آي . 6" يدعى ريتشارد طوملينس ، زعم انه رأى وثائق في المقر الرئيسي لـ "أم . آي . 6" على ضفة نهر "التيمز" .

وأصر طوملينسون إن هذه الوثائق تصف تفاصيل الخطة لقتل الزعيم الصربي سلوبودان ميلوسيفتش – وهي خطة بها نقاط شَبَه مريبة بالطريقة التي ماتت بها ديانا ودودي . وذكرت وثيقة "أم . آي . 6" أنه ينبغي وقوع "الحادث" في نفق حيث تزداد كثيراً فرص الإصابة المميتة . وأوصت الوثيقة بأن يكون السلاح المختار أشعة لايزر عالية الطاقة يمكن استخدامها لإحداث عمىً موقت لدى سائق السيارة المستهدفة" .

وعلى رغم كل جهوده ، لم يتمكن مكنمارا من العثور على أي دليل مستقل لتعزيز مزاعم طوملينسون . والجهود التي بذلت للحصول على وثيقة "أم . آي . 6" باءت بالفشل الذريع .

ثم صدرت الأنباء التي جرى تأكيدها بتمنّع ، ومفادها أن وكالة الأمن القومي الأميركية "أن .أس .أي ." تحتفظ بحوالي 1050 صفحة من الوثائق عن ديانا ودودي . فعمد الفايد على الفور إلى فتح معركة قضائية في واشنطن للحصول على هذه الوثائق .

ويقول ماير الوفي لسيّده "كلما ازدادت العوائق ازداد إصراره" . ولكنه كغيره لا يتوقع نتائج فورية . فقد يستغرق الطلب سنوات وهو يتحرك داخل آلية النظام" .

وأحد الأسباب ، على ما اكتشفت ، هو أن ديانا ودودي كانا تحت مراقبة "اتشيلون" ، أحد أدق وأخطر أنظمة المراقبة التي تديرها وكالة الأمن القومي . هذه الشبكة الإلكترونية الكونية ذات أحجام مذهلة بالفعل . فهي تربط الأقمار الفضائية إلى سلسلة من الحواسيب المتماثلة العالية السرعة . وتستطيع وكالة الأمن القومي بفضل هذا النظام - كما يستطيع من تسمح لهم بمشاركتها المعلومات ومنهم بريطانيا - التعرّض لكل اتصال إلكتروني تقريباً في العالم وفكّ رموزه على الفور .

وفي نطاق بحثها عن الكلمات الرئيسية التي لُقنتها تستطيع "أتشيلون" ، أن تعيّن الرسائل التي تهمّ أصحابها فتفرزها على حدة .

في أعقاب طلاقها من الأمير تشارلز شنّت ديانا حملة لحظر صنع الألغام الأرضية . كانت صريحة وجريئة ، وتمكّنت بسرعة من الحصول على الدعم ، وهو ما لم يرق لإدارة كلينتون أو لندن أو أي عاصمة أوروبية أخرى . كانوا يرون أنها تتدخل في ما لا يعنيها وتتكلم بما لا تفهمه .

وقال لي مصدر في واشنطن : "الحقيقة هي أن قطاع صناعة الألغام الأرضية كانت توفر آلاف الوظائف . كان استخدام الألغام الأرضية مكروهاً ، وكذلك تسريح العمال من وظائفهم لأن ديانا تشغل نفسها بهذا الأمر" . وربما يفهم القارئ لماذا أصرّ المصدر على أن تبقى هويته سراً مقابل تقديم هذه المعلومة من الداخل .

وبدخول دودي في حياة ديانا تحوّل تلقائياً إلى مصدر يتعقّبه "أتشيلون" لجمع المعلومات . ومن دون علمهما كانت الأقمار الفضائية لشبكة "أتشيلون" تجمع بصمت محادثتهما ، مهما تكن حميمة .

بحلول عام 1997 ، كان اسم محمد الفايد قد أضيف هو أيضاً إلى قائمة البحث الحاسوبي الكوني . وربما كانت "اتشيلون" أول جهة خارج نطاق أسرته تعرف برغبته في أن يتزوج ابنه من أميرة ذات نسب – وزعمه لاحقاً بأنه عشية الحادث المفجع كان يعتزم إعلان خطوبتهما .

لم أعلم بدور "اتشيلون" إلا قبل وقت قصير من صدور الطبعة الأصلية من كتابي هذا في آذار (مارس) 1999 . وقتها صرت أعي إلى أي حد بات محمد الفايد مستغرقاً بموت ابنه وصديقته ديانا . كانت تجربة مربكة وصاعقة أن يتعرض امرئ إلى مثل هذا الحزن الفظيع الذي تغذّى من الغضب والاعتقاد بوجود مؤامرة .

بعد ظهر يوم من أيام آذار (مارس) التقيت محمد الفايد في صالونه الخاص في الطابق الخامس من "هارودز" . كان حرسه الشخصي يحمون الممرات المؤدية إليه . قال لي الفايد انهم "جميعاً جنود سابقون في فرقة الصاعقة "أس .أي .أس ." وهم يدينون لي بالولاء التام . انني أجزل العطاء لهم . وهم يعملون على ضمان بقائي حياً . لقد تعرّضت للتهديد مرات عدة . وسيارتي مدرّعة ضد الرصاص" .

كان يفضي إلي بهذه الأسرار بينما كان يدخل الصالون . وكان يتحدث بصوت خفيض ومشدود . لم اكن متأكداً ما إذا كان ينبغي أن أعتبر هيجانه تحذيراً أو تطميناً لي بأنني في أمان إذ أطلعه على كل ما يريد أن يعرف .

لم يُضع الوقت وهو يخبرني بما يريد : الوصول إلى جميع مصادر المعلومات في الموساد . "إعطني الأسماء . وهم يمدّونني بالمعلومات التي أريدها . أعطيك مائة مليون جنيه إسترليني في أي عملة تريدها . ولا حاجة لدفع الضرائب . أنا أتدبر كل شيء" .

كانوا قد حذّروني من أن الفايد لا يزال يحتفظ بموهبة تاجر السوق . وخلال العشرين دقيقة الثالثة وجّه نقداً لاذعاً عنيفاً لم أكن مستعداً تماماً له . فهاجم الملكة والأمير فيليب وشخصيات مشهورة سماها "عاهرات النظام وقوادوه" . واحتفظ بأعظم سمومه لرجال الاستخبارات فسمّاهم "قتلة" .

ثم تناول كتابي الذي وضع إشارات وملاحظات في هوامشه ، وتابع قائلاً : " الموساد هم من يستطيعون أن يقولوا لي الحقيقة . إإتني بهم فأجعلك رجلاً سعيداً جداً" . وقبل أن أجيب شنّ حملة على هنري بول : "القد وثقت به حقاً . وكنت سأفعل أي شيء لأرضيه

لأن دودي كان يحبّه . كان ابني مثلي يبالغ في ثقته . وهذا أحد الأسباب الذي جعل ديانا تحبّه وتريده زوجاً لها وأباً لأولادها . لكنهم لم يقبلوا بذلك . الملكة وزوجها وخدمهم وأخوها البغيض إيرل سبنسر لم يقبلوا . لم يقبل أحد منهم أن يكون في العائلة جشم . هل تعرف معنى جشم؟ شرقي ماكر . لكنهم لم يروا أن دودي كان جنتلماناً حقيقياً . فلطخّوا شخصيته عندما كان حيّاً . واستمروا في جهدهم الآن وهو ميت . لكن كل ما كانت ديانا بحاجة إليه هو ما أبلغتني بحاجتها إليه : شخص تستطيع الوثوق به بعد كل ما عانته..."

ولا تنقل هذه الكلمات حدّة ما صدر عنه والعبارات التجديفية التي استخدمها وحركات اليد العنيفة ، وفوق ذلك كله العذاب الأليم البادي على وجهه . كان محمد الفايد رجلاً يتألم . ما كان بوسعي سوى الإصغاء بينما تابع الفضفضة :

"هل تعلم أن ديانا كانت على الأرجح حاملاً ... ربما ثمانية أسابيع ... وأن دودي ، ابني ، هو والد الطفل؟ هل تعلم أنهم في المستشفى الباريسي ، بعد موتها ، استأصلوا عدداً من أعضائها وأنهم أعادوها إلى لندن كمومياء؟ هل تعلم إنها عندما التقينا آخر مرة باحت لي بمبلغ حبها لدودي وبمبلغ سعادتهما معاً؟" .

قلت إنني لم أكن أعلم بأي من هذه الأمور . ولبرهة طويلة جلس محمد الفايد مكانه وهو يكاد ينفجر من البكاء ووجهه يرتعش وهو مستغرق في عالم داخلي خاص .

ثم قال : "قل لي من يستطيع أن يساعدني على معرفة الحقيقة عمّن خطط لموت ابني وحبيبته ديانا؟" .

فقلت له أن في ذهني شخصين أحدهما فيكتور أستروفسكي (راجع الفصل العاشر وما بعده) والثاني هو آري بنمناشي .

فأمر محمد الفايد أن "جدهما وجئني بهما إليّ" . في تلك اللحظة بدت عليه أكثر من لمحة من ملامح فرعون مستبد .

استغرق عثوري عليهما أسبوعين . كان أستروفسكي يعيش في أريزونا ولم يشأ أن يكلّمني إلا عبر وسيط هو صحافي يعمل في مجلة إخبارية عربية . وفي النهاية عقد أستروفسكي جولة محادثات قصيرة مع جون ماكنمارا لم تصل إلى نتيجة .

كان آري بنمناشي قد عاد لتوه من أفريقيا عندما تحدّثت إليه في مونتريال ، وأبلغته عن

لقائي بالفايد . فقال بنمناشي ليس كل ما يقوله غير قابل للتصديق . إنني أعرف هذه المعلومات . كان هناك حضور استخباراتي مؤكد حول ديانا ودودي في يومهما الأخير ذاك في باريس" .

يتزايد شعور عدد من زملاء موريس بأن محاولة اصطياد هنري بول تقدّم حجة أخرى على أن الموساد قد أفلت من كل سيطرة . ونفّذ عمليات دولية متهوّرة من دون احتساب عواقبها المحتملة الآجلة على الجهاز وعلى إسرائيل وعلى السلام في الشرق الأوسط ، وأخيراً على علاقتها مع أقدم وأوثق حليف للدولة اليهودية : الولايات المتحدة الأميركية .

ووافق على الاجتماع بمحمد الفايد في لندن في الأسبوع التالي ، أوائل نيسان (أبريل) .

هناك شبه كبير بين رواية بنمناشي لوقائع ذلك الاجتماع وما أخبرني إياه محمد الفايد خلال اجتماعي معه . وقد أصيب بنمناشي النيّق والشديد التأدب بصدمة واضحة لدى سماعه اللغة الانفعالية التي هاجم بها أفراد الأسرة الملكية . ومع ذلك فقد وافق على إجراء مزيد من التحقيقات في تل أبيب ليرى ما يمكن للموساد أن تضيفه على المادة التي نشرتها في الطبعة الأولى من هذا الكتاب .

وبعد مرور عشرة أيام التقى بالفايد في صالون "هارودز" وأبلغه أن عدداً من أجهزة الاستخبارات "قد تكون على صلة بالقضية" . وأضاف بنمناشي انه يسعده أن يوكل إلى موظفيه مهمة العمل على توضيح هذه العلاقات ، واقترح أن يتقاضى مقدم أتعاب مقداره 750 ألف دولار سنوياً بالإضافة إلى المصروفات التي يتفق بشأنها بين الجانبين .

في هذه الأثناء ، وبمعزل عن بنمناشي تابعت عملي في تحقيقاتي لاستبيان الدور الذي لعبته "اتشيلون" في الأيام الأخيرة من عمرَي ديانا ودودي .

وبالاستعانة بمصادر في واشنطن وأماكن أخرى اكتشفت أن الرقابة على ديانا ودودي استمرت أثناء الأسبوع الذي أمضياه معاً وهما يجوبان الساحل الزمرّدي في سردينيا على متن يخت محمد الفايد "جونيكال" البالغ طوله ستين متراً . وتتبعت شبكة "اتشيلون" طابور البابارازي الذين تعقبوهما في الزوارق السريعة وعلى الدراجات النارية وفي السيارات .

وتمكن اليخت "جونيكال" من التخلّص من متعقبيه . أما حواسيب "اتشيلون" فقد التقطت تكدّر ديانا من عمليات التعقّب . وينعكس مزاجها المتعكر في المحادثات التي دارت

بينها وبين دودي وبينهما وبين حارسهما الشخصي تريفور ريس - جونز ، كما سجلتها شبكة "اتشيلون" . ليلة الجمعة 28 آب (أغسطس) 1997 قالت ديانا لدودي إنها تريد أن تذهب إلى باريس "بأسرع ما يمكن" .

وفي غضون ساعات اكتملت الاستعدادات . ووجهت الأوامر إلى طائرة "غلفستريم - 4" للطيران إلى مطار سردينيا الخاص في اليوم التالي . وقد استخدم طوماس موزو وهو سرديني عجوز يتمتع بخبرة دامت سنوات في قيادة المشاهير في أنحاء الجزيرة ليقود سيارة ديانا ودودي إلى المطار .

وتقدم رواية موزو عن الحديث الذي دار داخل السيارة تأكيداً صارخاً لما اغترفه قمر "اتشيلون" الفضائي :

"لقد تحدثوا بالإنكليزية ، كلمات محببة جداً . وبين الحين والآخر كان دودي الذي يجيد التحدث بالإيطالية يتكلم إليّ . ثم عاد إلى الحديث بالإنكليزية . إنني لا أجيد تلك اللغة لكن انطباعي كان أن الرجل والمرأة كانا في حالة حب عظيم وكانا يخطّطان مستقبلهما" .

وتصر مصادري على أن جزءاً من تسجيلات "اتشيلون" تظهرهما وهما يتحدثان عن الزواج والحياة التي كانا يخطّطان لها سوية . واستمر دودي في طمأنتها إلى انه سيضمن صون خصوصيتها بالاستعانة بخدمات فريق الحماية الخاص بآل الفايد .

غادرت الطائرة الخاصة سردينيا بعدما أجرى قبطانها مكالمة عاجلة مع مركز التحكّم بحركة المرصد الجوي الأوروبية في بروكسيل للحصول على أفضلية الإقلاع .

وخلال الرحلة التي استغرقت ساعتين إلى مطار "لو بورجيه" على بعد عشرة أميال شمالي باريس كانت "اتشيلون" ترصد حركات ركاب الطائرة وكانت محادثة ديانا ودودي ترفع من جديد إلى قمر فضائي ثم تدخل إلى حواسيب في "فورت ميد" في ميريلاند .

ولم يستطع مصدر معلوماتي أن يقدم أي دليل قاطع . لكنه كان "في تقديري" مقتنعاً بأن "الأجزاء ذات العلاقة في المحادثة كانت تحوّل إلى مركز الاتصالات البريطاني "جي .سي .اتش .كيو ." . ومن هناك تجد طريقها إلى شبكة الوايتهول . عندها يكون لأي شيء تتفوه به ديانا وأي قرار تتخذه أهمية قصوى لأشخاص في السلطة" .

نقلتُ جميع هذه المعلومات إلى آري بنمناشي فكان رده مرضياً لكنه مخيب . "انك تقترب كثيراً من وضع يدك على الزر . لكنني لا أعرف مدى قربك" . كان بنمناشي يأمل أن يوقع عقداً مربحاً مع الفايد . وكل معلومة لا بد أن تنقل إليه أولاً .

وفي النهاية لم يرَ العقد النور . اشترط الفايد أن يرى أولاً ما هي "الدلائل" التي سيقدمها بنمناشي قبل الموافقة على الدفع .

ووجد بنمناشي الذي اعتاد التعامل مع الحكومات أكثر من تعامله مع "رجل له أخلاق تاجر سوق" نفسه يرد على "عدد من المكالمات الهاتفية ذات الطابع الهستيري من مكنمارا الذي أصر على أن أطلعه على الوثائق . وقد فاجأني جداً سماع ذلك من رجل كان يفترض أن تكون له بعض الخبرة في كيفية عمل أجهزة الأمن لكونه عمل في "سكوتلانديارد" . واضطررت لأن أقول له أن الموساد لا يسلم الوثائق طوعاً أو كرهاً . واضطررت لأن اشرح له كما تفعل مع شرطي جديد حقائق الحياة في عالم الاستخبارات" .

وأصيب الفايد بالخذلان لكنه رفض الخلود إلى الصمت . ووجد المتحدث السيئ الطالع باسمه ، لاوري ماير ، نفسه يخوض معارك جديدة مع وسائل الإعلام التي زادت معارضتها لوجهة نظر الفايد في شأن "خطة أعدها النظام لقتل ابني وعروسه" .

كان آري بنمناشي يراقب عن كثب وقد شعر بأن الفايد "هو أعدى أعداء نفسه . فنتيجة لكل التحقيقات التي أجريتها دون أن يتكلف هو شيئاً ، وهي من التحقيقات الأولية التي أقوم بها قبل أن أوكل إلى شركتي أي عمل مماثل ، كان واضحاً أن لا علاقة للعائلة الملكية بالأمر . وقد يجوز أنهم كانوا سراً يتمنون لو أن ديانا لا تتزوج دودي ، ولكن هذا شيء مختلف تماماً عن القول بأنهم أرادوا قتلهما . وبعد هذا ، أظهرت أحد الأدلة الملموسة الذي يشير إلى تورط أجهزة استخبارات في الفترة السابقة لوفاتهما . ثمة أسئلة خطيرة يجب أن تسأل وتجد الإجابة عنها . ولكن إذا استمر الفايد يتصرف على هذا الشكل فلن يحصل على الإجابات . أن هناك عدم فهم أساسياً لعقلية من يحاول إقناعهم . والأسوأ من ذلك أنه محاط بالخدم والمتزلفين الذين يقولون له ما يريد أن يسمعه" .

في أوائل أيار (مايو) 1999 سافر جون ماكنمارا إلى جنيف لمقابلة ريتشارد طوملينسون ، وهو ضابط سابق في جهاز "أم .آي .6" . كان طوملينسون ، الذي اعتبر يوماً نجماً صاعداً في الاستخبارات البريطانية ، يقود منذ أربع سنوات حملة شعواء على رؤسائه السابقين . تجنّد

طوملينسون عندما كان في جامعة كيمبردج على يد أحد خبراء التجنيد في "أم .آي .6" ، لكنه طرد فجأة في ربيع عام 1995 بعدما أطلع مسؤولاً في قسم الموظفين في الجهاز على تزايد مصاعبه العاطفية .

قال لي أثناء مكالمة هاتفية أجريتها معه "لقد كلّفني صدقي خسارة وظيفتي . فقرّر أصحاب السلطة أنني برغم ما حققته من نتائج باهرة أفتقر إلى الاتزان الظاهري" .

ووصف طوملينسون كيف حاول أن يقاضي "أم .آي .6" بدعوى الصرف التعسفي ، لكن الحكومة البريطانية رفضت إحالة القضية إلى المحكمة . ثم سحبت الحكومة عرضها الرشوة ـــ أو على حد تعبير طوملينسون "المال مقابل لزومي الصمت" ـــ بعد رسالة تلقّتها من ناشر أسترالي . كان طوملينسون قد أرسل إلى الناشر ملخصاً عن كتاب عن حياته وعمله في جهاز "أم .آي .6 " فأحال الوثيقة إلى الجهاز مستوضحاً عما إذا كان نشر الكتاب سيؤدي إلى الملاحقة القضائية . وجاء رد فعل "أم .آي .6" سريعاً ، فاعتقل طوملينسون بينما كان يغادر بريطانيا وحكم عليه بالسجن لمدة سنتين لخرقه "قانون الأسرار الرسمية" .

عقب إطلاق سراحه في نيسان (أبريل) 1998 انتقل طوملينسون إلى باريس ثم إلى سويسرا . وهناك راح يستخدم مقاهي "الإنترنت" لبثّ تفاصيل شديدة الإحراج عن عمليات "أم .آي .6" .وتضمّن ذلك الكشفَ عن جاسوس يشغل منصباً رفيعاً في المصرف المركزي الألماني والزعم بأن الرجل – واسمه الرمزي أُركاديا – نقل أسرار بلاده الاقتصادية إلى بريطانيا . كما كشف النقاب عن تفاصيل مؤامرة وضعها جهاز "أم .آي .6" لاغتيال الرئيس الصربي سلوبودان ميلوسيفيتش عام 1992 .

ثم انتقل الجاسوس السابق المستاء إلى عالم محمد الفايد الذي كان يعج بالشخصيات التآمرية .

وكان طوملينسون المفلس أو يكاد "بشارة من السماء" لرجل الأعمال الثري كما أخبرني الفايد بنفسه ، فشجع طوملينسون على أن يقول كل ما لديه من معلومات إلى القاضي الفرنسي الذي يحقّق في مقتل ديانا ودودي .

وزعم طوملينسون في شهادة أقسم اليمين عليها أن جهاز الاستخبارات البريطاني كان ضالعاً في موت ديانا ودودي . فقد جاء عملاء من الجهاز إلى باريس وأقاموا فيها أسبوعين قبل الحادثة التي أدت إلى الموت ، وعقدوا عدداً من الاجتماعات مع هنري بول "الذي كان

مخبراً مأجوراً لدى "أم .آي .6"" . وزعم طوملينسون في شهادته أن بول "أصيب بالعمى أثناء قيادته السيارة في الممر النفقي بتأثير وميض ضوء ذي طاقة عالية ، وهو أسلوب يتفق مع أساليب "أم .آي .6" في عمليات اغتيال أخرى" .

قرّبت هذه المزاعم طوملينسون أكثر فأكثر من الدائرة الداخلية للفايد ، واصبح العميل السابق أكثر من "بشارة من السماء" . لقد أصبح ، على حد تعبير الفايد "الرجل الذي بإمكانه الكشف عن الحقيقة المرعبة لحادث له هذا الحجم الضخم وتلك الأهمية التاريخية" .

وقد سافر ماكنمارا إلى جنيف لغرض تشجيع العميل السابق أكثر فأكثر على متابعة حملته .

ومنذ دخول طوملينسون إلى جنيف وهو يواجه عجزاً متزايداً عن وفاء ديونه . وبالكاد تمكّن من دفع إيجار الشقة - الاستديو التي يقطن فيها . وقد باءت بالفشل جهوده لجني المال من كتابة مقالات سياحية ، وواجهت المصير نفسه جهوده للعمل كتحرٍ خاص لأنه كان يخشى السفر إلى أوروبا خوفاً من أن يختطفه عملاء جهاز "أم .آي .6" . وبناءً على طلب من هذا الجهاز مُنع من السفر إلى الولايات المتحدة وأستراليا وفرنسا . وحدها سويسرا قدمت له المأوى لقناعتها بأن أي خرق لقانون الأسرار الرسمية يعتبر "جريمة سياسية" وبالتالي فلا يجيز الاستجابة لطلب استرداد .

وترى مصادر من "أم .آي .6" تحدّثت إليها أن ماكنمارا سافر لمقابلة طوملينسون وفي نيته معالجة بلية الجاسوس السابق المالية . ومن المؤكد أنه بعد وقت قصير من اللقاء أصبح لدى طوملينسون ما يكفي من المال لإطلاق ما أسماه "خياري النووي" . فقد استخدم في جهاز الحاسوب المتطوّر الذي لديه برنامجاً متطوراً من "مايكروسوفت" استعان به للبدء بوضع قائمة أسماء ما يزيد على مائة ضابط يعملون في خدمة "أم .آي .6" وبثّها على موقعه الخاص العالي الكلفة . كان بين هؤلاء الضباط اثنا عشر قال إنهم تورّطوا في مؤامرة قتل ديانا ودودي .

ولم يتوافر أي دليل واضح وجلي ضد أي من أولئك العملاء ، ولكن لم تمضِ ساعات على إذاعة القائمة حتى كانت الأسماء تنتشر في أنحاء العالم .

وحاول جهاز "أم .آي .6" الذي أصيب بالذهول أن يقفل الموقع على شبكة "الإنترنت"

ولكن ما كانوا يتمكنون من إغلاق واحد حتى يُفتح موقع آخر . واعترفت وزارة الخارجية في لندن بأن "هذا الخرق الأمني كان الأكثر خطورة منذ الحرب الباردة ، وقد عرّض للخطر أرواح بعض عملاء "أم .آي .6" ومصادر معلوماتهم" . ومن المؤكد أن من ذُكرت أسماؤهم من العاملين في إيران والعراق ولبنان وبلدان أخرى في الشرق الأوسط قد طلبت إليهم العودة فوراً .

ولكن لم يستطع لا طوملينسون ولا محمد الفايد تقدير أهمية واحدة من النتائج . لقد كان الخرق الأمني بجمله من الخطورة بمكان جعل الزعم بأن حفنة من عملاء "أم .آي .6" شاركوا في مؤامرة استهدفت ديانا يمر بدون اكتراث . فقد جرى استبعاده على أنه يأتي في إطار هوَس الفايد .

وفي حزيران (يونيو) 1999 ازداد الموقف خطورة عندما نشر موقع متجر "هارودز" الذي يملكه الفايد اسم ضابط كبير في جهاز "أم .آي .6" ، وزعم أن العميل الذي كان يتولّى مهمةً في بلاد البلقان قد نظم بدقّة "حملة خبيثة" لتشويه سمعة الفايد و"القضاء على شهرته" .

وعلى غير المعتاد أصدرت وزارة الدفاع البريطانية تحذيراً علنياً من أن إذاعة الاسم قد عرضت للخطر حياة العميل وحياة مصادر معلوماته في كوسوفا وبلاد الصرب .

وكشف النقاب عن هوية العميل إلى جانب الكتاب الإلكتروني الذي يسجّل فيه آلاف زائري الموقع رسائل تعبّر عن الأسى لوفاة ديانا ودودي .

ووعد لاوري ماير الناطق باسم متجر "هارودز" بشطب اسم العميل موضحاً "أن في الأمر خطأ كما يبدو" .

بعدئذ نشرت مجلة "بيلد" الألمانية الواسعة الانتشار تقارير تفيد أن لدى ريتشارد طوملينسون أدلّة على أن هنري بول زرع جهاز تنصّت في "الجناح الملكي" في فندق "ريتز" وسجّل على أشرطة "اللحظات الحميمة الأخيرة" لديانا ودودي . فقبيل وفاتهما في حادث الاصطدام كانت الأميرة والشاب الثري قد اختليا معاً ساعات عدة في جناحهما .

وذكرت "بيلد" أن جهاز "أم .آي .6" يقود حملة تفتيش واسعة لتعيين مكان الأشرطة المذكورة .

عند هذا الحد ، قرّر الايرل سبنسر ، شقيق ديانا ، التدخّل ، فأبلغ مشاهدي التلفزيون

الأميركي أن "قصة حب شقيقتي لدودي الفايد ليست أكثر من علاقة غرامية صيفية ، فهي لم تكن تعتزم الزواج منه بأي حال من الأحوال" .

وردّ محمد الفايد بالإشارة إلى أن العلاقة بين سبنسر وديانا لم تكن وثيقة أبداً في آخر حياتها . ولم يكن محمد الفايد بعيداً عن الحقيقة .

لم يفاجأ آري بنمناشي بما جرى . فقد استمر في متابعة القصة التي لا تكتمل فصولاً عن محاولات الفايد "البرهنة على صحة هوسه بأن الملكة وزوجها الأمير فيليب نسجا مؤامرة قتل ديانا" .

وشعر ضابط الاستخبارات الإسرائيلية الواسع الخبرة "أن الفايد خسر قضيته عندما رهن مصيره بمصير ريتشارد طوملينسون . فقد أصبح ما يذيعه لا يهمّ سوى الصحف الشعبية . لكنني اعلم علم اليقين أنه لو أحسن معالجة الأمور وأجرى تحقيقاً جدياً لأمكنه التوصل إلى بعض النتائج المدهشة جداً . من المؤكد أن في موت ديانا ودودي جانباً غريباً للغاية . ما من شك في ذلك . كان الأمر يستحق فتح تحقيق . لكن الآثار ضاعت بفضل الفايد نفسه . وربما لا يكون هو المسؤول عن هذا الخطأ . إنه محاط بأشخاص يقولون له أن أنظر هنا لا هناك . ولبعضهم مصلحة مالية في بقاء الأمور سائرة على هذه الصورة . فهم يعرفون أنه كلما عرضوا نظرية جديدة غير مكتملة تحمّس الفايد وأنفق مزيداً من المال في سبيل إثبات صحّتها . وحين يفعل ذلك يعفّر آثار بعض الأدلّة التي تكون قد كُشفت" .

هذا هو الحد الذي بلغته القضية عند كتابة هذه السطور . هل يستطيع طوملينسون أن يطلع بأمر جديد؟ وهل يستطيع بنمناشي أن يقدم أدلّة تعزّز صحة اعتقاد الفايد بوجود مؤامرة؟ هل كانت ديانا حاملاً عند وفاتها؟ هل أصبح محمد الفايد معمياً من الحزن الممزوج بالغضب حتى بات مستعداً لجعل هذه الأطروحة تتفق مع الحقائق؟

هذه الأسئلة ستستعاد إلى سنوات عدة بعد بدء القرن الجديد لكنها قد لا تجد الإجابات الكاملة التي ترضي محمد الفايد أو تقنع جميع أولئك الذين يعتقدون أنه رجل يعيش في ضلال خطير ويستخدم أموالاً طائلة للعثور على حقيقة قد يكون من الأفضل أن يبقيها جميع أصحاب العلاقة المباشرة بعيدة عن التداول .

* * *

أول الدروس التي تعلمتها خلال ربع قرن من الكتابة عن الاستخبارات هو أن عدّتها

مؤلفة من الخداع والتضليل والتهديم والإفساد والابتزاز وأحياناً القتل . فالعملاء يتدربون على الكذب وخيانة ثقة الأصدقاء . وهم النقيض التام للقول السائر بأن الرجال المحترمين لا يقرأون بريد الآخرين .

ولقد تعرّفت على سلوكهم ، أول مرة ، عندما كنت أحقّق في عدد من فضائح التجسس الكبرى خلال الحرب الباردة ، كنقل أسرار القنبلة النووية الأميركية وبطلها كلاوس فوخس وإساءة غاي بيرجس ودونالد ماكلين وكيم فيلبي إلى سمعة جهازي "أم .آي .5" و "أم .آي .6" البريطانيين . وقد جعل كل من هؤلاء ديدنه الخيانة والنفاق . كما كنت أحد أوائل الكتّاب الذين اطّلعوا على افتتان وكالة الاستخبارات الأميركية "سي .آي .أي ." بالسيطرة على العقل ، وهي مهمة اضطرت الوكالة إلى تأكيد انهماكها بها بعد مرور عشر سنوات على صدور كتابي حول الموضوع بعنوان "رحلة داخل الجنون" . والإنكار هو الشعوذة التي أتقنتها أجهزة الاستخبارات جميعاً منذ زمن بعيد .

ومع ذلك فقد تلقيت أكبر العون في مسعاي للبلوغ إلى الحقيقة من ضابطي استخبارات محترفين هما يواكيم كرينر حمّي الراحل الذي أدار شبكة تابعة لجهاز "أم . آي . 6" في درسدن في سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية ، وبيل بكلي الذي كان رئيس فرع وكالة "سي . آي . أي" في بيروت . كانا متشابهين من الناحية الجسدية : طويلان ونحيلان وحسنا الهندام مع ميل إلى المبادرة لمجابهة الخطر بدلاً من انتظاره . وكانت عيونهما لا تبوح سوى بالقول انه إذا لم تكن جزءاً من الجواب فلا بد أنك جزء من المشكلة . وكانا شديدي الذكاء ، وكان انتقادهما للوكالتين اللتين عملا في خدمتهما قاسياً .

وما فتئ كلاهما يذكرني بأن "الهمهمات خلال الرحلة الثلجية" على حد تعبير بيل قد تفصح عن الكثير : مثال على تلك الهمهمات مناوشة مميتة تقع في شارع خلفي لا اسم له ، وموقف الترقب الجماعي الذي يلاحظ عندما يفتضح أمر وكالة أو شبكة تجسّس ، وعملية سرية تؤدي إلى تخريب ما أنجز خلال سنوات من مدّ الجسور السياسية ، ومعلومة صغيرة تتمّم الصورة وتوضح المشهد الاستخباري . وأضاف يواكيم "يحدث أحياناً أن تلقي بضع كلمات يتفوّه بها شخص بلا اكتراث ضوءاً جديداً على أمرٍ ما" .

كانا فخورين بعلاقتهما بما أسماه يواكيم "ثاني أقدم مهنة في العالم" . ولم يكونا فقط صديقين بل لقد أقنعاني بأن الاستخبارات هي المعين على فهم العلاقات الدولية فهماً تاماً

وكذلك السياسات الكونية والديبلوماسية - وبالطبع الإرهاب . وقد ساعداني على التعرف إلى عدد من وكالات الاستخبارات العسكرية والمدنية كوكالة "بي .أن .دي ." الألمانية و"دي .جي .سي .أي" الفرنسية و "السي .آي .أي ." الأميركية والوكالات الكندية والبريطانية .

أما يواكيم فقد توفي بعد تقاعده . وأما بيل فقد قتله المتطرفون الإسلاميون الذين خطفوه في بيروت وأشعلوا أزمة الرهائن الغربيين في تلك المدينة .

ولقد تعرفت إلى أفراد من أسرة الاستخبارات الإسرائيلية الذين ساعدوني في تقديم المعلومات عن نشأة محمد علي أقجا المتعصّب التركي الذي حاول اغتيال البابا يوحنا بولس في ساحة القديس بطرس في روما في أيار (مايو) 1981 . وقد رتب هذه اللقاءات سيمون فيزنتال ، صياد النازيين الشهير وأحد "مصادر" الموساد القيمة خلال ما يزيد على أربعين عاماً . إن شهرة فيزنتال وذيوع صيته لا يزالان يسبقانه لفتح الباب أمامه خصوصاً في واشنطن .

في هذه المدينة وفي آذار (مارس) 1986 ازدادت معرفتي بتشابك العلاقات بين أجهزة الاستخبارات الأميركية والإسرائيلية . كنت أزور واشنطن لإجراء مقابلة مع وليام كيسي ، الذي كان حينئذ مديراً لوكالة الاستخبارات المركزية كجزء من البحث المتطور لوضع كتابي "رحلة داخل الجنون" الذي يتناول في أحد أجزائه مقتل بيل بكلي .

كان كيسي شخصاً ذا حركة بطيئة متثاقلة على رغم ارتدائه بذلة مفصلة على قياسه . وجهه الدقيق الذقن شاحب وأجفانه حمراء . كان يبدو لي ونحن جالسان في أحد نوادي واشنطن وكأنه شخص نفدت جبلته الخارجية بعد خمس سنوات من إدارته وكالة "سي . آي . أي ." .

بينما كان يحتسي ماء مكربناً كرر على سمعي شروط لقائي به . فأخذ الملاحظات أمر محظور وكذلك التسجيل الصوتي ، وكل ما يقوله سيكون من العموميات . ثم أخرج ورقة بيضاء طبع عليها تفاصيل سيرته الذاتية .

ولد في نيويورك في 13 آذار (مارس) 1913 وتخرّج من جامعة القديس يوحنا عام 1937 في الحقوق . وبعد شهر من انضمامه الى الاحتياطي البحري الاميركي عام 1943 جرى نقله إلى "مكتب الخدمات الاستراتيجية" وهو الاسم السابق لوكالة الاستخبارات

المركزية . وعام 1944 أصبح رئيس شعبة الاستخبارات الخاصة "أو .أس .أس ." في أوروبا تلا ذلك تعيينه رئيساً للجنة الأوراق المالية والقطع (1971 - 1973) ثم بوتيرة سريعة عين نائباً لوزير الخارجية للشؤون المالية (1973 - 1974) ورئيساً لمجلس الإدارة في بنك الاستيراد والتصدير في الولايات المتحدة (1974 - 1976) فعضواً في المجلس الاستشاري للاستخبارات الأجنبية التابع للرئيس (1976 - 1977) . وعام 1980 أصبح مدير الحملة الانتخابية التي نجحت في إيصال رونالد ريغان إلى سدة الرئاسة . وعقب ذلك بعام ، وفي 28 كانون الثاني (يناير) 1981 ، عيّنه الرئيس ريغان مديراً لوكالة الاستخبارات المركزية ، فكان الرجل الثالث عشر الذي يشغل أقوى منصب في أسرة الاستخبارات الأميركية .

وعندما أشرت إلى أنه كان محل ثقة في عدد من المناصب احتسى كيسي مزيداً من الماء ودمدم قائلاً أنه "لا يرغب في أن يتطرق إلى الجانب الشخصي للقضايا" .

أعاد الورقة إلى جيبه وجلس متنبهاً ينتظر سؤالي الأول : ماذا يمكنه أن يخبرني عن بيل باكلي الذي خطف قبل سنتين بالضبط من تاريخ هذا اللقاء - يوم الجمعة 16 آذار (مارس) 1984 - في بيروت وهو الآن ميت . أردت أن أعرف ماذا فعلت وكالة "سي . آي . أي ." وهي تحاول أن تنقذ حياة بيل . كنت قد أمضيت بعض الوقت في منطقة الشرق الأوسط ، بما في ذلك إسرائيل ، فيما كنت أحاول أن استكمل تفاصيل الحادثة .

فقاطعني كيسي قائلاً :هل أنت على صلة بأدموني أو أحد جماعته؟" .

عام 1982 أصبح ناحوم أدموني رئيساً للموساد ، وهو يشتهر بعناده في أوساط ديبلوماسيي السفارات في تل أبيب . وقد وصفه كيسي بأنه "يهودي يريد لو يفوز بمسابقة التبّول في يوم ممطر في مدينة غدانسك" . والمؤكد عندي هو أن أدموني ولد في القدس عام 1929 لأبوين من الطبقة الوسطى من المهاجرين البولنديين . وتلقى تعليمه في مدرسة رهافيا الثانوية في المدينة واكتسب مهارات لغوية عادت عليه برتبة ملازم في صفوف الاستخبارات في حرب 1948 .

وكان رأي كيسي "أن بإمكان أدموني أن يفهم ما يقال له بنصف دزينة من اللغات" .

في وقت لاحق ، درس أدموني العلاقات الدولية في باركلي ودرّس المادة في معهد التدريب التابع للموساد والقائم في ضواحي تل أبيب . وقد قام بمهام سرية في الحبشة وفي باريس وفي واشنطن حيث كانت له علاقات وثيقة بسلفَيْ كيسي ريتشارد هلمز ووليام

كولبي . وساعدت هذه المهام على شحذ أدموني وحولّته إلى رجل استخبارات بيروقراطي حلو الكلام . ويقول كيسي أنه عندما أصبح رئيساً للموساد "كان كمن يقود سفينة مزدحمة . ولما كان اجتماعياً محباً للاختلاط بالناس فقد كان شغوفاً بالنساء بمقدار شغفه بما فيه مصلحة إسرائيل العليا" .

ورسم كيسي صورة مختصرة لرجل مخابرات تمكّن على حد قوله "من التسلّق من مرتبة إلى مرتبة أعلى بفضل مهاراته في تجنّب إزعاج رؤسائه" .

وتابع كلامه بالصوت الخفيض المغمغم نفسه : أكثر ما يفاجئك شخص تظن أنه مطبوع على الود . حالما تحققنا من أن أدموني لن يحرك ساكناً كان بيل بكلي قد مات . هل تذكر كيف كان الحال عليه في ذلك الوقت؟ كانت قد وقعت مجزرة قتل فيها حوالي ألف فلسطيني في مخيمين للاجئين في بيروت . كانت القوات المسيحية اللبنانية هي من ارتكبت أعمال القتل بينما كان اليهود يتفرّجون على ما حرّمه الكتاب المقدس . والحقيقة أن أدموني كان شريكاً لذلك السفاح ، الجميّل" .

كان بشير الجميّل زعيماً للكتائب وأصبح في ما بعد رئيساً للبنان . "كنا نستخدم الجميّل أيضاً لكنني لم أثق مرة بهذا اللقيط . وكان أدموني يتعاون مع الجميّل طوال فترة تعذيب بكلي . ما كنا نعرف بالضبط في أي مكان من بيروت كانوا يحتجزون بيل . طلبنا من أدموني أن يعرف لنا . فقال : بسيطة . وانتظرنا وانتظرنا . بعثنا بأفضل رجالنا إلى تل أبيب ليعملوا إلى جانب الموساد . وقلنا : المال لا يهمّ . وظل أدموني يقول : طيب ، مفهوم" .

واحتسى كيسي مزيداً من الماء وهو محتبس في كبسولة زمانه . ثم تحدث بصوت شديد الانخفاض كأنه رئيس هيئة محلفين يعلن القرار الذي توصل أعضاء الهيئة إليه . قال "لم يلبث أدموني أن بدأ يبيعنا رواية مفادها أن منظمة التحرير الفلسطينية تقف وراء الاختطاف . كنا نعرف أن الإسرائيليين مستعدّون دوماً لإلقاء اللوم على ياسر عرفات في كل شاردة وواردة . ولم يصدق جماعتنا الرواية بادئ ذي بدء ، لكن أدموني كان يبدو جديراً بالتصديق . فقد عرض قضيته بنجاح . عندما تبيّن لنا أن عرفات لم يكن وراء الاختطاف كان بكلي قد انتهى من زمان . ما لم نعرفه هو أن الموساد كانوا يديرون رهاناً مشتركاً قذراً جداً يضم جميع اللاعبين . فقد كانوا يزوّدون حزب الله بالأسلحة لقتل المسيحيين وفي الوقت نفسه يقدمون مزيداً من السلاح إلى المسيحيين لقتل الفلسطينيين" .

كانت وكالة "سي .آي .أي ." بلسان كيسي تعتقد أن الموساد تعمّدت القعود عن العمل على إنقاذ بيل باكلي آملة أن يلقى باللوم في ذلك على منظمة التحرير الفلسطينية فتقضي بذلك على آمال عرفات في كسب عطف واشنطن ويتيح ذلك تقديم نظرة مروعة إلى داخل العلاقات بين جهازين للاستخبارات يفترض أنهما يرتبطان بعلاقة ودية .

لقد أظهر كيسي أن هناك جانباً للعلاقات بين الولايات المتحدة وإسرائيل مختلفاً عن جمع التبرعات ومظاهر التضامن الأميركي - اليهودي الأخرى التي حوّلت الدولة اليهودية إلى قوة إقليمية عظمى مستثمرة الخوف الأميركي من العدو العربي .

قبل أن نفترق زوّدني كيسي بفكرة أخيرة : أن كل بلد ينشئ أجهزة الاستخبارات التي يحتاج إليها . فأميركا تعتمد على الخبرة التقنية لأننا معنيون بالكشف وليس إدارة الحكم بصورة سرية . أما الإسرائيليون فيعملون بصورة مختلفة . إن الموساد بصورة خاصة تساوي بين أعمالها وبقاء البلاد على الخارطة" .

لطالما استفاد جهاز الموساد من هذا الموقف لتجنّب الرقابة المشدّدة . إنما حدثت خلال سنتين استغرقهما البحث الذي أجريته لوضع هذا الكتاب سلسلة من الأخطاء - وفي بعض الأحيان الفضائح - جعلت الجهاز موضوعاً للوعي الشعبي في إسرائيل . فطُرحت الأسئلة وقلّما وُجدت أجوبة عليها فبدأت الثغرات تظهر في الدرع الواقي الذي كان الموساد يتقي به العالم الخارجي .

وزعم عدد من الضباط أن الأمور ازدادت سوءاً منذ أصبح بنيامين نتنياهو رئيساً للوزراء عام 1996 .

وقال عضو عريق في أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية : "إن الناس يعتبرون أن العاملين في جهاز الموساد هم في الغالب سفّاحون يتخفّون بمظاهر الوطنيين . إن هذا في غير مصلحتنا ويسيء إلى المعنويات وسيكون له أثر سيئ على علاقات الموساد بالأجهزة الأخرى" .

وبالصراحة نفسها قال ضابط استخبارات إسرائيلي مجرّب آخر : "إن نتنياهو يتصرف كما لو أن الموساد جزء من النموذج الخاص الذي صنعه على طراز ديوان الملك ارثر ، فهو يشعر أن عليه أن يطلع كل يوم بفكرة جديدة حتى لا يصاب فرسان الطاولة المستديرة بالضجر . وهذا هو السبب الذي جعل الموساد يرتكب أخطاء فادحة . يجب دق ناقوس الخطر قبل فوات الأوان" .

على مدى سنتين ونصف السنة ، تحدثت إلى ما يزيد على مائة شخص كان منهم من يعمل مباشرة ومنهم بصورة غير مباشرة لصالح الاستخبارات الإسرائيلية وغيرها . ووافق عدد كبير من الأشخاص النافذين في الموساد على تسجيل أقوالهم على شريط . ويمتد زمن هذه التسجيلات إلى ثماني ساعات وقد فُرِّغ مضمونها على حوالي 5800 صفحة . كذلك فإن هناك 15 كراسة من حجم "فولوسكاب" مملوءة بملاحظات متعاصرة . وستجد هذه المادة ، كما حدث في كتبي السابقة ، مكانها في قسم الأبحاث في إحدى المكتبات الجامعية . وقد حثّني عدد كبير من الذين تحدثت إليهم على تركيز البحث على الحوادث الأخيرة ، أما الماضي فيحسن ألا يستخدم إلا للإشارة إلى حوادث ذات صلة بدور الموساد عند الحدود الفاصلة بين التجسّس وجمع المعلومات السرية . وأجريت مقابلات مع أشخاص لم يسبق أن أعطوا مقابلات ، وفي كثير من الأحيان لم يكن الإلحاح على التحقيق الدقيق يساعد على إيضاح مقنع لتصرفاتهم أو تصرفات غيرهم . وفاجأني عدد كبير منهم بصراحته على رغم أن بعضهم لم يوافق على أن أسمّيه . ويمنع القانون الإسرائيلي موظفي الموساد العاملين من السماح طوعاً بنشر أسمائهم . وقد طلب بعض المصادر غير الإسرائيلية ضماناً لبقاء هويتهم سريّة ، فأستجبت .

عندما تحاول الصحف تجميع أجزاء صورة تتعلق بالمنظمة يبقى عدد كبير من المصادر بين الفراغات المتروكة . فهذه المصادر تصر على الاحتفاظ بسريّتها وبعضها لا يرغب بان يعرف بسوى أسم مستعار أو باسمه الأول . ومع ذلك فان هذه الطريقة لا تقلّل من صحة الشهادة التي يدلون بها . وتتعدّد وتختلف دوافعهم الشخصية للخروج من الصمت ، فتكون إما حاجة لدخول التاريخ أو الرغبة في تسويغ ما ارتُكب ، وسرد القصص لدى الشيوخ منهم وربما حتى التكفير عن الذنب . وينطبق الأمر نفسه على أولئك الذين وافقوا على الكشف عن هويتهم .

ولعل أفضل الدوافع وراء خروجهم عن صمتهم خشية حقيقية وصادقة من أن تكون المنظمة التي خدموها بفخر تواجه خطراً متزايداً من الداخل ، وأن لا سبيل لإنقاذها إلا بالكشف عما أنجزته في الماضي وما تفعله اليوم . ويتطلب فهم كلا الحالين معرفة كيف نشأت ولماذا .

الفصل الثاني

قبل البداية

منذ الفجر جاء المؤمنون إلى أقدس حائط في العالم ، حائط المبكى ، وهو كل ما بقي من أثر للهيكل الثاني الذي بناه هيرود العظيم في القدس . الفتى والعجوز والنحيل والسمين والملتحي والأصلع ، كلهم جاءوا عبر الشوارع الضيّقة أو من خارج جدران المدينة .

كان الكتبة يسيرون إلى جانب الأعيان الآتين من التلال المرتفعة خلف القدس . أما الفتيان الذين في الثالثة عشرة من العمر ، (وقد احتفلوا باسترجالهم حديثاً) فقد ساروا باعتزاز إلى جانب رجال في خريف عمرهم . وجنباً إلى جنب مشى معلمو الكنس الدينية القائمة في المدينة وأصحاب الحوانيت الذين قطعوا مسافات طويلة قادمين من حيفا وتل أبيب وقرى محيط بحر الجليل .

كانوا جميعاً متجلببين بالسواد ويحمل كل منهم كتاب صلاة ، ويقف أمام الحائط المرتفع ليقرأ بصوت مسموع أجزاء من كتاب التوراة .

منذ قرون واليهود يفعلون هذا . لكن مساء يوم الجمعة هذا من أيلول (سبتمبر) 1929 كان مختلفاً . لقد استحث الرابيون ما أمكنهم من الرجال للصلاة جماعةً ولإظهار تصميمهم على ممارسة حقهم في هذا . ولم يكن المقصود من ذلك التعبير عن إيمانهم فقط ، بل أن يكون أيضاً رمزاً ظاهراً لصهيونيتهم ، وذكرى للسكان العرب الذين يفوقونهم عدداً بكثير أن التهديد لن يروّعهم .

منذ شهور والإشاعات تتوالى عن أن السكان المسلمين يستشيطون غيظاً من جديد إزاء ما يعتبرونه توسّعاً صهيونياً . كانت هذه المخاوف قد بدأت بإعلان بلفور عام 1917 وعده

بتأييد قيام وطن يهودي في فلسطين . واعتبر العرب ذلك إهانة ، فهم يعيشون فيها ويحرثونها منذ عهد النبي محمد (ص) . وها هي الآن تتعرض للخطر ، وربما سلبهم إياها الصهيونيون وحماتهم البريطانيون الذين جاءوا عند نهاية الحرب العظمى ليضعوا فلسطين تحت الانتداب . وهنا كما في أجزاء أخرى من الإمبراطورية ، حاول الحكّام البريطانيون استرضاء الجانبين معاً . فجرّت سياستهم هذه الكارثة ، فازداد التوتر بين اليهود والعرب ، ووقعت مناوشات وعمليات سفك دماء . وغالباً ما كان السبب خلاف حول مكان بناء اليهود كنسهم وبيوت عبادتهم . لكن اليهود كانوا مصممين بعناد على ممارسة "حقوق العبادة" عند حائط المبكى في القدس . إذ اعتبروا ذلك جزءاً من عقيدتهم الإيمانية .

وبحلول الظهر ، موعد تأدية صلاة "اسمع يا إسرائيل" ، كان هناك ما يقرب من ألف شخص يقرأون بصوت عال كلمات التوراة القديمة أمام الحائط المبني بالحجر الرملي الأصفر . كان لأصواتهم المتذبذبة إيقاعاً مأنوساً .

وفجأة وبسرعة صاعقة أمطرت السماء قذائف : حجارة وقناني مكسورة وعلب معدنية مملوءة بالحجارة الصغيرة . شن الهجوم عرب أخذوا استحكامات حول حائط المبكى . ولعلع صوت أول رصاصة ، رشق غير متقن لطلقات من بنادق مشاة قديمة يستخدمها قناصة مسلمون . سقط بعض اليهود مصابين فجرّهم وراءهم جيرانهم الفارون . وكانت معجزة أن أحداً لم يقتل وأن يكن الجرحى بالعشرات .

في تلك الليلة اجتمع قادة الجالية اليهودية في فلسطين ، وسرعان ما تبيّن لهم أن مظاهرتهم التي اعتنوا بتنظيمها كانت تفتقر إلى عنصر أساسي : العلم المسبق بالهجوم العربي .

وباسم الحضور تحدّث أحدهم فقال : "إننا بحاجة لتذكّر ما جاء في التوراة . منذ داود الملك وجماعتنا تعتمد على الاستخبارات الجيدة" .

وبينما كان الحضور يتناولون القهوة والحلويات غرسوا البذار الذي سيصبح في ما بعد أشد أجهزة استخبارات العالم الحديث إرهاباً : الموساد .

لكن ولادة هذا الجهاز ستنتظر ربع قرن . كل ما أمكن زعماء اليهود اقتراحه كخطوة عملية أولى في تلك الليلة الدافئة في أيلول (سبتمبر) هو تجميع ما توفّروا عليه من مال والطلب إلى جيرانهم أن يفعلوا مثلهم ، على أن يستخدم المال المجموع لرشوة حفنة من العرب

كانت لا تزال متسامحة تجاه اليهود وتقدّم لهم التحذيرات قبل وقوع أي هجمة جديدة .

في الوقت نفسه يستمر اليهود في ممارسة حقهم بالصلاة عند حائط المبكى ، وهم لن يعتمدوا على الحماية البريطانية بل ستدافع عنهم عصابة الهاغانا ، الميليشيا اليهودية الحديثة العهد . وفي غضون الأشهر التالية أمكن الاستعانة المزدوجة بالإنذار المسبق ووجود الميليشيا لإحباط الهجمات العربية . وساد الهدوء النسبي من جديد بين العرب واليهود للسنوات الخمس التالية .

في تلك الفترة استمر اليهود في توسّعهم السري في جمع المعلومات الخطيرة . ولم يكن للعملية اسم رسمي ولا قيادة . وكان يجري تجنيد العرب بصورة مرتجلة : باعة الكشة الذين يعملون في الحي العربي في القدس وماسحي الأحذية الذين يمسحون أحذية ضباط الانتداب ، هؤلاء جُعلوا موظفين دائمين . وكان إلى جانبهم طلبة من كلية الروضة العربية في المدينة وكذلك بعض المعلمين ورجال الأعمال . ورويداً رويداً تمكّن زعماء اليهود من الحصول على معلومات مهمة ليس عن العرب وحدهم بل وعن البريطانيين ومقاصدهم .

كان مجيء هتلر إلى الحكم عام 1933 بداية نزوح اليهود الألمان إلى فلسطين . وبحلول عام 1936 كان ما يزيد على ثلاثمائة ألف قد قاموا برحلة طويلة عبر أوروبا . وكان عدد كبير منهم قد أصبح معدماً عندما بلغ الأرض المقدّسة . وتمكّن الزعماء اليهود من إيجاد الطعام والمسكن لهم . وخلال أشهر أصبح اليهود يعدّون أكثر من ثلث السكان . ومرة أخرى جاء رد الفعل العربي نفسه : ارتفعت من مآذن مئات المساجد صيحات رجال الدين الداعية إلى إلقاء الصهيونيين في البحر .

وخلال كل اجتماع لأعضاء المجالس المحلية كانت أصوات الاحتجاجات الغاضبة ترتفع بوجوب "منع اليهود من أخذ أرضنا! يجب أن نمنع البريطانيين من تزويدهم بالسلاح وتدريبهم" .

زعم اليهود من جهتهم أيضاً أن العكس هو الصحيح ، وأن البريطانيين يشجّعون العرب على أن يستعيدوا بالسرقة أراضٍ دفعت أثمانها بطريقة مشروعة .

واستمر البريطانيون في محاولتهم تهدئة الجانبين – لكنهم فشلوا . وعام 1936 تحولت الاشتباكات المتفرقة إلى ثورة عربية واسعة النطاق ضد البريطانيين واليهود معاً . فقمع البريطانيون التمرّد بلا هوادة . أما اليهود فقد شعروا بأن غضب العرب سيثور من جديد ولن يلبثوا أن يعاودوا الضرب .

وفي جميع أنحاء فلسطين اندفع الشبان اليهود للانضمام إلى الهاغاناه . وأصبح هؤلاء نواةً لجيش سرّي مرعب : رماة ممتازون متينو الأجساد ويتمتعون بدهاء ثعالب الصحراء في النقب .

وتمدّدت شبكة المخبرين العرب . وأنشئت دائرة سياسية تابعة للهاغاناه لإثارة الشقاق من خلال الإعلام المضلّل . في هذه الفترة المهمة التي سبقت الحربَ العالمية الثانية اكتسب بعض اليهود بالتجربة المهارات التي جعلت منهم في ما بعد نوابغَ في دنيا الاستخبارات الإسرائيلية . وأصبحت الهاغانا أكثر القوى العاملة في فلسطين وأوسعها معرفة .

أعقبت الحرب العالمية الثانية فترة جديدة من السلم المتقلقل في فلسطين . وشعر اليهود والعرب على السواء أي مستقبل مظلم ينتظرهم إذا انتصر النازيون . كانت قد بلغت زعماء اليهود في فلسطين الأخبار الأولى عما يجري في معسكرات الموت في أوروبا .

كان ديفيد بن غوريون واسحق رابين في عداد من أمّوا اجتماعاً في حيفا عقد عام 1942 ، وشهد إجماعاً في الرأي على ضرورة الإتيان بالناجين من "المحرقة النازية" إلى وطنهم الروحي "أرض إسرائيل" . ولم يمكن لأحد أن يقدر عدد أولئك الناجين ، إلا أن الجميع اتفقوا على أن وصول اللاجئين سيجدّد المواجهة مع العرب ، وهذه المرة سينحاز البريطانيون صراحة ضد اليهود . كانت بريطانيا قد أعلنت بإصرار أنها سترفض دخول الناجين إلى فلسطين بعد هزيمة هتلر بحجة أن ذلك سيخلّ بالميزان السكاني .

وصادق المجتمعون على مطالبة بن غوريون بتحسين طاقة الهاغانا الاستخبارية ، واتفق على تجنيد مزيد من المخبرين . كما أنشئت وحدة مضادة للاستخبارات للكشف عن هوية اليهود الذين يتعاونون مع البريطانيين واقتلاع "الشيوعيين والمنشقين من بيننا" . وعُرفت الوحدة الجديدة باسم "ريغول هغدي" ، ووضعت بأمرة عضو سابق في رابطة المحاربين القدامى الفرنسيين – وهي جيش من المرتزقة الأجانب أنشأه الفرنسيون – يعمل متخفياً بثياب بائع متجوّل .

ولم يلبث قائد هذه الوحدة أن عثر على نساء يهوديات يصادقن ضباطاً من سلطة الانتداب وكذلك على أصحاب حوانيت يتاجرون مع البريطانيين وأصحاب مقاهٍ كانت تستضيفهم .

وفي حَلَك الليل كان هؤلاء "الجناة" يمثلون أمام المحاكم الميدانية العسكرية للهاغانا ،

ومن يُدَن منهم كان يحكم عليه بالضرب المبرّح أو يُعدم في تلال يهودا برصاصة واحدة في مؤخرة الرأس . كان هذا نذيراً للقسوة الوحشية التي اشتهر بها الموساد في ما بعد .

بحلول عام 1945 أصبحت الهاغانا تضم وحدة مسؤولة عن اقتناء الأسلحة . ولم تلبث كميات الأسلحة الإيطالية والألمانية التي تم الاستيلاء عليها في شمال أفريقيا بعد هزيمة روميل أن راحت تهرَّب عن طريق الجنود اليهود العاملين مع الحلفاء عبر صحراء سيناء إلى فلسطين . وكانت الأسلحة تصل محمّلة على الشاحنات المتداعية وقوافل الجمال فتخزّن في كهوف البرية .

بعد هزيمة اليابان في آب (أغسطس) 1945 التي أدت إلى إنهاء الحرب ، وصل اليهود الذين عملوا في وحدات الاستخبارات العسكرية التابعة لدول الحلفاء ليقدموا خبرتهم إلى الهاغانا . كانت الاستعدادات قد اتخذت لخوض ما توقّع بن غوريون نشوبها : "الحرب من أجل استقلالنا" .

كان يعرف أن الشرارة التي ستشعل تلك الحرب هي العملية غير المسبوقة للمجيء بالناجين من "المحرقة النازية" من أوروبا . في البدء جاءوا بالمئات ثم بالآلاف ثم بعشرات الآلاف . وكان عدد كبير منهم لا يزال يرتدي ملابس معسكرات الاعتقال النازية ، وكلٌ يحمل وشماً نازياً يعرّف عنه . وقد وصلوا عن طريق البر والسكك الحديد عابرين بلاد البلقان ثم عباب البحر المتوسط ليصلوا إلى شواطئ فلسطين . وكانت وكالات الإغاثة اليهودية في الولايات المتحدة قد اشترت أو استأجرت كل السفن المتوافرة وغالباً بأثمان باهظة جداً : سفن الشحن البخارية غير النظامية ، سفن السواحل التجارية ، سفن الإنزال من شواطئ النورماندي ، الزوارق النهرية ، وأدخل في الخدمة كل شيء قابل للطوف . لم تجرِ عملية جلاء مماثلة منذ عملية دنكرك عام 1940 .

كان بانتظار الناجين على الشواطئ الممتدة بين حيفا وتل أبيب جنود بريطانيون كانوا هم أنفسهم قد نقلوا بحراً من دنكرك إلى إنكلترا . وقد كلّفوا تنفيذ أمر الحكومة بمنع الناجين من النزول على الشواطئ . فوقعت بعض الاشتباكات المريعة ،لكن كانت هناك حالات عمد فيها الجنود إلى غض النظر بينما كانت زوارق اللاجئين تجّد السعي نحو الشاطئ .

وقرّر بن غوريون أن هذه الأعمال الرحيمة لا تكفي . فقد آن الأوان لإنهاء الانتداب . ولا سبيل إلى ذلك إلا بالقوة . وبحلول عام 1946 كان قد وحّد الحركات اليهودية السرية المتنافرة ، فصدر الأمر بشن حرب عصابات ضد البريطانيين والعرب .

كان كل قائد عسكري يهودي يعرف أن تلك مقامرة خطرة : فالحرب على جبهتين سيستنفد مواردهم وستكون عواقب الفشل رهيبة . وأمر بن غوريون باتباع سياسة "كل شيء مباح" . ولم تلبث قائمة الأعمال العدوانية للجانبين أن أظهرت وجهها المقزّز . كان إعدام اليهود يتم للاشتباه بتعاونهم مع الهاغانا وكان الجنود البريطانيون يُغتالون وحواجزهم تتعرّض للتفجير ، كما جرى إحراق القرى العربية . كانت ضراوة الحرب تذكّر بالقرون الوسطى .

ورأت الهاغانا أن الاستخبارات عنصر حاسم ، ليس أقلّه لبثّ الإشاعات المغلوطة التي تعطي الانطباع للبريطانيين والعرب بأن لدى اليهود من الرجال ما لا يستطيعون تجنيده فعلاً . ووجد البريطانيون أنفسهم يطاردون عدواً سرابياً ، فتدهورت المعنويات في صفوف قوات الانتداب .

ورأت الولايات المتحدة أن هناك فرصة للتوسّط وصولاً إلى اتفاق ، فعرضت في ربيع 1946 حلاً تسمح بريطانيا بموجبه بإدخال مائة ألف يهودي أوروبي إلى فلسطين . لكن رُفض تدخلها واستمر القتال المرير . وأخيراً في شباط (فبراير) 1947 وافقت بريطانيا على الانسحاب من فلسطين في أيار (مايو) 1948 . ومنذ ذلك الوقت أنيط بالأمم المتحدة أمر معالجة مشاكل الدولة التي ستعرف باسم "إسرائيل" .

شعر بن غوريون بأن صراعاً حاسماً لا بد أن ينشب مع العرب لضمان عدم خنق الدولة الوليدة لدى ولادتها ، وكذلك كان حال مساعديه من القادة العسكريين . ولذلك فقد رأوا ضرورة استمرار الاعتماد على التفوّق في مجال الاستخبارات ، فحصلوا على معلومات دقيقة عن معنويات العرب وقوّتهم العسكرية, وتمكّن جواسيس يهود متمركزون في القاهرة وعمّان من سرقة خطط الهجوم التي أعدها الجيشان المصري والأردني . وعندما اندلع ما سمي "حرب الاستقلال" حقّق الإسرائيليون انتصارات عسكرية باهرة . لكن اتضح أيضاً لبن غوريون أثناء القتال أن النصر النهائي يجب أن يقوم على الفصل الواضح بين المطامح السياسية والعسكرية . وعندما تحقّق الأمر فعلاً عام 1949 لم يكن ذلك الفصل قد أنجز بالفعل . وقد أدّى ذلك إلى الاختصام الداخلي في أوساط أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية حول مسؤولياتها في زمن السلم .

وفضّل أول رئيس وزراء لإسرائيل ، بن غوريون ، عدم معالجة الموقف بحدته المعتادة ، وعوضاً عن ذلك أقام خمسة أجهزة استخبارات تعمل في الداخل وعبر الحدود . وجرى

تصميم الجهاز الخارجي وفقاً لطراز أجهزة الأمن البريطانية والفرنسية . وقد وافقت أجهزة هذين البلدين بدون تردد على التعاون مع الإسرائيليين .

وأقيم اتصال مع مكتب الخدمات الاستراتيجية الأميركي "أو . أس . أس ." في واشنطن بوساطة رئيس وحدة الاستخبارات المضادة في إيطاليا التابعة للوكالة جيمس جيزس انجلتون . وقد أنشأ هذا رابطة مع جواسيس إسرائيل الأغرار سيكون لها دور حاسم في عملية بناء الجسور التي جرت لاحقاً بين أجهزة الاستخبارات لدى الطرفين .

ومع ذلك ، وعلى رغم هذه البداية المشجعة فان حلم بن غوريون ببناء منظمة استخبارات متكاملة تعمل بانسجام مات وسط آلام المخاض لدولة كانت هي أيضاً تناضل من أجل هوية متماسكة . وبقيت اللعبة المفضلة هي عرض العضلات بينما تقاتل الوزراء والمسؤولون على السلطة والمناصب . ووقعت اصطدامات على كل مستوى . فمن يتولّى منصب منسّق الاستراتيجية الاستخباراتية العامة؟ ومن يقوم بتقويم المعلومات الأولية؟ ومن يتولى عملية تجنيد الجواسيس؟ ومن هو أول من يطّلع على تقاريرهم؟ ومن هو من يفسّر تلك المعلومات لقادة البلاد السياسيين؟

وكان التزاحم على السلطة على أشدّه بين وزارة الخارجية ووزارة الدفاع اللتين زعمت كل منهما حقاً في العمل عبر الحدود . ويقول إيسر هاريل الذي كان عميلاً شاباً يومئذ أنه شعر أن زملاءه "نظروا إلى عمل الاستخبارات نظرة رومانسية مغامرة . وقد ادّعوا أنهم خبراء مجرّبون ... وسعوا للتصرّف كالجواسيس الدوليين الخرافيين الذين يتمتعون بمجدهم وهم يعيشون في ظل الخط الدقيق الفاصل بين القانون والتحلّل من كل قيد" .

في هذه الأثناء ، استمرت عمليات القتل على أيدي رجال العصابات العرب وقنابلهم وأفخاخهم المتفجّرة . وظلت جيوش سورية ومصر والأردن ولبنان مصدر تهديد . وخلفهم ملايين العرب على أهبة إعلان الجهاد المقدس . ما من دولة على الأرض ولدت وسط مثل هذه البيئة المعادية كحال إسرائيل .

ولمدة أربعة أعوام استمر التنافس والقنص والتشاجر لأسباب تافهة خلال جميع تلك الاجتماعات التي ترأسها بن غوريون في إطار محاولات لحل الخلافات داخل أجهزة الاستخبارات . كانت وزارة الدفاع قد أحبطت خطة واعدة وضعتها وزارة الخارجية لاستخدام ديبلوماسي فرنسي كجاسوس لها في القاهرة . وكان ذلك لأن وزارة الدفاع أرادت

أن تعيّن رجلاً اختارته هي لهذه المهمة . وتمكّن مسؤولو الأمن المصريون خلال أسابيع من القبض على الضابط الشاب الذي لم تكن له خبرة حقيقية في أعمال الاستخبارات . وتبيّن أن العملاء الإسرائيليين في أوروبا يعملون في السوق السوداء الفائرة لتمويل نشاطهم لأن الموازنة الرسمية لم تكن تكفي لتغطية نفقات نشاطاتهم التجسّسية . وأحبطت المحاولات لتجنيد بعض العناصر المعتدلة في لبنان عندما اختلفت وكالات الاستخبارات الإسرائيلية المتنافسة في شأن كيفية استخدامها . وغالباً ما تحطمت الخطط الفخيمة تحت وطأة الشك المتبادل . كان الطموح الجامح سيّد الموقف .

جميع الأطراف القوية في ذلك العهد - وزير خارجية اسرئيل ورئيس أركان الجيش والسفراء - خاضت الحرب لتثبت تفوّق الجهاز المفضل لديها على ما عداه . كان فريقٌ يريد أن يكون التركيز على جمع المعلومات الاقتصادية والسياسية ، وفريقٌ آخر يظن أن على الاستخبارات أن تركّز فقط على قوة العدو العسكرية . وأصر سفير إسرائيل إلى فرنسا على أن تعمل الاستخبارات بالطريقة عينها التي عملت بها المقاومة الفرنسية في الحرب العالمية الثانية وأن تجري تعبئة كل يهودي في البلاد . أما سفير إسرائيل إلى واشنطن فأراد حماية جواسيسه بغطاء ديبلوماسي ، وأن "يجري إدخالهم إلى عمل السفارة الروتيني حتى يصبحوا فوق الشبهات" . وكان السفير الإسرائيلي إلى بوخارست يريد أن يعمل جواسيسه على طريقة الاستخبارات السوفياتية "كي . جي . بي ." - وأن يكونوا قساة القلوب . وطلب الوزير المفوّض الإسرائيلي في بوينس أيرس أن يركّز العملاء على دور الكنيسة الكاثوليكية في مساعدة النازيين على الإقامة والاستقرار في الأرجنتين . وكان بن غوريون يستمع بصبر وأناة إلى كل اقتراح .

وأخيراً في 2 آذار (مارس) 1951 ، استدعى بن غوريون رؤساء وكالات الاستخبارات الخمس إلى مكتبه ، وأبلغهم إنه يعتزم أن يوكل نشاطات جمع المعلومات السرية عبر الحدود إلى وكالة جديدة تدعى "هاموساد لي تيبيوم" (المعهد من أجل التنسيق) . وستكون ميزانيتها الأولية عشرين ألف ليرة إسرائيلية ينفق خمسة آلاف منها على "المهمات الخاصة ولكن فقط بعد أخذ موافقتي" . وستختار الوكالة الجديدة موظفيها من وكالات الاستخبارات القائمة . وفي الاستخدام اليومي كان يطلق على الوكالة اسم "موساد" .

وسيخضع الموساد "في جميع الشؤون الإدارية والسياسية" لوزارة الخارجية ، ولكن

سيكون بين كبار موظفيه ممثلون عن المنظمات الأخرى العاملة في حقل الاستخبارات الإسرائيلية : شين بيت (الأمن الداخلي) ، وأمان (الاستخبارات العسكرية) ، واستخبارات القوات الجوية والاستخبارات البحرية . وستكون وظائف الضباط إبقاء الموساد على علم بمتطلبات "زبائنهم" المحددة . وفي حال وقوع خلاف في شأن أي طلب تحال المسألة إلى مكتب رئيس الوزراء .

وبطريقته الصريحة المعتادة وضع بن غوريون الشرط : "انتم تقدمون إلى الموساد قائمة مشترواتكم . فيذهب الموساد بعدها ويشتري البضائع . وليس من شأنكم معرفة من أين اشتروها ولا كم دفعوا ثمنها" . وسيكون بن غوريون بمفرده لجنة مراقبة تشرف على الجهاز الجديد . وفي مذكرة إلى أول رئيس للجهاز ، روفين شيلواه ، أمر رئيس الوزراء بأن "يعمل الموساد بإدارتي ووفقاً لتعليماتي ويرفع تقاريره إليّ باستمرار" . هكذا أرسيت القواعد الإجرائية .

كانت ولادة الموساد بالغة الصعوبة كولادة إسرائيل نفسها . وقد استولى الجهاز على عصابة تجسّس في العراق كانت تعمل لسنوات بإدارة "الدائرة السياسية في قوات الدفاع" الإسرائيلية . كانت الوظيفة الرئيسية للعصابة اختراق الدوائر العليا للجيش العراقي وإدارة شبكة هجرة سرية لإخراج اليهود العراقيين والمجيء بهم إلى إسرائيل .

وفي أيار (مايو) 1951 بعد مرور تسعة أسابيع على توقيع بن غوريون مرسوم إنشاء الموساد انقض مسؤولو الأمن العراقيون في بغداد على العصابة ، فاعتقلوا عميلين إسرائيليين إلى جانب عشرات اليهود العراقيين وغيرهم من العرب الذين تلقوا الرشاوى مقابل إدارة شبكة الفرار التي انتشرت في منطقة الشرق الأوسط . ووُجّهت تهمة التجسّس إلى ثمانية وعشرين شخصاً وحُكم على العميلين بالإعدام وعلى سبعة عشر آخرين بالسجن المؤبد فيما أطلق سراح الآخرين "كنموذج على عدالة القضاء العراقي" .

وقد أطلق في ما بعد سراح عميلي الموساد اللذين تعرضا للتعذيب في أحد السجون العراقية ، وذلك مقابل مبلغ ضخم من المال وُضع في حساب وزير الداخلية العراقي في أحد المصارف السويسرية . .

أعقب ذلك وقوع انهيار آخر . كان تيودور غروس الجاسوس الذي عمل طويلاً في روما لمصلحة الدائرة السياسية قد أصبح خاضعاً للموساد وفقاً للهيكلية الجديدة . وفي كانون الثاني (يناير) 1952 تلقّى إيسر هاريل الذي كان يرأس "شين بيت" (جهاز الأمن الداخلي

في إسرائيل) ، "برهاناً لا جدال فيه" بأن غروس عميل مزدوج وأنه على جدول رواتب الاستخبارات المصرية . فقرّر هاريل السفر إلى روما وأقنع غروس بالعودة إلى تل أبيب لإشغال منصب رفيع في "شين بيت" . وقد حوكم غروس سراً ودين وحكم عليه بالسجن لمدة خمس عشرة سنة . ومات وهو سجين .

وشعر روفين شيلواه بالخزي فاستقال بذل . وحل هاريل مكانه وبقي رئيساً للموساد لمدة إحدى عشرة سنة وهي أطول مدة في رئاسة الجهاز .

ولم يؤخذ كبار الموظفين الذين رحّبوا بهاريل في المقر الرئيسي للموساد في صباح ذلك اليوم من أيلول (سبتمبر) 1952 بمظهره الجسدي . فهو بالكاد يصل إلى متر وأربعين سنتمتراً طولاً ، وأذناه كأذني الجرة ويتكلم العبرية بلكنة وسط أوروبية ثقيلة (هاجرت عائلته من لاتفيا عام 1930) . أما ملابسه فبدت كأنه كان نائماً بها .

وكان أول ما قاله للموظفين المجتمعين : "الماضي مضى . والأخطاء لن تتكرر . سوف نمضي قدَماً سوية . ولن نتكلم مع أحد بل في ما بيننا" . وقدّم في ذلك اليوم بالذات أمثولة عما يقصده . فبعد تناول الغداء استدعى سائقه ، وعندما سأل هذا إلى أين يتجهان أبلغه أن وجهة السير سر . ثم بعد طرد السائق قاد هاريل السيارة بنفسه ثم عاد وهو يحمل صندوقاً من الحلوى قدمه للموظفين . وقد فهم الجميع القصد . فهو وحده من يطرح الأسئلة .

كانت تلك لحظة التعارف التي قربت هاريل من قلوب موظفيه المحبطين . فانطلق يملؤهم بالنشاط والحيوية بقدوته . فسافر سراً إلى بلدان عربية عدائية لينظم بنفسه شبكات الموساد . وأجرى مقابلة مع كل شخص أراد الانضمام إلى الجهاز . وكان يبحث عن أمثاله ممن نشأوا في الكيبوتزات (المزارع الجماعية اليهودية) .

"مثل هؤلاء الناس يعرفون عدوّنا" ، كما أبلغ إلى أحد مساعديه الكبار الذي استفسر عن سياسته . وتابع قائلاً "إن العاملين في تلك المزارع يقيمون قريباً من العرب . وقد تعلموا لا أن يفكروا مثلهم فقط ، بل أن يفكروا أسرع منهم" .

كان صبر هاريل خارقاً كسورات غضبه . واشتهر أيضاً بإخلاصه لموظفيه . وكل من كانوا خارج دائرته المغلقة كانوا مثار شك و"انتهازيين بلا مبدأ" . ولم يكن يقبل التعامل مع أشخاص كان يعتبرهم "متعصبين يتبرقعون ببرقع الوطنية ، خصوصاً المتعصبين دينياً" . وشيئاً فشيئاً كان يظهر كرهه الصريح لليهود الحرفيين .

وكان عدد كبير من هؤلاء في حكومة بن غوريون ، وسرعان ما صاروا يستاؤون من إيسر هاريل ، ثم حاولوا إيجاد سبيل لإزاحته ، لكن رئيس الموساد الماكر ضمن بقاءه إلى جوار كيبوتزي آخر هو رئيس الوزراء .

من المفيد أن سجل الموساد أصبح يفصح عما فيه . لقد أسهم عملاء هاريل في إنجاح المناوشات التي وقعت في سيناء ضد المصريين . كان عملاؤه يتمركزون في كل عاصمة عربية ويقدّمون سيلاً مستمراً من المعلومات القيّمة . وكانت الضربة الموفقة الأخرى عندما سافر إلى واشنطن عام 1954 للقاء ألان دالاس الذي كان قد تسلّم للتوّ إدارة "سي . آي . أي ." . قدم هارل إلى كبير الجواسيس المحنّك خنجراً حفرت عليه عبارة من المزامير : " إن راعي اسرائيل لا يغفو ولا ينام" .

ورد دالاس : " إنك تستطيع أن تتكل عليّ لأبقى سهران إلى جانبك" .

نشأت عن هذه الكلمات شراكة بين الموساد و"السي . آي . أي ." . فقد أعدّ دالاس العدة لتحصل الموساد على أحدث المعدات من أجهزة التنصت والتتبع إلى الكاميرات المشغّلة عن بعد ، ومجموعة من الأدوات التي أقرّ هاريل بأنه لم يكن يعلم بها . وأنشأ الرجلان أيضاً أول "قناة خلفية" استخبارية بين جهازيهما يستطيعان عبرها الاتصال باستخدام هاتف سرّي في الحالات الطارئة . ومن ناحية عملية ، تجاوزت القناة الطريق الديبلوماسي العادي وهو ما كدّر وزارتي الخارجية في الولايات المتحدة وإسرائيل . ولم يساعد ذلك على تحسين مركز هاريل في الدوائر الديبلوماسية .

وعام 1961 وجه هاريل عملية تهدف إلى جلب آلاف اليهود المغاربة إلى إسرائيل . وبعدها بعام كان رئيس الموساد النشيط في جنوب السودان يساعد الثوار الموالين لإسرائيل في حربهم ضد النظام . وفي العام نفسه أيضاً ، ساعد الإمبراطور الحبشي هيلا سيلاسي ، حليف إسرائيل القديم ، على سحق المحاولة الانقلابية لإطاحته .

أما على الجبهة الداخلية فقد أصبح اليهود الحرفيين في الحكومة أشد صخباً في شكواهم من أن إيسر هاريل صار أوتوقراطياً بما لا يطاق وما يزال يزداد استخفافاً بمشاعرهم الدينية المرهفة ، وإن له برنامجه الخاص وربما تملّكه طموح ليصل إلى أعلى منصب سياسي في الدولة . كانت مخاوف بن غوريون السياسية على أشدها فبردت العلاقات بينه وبين هاريل . وبعدما كان يمنح هاريل حرية شبه كاملة في الحركة إذا به الآن بدأ يطالب باطلاعه

على أدق تفاصيل كل عملية . ولم يرق هذا القيد لهاريل لكنه لم يشكُ ، وتصاعدت حملة التهامس عليه .

وفي شباط (فبراير) 1962 تضامن أصحاب حملات التعريض في قضية الطفل ذي الثماني سنوات جوزيل شوماخر . قبل ذلك بسنتين كانت طائفة يهودية متعصبة قد خطفت الطفل من والديه . كان جدّ الطفل لجهة والدته نعمان شتركس عضواً في طائفة "ناطوري كارتا" (نواطير المعبد) وقد اشتبه بضلوعه في الاختطاف . ونظّمت الشرطة عملية بحث واسعة عن جوزيل لكنها لم تتوصّل إلى أي دليل على مكان وجوده . وكان نعمان قد أُدخل السجن لفترة قصيرة لرفضه التعاون مع التحقيق ، فجعل اليهود الحرفيون من نعمان شهيداً وتظاهر الآلاف وهم يرفعون يافطات تعلن أن بن غوريون بسجنه رجلاً عجوزاً لا يختلف عن النازيين . وأطلق سراح نعمان "لأسباب صحية" لكن أعمال الاحتجاج استمرت .

وتلقّى بن غوريون تحذيراً من مستشاريه السياسيين بأن القضية قد تكلّفه خسارة الانتخابات المقبلة . والأسوأ من ذلك ، إنه في حال نشوب حرب أخرى مع العرب فإن بعض المجموعات الدينية الحرفية قد تساند العرب فعلاً . فأرسل رئيس الوزراء الذي كان يعد للمعركة يستدعي هاريل وأمر الموساد بالعثور على الطفل . وردّ هاريل بأن هذا ليس من مهام الجهاز . وبما قاله في ما بعد : "تكهرب الجو . فأعاد القول إنه يصدر إليّ أمراً . فقلت انني أحتاج على الأقل إلى الاطلاع على ملف الشرطة . فقال رئيس الوزراء انه يمهلني ساعة" .

كان الملف ضخماً ، ولكنه حرّك في أعماق إيسر هاريل وهو يقرأه شيئاً ما – حق الوالدين بأن ينشئوا طفلهما بعيداً عن ضغوط الإيمان الديني المتطرّف .

كان جوزيل قد ولد في آذار (مارس) 1953 لوالدين هما آرثر وإيدا شوماخر . ونظراً للصعوبات المالية التي مرت بها العائلة أرسل جوزيل للإقامة مع جدّه في القدس حيث وجد الطفل نفسه في جيب ديني محاصر ، منعزل روحياً عن باقي المدينة . شيئاً فشيئاً ، شرّب نعمان حفيده مبادئ الطائفة . وعندما جاء والدا جوزيل لزيارته أظهر نعمان غضبه وهو ينتقد مواقفهما الدينية الشاذّة .

كان الرجل العجوز من جيل أعانه إيمانه الديني على البقاء حياً على رغم "المحرقة النازية" . وشعرت ابنة نعمان وصهره أن دورهما الأول هو تأسيس حياتهما في الدولة الشابة ، ما أدى في الغالب إلى حلول الصلاة في مركز الاهتمام الثاني .

وإذ ضاق والد جوزيل ذرعاً بانتقادات نعمان المتكررة قالا انهما يريدان استعادة الطفل . فرفض نعمان بحجة أن انتقاله للعيش معهما سيعطّل تدريبه على حياة تعبّد ستفيده عندما يكبر . وتكررت المجادلات الغاضبة ، ثم عند زيارتهما الثانية إلى القدس كان جوزيل قد اختفى .

جرى استغلال الحدث من قبل اليهود الحرفيين والعلمانيين على السواء الذين نفثوا أحقادهم إزاء قضية كانت لا تزال تقسم البلاد ، وكان نموذجها حزب العمل بقيادة بن غوريون الذي ما كان ليستمر في السلطة لولا ضمه معاً مختلف المذاهب الدينية داخل البرلمان . وحصلت هذه المجموعات بدورها على مزيد من التنازلات لتشديد القوانين واتفاقها مع الشريعة . لكنهم كانوا دائماً يطالبون بالمزيد . وطالب اليهود الليبراليون بان يعاد جوزيل إلى أبويه .

عندما فرغ إيسر هاريل من قراءة الملف قال لبن غوريون إنه سيعبئ إمكانات الموساد ، فألف فريقاً قوامه أربعون عميلاً للعثور على جوزيل . وكان عدد منهم يعارضون صراحةً إساءة استعمال مهاراتهم بهذا الشكل . فأسكت انتقاداتهم بخطبة قصيرة : "على رغم إننا سنعمل خارج إطار أهدافنا المعتادة فان هذه تبقى قضية مهمة جداً . وتعود أهميتها إلى خلفيتها الاجتماعية والدينية ، وكذلك لكون هيبة حكومتنا وسلطتها في الميزان . وهي مهمة أيضاً لمساسها بالقضايا الإنسانية" .

واكتشف أعضاء الفريق خلال الأسابيع الأولى من التحقيقات مستوى الهول الذي سيكون عليه التحقيق .

عمد أحد عملاء الموساد الذي أصبح في ما بعد رئيساً لـ"الشين بيت" إلى تطويل شعره ولفه في جدائل جانبية كما يفعل الحرفيون المتطرفون وذلك لتسهيل اختراق صفوفهم . لكنه فشل . وأُمر عميل آخر للموساد بوضع إحدى المدارس اليهودية تحت المراقبة ، فأمكن التعرّف إليه بعد أيام قليلة . وحاول عميل ثالث التسلّل إلى داخل مجموعة من يهود أوروبا الشرقية كانوا يسافرون إلى القدس لدفن قريب لهم داخل جدران المدينة . ولكن سرعان ما جرّد من قناعه عندما لم يعرف تلاوة الصلوات الخاصة بالمناسبة .

لم تزد هذه الأفشال هاريل إلا إصراراً . فأبلغ أعضاء فريقه أنه متأكد من أن الطفل لم يعد في إسرائيل بل في مكان ما في أوروبا أو ربما أبعد من ذلك . ونقل هاريل مقر عملياته

إلى مكان آمن للموساد في باريس ، ومن هناك أرسل رجاله إلى كل جالية يهودية حرفية في إيطاليا والنمسا وفرنسا وبريطانيا . وعندما ذهبت جهوده أدراج الرياح أرسل عملاءه إلى أميركا الجنوبية والولايات المتحدة .

واستمرت الحوادث الغريبة تفعم التحقيق بالنشاط . وانضم عشرة عملاء للموساد إلى صلاة عادية صباح السبت في كنيس يقع في ضاحية هندن اللندنية . واستدعى جمع المصلين الغاضبين الشرطة لاعتقال "الدجالين الدينيين" بعدما ظهر زيف لحاهم أثناء التدافع . وأفرج عن العملاء بهدوء بعد تدخل السفير الإسرائيلي لدى وزارة الداخلية . دُعِيَ حاخام من اليهود الحرفيين إلى باريس بذريعة أن أحد أبناء العائلات الثرية يرغب في أن يحضر حفلة ختانه . فاستقبله على المطار رجلان يرتديان معطفين أسودين ويعتمر كل منهما قبعة سوداء شأن اليهود الحرفيين . كانا عميلين للموساد . وقد وضعا تقريراً يتضمّن عنصراً من عناصر الكوميديا السوداء :

"جرى اصطحابه إلى ماخور في حي البيغال ، ولم يكن يعرف ما هو . وفجأة ظهرت عاهرتان دفعنا أتعابهما وانقضتا عليه . فأخذنا صوراً تظهر فورياً وأطلعناه عليها وقلنا إننا سنرسلها إلى جماعته ما لم يكشف لنا عن مكان الصبي . وأقنعَنا الحاخام أخيراً بأنه لا يعرف فأتلفنا الصور أمام عينيه" .

وظهر حاخام آخر يدعى شاي فراير في خطة البحث التي وضعها إيسر هاريل والتي كانت تزداد توسعاً داخل عالم اليهود الحرفيين . عثر عملاء الموساد على الحاخام بينما كان يسافر بين باريس وجنيف . وبعد استجواب مضنٍ اقتنع العملاء بأنهم مرة أخرى يسيرون في طريق مسدود . عندئذ أمر هاريل باحتجاز فراير كَسجين في أحد منازل الموساد السريّة في سويسرا حتى نهاية البحث . فقد كان يخشى أن ينبّه الحاخام جماعة اليهود الحرفيين إلى ما كان يجري .

وظهر طرف خيط جديد عن طريق مادلين فراي وهي ابنة عائلة فرنسية أرستقراطية وإحدى بطلات المقاومة الفرنسية في الحرب العالمية الثانية . كانت مادلين قد أنقذت عدداً من الأطفال اليهود وحالت دون ترحيلهم إلى معسكرات الموت النازية . وبعد الحرب اعتنقت اليهودية .

وأظهرت التحريات أنها تتردّد على إسرائيل ، وتمضي مدة إقامتها مع أعضاء فرقة

"ناطوري كرتا" ، وإنها التقت جدّ جوزيل في مناسبات عدة . وكانت آخر زيارة لها إلى إسرائيل تمت في حوالي وقت اختطاف الصبي . ومنذ ذلك الحين لم تعد مادلين إلى إسرائيل .

وفي آب (أغسطس) 1962 ، أمكن عملاء الموساد أن يستدلّوا على مكان إقامتها في إحدى ضواحي باريس . وعندما عرّفوا بأنفسهم هجمت عليهم لتقاتلهم . فاستدعى أحد العملاء إيسر هاريل ، فشرح لمادلين "الإساءة الكبرى" التي لحقت بوالدي جوزيل . فلهما الحق المعنوي بتنشئة ابنهما كما يرغبان . ولا يجوز حرمان أي والدين من ذلك الحق . ولكن مادلين ظلت تصرّ على أنها لا تعرف شيئاً عن جوزيل .

ورأى هاريل أن رجاله يصدقونها . فطلب جواز سفر مادلين . وتحت صورتها كانت صورة لابنتها . فطلب من أحد العملاء أن يأتيه بصورة لجوزيل . فتبين أن تكوين الوجه لدى الطفلين في الصورتين متماثل تقريباً . فاتصل هاريل بتل أبيب . وخلال ساعتين :

"جاءني كل ما كنت بحاجة إلى معرفته ، من تفاصيل حياتها العاطفية خلال فترة دراستها إلى قرارها الانضمام إلى الحركة اليهودية الحرفية بعدما تخلت عن إيمانها الكاثوليكي . فعدت إلى مادلين وقلت لها ، بلهجة من يعرف كل شيء ، إنها صبغت شعر جوزيل لإخفاء هويته وهرّبت الصبي من إسرائيل . فأنكرت ذلك إنكاراً تاماً . فقلت يجب أن تعرف أن مستقبل البلد الذي أحبّته مهدّد بخطر ماحق وأن شوارع القدس تشهد أناساً أحبتهم وهم يتراشقون بالحجارة . ومع ذلك رفضت الاعتراف بشيء . قلت أن للصبي أماً تحبّه بقدر ما أحبت هي أولئك الأطفال الذين ساعدتهم في الحرب العالمية الثانية" .

نفعت الذكرى . وفجأة بدأت مادلين تشرح كيف أنها سافرت عن طريق البحر إلى حيفا كسائحة جاءت لتزور إسرائيل . وعلى متن السفينة تصادقت مع عائلة من المهاجرين الجدد كانت ابنتهم في عمر جوزيل . فاصطحبت الطفلة وهي تعبر اللوح الخشبي إلى البر في ميناء حيفا ، فظنّ الضابط المسؤول عن الجوازات إنها ابنة مادلين . فوضع إشارة بذلك في سجلاته . وبعد أسبوع وتحت أنظار الشرطة الإسرائيلية صعدت إلى الطائرة المتوجهة إلى زيورخ ومعها "ابنتها" . وكانت مادلين قد أقنعت جوزيل بارتداء ثياب فتاة وصبغ شعره .

عاش جوزيل مدة في مدرسة يهودية حرفية في سويسرا كان معلمه خلالها الحاخام شاي فراير . وعقب احتجازه ، سافرت مادلين بصحبة جوزيل إلى نيويورك حيث وضعت

الصبي بعهدة عائلة من طائفة "ناطوري كرتا" . وسألها هاريل سؤلاً أخيراً "هل تعطيني اسم وعنوان تلك العائلة؟" .

مضت برهة صمت طويلة قبل أن تجيب مادلين بهدوء "إنه يقيم في 126 شارع بن ، بروكلين ، نيويورك . وهو يعرف باسم يانكال غرتنر" .

ولأول مرة منذ بدء لقائهما ابتسم هاريل وقال "أشكرك يا مادلين . وأريد أن أهنئك بأن أعرض عليك وظيفة في الموساد . إن موهبتك مفيدة جداً لإسرائيل" .

رفضت مادلين العرض .

وسافر عملاء الموساد إلى نيويورك ، وكان بانتظارهم فريق من عملاء "مكتب التحقيقات الفيدرالي" (أف .بي .آي .) وقد صرّح لهم بالتعاون معهم وزير العدل الأميركي روبرت كينيدي ، الذي كان قد تلقى طلباً شخصياً من بن غوريون بهذا الخصوص . انطلق العملاء إلى المنزل رقم 126 في شارع بن . وحين فتحت الباب السيدة غرتنر اندفعوا إلى الداخل متجاوزينها . وهناك كان زوجها يؤدي الصلاة ، وبالقرب منه صبي شاحب الوجه يضع القلنسوة اليهودية على رأسه وتتدلّى الجدائل من جانبي وجهه .

قال أحد عملاء الموساد بلطف : " مرحباً يا جوزيل . لقد جئنا لإعادتك إلى منزلك" .

استغرق بحث الموساد ثمانية أشهر وأنفق على العملية ما يقرب من مليون دولار أميركي .

لم يكن لعودة جوزيل سالماً أثر إيجابي على الانقسام الديني داخل إسرائيل . واستمرت الحكومات اللاحقة تتداعى وتسقط وفق هوى الجماعات الحرفية المتطرفة الصغرى الممثلة في البرلمان .

وعلى رغم نجاح إيسر هاريل في العثور على الصبي فقد عاد إلى إسرائيل ليواجه منتقداً قوياً جديداً هو الجنرال مئير عميت الرئيس الجديد للاستخبارات العسكرية "أمان" . وكما تآمر هاريل على سلفه كذلك وجد نفسه هدفاً لانتقادات عميت اللاذعة لعملية إنقاذ جوزيل .

كان عميت وهو قائد ميداني مروّع قد أصبح قريباً من بن غوريون في رمال إسرائيل السياسية المتحركة على الدوام . وقد أبلغ رئيس الوزراء أن هاريل "بدد الموارد" وان عملية

الإنقاذ كلها برهان على أن رئيس الاستخبارات يجب أن يرحل . ووافق بن غوريون على هذا الرأي ناسياً إنه هو من أمر هاريل ببدء العملية . وفي 25 آذار (مارس) 1963 استقال إيسر هاريل وهو في سن الخمسين بعدما أدمته حملة انتقادية كثيفة استغرقت عدة أسابيع . كاد الرجال الناضجون ينفجرون بالبكاء وهو يصافحهم قبل أن يغادر المقر الرئيسي للموساد . كان الجميع يعلم أن عهداً قد ولّى .

وبعد ساعات كان رجل طويل القامة نحيل الجسم له ملامح الصقر ووسامة الممثل السينمائي يعبر بخفة أبواب المقر الرئيسي . تولى مئير عميت المنصب وسط شعور عارم بأن التغييرات وشيكة .

بعد خمس عشرة دقيقة على جلوسه وراء مكتبه ، استدعى رئيس الموساد الجديد رؤساء الأقسام في الجهاز . تجمهروا أمامه بينما حدّق فيهم بصمت . ثم تحدّث بالصوت الحاد نفسه الذي استخدمه لبدء هجمات الميدان التي لا تحصى :

لن تكون هناك أي عملية أخرى لاستعادة الأطفال المفقودين . ولن يكون هناك تدخّل سياسي غير ضروري . وهو سيتولى حماية كل منهم في وجه الانتقادات الخارجية ، ولكن إذا خيبوا أمله فلا أمل ببقائهم في مناصبهم . وسوف يقاتل من أجل زيادة حصة الجهاز من ميزانية الدفاع لشراء أحدث المعدات والموارد الإسنادية . لكن هذا لا يدل على أنه ينسى الثروة التي يقدرها فوق سواها : فن جمع المعلومات السرية عن طريق الأشخاص . كان يريد أن يكون هذا أعظم مهارات الموساد .

ووجد موظفو عميت أنه رجل يرى أن عملهم يتجاوز العمليات اليومية ويحمل نتائج سيظهر أثرها بعد سنوات . وفي هذه الخانة يقع اقتناء التكنولوجيا العسكرية .

بعد فترة قصيرة من تولي عميت القيادة دخل إلى السفارة الإسرائيلية في باريس رجل قال إن اسمه "سلمان" وقدّم عرضاً مذهلاً : مقابل مليون دولار أميركي تدفع نقداً يستطيع أن يضمن تزويد السفارة بالطائرة التي كانت يومئذ تعتبر الطائرة المقاتلة الأكثر سرّية في العالم ، "ميغ – 21" الروسية . وأنهى سلمان تقديم اقتراحه المدهش لأحد الديبلوماسيين الإسرائيليين بطلب غريب : "ارسلوا أحداً من قبلكم إلى بغداد وليطلب هذا الرقم ويسأل عن جوزف . ولتكن المليون دولار جاهزة" .

أرسل الديبلوماسي تقريره إلى الضابط المسؤول المقيم في السفارة . كان أحد الضباط

الذين لم يطاولهم التطهير الذي أعقب تعيين مئير عميت . وأرسل الضابط تقريره إلى تل أبيب ومعه رقم الهاتف الذي زوّده به سلمان .

وبقي مئير عميت أياماً وهو يزن الأمور في رأسه . قد يكون سلمان محتالاً يريد سلب المال بعد نيل الثقة أو شخصاً جامح الخيال أو حتى شريكاً في مؤامرة عراقية تهدف إلى الإيقاع بعميل موساد . كان هناك خطر كبير جداً من أن يفضح هذا الأمر ضباط استخبارات آخرين يعملون متخفين في العراق . لكن احتمال الحصول على طائرة "ميغ - 21" كان إغراء لا يقاوم .

كانت طاقتها على تخزين الوقود وارتفاعها وسرعتها وتسليحها ومدة صيانتها وتحويل اتجاهها قد جعلتها الطائرة المقاتلة العربية للخطوط الأمامية . وسيسرّ قادة القوة الجوية الإسرائيلية أن يدفعوا عدة ملايين من الدولارات مقابل إلقاء نظرة على خريطة طائرة الميغ ، فكيف إذا حصلوا على الطائرة نفسها . يقول مئير عميت : "ذهبت إلى النوم وأنا أفكر بالأمر . واستيقظت وأنا أفكر فيه . فكّرت فيه وأنا في الحمام ، وأنا أتناول العشاء . فكّرت فيه في كل لحظة فراغ . إن الاطلاع على نظام أسلحة متقدم في ترسانة العدو له الأولوية لدى أي جهاز استخبارات . والواقع إن الحصول على ذلك النظام أمر يكاد يكون غير ممكن" .

كانت الخطوة الأولى إرسال عميل إلى بغداد . وقد اختار مئير عميت له اسماً مستعاراً ، إنكليزياً كما هو على جواز السفر ، جورج بيكون . "فلا أحد سيظن أن يهودياً يمكن أن يكون له مثل هذا الاسم" . وسيسافر بيكون إلى بغداد بصفته مدير مبيعات لشركة مقرها لندن تبيع معدات تعمل بأشعة "إكس" .

وصل بيكون إلى بغداد على متن طائرة تابعة للخطوط الجوية العراقية وهو يحمل عيّنات مما يبيع داخل عدد من الصناديق . وأظهر مهارة فائقة في استيعاب التوجيهات التي تلقاها حين باع فعلاً عدداً من المعدات إلى المستشفيات .

وفي بداية الاسبوع الثاني من إقامته أجرى بيكون الاتصال بالرقم الذي أعطاه سلمان . وتتضمن تقارير بيكون إلى الموساد وصفاً حيوياً :

"استخدمت هاتفاً عمومياً في بهو الفندق . فهذا آمن من إجراء الاتصال من غرفتي . وردّ شخص على المكالمة ، وسأل صوت بالفارسية عمن يتكلم . فأجبت باللغة الإنكليزية معتذراً إذ ربما أخطأت إدارة القرص . فسأل الصوت بالإنكليزية أيضاً عمن يتكلم . فقلت

إنني صديق جوزف . فهل هناك أحد بهذا الاسم؟ فطلب مني أن انتظر . فقلت في نفسي لعلّهم يتأثّرون المكالمة وهذا فخ كما يبدو . بعدها تحدث شخص مهذّب قائلاً إنه هو جوزف ويسعده إنني اتصلت . ثم سأل هل أعرف باريس . فقلت في نفسي : نجحنا" .

ووجد بيكون نفسه يوافق على عقد اجتماع في مقهى في بغداد ظهر اليوم التالي . وفي الموعد المحدد قدّم رجلٌ نفسه باسماً على أنه جوزف . كان وجهه عميق الأخاديد وشعره أبيض . وفي تقرير لاحق استطاع العميل أن يصف الجو السوريالي للحظة :

"قال جوزف أنه سعيد جداً لرؤيتي ، كما لو أنني قريب له ينتظره منذ زمن طويل . ثم بدأ يتحدّث عن الطقس وكيف تراجع مستوى الخدمة في المقاهي كالتي كنا نجلس فيها . فقلت في نفسي : ها إنني في وسط بلد معاد سيقتلني جهاز الأمن فيه إذا سنحت الفرصة ، وأنا استمع إلى هلوسات رجل عجوز . وقررتُ أنه كائناً من كان ، وكائناً ما تكون علاقته بسلمان في باريس فالمؤكد أن جوزف ليس ضابطاً في وحدة التجسّس العراقية . وهدّأ ذلك من روعي . وأبلغته أن أصدقائي مهتمين جداً بالبضائع التي عرضها صديقه . فأجاب "سلمان ابن أخي الذي يعيش في باريس . انه نادل في مقهى . كل النادلين الأكفاء هاجروا" . ثم مال جوزف فوق الطاولة وقال "لقد أتيت بخصوص طائرة "الميغ"؟ استطيع أن أرتب لك الامر . لكنه سيكلّف مليون دولار . هكذا بكل بساطة" .

وشعر بيكون أن هناك احتمالاً بأن يكون جوزف يضمر أكثر مما يبدي . كان يقين هادئ يسكنه . ولكن حالما بدأ استجوابه ، هزّ الرجل العجوز رأسه وقال : "ليس هنا . قد يكون هناك من يتنصّت" .

واتفقا على الاجتماع مرة أخرى في اليوم التالي على مقعد في حديقة على شاطئ نهر الفرات الذي يتدفّق عبر المدينة . لم ينم بيكون كثيراً تلك الليلة وهو يتساءل ما إذا كان يجري تعليقه بالصنارة رويداً ، فان لم يكن من قبل الاستخبارات العراقية فمن قبل بعض المحتالين الشديدي الذكاء الذين يستخدمون جوزف كواجهة .

كشف اجتماع اليوم التالي نزراً يسيراً إضافياً عن خلفية جوزف ودوافعه . فهو يتحدر من عائلة يهودية عراقية فقيرة . وقد عمل وهو صبي خادماً لدى عائلة مسيحية غنية في بغداد . ثم بعد ثلاثين عاماً من الخدمة المخلصة صرف تعسفاً واتهم ظلماً بسرقة الطعام ، فوجد نفسه وهو يحتفل بعيد ميلاده الخمسين منبوذاً في الشارع . فهو تجاوز السن الذي

يمكّنه من العثور على عمل آخر ، وليس لديه ما يعيش منه سوى معاش تقاعد متواضع . وقد قرّر أيضاً أن يبحث عن جذوره اليهودية . ناقش مسعاه مع أخته الأرملة ، مانو ، التي يعمل ابنها منير طياراً في القوات الجوية العراقية . واعترفت مانو بأنها هي أيضاً تشعر برغبة شديدة في الذهاب إلى إسرائيل . ولكن كيف يمكنهم ذلك؟ فإن مجرد ذكر الفكرة يعني احتمال مواجهة السجن في العراق . وإذا خلّفوا أياً منهم وراءهم بعد مغادرتهم فإن السلطات ستعاقبه بالتأكيد وبقسوة ، وربما قُتل . ومن أين يأتون بالمال؟ تنهّدت وقالت إن كل ذلك ليس سوى حلم مستحيل .

لكن الفكرة رسخت في ذهن جوزف . وحول العشاء كان منير كثيراً ما يتحدث عن أن قائده يفاخر بأن إسرائيل قد تدفع ثروة للحصول على طائرة "ميغ" كالتي يقودها ، "وربما حتى مليون دولار أميركي يا عم جوزف" .

استحوذ المبلغ على اهتمام جوزف . فبإمكانه أن يرشو المسؤولين وينظم طريق فرار . وبإمكانه بمثل هذا المبلغ أن يجد طريقة لإخراج العائلة كلّها من العراق . وكلما فكر في الأمر كلما بدا له قابلاً للتحقيق . كان منير يحب والدته وعلى استعداد ليفعل أي شيء من أجلها – حتى أن يسرق طائرته مقابل مليون دولار . وما كان الأمر يحتاج أن ينظم جوزف هرب العائلة . فسيدع الإسرائيليين يفعلون ذلك . فالكل يعلم أنهم ماهرون في مثل هذه الأمور . ولذلك فقد أرسل سلمان إلى السفارة .

وابتسم جوزف مبتهجاً لبيكون قائلاً : "وها أنت هنا يا صديقي" . وسأل بيكون "وماذا عن منير؟ هل يعرف شيئاً عن هذا؟" .

فرد جوزف "بالطبع ، لقد وافق على سرقة طائرة "الميغ" . ولكنه يريد نصف المبلغ مقدماً الآن ثم الباقي قبيل قيامه بالعمل" .

صفق بيكون . كل ما سمعه بدا حقيقياً وقابلاً للتصديق . لكن عليه أن يقدم تقريراً إلى مئير عميت أولاً .

وفي تل أبيب أصغى رئيس الموساد طوال فترة بعد الظهر بينما روى بيكون كل التفاصيل التي لديه .

وأخيراً سأله مئير عميت : " أين يريد جوزف أن ندفع له؟" .

وأجاب بيكون "في مصرف سويسري . فلجوزف ابن عم يحتاج إلى علاج طبي عاجل ليس متوافراً في بغداد . وستمنحه السلطات العراقية الإذن للذهاب إلى سويسرا . وهو يتوقع عندما يصل أن يجدنا قد أودعنا له المال" .

وعلق مئير ساخراً "إن صديقك جوزف رجل واسع الحيلة . حالما يدخل المال في الحساب فلن يمكننا أن نستعيده" .

وسأل عميت بيكون سؤالاً أخيراً "لماذا تثق بجوزف؟" . فرد بيكون : "إنني أثق به لأنه خيارنا الوحيد" .

وأجاز مئير عميت إيداع مبلغ نصف مليون دولار في الفرع الرئيسي لمصرف "كريدي سويس" في جنيف . كان يقامر بأكثر من المال . كان يعرف أنه لن يبقى في منصبه إذا تبيّن أن جوزف محتال ذكي كما كان يعتقد بعض ضباط الموساد .

حان الوقت لاطلاع رئيس الوزراء بن غوريون ورئيس الأركان اسحق رابين . فأعطى الرجلان الضوء الأخضر للاستمرار في العملية . لم يبلغهما مئير عميت إنه اتخذ خطوة أخرى وهي سحب جميع أفراد شبكة الموساد من العراق .

"لم أكن أريد إذا فشلت العملية أن أخاطر برأس أحد غيري . أنشأت خمسة أفرقاء . كان الفريق الأول صلة الاتصال بين بغداد وبيني . وأمرت بألاّ يخرق صمت جهاز اللاسلكي إلا في حال حدوث أزمة ، وبخلاف ذلك لم أُرد أن اسمع منهم . وكلّف الفريق الثاني أن يكون في بغداد ولا يعرف به أحد . لا بيكون ولا الفريق الأول ، ولا أحد . كانت مهمتهم إخراج بيكون من البلد إذا وقعت مشكلة ، وإخراج جوزف أيضاً إذا أمكن . وكانت مهمة الفريق الثالث مراقبة العائلة . أما الفريق الرابع فكانت مهمته التنسيق مع الأكراد الذين سيساعدون في المرحلة الأخيرة من إخراج العائلة . كانت إسرائيل تمدّهم بالسلاح . وأما الفريق الخامس فكانت مهمته التنسيق مع واشنطن وتركيا . فلا بدّ لطائرة "الميغ" التي ستطير من العراق أن تدخل المجال الجوي التركي قبل أن تصل إلينا . وسيكون على واشنطن التي تحتفظ بقوات لها في شمال تركيا أن تقنع الأتراك بالتعاون بالقول أن "الميغ" ستختتم رحلتها في الولايات المتحدة . كنت عند هذا الحد قد علمت أن العراقيين كانوا يخشون احتمال هرب أحد الطيارين إلى الغرب ، ولذلك فقد أبقوا خزانات الوقود نصف ممتلئة . وما كان بيدنا حيلة في هذا الشأن" .

كانت هناك مشاكل أخرى أيضاً . فقد قرّر جوزف أن من سيمنح فرصة الهرب من ظل النظام العراقي القاسي لن يكونوا فقط أفراد عائلته الأقربين ، بل وأبناء عمومته . وكان مجموع من أراد نقلهم جواً إلى بر الأمان ثلاثة وأربعين شخصاً .

ووافق مئير عميت . لكنه عاد ليواجه مصدر قلق آخر . أرسل بيكون من بغداد رسالة مشفّرة تفيد أن منير غيّر رأيه . وشعر رئيس الموساد "بما يحدث . فمنير كان أولاً وقبل كل شيء عراقياً . وقد أحسن العراق معاملته . وخيانته بلده من أجل إسرائيل أمر لا يقبله . كنا نحن العدو . فقد تعلّم ذلك طوال حياته . فقرّرت أن الطريقة الوحيدة هي بإقناعه أن طائرة "الميغ" ستذهب رأساً إلى أميركا . وهكذا سافرت إلى واشنطن وقابلت ريتشارد هيلمز الذي كان يومئذ مديراً للـ"سي . آي . أي ." . أصغى إليّ وقال أن الأمر سهل . لطالما كان كيّساً كما كان يومها . فأعطى أوامره بأن يقوم الملحق العسكري الأميركي في بغداد بمقابلة منير . وأكد الملحق أن الطائرة ستعطى إلى الولايات المتحدة . وصرّح بحديث طويل أمام منير عن ضرورة مساعدة أميركا من أجل اللحاق بالروس . فصدّق منير هذا الكلام ووافق على المضي في الخطة .

عند هذا الحد اتخذت العملية وتيرة خاصة بها . تلقّى قريب جوزف إذن الخروج العراقي وسافر إلى جنيف . ومن هناك بعث ببطاقة بريدية : "تسهيلات المستشفى ممتازة . لقد طمأنوني إلى إمكان الشفاء التام" . وكانت الرسالة إشارة إلى أن الخمسمائة ألف دولار الأخرى قد أودعت .

وحالما اطمأن جوزف أبلغ بيكون بأن العائلة جاهزة . عشية قيام منير برحلته اصطحبهم جوزف في قافلة من الحافلات شمالاً إلى الجبال الباردة . لم تتعرّض لهم حواجز التفتيش العراقية فقد كان السكان ينتقلون كل صيف من حرّ بغداد الخانق . وقرب التلال انتظر الأكراد ومعهم فريق الاتصال الإسرائيلي ، ومضوا بالعائلة إلى داخل الجبال حيث كانت تنتظرهم طائرات مروحية تابعة للقوة الجوية التركية . وتمكّنت هذه الطائرات من عبور الحدود إلى تركيا بطيرانها على علو منخفض فلم يكتشفها الرادار .

واتصل عميل إسرائيلي هاتفياً بمنير ليبلغه أن شقيقته ولدت طفلة وهي بخير . وكانت تلك إشارة مشفّرة أخرى جرى بثها بنجاح .

وفي صباح اليوم التالي في 15 آب (أغسطس) 1961 ، عند شروق الشمس ، أقلع منير

في مهمة تدريبية . وحين ابتعد عن القاعدة الجوية زاد سرعة طائرة "الميغ" فصار فوق الحدود مع تركيا قبل أن تصل التعليمات إلى الطيارين الآخرين بإسقاط طائرته . وبمرافقة طائرات "فانتوم" تابعة للقوة الجوية الأميركية ، حطّ منير في قاعدة جوية تركية ، وتزوّد بالوقود ثم أقلع ثانية . وجاءته الرسالة عبر سماعتيه بلغة عادية هذه المرة : "أن جميع أفراد عائلتك بخير وفي طريقهم للانضمام إليك" .

بعد ساعة حطت طائرة "الميغ" في قاعدة جوية عسكرية في شمال إسرائيل .

أصبح الموساد لاعباً خطراً على المسرح الدولي . أما داخل أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية فقد صارت الأمور تؤرخ في ما بعد على أنها "ق ع ." - أي قبل عميت أو "ب ع ." بعد عميت .

الفصل الثالث

نقوش غليلوت

استمر مئير عميت بعد خروجه من الطريق العام شمال تل أبيب في قيادة سيارته بسرعة تتجاوز قليلاً الحد الأقصى المسموح به . فقد بقيت مقاومة النظام بعناد جزءاً منه منذ أشرف على التخطيط لسرقة طائرة مقاتلة عراقية قبل حوالي أربعين عاماً .

ضغط بقدمه بتهور رافضاً التقيّد بالقانون عازياً ذلك إلى نشأته الأولى في الجليل : "نحن جماعة عنيدة" . ولد في طبريا القريبة من شاطئ بحر الجليل وأمضى معظم سنوات صباه في قرية زراعية تعاونية (كيبوتز) . وتمكّنت والدته وهي أستاذة فن الخطابة أن تبدد من زمان كل آثار لهجته الغريبة التي اكتسبها هناك . كما غذّت في ابنها الميل للاستقلال ورفضه التساهل مع الحمقى وازدرائه سكان المدن . والأهمّ من ذلك كلّه أنها شجّعت مهاراته التحليلية وعزّزت قدرته على التفكير الجانبي .

وخلال حياته المهنية الطويلة استخدم عميت هذه الصفات ليكتشف مقاصد الأعداء . فغالباً ما سبق التدبير حصول اليقين ، وكان الخداع في مركز القلب في عمله . وكان منتقدوه من العاملين في أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية يقلقون بعض الأحيان إزاء ما اعتبروه قفزاته الخيالية . وكان ردّه الدائم لهم : إقرأوا ملف قضية "الميغ" المسروقة .

في صباح هذا اليوم من أيام آذار (مارس) 1997 كان اسم مئير عميت الذي تابع سيره خارجاً من تل أبيب مدرجاً رسمياً على لائحة المتقاعدين . ولكن كل من في الاستخبارات الإسرائيلية ما كانوا يصدقون ذلك . فمعرفته الواسعة أثمن من أن توضع في الثلاّجة .

كان مئير عميت قد عاد في اليوم السابق من مدينة هوشي منه حيث زار ضباط

استخبارات سابقين في الفيتكونغ . وقد تبادل الطرفان التجارب ووجدا أرضاً مشتركة في كيفية تحقيق التفوّق على الخصم المتفوّق : الفيتناميون في مواجهة الأميركيين وإسرائيل في حربها ضد العرب . كان مئير عميت قد قام برحلات أخرى إلى أماكن كانت مناوراته السرية السابقة قد أحدثت فيها فوضى شديدة : عمّان ، القاهرة ، موسكو . ولم يجرؤ أحد أن يسأل عن القصد من وراء هذه الزيارات ، تماماً كما كان الحال خلال السنوات الخمس الخطيرة التي أمضاها كمدير عام للموساد (1963 – 1968) والتي لم تشهد صدور أي مساءلة جدّية في شأن مصادره أو أساليبه .

في تلك الفترة حوّل عميت عملية جمع المعلومات السرية عبر الناس إلى فن . ولم تتمكن أي وكالة استخبارات أخرى أن تضاهي عملاءه على الأرض في جمع المعلومات . كان قد جعل له جواسيس كثراً في كل بلد عربي وفي أنحاء أوروبا وفي أميركا الجنوبية وفي أنحاء أفريقيا وفي الولايات المتحدة . واخترق ضباط استخباراته صفوف "المخابرات" الأردنية ، أفضل أجهزة الاستخبارات العربية ، والاستخبارات العسكرية السورية أعنفها . كانوا رجالاً بأعصاب باردة وتصميم فولاذي .

بعد وقت قليل من تعيينه مديراً عاماً للموساد ، وزع مئير عميت داخل الجهاز مذكرة سرقها عميل من مكتب ياسر عرفات :

"لدى الموساد ملف عن كل واحد منا . إنهم يعرفون أسماءنا وعناويننا . ولكل منا صورتان في ملفه . إحداهما بلباس الكوفية والثانية بدونها . ولذا فلا يُعجز الموساد أن يصل إلينا بغطاء الرأس أو بدونه" .

ولخلق حالة ذعر أشد ، جنّد مئير عميت عدداً ضخماً من المخبرين العرب . وكان يعمل في ضوء مبدأ يقول انه وفقاً لقانون المعدلات الوسطية فلا بد من العثور على عدد كاف من الأكفاء . كانت الرشاوى التي دفعت للعملاء العرب قد ساعدت على كشف هوية مقاتلي منظمة التحرير الفلسطينية ودلّت على مخابئ أسلحتهم وبيوتهم السرية وإجراءات السفر . ومقابل كل رجل عصابات كان الموساد يقتله ، كان عميت يدفع للمخبر المعني جائزة هي دولار أميركي واحد .

وفي الفترة القصيرة التي سبقت حرب حزيران (يونيو) 1967 ، كان هناك ضابط استخبارات أو مخبر في كل قاعدة جوية ومقر عسكري في مصر . وكان هناك ما لا يقل عن

ثلاثة عملاء في مقر القيادة العامة في القاهرة، وهم ضباط أركان جنّدهم مئير عميت، وقد بقيت طريقته لتحقيق ذلك سراً يحافظ عليه جيداً: "ان من الأفضل بقاء بعض الأمور هكذا".

وأعطى عميت لكل مخبر وعميل يوظفه التعليمات نفسها. بالإضافة إلى "الصورة الإجمالية" كان المطلوب معرفة "التفاصيل الصغيرة. كم يستغرق سير الطيار على قدميه من ثكنته إلى غرفة طعام الضباط؟ كم من الوقت يحتجز ضابط في زحام السير الشهير في القاهرة؟ هل يحتفظ أحد كبار المخطّطين بعشيقة؟". وحده عميت كان يعرف كيف تستخدم مثل هذه المواد المتباينة.

وقد تمكّن أحد ضباط الاستخبارات من الحصول على وظيفة كنادل في غرفة الضباط في قاعدة للمقاتلات الحربية في الجبهة. وأسبوعياً كان يقدم تفاصيل عن جاهزية الطائرات وأسلوب عيش الضباط والتقنيين. وكانت عاداتهم في تناول الشراب ومتعهم الجنسية بين المعلومات التي كان ينقلها عبر اللاسلكي سراً إلى تل أبيب.

كان الموساد قد أنشأ حديثاً دائرة للحرب النفسية (لاب) كانت تعمل على مدار الساعة بتحضير ملفات عن الطيارين المصريين والطواقم الأرضية وضباط الأركان: مهاراتهم في الطيران وهل حصلوا على الرتبة بالكفاءة أم باستخدام النفوذ، ومن منهم كان يدمن الشراب، ومن يرتاد بيوت الدعارة، ومن له ميول جنسية شاذة.

انكبّ مئير عميت على درس الملفات إلى وقت متأخر من الليل وهو يبحث عن نقاط الضعف وعن أشخاص يمكن ابتزازهم للعمل معه. ويقول: "لم يكن عملاً مبهجاً ولكن المعلومات السرّية غالباً شأن قذر".

بدأت عائلات العسكريين المصريين تتلقّى رسائل مغفلة كانت ترسل بالبريد من القاهرة وفيها تفاصيل صريحة عن سلوك من يحبون. وأفاد المخبرون في تقاريرهم إلى تل أبيب عن تفاصيل خلافات عائلية كانت تؤدي بطواقم الطيران إلى أخذ إجازات مرضية. وتلقى ضباط الأركان مكالمات هاتفية مغفلة تشي بمعلومات عن الحياة الخاصة لأحد الزملاء. وفي إحدى المدارس تلقّى أحد المدرسين مكالمة من امرأة ذات صوت عاطفي أبلغته أن ما يجعل إحدى التلميذات عنده لا تهتم بدروسها هو أن لوالدها، وهو ضابط كبير، عشيقاً سرياً. وانتهت القصة بانتحار الضابط. وأدّت هذه الحملة المتواصلة إلى زرع شقاق واسع في صفوف الجيش المصري وولدت ارتياحاً عظيماً في نفس عميت.

في أوائل 1967 بات واضحاً من الأدلة التي زودته بها شبكته المصرية أن زعيم البلاد جمال عبد الناصر يحضّر للحرب ضد إسرائيل . فجرى تجنيد مزيد من المخبرين بكل الوسائل لمساعدة الموساد على معرفة ما تعرفه القاهرة نفسها عن القوة الجوية المصرية وقيادتها العسكرية .

وفي أوائل أيار (مايو) 1967 تمكّن عميت من إعطاء قادة القوة الجوية الإسرائيلية التوقيت الدقيق من اليوم المناسب لتوجيه ضربة قاضية للقواعد الجوية المصرية . كان محللو الموساد قد وضعوا خريطة رائعة عن الحياة في جميع القواعد الجوية المصرية .

بين الساعة 7:30 صباحاً والساعة 7:45 كانت وحدات الرادار في المطارات في أشد مراحل ضعفها . في ربع الساعة هذه يكون طاقم الموظفين الليلي متعباً بعد مناوبة طويلة بينما لا يكون الطاقم البديل قد بلغ أعلى مستويات اليقظة . وغالباً ما كانوا يتأخرون في تسلّم مهامهم بسبب بطء الخدمة في قاعات الطعام . يتناول الطيارون فطورهم بين الساعة 7:15 صباحاً و 7:45 صباحاً . بعدها يعودون سيراً على الأقدام إلى ثكناتهم لجلب معدات الطيران . وتستغرق الرحلة عادة عشر دقائق . ويمضي معظم الطيارين بضع دقائق إضافية في الحمامات قبل التوجه إلى خطوط الطيران . ويصلون إلى هناك حوالي الساعة الثامنة صباحاً وهو موعد بدء العمل الرسمي . عندها تكون الطواقم الأرضية قد بدأت تكرّج الطائرات إلى خارج عنابرها لتزويدها بالوقود وتسليحها . ويعقب ذلك ازدحام خطوط الطيران لمدة خمس عشرة دقيقة بشاحنات الوقود والذخيرة .

وأعد برنامج مفصّل مشابه لحركات ضباط الأركان في مقر القيادة العليا في القاهرة . فالضابط العادي يمضي ثلاثين دقيقة وهو يقود سيارته من منزله عبر إحدى الضواحي ليصل إلى عمله . وغالباً ما لا يكون المخططون الاستراتيجيون خلف مكاتبهم قبل الساعة 8:15 صباحاً . وربما أمضوا عشر دقائق أخرى وهم يحتسون القهوة ويتحادثون مع زملائهم قبل أن يستقرّوا . ولا يبدأ ضابط الأركان العادي فعلياً درس حركة مرور الإشارات خلال الليل بين المركز وقواعد الطيران حتى حوالي الساعة 8:30 صباحاً .

وأبلغ مئير عميت قائد قوة الجو الإسرائيلية أن أفضل وقت تطير فيه طائراته فوق أهدافها هو بين الثامنة صباحاً والثامنة والنصف صباحاً . في الثلاثين دقيقة هذه سيمكنهم سحق قواعد العدو نظراً لأن القيادة العليا في القاهرة لن تتمكن من استخدام العديد من كبار مسؤوليها في توجيه القتال المضاد .

وفي الخامس من حزيران (يونيو) 1967 ضربت قوة الجو الإسرائيلية عند الساعة الثامنة والدقيقة الواحدة صباحاً بالضبط فكانت ضربتها ماحقة وهبطت إلى علو منخفض فوق سيناء لتقصف وتدمّر كما تشاء . وفي لحظات أصبح لون السماء أسود على احمرار من اللهب المتصاعد من شاحنات الوقود المحترقة والطائرات والذخائر المنفجرة .

في تل أبيب جلس مئير عميت ينظر من نافذة مكتبه إلى الجنوب وهو يعرف أن محللي الاستخبارات في جهازه قد قرّروا مصير الحرب أو يكادون . كان هذا أحد النماذج المدهشة لمهاراته الفائقة الحد – ويزيد من أهمية النتائج الحجم العددي للموساد .

فمنذ تسلم مئير عميت المسؤولية راح يقاوم محاولات تحويل الموساد إلى نسخة عن الـ"سي . آي . أي ." أو الـ"كي . جي . بي ." . ويوظف هذان الجهازان مئات آلاف المحلّلين والعلماء والاستراتيجيين والمخططين لدعم العملاء الميدانيين . ويقدّر عدد العملاء الميدانيين العراقيين والإيرانيين بعشرة آلاف ، وحتى الاستخبارات الكوبية تدير حوالي ألف جاسوس ميداني .

لكن مئير عميت أصرّ على أن عدد الموظفين الدائمين الإجمالي لن يزيد كثيراً على ألف ومئتي شخص . وسيجري اختيار كل منهم بعناية ويشترط أن يكون متعدد المهارات : فالعالم يجب أن يتمكن من العمل في الميدان إذا دعت الحاجة ، وضابط الاستخبارات يجب أن يكون قادراً على استخدام مهاراته التخصّصية لتدريب غيره .

وسيكون هو بالنسبة إليهم "ميمون" والتي يمكن ترجمتها بـ"قائدهم ولكن ليس أفضلهم" . ويؤهله هذا اللقب الاتصال غير المقيّد برئيس الوزراء ورعاية طقس تقديم ميزانيته السنوية إلى الحكومة الإسرائيلية للموافقة عليها بلا نقاش .

قبل حرب حزيران (يونيو) 1967 بمدة طويلة كان عميت قد جسّد قدرة الموساد على إحداث الرعب المميت في نفوس أعداء إسرائيل ، فاخترق صفوفهم والتقط أسرارهم وقتلهم بكفاءة رهيبة ، فجعل قامة الموساد أسطورية .

ويعود الفضل الأكبر في النجاح إلى القواعد التي أرساها لاختيار العملاء الميدانيين الذين أصبحوا سر نجاحات الموساد . وقد فهم تماماً الدوافع العميقة والمعقدة التي تجعلهم بعد أن يتم اختيارهم يصافحونه ، وهي الإشارة التي بها يقرّون انهم أصبحوا ملكه وبات يأمرهم بما يشاء .

تغيّر الكثير في جهاز الموساد ولكن مئير عميت كان يعرف في صباح ذلك اليوم من أيام آذار (مارس) 1997 أن معياره للتجنيد لا يزال على ما هو .

"لا يقبل عميل ميداني في الموساد إذا كان دافعه الأول هو المال . لا مكان للصهيوني البالغ الحماسة في هذا العمل . فصهيونيته تعرقل فهمه الواضح لمغزى عمله . وعمله يتطلب حكماً هادئاً وواضحاً وبعيد النظر واستشرافاً متوازناً . يأتي الناس للانضمام إلى الموساد لأسباب كثيرة . فهناك ما يسمى السحر . والبعض الآخر يحب المغامرة . وبعضهم يظن أن انضمامهم سيعزز مركزهم الاجتماعي ، فهم أناس صغار يريدون القوة السحرية التي يعتقدون أنهم سيمتلكونها إذا هم انضموا إلى الموساد . ولا واحد من أسباب الانضمام هذه مقبول .

ودائماً ، دائماً يجب أن تتأكد من أن عميلك الميداني يعرف أنك تدعمه دعماً كاملاً . وأنك ستهتم بعائلته وتجلب السعادة لأطفاله . وفي الوقت نفسه يجب أن تحميه . إذا بدأت زوجته تشك أن له عشيقة طمئنها إلى أن الأمر ليس كذلك . وإذا كانت له عشيقة فلا تخبرها . وإذا اشتطت هي أعدها إلى الطريق القويم ، ولا تخبر زوجها . فلا يجوز أن يلهيه شيء عن عمله .

إن زعيم الجواسيس الناجح هي من يعامل عملاءه كأفراد أسرته ، أن يجعلهم يشعرون أنه دائماً معهم ، ليلاً ونهاراً ، وفي كل وقت . هكذا تكسب ولاءهم وتجعل عميل الاستخبارات يفعل ما تريد . والحال إن ما تريده مهم" .

يخضع كل عميل استخبارات إلى دورة تدريب مكثّفة تستغرق ثلاث سنوات وتتضمن التعرّض لعنف جسدي قاس خلال الاستجواب . ويصبح العميل أو العميلة بارعين في استخدام سلاح الموساد المختار مسدس باريتا عيار 0.22 .

الدفعة الأولى من عملاء الموساد الذين عيّنوا خارج البلدان العربية أرسلت إلى الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وألمانيا . في الولايات المتحدة أقام عملاء موساد دائمون في نيويورك وواشنطن . وكلّف عملاء نيويورك بصورة خاصة مهمّة اختراق جميع البعثات الديبلوماسية إلى الأمم المتحدة والجماعات الإثنية المختلفة في المدينة . وأنيطت بعملاء واشنطن مهمة مماثلة بالإضافة إلى مسؤولية "مراقبة" البيت الأبيض .

وعمل عملاء موساد آخرون في مناطق النزاعات الدائرة ، ثم عادوا عندما انتهت مهمتهم .

وأحدث مئير عميت توسيعات كبرى في المنظمة فصارت تضم "دائرة تجميع" مسؤولة عن عمليات جمع المعلومات السرية في الخارج وكذلك "دائرة للعمل والارتباط السياسي" تعمل مع ما يسمى أجهزة الاستخبارات الأجنبية الصديقة وخصوصاً "سي .آي .أي" و"أم .آي .6" البريطانية . وتتألف دائرة الأبحاث من خمسة عشر قسماً أو "مكتباً" شغلها الشاغل البلدان العربية . وثمة أقسام مستقلة لكل من الولايات المتحدة وكندا وأميركا اللاتينية وبريطانيا وأوروبا والاتحاد السوفياتي . وعلى مرّ السنين جرى توسيع هذه البنية التحتية لتشمل الصين وجنوب أفريقيا والفاتيكان . لكن الموساد بقيت من حيث المبدأ المنظمة الصغرى نفسها .

ولم يكن يمر يوم من دون وصول حزمة جديدة من الأخبار من الفروع القائمة في الخارج . وكانت هذه الأخبار توزع في أنحاء المبنى المتعدد الطبقات الرمادي الكئيب القائم على بولفار الملك شاوول . ويرى عميت أنه "إذا كان هذا سيزيدنا فخراً فلا بأس . وبالطبع فإنه يثير مزيداً من الرعب في نفوس أعدائنا" .

كان ضباط الاستخبارات في الموساد أكفاء وماكرين وعلى استعداد لمكافحة النار بالنار . وكانوا وراء أعمال الشغب الهادفة إلى خلق حالة فقدان ثقة متبادل بين الدول العربية ، ونشروا دعايات مضادة شائنة ، وجنّدوا المخبرين وطبّقوا فلسفة مئير " فرّق تسد" . وفي كل ما فعلوه ، وضع رجال عميت معايير جديدة للاحتراف الجدّي وكانوا يتحركون كاللصوص في الليل مخلّفين وراءهم الموت والدمار . ولم ينجُ أحدٌ من ردّهم الانتقامي . وحالما تنتهي مهمتهم كانوا يعودون للردّ على الأسئلة في مكتب مئير عميت المطلّ على الشارع العريض المسمّى على اسم أحد محاربي التوراة . من هذا المكتب ، أدار عميت شخصياً جاسوسين بقيت شجاعتهما مضرب المثل في سجلات الموساد . ويستعيد عميت بذاكرته إسهاماتهما فيظهر التردّد في صوته وتظهر على وجهه الابتسامة بين الحين والآخر وكأنه يقدّم التبرير الذي به يحمي نفسه . وقد بدأ حديثه بقصّ تفاصيل حياته :

وُلد إيلي كوهين في الإسكندرية في مصر في 16 كانون الأول (ديسمبر) عام 1924 . وكان كوالده يهودياً حرفياً تقياً . وفي كانون الأول 1956 ، كان في عداد اليهود الذين أبعدوا من مصر بعد حرب السويس . وصل إلى حيفا وأحس بأنه غريب في بلده الجديد . وعام 1957 جنّدته وحدة مكافحة الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية ، لكنه ملّ عمله كمحلّل

وراح يستفسر عن كيفية الانضمام إلى الموساد ، لكنه قوبل بالرفض . ويتذكّر مئير عميت : "سمعنا أن رفضنا تسبّب بإهانة شديدة لإيلي كوهين ، فاستقال من الجيش وتزوّج امرأة عراقية اسمها ناديا" .

وخلال العامين التاليين عاش كوهين حياة هادئة يعمل كموظّف أرشيف في مكتب للتأمين في تل أبيب . وبدون علمه ، ظهرت معلومات عن نشأته في عملية بحث قام بها عميت في "ملفات المرفوضين" في الموساد . كان عميت يبحث عن "عميل من نوع معيّن للقيام بمهمة خاصة جداً" ، وإذ لم يجد ضالته في ملفات "العاملين" تحوّل إلى ملفات "المرفوضين" . وبدا له أن كوهين هو المرشح الوحيد . فوُضع تحت المراقبة . وتضمّنت التقارير الأسبوعية التي وضعها مكتب التجنيد في الموساد أوصافاً لعاداته النيّقة وإخلاصه لزوجته وعائلته الصغيرة . كان يعمل بجد ، وكان سريع الفهم وصبوراً على الشدائد . وأخيراً أبلغه الموساد قراره بأنه "الشخص المناسب" .

بدأ إيلي دورة مكثّفة لستة أشهر في مدرسة التدريب التابعة للموساد . وعلّمه خبراء التخريب كيف يصنع المتفجرات والقنابل الموقوتة من أبسط المواد . وتعلّم القتال بالأيدي وأصبح رامياً من الطراز الأول ولصاً ضليعاً . واكتشف خفايا الكتابة المرموزة وفك الرموز وكيف يشغّل جهازاً لاسلكياً ويستخدم الحبر السرّي ويخفي الرسائل . وكان دائماً يثير إعجاب مدرّبيه بمهاراته . وكانت له ذاكرة عجيبة تدرّبت على تذكّر كراسات من التوراة عندما كان فتىً . وذكر تقرير تخرّجه أنه يتمتّع بكل الصفات التي يحتاجها عميل الاستخبارات . ومع ذلك ظلّ عميت متردّداً . يقول "سألت نفسي مئات المرّات : هل يستطيع إيلي أن يفعل ما أريد؟ لطالما أظهرت له أن ثقتي في محلّها دائماً . فلم أشأ للحظة واحدة إيهامه أنه سيكون دائماً بالقرب من الباب السحري الذي سيدخل منه إلى الملكوت الآتي . ومع ذلك فبعض أفضل الأدمغة في الموساد أفرغوا فيه كل ما يعرفونه . وأخيراً قررت السير مع إيلي" .

أمضى مئير عميت أسابيع وهو ينسج قصة يتخفّى بها تلميذه . كانا يجلسان ويدرسان معاً خرائط الطرقات وصور بيونس أيريس حتى يألف كوهين تماماً نشأته المستعارة واسمه الجديد ، كميل أمين ثابت . ويقول رئيس الموساد إنه رأى كيف "تعلم إيلي بسرعة لغة من يقوم بأعمال التصدير والاستيراد مع سورية . وحفظ عن ظهر قلب الفرق بين بيانات

الشحنات وشهادات الشحن والعقود والضمانات وكل ما يحتاج إلى تعلّمه . كان مثل الحرباء يمتصّ كل شيء . وأمام عينيّ أضمحل إيلي كوهين وحل محلّه ثابت ، السوري الذي لم يتخلَّ يوماً عن حنينه للعودة إلى دمشق . وفي كل يوم ، كان إيلي يزداد ثقة ويقيناً وحماسة ليبرهن على مقدرته على القيام بالدور . كان مثل عدّاء ماراتوني يحمل بطولة العالم وقد تدرّب على بلوغ ذروة نشاطه لدى بدء السباق . أما هو فإن سباقه قد يستغرق سنوات . وفعلنا كل ما بوسعنا لنريه كيف ينظّم ويعيش حياته الجديدة . والباقي شأنه . كلنا كان يعرف ذلك . ولم ينظّم له وداع كبير بل انسلّ من إسرائيل كما كان يفعل كل جواسيسي" .

سرعان ما ثبّت كوهين قدميه في مجال الأعمال في العاصمة السورية وأحاط نفسه بمجموعة من الأصدقاء من ذوي المقامات العالية . وكان بين هؤلاء معزّ زهر الدين ابن أخي رئيس أركان الجيش السوري .

كان زهر الدين رجلاً شديد التبجّح وفي شوق لإظهار مدى قوة سورية الخارقة . وقد جاراه كوهين في ذلك ولم يمضِ وقت طويل حتى نظّمت له جولة سياحية برفقة دليل في تحصينات مرتفعات الجولان السورية ، فرأى الغرف المحصّنة من الإسمنت المسلح المقامة في عمق الأرض وفيها قطع المدفعية الطويلة المدى . وسُمح له حتى بالتقاط الصور . وخلال ساعات من وصول مئتي دبابة روسية من طراز "تي – 54" إلى سورية أبلغ كوهين تل أبيب بالأمر . بل إنه حصل على المخطط الكامل لاستراتيجية سورية الاستيلاء على شمال إسرائيل وضمّه إلى أراضيها . كانت المعلومات ثمينة جداً .

وبينما تابع كوهين تأكيد اعتقاد مئير عميت بأن عميلاً ميدانياً واحداً قد يساوي فرقة من الجند ، لم يلبث أن بدأ يتصرّف بتهوّر . كان كوهين من أنصار لعبة كرة القدم . وفي اليوم التالي على هزيمة إسرائيل أمام فريق زائر في تل أبيب خرق كوهين القاعدة الحازمة بعدم استخدام البث اللاسلكي إلا "لأغراض العمل فقط" ، فبعث برسالة إلى موجهه قال فيها "حان الوقت لأن نتعلم كيف ننتصر في ملعب كرة القدم" .

وكانت هناك رسائل غير مجازة أخرى ترجمتها كالتالي : "رجاءً أرسلوا إلى زوجتي تهنئة بعيد زواجنا" أو "عيد ميلاد سعيد لابنتي" .

غضب مئير عميت غضباً شديداً ، لكنه كان يعرف بالضبط الضغوط التي يتعرض لها

العميل، فتمنى أن يكون سلوك كوهين "مجرد انحراف موقّت يظهر غالباً في أفضل العملاء. حاولت أن أدخل إلى تفكيره. هل كان يائساً وهو يُظهر ذلك اليأس بكشف مقاتله؟ حاولت أن أفكر مثله نظراً لكوني أعدت كتابة حياته. كان عليّ أن أدقق في مائة عامل. لكن العامل المهم الوحيد في النهاية كان: هل يستطيع إيلي أن يقوم بمهمته؟".

وقرّر مئير عميت أن كوهين قادر.

وفي ليلة من ليالي كانون الثاني (يناير) 1965 انتظر إيلي كوهين في غرفة نومه في دمشق وهو مستعد للإرسال. وبينما كان يضبط موجة البث اقتحم ضباط الاستخبارات السورية الشقة. ضبط كوهين بإحدى أكثر وحدات التحري المتحركة المتقدّمة في العالم. وهي من صنع روسي.

وأثناء الاستجواب أُرغم على بثّ رسالة إلى الموساد. ولم ينتبه السوريون إلى التغيير الدقيق بسرعة الإرسال اللاسلكي ووتيرته. وفي تل أبيب تلقّى مئير عميت نبأ اعتقال كوهين. وبعد يومين أكّدت سورية الخبر.

يقول عميت "كنت كمن فقد أحد أفراد عائلته. وطرحت على نفسي السؤال نفسه الذي أطرحه كلما فقدت عميلاً: هل كان يمكننا إنقاذه؟ كيف انكشف أمره؟ هل كان استخفافه السبب؟ أم خانه أحد القريبين منه؟ هل كان سرّه مكشوفاً ولم نكن نعرف؟ هل كانت تحدوه رغبة الموت؟ هذا أيضاً ممكن. أم أن الأمر مجرد سوء حظ؟ وتسأل وتستمر بالسؤال. لكنك لا تصل إلى الجواب اليقيني. لكن طرح الأسئلة هو أحد طرق التغلب على الصعاب".

لم يتمكن السوريون في أي مرحلة من جعل إيلي كوهين ينهار، وذلك برغم العذاب الذي لقيه قبل الحكم عليه بالإعدام.

كرس مئير عميت كل وقته تقريباً في محاولة إنقاذ إيلي كوهين. وبينما نظّمت ناديا كوهين حملة دعائية عالمية لإنقاذ حياة زوجها، فوسّطت البابا وملكة إنكلترا ورؤساء وزراء ورؤساء جمهوريات، عمل عميت بسريّة. فسافر إلى أوروبا ليقابل رؤساء الاستخبارات الفرنسية والألمانية. فما أمكنه فعل شيء. وقام باتصالات غير رسمية مع الاتحاد السوفياتي، وبقي يحاول حتى كان يوم 18 أيار (مايو) 1965 بعيد الساعة الثانية صباحاً عندما خرجت قافلة سيارات من سجن المزة في دمشق وكان إيلي كوهين في إحدى الشاحنات.

كان برفقة كوهين كبير حاخامي سورية نسيم اندابو ابن الثمانين عاماً . وغلب الحزن على الحاخام لما سيجري فبكى فهدأه إيلي كوهين . وصلت القافلة إلى ساحة المرجة في وسط دمشق . وهناك قرأ إيلي صلاة اليهودي الذي يستعد لمواجهة الموت : "يا إلهي العليّ سامحني على أخطائي وتجاوزاتي" .

وعند الساعة 3:35 صباحاً شاهد آلاف السوريين وأمام عدسات التلفزيون وأضوائها الساطعة إيلي وهو يقف أمام خشبة الإعدام .

وفي تل أبيب ، شاهدت ناديا كوهين زوجها يموت وحاولت الانتحار ، فنقلت إلى المستشفى ونجت .

وفي اليوم التالي أقيم احتفال خاص صغير في مكتب مئير عميت جرى فيه تكريم إيلي كوهين . بعدها عاد عميت إلى مهمة إدارة العميل الآخر حامل الجائزة الثانية .

كان اليهودي الألماني فولفغانغ لوتس قد وصل إلى فلسطين عقب تسلم هتلر الحكم . وعام 1963 اختاره مئير عميت ، من بين عدد صغير من المرشحين الممتحنين ، للقيام بمهمة تجسّس في مصر . وبينما كان لوتس يخضع للتدريب القاسي نفسه الذي خضع له كوهين كان مئير عميت مرة أخرى يفكر بتأن في نوع التخفي الذي سيستخدمه عميله . وقرّر أخيراً أن يجعله مدرّب فروسية ، لاجئاً ألمانياً شرقياً عمل في "جيش أفريقيا" خلال الحرب العالمية الثانية وعاد إلى مصر ليفتح أكاديمية للفروسية . ومن شأن هذه الوظيفة أن تتيح له فرصة الاختلاط بالمجتمع الراقي في القاهرة والذي يحيط بأخوية الفرسان في المدينة .

وسرعان ما أصبح للوتس حلقة من الزبائن بينهم نائب رئيس الاستخبارات العسكرية المصرية ورئيس الأمن لمنطقة قناة السويس . وكما فعل كوهين ، أقنع لوتس أصدقاءه الجدد بإطلاعه على دفاعات مصر المخيفة : منصات الصواريخ في سيناء وعلى حدود النقب . كما حصل لوتس على قائمة كاملة بأسماء العلماء النازيين الذين يقيمون في القاهرة والذين يعملون في برامج الصواريخ والأسلحة المصرية . ولم يلبث عملاء الموساد أن أعدموا هؤلاء واحداً تلو الآخر .

وبعد سنتين من التخفي اعتقل لوتس ودين في المحكمة ، وشعر المصريون بأنه أثمن من أن يعدم فأبقوه حياً على أمل مبادلته بجنود مصريين تأسرهم إسرائيل في حرب مقبلة . ومرة أخرى أصيب مئير عميت بالقلق إزاء اعتقال لوتس .

كتب عميت إلى رئيس مصر يومئذ جمال عبد الناصر طالباً مبادلته وزوجته بأسرى حرب كانت إسرائيل قد أمسكتهم . فرفض عبد الناصر . فلجأ عميت إلى استخدام الضغط السيكولوجي . يقول "أبلغت السجناء المصريين بأنهم محتجزون جميعاً لأن عبد الناصر يرفض تسليم الإسرائيليين . وسمحنا لهم بإرسال الرسائل إلى ذويهم" .

وكتب مئير عميت إلى عبد الناصر مرة ثانية يقول أن إسرائيل ستعترف له علناً بالفضل في استعادة أسراه في الحرب وتلزم الصمت في شأن عودة لوتس وزوجته . فبقي عبد الناصر على موقفه الرافض . وعندها أثار عميت الموضوع مع قائد الأمم المتحدة المسؤول عن حفظ السلام في سيناء . فسافر الضابط إلى القاهرة وحصل على تأكيدات بأن لوتس وزوجته سيطلقان "في موعد لاحق" .

ويقول عميت "فهمت اللغة المشفّرة . وبعد شهر غادر لوتس وزوجته القاهرة في سرية تامة إلى جنيف . وبعد ساعات وصلا إلى مكتبي" .

تبيّن لمئير عميت أن ضباط مخابراته بحاجة إلى الدعم في الميدان . فأنشأ "السيانيم" وهم المتطوّعون اليهود لخدمة الموساد . وكان كل متطوّع مثالاً للتلاحم التاريخي ليهود العالم . فبصرف النظر عن ولاء المتطوّع أو المتطوّعة لبلديهما فإنهما يعترفان بولاء أعظم : الولاء الغامض لإسرائيل والحاجة للمساعدة في حمايتها من أعدائها .

وأنجز المتطوعون عدداً من المهام . كان أحدهم يدير وكالة لتأجير السيارات فقدم لأحد ضباط الاستخبارات عربة من دون حاجة إلى أوراق مطلوبة ، وقدّم آخر يعمل في تأجير العقارات السكن . وفتح ثالث يعمل في مصرف الخزنات بعد الدوام الرسمي . وقدّم رابع يعمل طبيباً مساعدة طبية – فعالج جرحاً سببته رصاصة مثلاً – من دون إبلاغ السلطات . هؤلاء المتطوّعون كانوا لا يتلقون مقابل خدمتهم إلا كلفة تلك الخدمات .

وتعاون هؤلاء المتطوّعون على جمع المعلومات التقنية وجميع أنواع المعلومات "المفتوحة" كإشاعة في حفل "كوكتيل" أو خبر تذيعه إحدى الإذاعات أو مقطع في صحيفة أو قصة لم تكتمل فصولاً في حفل عشاء . وساعدوا ضباط الاستخبارات على الإمساك بطرف الخيط . وما كان بإمكان الموساد أن يعمل من دونهم .

ومرة أخرى ، صمد إرث مئير عميت على رغم أنه توسّع توسعاً عظيماً . عام 1998 كان في بريطانيا ما يزيد على أربعة آلاف متطوع ، وكان في الولايات المتحدة حوالي أربعة

أضعاف هذا العدد . وفي حين كان مئير عميت يعمل بميزانية صغيرة نجد أن الموساد الذي يعمل على الحفاظ على عملياته في أنحاء العالم ينفق الآن عدة مئات من ملايين الدولارات شهرياً للحفاظ على "موجوداته" ، ودفع نفقات المتطوعين وإدارة البيوت السرية وتقديم الدعم اللوجستي وتغطية النفقات العملانية . كذلك فقد ترك عميت للموساد تذكرة أخرى بأيام رئاسته للجهاز وهي لغة خاصة به . فنظام كتابة التقارير معروف باسم "نكا" . و"دايلايت" هو أعلى مستويات التأهب ، و"كيدون" هو عضو فريق اغتيال تابع للموساد ، و"نيفيوت" أخصائي في المراقبة ، و"يهالومين" هي الوحدة التي تتولى الاتصالات لخدمة ضباط الاستخبارات ، و"صفانيم" هي الوحدة التي تحارب منظمة التحرير الفلسطينية ، و"بلدر" هو المراسل و"سليك" مكان سري للوثائق و"تويدس" أشياء مزيفة .

في صباح ذلك اليوم من أيام آذار (مارس) 1997 وبينما كان عميت يقود سيارته إلى موعد مع الماضي كان يعرف أن أموراً كثيرة تغيّرت في الموساد . لقد أصبح الموساد ، تحت وطأة المطالب السياسية وخصوصاً منها ما جاء من جانب رئيس الوزراء بنيامين نتنياهو ، في عزلة خطرة تجاه أجهزة الاستخبارات الأجنبية التي اعتنى مئير عميت في كسب ودها . هناك فرق كبير بين جعل المرء عقيدته "إسرائيل أولاً ، وآخراً ودائماً ودائماً" ، وبين أن يضبط ، على حد قوله "وهو يدخل يده في جيوب أصدقائه" . إن الكلمة الأساسية هي "ضُبِطَ" ، قال ذلك وهو يبتسم ابتسامة كئيبة أخرى .

والمثال على ذلك إختراق الموساد المتزايد للولايات المتحدة عبر التجسّس الاقتصادي والعلمي والتكنولوجي . إحدى الوحدات الخاصة المعروفة بالاسم الرمزي "عال" (فوق بالعبرية) طافت متسلّلة في وادي السيليكون في كاليفورنيا و"روت 128" في بوسطن بحثاً عن أسرار التكنولوجيا المتطوّرة . وحدّد تقرير رفعته الـ"سي .آي .أي ." إلى لجنة الاستخبارات التابعة لمجلس الشيوخ إسرائيل كإحدى ست بلدان أجنبية "تقوم بجهود سرية ومنظّمة وبتوجيه من حكوماتها لجمع أسرار الولايات المتحدة الاقتصادية" .

وفي الآونة الأخيرة حذّر رئيس الاستخبارات الداخلية الألمانية "بي . أف . دي ." رؤساء الدوائر في جهازه من أن الموساد يبقى مصدر الخطر الأول لسرقة أحدث أسرار الكومبيوتر في الجمهورية . وصدر تحذير مماثل من المديرية العامة الفرنسية للأمن "دي . جي . أس ." بعدما شوهد عميل للموساد قرب مركز ترجمة صور الأقمار الفضائية في كريل .

ولطالما حاولت إسرائيل أن تزيد قدراتها الفضائية لتضاهي قدرتها النووية على الأرض . ورفع جهاز مكافحة التجسس البريطاني "أم . آي . 5" تقريراً إلى رئيس الوزراء المنتخب حديثاً طوني بلير ضمّنه تفاصيل عن جهود الموساد للحصول على معلومات دفاعية وعلمية حسّاسة في بريطانيا .

لم يعترض مئير عميت تماماً على هذه المغامرات من حيث المبدأ ، بل تركّز اعتراضه على أنها غالباً ما بدا تنفيذها مفتقراً إلى التخطيط ومتجاهلاً العواقب الطويلة الأمد .

والأمر نفسه ينطبق على كيفية خوض العلماء النفسيين في "الاب" حملاتهم . ففي عهده أنشأت الدائرة شبكة كونية من العلاقات الإعلامية واستخدمتها بمهارة عظيمة . فإذا وقعت حادثة إرهابية في أوروبا استدعى ذلك الدعوة إلى اتصال بالمنظمة الإخبارية ومدّها بـ"الخلفية" التي تحظى بما يكفي من الاهتمام لإدغامها بالقصة فيصبح لها النسج الذي ترغب فيه "الاب" . كما أنتجت الوحدة معلومات كان الملحقون الإعلاميون في السفارات الإسرائيلية يمرّرونها إلى أحد الصحافيين أثناء تناول الشراب أو طعام العشاء عندما يمكن تقاسم "سرٍّ" ما بهدوء ، ويجري تشويه سمعة شخصٍ ما بحذر .

وفي حين بقي جوهر تلك الحملة الدعائية القذرة على حاله ، فإن ثمة فرقاً عظيماً : اختيار الهدف أو الضحية . ويرى مئير عميت أن القرار غالباً جداً ما قام على مقتضيات سياسية كالحاجة إلى تحويل الانتباه عن مناورة ديبلوماسية تعتزم إسرائيل القيام بها في الشرق الأوسط لخدمة مصالحها الأنانية أو استعادة شعبيتها المتقلبة خصوصاً في الولايات المتحدة .

عندما تحطمت الرحلة 800 لطائرة الخطوط الجوية "تي . دبليو أي ." قرب الساحل الجنوبي – الشرقي لـ"لونغ آيلند" في 17 تموز (يوليو) 1996 فقتل 230 شخصاً كانوا على متنها ، نظّم "الاب" حملة للإيحاء بأن إيران أو العراق (وكلاهما بعبع لإسرائيل) هما العقل المدبّر للمأساة . وسرعان ما نشرت آلاف القصص الإعلامية التي تروّج للخرافة . وبعد حوالي السنة وبعد إنفاق حوالي خمسمائة ألف دولار وإنفاق عشرة آلاف ساعة عمل ، استبعد كبير المحققين في مكتب التحقيقات الفيدرالي "أف . بي . أي ." ، جيمس كالستروم أن يكون السبب انفجار قنبلة زرعها الإرهابيون كما استبعد أي دليل لعمل إجرامي قضائي . ونقل عنه قوله لزملاء له في مجالس خاصة "لو أن هناك طريقة لاعتقال

أولئك اللقطاء في تل أبيب على إضاعتهم وقتنا لكنت حتماً رغبت في ذلك . لقد اضطررنا إلى أن نتحقق من صحة كل خبر سرّبوه إلى وسائل الإعلام" .

ومرة أخرى ، ضرب "الاب" ضربته بعد تفجير "الألعاب الأولمبية" في اطلنطا . فقد أشيعت القصة الخيالية بأن القنبلة تحمل "كل الدلائل" على أن من صنّعها اكتسب مهاراته من خبراء المتفجرات في وادي البقاع في لبنان . وجرى تصديق القصة وجعلت "الاب" شبح الإرهاب واضحاً لدى رأي عام أميركي يمكن تفهّم خوفه . كان المشتبه الوحيد حارساً سيئ الطالع يعمل في "الألعاب" ، وكان ظاهراً أن ليس للرجل أي علاقة بالإرهاب الدولي . وعندما برّئ ، ماتت القصة .

ومرة أخرى أبدى مئير عميت تفهّمه لأهمية تذكير العالم بالإرهاب . ولكن كان لا بد أن يكون التحذير "معزّزاً بالأدلة ، وهو ما كنت أصرّ عليه على الدوام" . وأتبع هذا الإقرار بشقلة من كتفيه كما لو أن غطاء من النار الداخلية أطفأ شرارة غضبه . لقد تعلّم منذ زمن بعيد إخفاء شعوره وإبقاء التفاصيل غامضة . ولسنوات مضت كانت قوته تكمن في الستر .

وعنده أن الهبوط الحلزوني للموساد بدأ عندما جرى اغتيال رئيس الوزراء اسحق رابين في مظاهرة سلمية في تل أبيب في تشرين الثاني (نوفمبر) 1995 . قبل اغتيال رابين على يد أحد المتطرفين اليهود – وفي ذلك مؤشر إضافي إلى التوعّك العميق الذي رأى عميت أنه أصاب المجتمع الإسرائيلي – كان المدير العام للموساد يومئذ شبطاي شافيت قد حذّر موظفي مكتب رابين من محاولة اغتيال تستهدفه . ووفقاً لأحد هؤلاء الموظفين جرى تجاهل الاحتمال باعتبار أن غموضه لا يجعله "يشكل خطراً محدّداً" .

في عهد رئاسة مئير عميت كان الموساد لا يزال غير مخوّل العمل داخل إسرائيل ، تماماً كما لا يسمح لـ"سي . آي . أي ." أن تعمل ضمن الولايات المتحدة . ومع ذلك وعلى رغم انتقاداته فإن مئير عميت يحب أن يقول أن الموساد شارك إسرائيل مصيرها . وخلال عهده ، غالباً ما تردّد أثر ما فعله الجهاز في أنحاء العالم . وهو يعزو ذلك بصورة رئيسية إلى الولاء ، وهي صفة يبدو أنها أصبحت زياً مُبطلاً . فالناس لا يزالون يقومون بعملهم ، وهو عمل خطير وقذر كما كان دائماً ، لكنهم يتساءلون عما إذا كانوا سيخضعون للمحاسبة ليس فقط من قبل رؤسائهم بل من أحد الشخصيات السياسية القابع في خلفية الصورة . إن هذا التدخل

يفسّر جنون الارتياب الذي كان يظهر للعيان بين الحين والآخر ويعترض على الفكرة القائلة بأن إسرائيل دولة ذات نظام ديموقراطي حقيقي .

إلى جانب الطريق العام الواصل بين منتجع هيرتزليا وتل أبيب تقوم مجموعة منازل مسوّرة تغطيها غابة من الهوائيات . هذه هي مدرسة التدريب التابعة للموساد . وبين الأمور الأولى التي يتعلّمها المسؤول السياسي الجديد أو الجاسوس في سفارة أجنبية في تل أبيب هو موقع هذا المبنى ذي اللون القاتم . ومع ذلك فإن كشف أي صحيفة إسرائيلية لوجوده لا يزال يعرّضها للملاحقة . عام 1996 ثار جدال عنيف في أوساط الاستخبارات في البلاد حول التدابير التي تُتخذ على أثر نشر صحيفة تصدر في تل أبيب اسم آخر مدير عام للموساد الرجل المتقشّف داني ياتوم . وجرى الحديث عن اعتقال الصحافي الجاني ورئيس تحريره . وفي الأخير لم يحدث شيء إذ تبيّن للموساد أن اسم ياتوم كان قد نشر في جميع أنحاء العالم .

يعارض مئير عميت بشدّة مثل هذا الكشف ، وهو يقول "أن ذكر اسم مدير لا يزال في منصبه أمر خطير . التجسس عمل سري وإن يكن غير سائغ . ومهما يكن ما فعله الشخص فالواجب حمايته من الدخلاء . وبإمكانك أن تعامله بالقسوة التي تستنسبها داخل المنظمة . أما بالنسبة للعالم الخارجي فينبغي أن يبقى فوق النقد ، بل الأفضل القول إنه غير خاضع للحساب ومجهول" .

أثناء فترة ولايته كمدير عام كان اسمه الحركي "رام" . وللكلمة وقع توراتي مرض لصبي شُرّب روح الروّاد الأول ، بينما كانت كل فلسطين العربية ثائرة ضد الانتداب البريطاني واليهود معاً . ومنذ يفاعته درّب جسده بقسوة . كان مئير عميت ضئيل البنية فأصبح قوياً وذا لياقة بدنية ، وكان دافعه اعتقاده بأن هذه أرضه هو . أرض إسرائيل . وما كان يعنيه أن باقي العالم كان لا يزال يعرفها باسم فلسطين حتى عام 1947 عندما اقترحت الأمم المتحدة تقسيمها .

أعقب ولادة دولة إسرائيل تعرضها لخطر الإبادة عندما حاولت الجيوش العربية استعادة الأرض . مات ستة آلاف يهودي ، أما عدد قتلى العرب فليس مؤكداً . بمشاهدة هذا العدد الكبير من الجثث اقترب مئير عميت من مرحلة النضج . وعمّق العملية وصول الناجين من معسكرات الموت النازية وكل منهم يحمل وشماً أزرق بغيضاً . يقول عميت "كان المنظر

تذكرة بعمق الفساد الإنساني" . لهذه الكلمات وقع مبتذل ربما لا يتناسب مع المقام لو أنها صدرت عن شخص آخر . أما مئير عميت فيمنحها وقاراً .

كان تاريخه المهني العسكري سيرة حياة جندي متّجه إلى القمة : كان آمر سرية في "حرب الاستقلال" عام 1948 ، وبعد ذلك بسنتين آمر لواء بقيادة موشي دايان ، وبعدها وفي غضون خمس سنوات قائد العمليات في الجيش وهي ثاني أعلى رتبة في الجيش الإسرائيلي .

وانتهى تاريخه المهني العسكري على أثر حادث تعطّلت فيه مظلّة الهبوط . ودفعت الحكومة الإسرائيلية نفقات انتسابه إلى جامعة كولومبيا حيث حصل على درجة "أستاذ" في إدارة الأعمال . وعاد إلى إسرائيل بلا عمل .

واقترح موشي دايان مئير عميت لوظيفة رئيس الاستخبارات العسكرية . وعلى رغم المعارضة الأولية التي تركّزت في معظمها على أساس منطقي وهو أن لا خبرة استخباراتية لديه ، فقد عيّن للمنصب . يقول : "الميزة الوحيدة التي كانت لدي هي أنني عملت آمراً ميدانياً فكنت أعرف أهمية الاستخبارات الصحيحة للجنود المقاتلين" . وفي 25 آذار (مارس) 1963 تسلّم منصبه في الموساد من إيسر هاريل . وقد كثرت إنجازاته حتى صارت تحتاج إلى موجز : الرجل الذي تبنّى سياسة الموساد باغتيال الأعداء ، ومن أقام علاقة عمل سريّة مع الاستخبارات السوفياتية "كي . جي . بي ." بينما كان ملايين اليهود يتعرضون للاضطهاد ، ومن نقّح دور المرأة واستخدام الأحابيل الجنسية في عمل الاستخبارات ، ومن وافق على اختراق قصر الملك حسين قبيل تحوّل العاهل الهاشمي عميلاً للـ"سي . آي . أي ." في العالم العربي .

ولا تزال الأساليب التي اتبعها لتحقيق كل ما ذكرنا قيد الاستعمال ، ولكنه لن يطلع أحداً من خارج الموساد على كيفية تطوير هذه الأساليب أول مرة . تشتد عضلات فكّه ولا يتفوّه سوى بالقول : "هناك أسرار ، وهناك أسراري" .

عندما حان الوقت وشعر أن في مصلحة الموساد الإتيان بشخص آخر لقيادة الدفة ، غادر منصبه بلا ضجيج ، فدعا موظفيه جميعاً وذكّرهم بأنهم إذا شعروا مرةً أن كونهم يهوداً ويعملون لصالح الموساد يولّد مشكلة بين أخلاقهم الشخصية ومتطلبات الدولة ، فينبغي أن يستقيلوا من وظائفهم فوراً . ثم بعد جولة من المصافحات ، رحل .

ولكن ولا رئيس للموساد عُيّن حديثاً لمنصبه لم يزره لأخذ القهوة في مكتبه على شارع

جابوتنسكي في حي رامات غان اللطيف في تل أبيب . في تلك المناسبات كان مكتب مئير عميت يبقى مقفلاً بإحكام والهاتف معطلاً .

"كانت أمي تقول دائماً أن خيانة الثقة تفقدك صديقاً" ، يقول عميت بالإنكليزية وهو يبتسم ابتسامة عجوز ماكرة .

باستثناء عائلته الخاصة – وهي عشيرة صغيرة من الأبناء والأحفاد وأولادهم والأنسباء والجيران تمتد عبر أجيال عدة – فإن أحداً لا يعرف من هو مئير عميت فعلاً . هذا ما أصر عليه على الدوام .

في صباح ذلك اليوم من أيام آذار (مارس) 1997 كان مئير عميت الجالس وراء مقود سيارته يبدو شاباً ، أقرب إلى سن الستين من سنه الفعلي وهو خمسة وسبعون عاماً . البنية الجسدية التي أعانته يوماً على إنهاء اختبار تحت الإجهاد في مستوى التدريب الأولمبي وهنت . كانت تبدو بداية كرش تحت سترته الزرقاء الأنيقة . ولكن عينيه كانتا لا تزالان حادتين ومروّعتين ويستحيل فهمهما أو العبور إليه منهما . كان يقود سيارته نحو جادة من شجر الأوكاليبتوس .

حتى هو نفسه لا يعرف كم مرة قام بهذه الرحلة . لكن كل رحلة كانت تذكّره بالحقيقة القديمة : "إن بقاءك حياً كيهودي لا يزال يعني الدفاع عن نفسك حتى الموت" .

كانت هذه التذكرة عينها بادية على وجوه الجنود الذين وقفوا تحت الأشجار خارج معسكر تدريب مجندي الأسطول البحري في غليلوت شمال تل أبيب . كانوا ينتظرون السيارات التي ستقلّهم إلى وجهاتهم وكانوا يتبخترون ببعض الوقاحة . إنهم يقومون بالخدمة الإجبارية في الجيش الإسرائيلي وفي خلدهم أنهم يخدمون في أرقى جيش على الأرض .

ولم يعره أحد منهم اهتماماً ذا بال . فهو عندهم رجل عجوز آخر ممّن يأتون للتذكر عند نصب تذكاري للحرب يقع على مقربة من مكان انتظارهم . وتعج إسرائيل بمثل هذه النصب التذكارية ، ففيها ما يزيد على 1500 منها أقيمت لذكرى المظليين والطيارين وقادة الدبابات ورجال المشاة . وتخلّد النصب قتلى خمس حروب تقليدية شاملة وما يقرب من خمسين سنة من التسلّل عبر الحدود وعمليات مكافحة مقاتلي حرب العصابات . ومع ذلك فليس في هذه البلاد التي تحترم محاربيها القتلى كما لا يفعل غيرها منذ احتلها الرومان نصب آخر في إسرائيل – بل وفي العالم – كالنصب الذي ساعد مئير عميت على إقامته .

انه يقوم في محيط معسكر تدريب مجندي البحرية ويتألّف من عدد من المباني ذات الجدران الإسمنتية وكتلة من جدران من الأحجار الرملية صمّمت على هيئة دماغ بشري . وقد اختار مئير عميت هذا الشكل لأن "الاستخبارات مسالة عقلية وليست شكلاً برونزياً في وقفة بطولية" ، على حد قوله .

ويحيي النصب ذكرى 557 رجلاً وامرأة من أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية خدم 71 منهم في الموساد .

ماتوا في ناحية من العالم : في صحراء العراق وجبال إيران وأدغال أميركا الجنوبية والوسطى والدغل الإفريقي وشوارع أوروبا . وحاول كل من هؤلاء أن يطبق شعار الموساد : "إن حربك قائمة على الخداع" .

عرف مئير عميت العديد منهم بصفة شخصية ، وأرسل بعضهم إلى حتفه في مهام اعترف أنها تتجاوز "حدود الخطر المقبول ولكن هذا هو نوع العمل الذي من المؤسف استحالة تجنبه . إن وفاة شخص واحد يجب أن يوزن دائماً مقابل أمن بلادنا . لطالما كان الأمر هكذا" .

وتحمل جدران الأحجار الرملية الناعمة أسماء القتلى وتاريخ وفاتهم فقط . فلا إشارات إلى ظروف الوفاة ، أكان في إعدام في الساحات العامة كما كان مصير جميع الجواسيس اليهود المدانين في العالم العربي ، أم بطعنة سكين قاتلة في زقاق لا اسم له ، أم الإفراج بدافع الشفقة بعد أشهر من التعذيب داخل السجن . لا أحد يمكنه معرفة ذلك . حتى مئير عميت غالباً ما يشتبه فقط ، وكان يحتفظ بمثل هذه الشكوك لنفسه .

والنصب المصمّم على شكل دماغ ليس سوى جزء من مجموعة النصب المسوّرة . داخل الأبنية الإسمنتية تقوم غرفة الملفات التي تضم السير الشخصية للعملاء القتلى . جرى توثيق الجزء الأول من حياة كل شخص وخدمته العسكرية بعناية وأغفلت المهمة السرية الأخيرة . وتقام الصلاة على كل عميل في كنيس صغير في يوم الذكرى .

خلف الكنيس مدرّج تتجمّع فيه العائلات في "ذكرى الاستخبارات" لتتذكّر موتاها . وأحياناً يتوجّه مئير عميت إليهم بكلمة . بعدها يزورون متحف النصب المليء بالنتاجات الاصطناعية : جهاز إرسال في قاعدة مكواة للثياب ، "ميكروفون" في إبريق قهوة ، حبر سري في زجاجة عطر ، شريط التسجيل الأصلي الذي سجّل سراً المكالمة الخطيرة بين الملك حسين ، ملك الأردن ، والرئيس المصري جمال عبد الناصر ، نذير حرب حزيران (يونيو) 1967 .

لقد صقل مئير عميت قصص الرجال الذين استخدموا المعدات حتى صار لها لمعان الأسطورة البطولية . وهو يشير إلى التنكّر الذي اشتهر به ياثا بقاعي عندما كان يتسلل إلى الأردن حتى اعتقل وأُعدم عام 1949 ، وجهاز اللاسلكي البلّوري الذي استخدمه ماكس بينيت وموشى مرزوق لإدارة أنجح شبكة للموساد في مصر قبل أن يموتا موتاً بطيئاً مؤلماً في أحد سجون القاهرة .

هؤلاء يسميهم مئير عميت "جدعوناتي" ، إشارة إلى جدعون بطل التوراة الذي أنقذ إسرائيل في مواجهتها لقوى عدوة متفوّقة بسبب تفوّق استخباراته .

أخيراً حان وقت ذهابه إلى المتاهة وبرفقته أمين المتحف . توقفا قبالة كل اسم منقوش فأحنيا رأسيهما قليلاً ثم تابعاً السير . وفجأة انتهت الجولة . فما عاد هناك موتى تقدّم لهم فروض الاحترام ، بل ساحة واسعة لمزيد من الأسماء على شاهدة القبر الرملية اللون .

وللحظة غاب مئير عميت في حلم يقظة . وهمس بالعبرية إلى أمين المتحف "مهما يحدث يجب أن نحافظ على هذا المكان" .

ومن دون الإشارة إلى ما سبق أضاف مئير عميت أن الرئيس السوري حافظ الأسد يحتفظ على جدار مكتبه في دمشق بصورة واحدة ، صورة فوتوغرافية كبيرة لموقعة انتصار صلاح الدين على الصليبيين عام 1187 والتي أدت إلى استعادة العرب للقدس .

ويرى مئير عميت أن شغف الرئيس الأسد بالصورة "له معناه في إسرائيل . إنه ينظر إلينا كما كان ينظر صلاح الدين ، جهة ستهزم في الأخير . أن هناك عدداً كبيراً ممن يشاركونه هذا الطموح . وبعضهم يدعّون أنهم أصدقاؤنا . وينبغي أن نكون حذرين منهم بوجه خاص . . ." .

توقف وودّع أمين المتحف ، وسار إلى سيارته كما لو أنه قال أكثر مما يجب ، كما لو أن ما قاله سيقوّي الهمسات التي بدأت تنتشر في أوساط أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية . كانت أزمة جديدة في التحالف المضطرب القائم بين الموساد والاستخبارات الأميركية في طريقها إلى الظهور وهي تنذر بنتائج مدمّرة على كيان إسرائيل .

وقد تورّط حتى الآن في هذه الفضيحة أحد أكثر العملاء قسوة وحيوية ممّن خدموا في عهد مئير عميت . رجل دخل التاريخ على أنه معتقِل أدولف آيخمان ، ومع ذلك فهو لا يزال يحب اللعب بالنار .

الفصل الرابع

الجاسوس ذو القناع الحديدي

اعتاد السكان الأثرياء في ضاحية أفيكا الراقية شمال تل أبيب على رؤية رفائيل (رافي) إيتان وهو يعود إلى منزله حاملاً قطعاً من مواسير المغاسل المهملة وسلاسل الدراجات المستعملة وغيرها من الخردة المعدنية المتجانسة .

وإيتان رجل عجوز قصير وثخين وغليظ الصدر وقصير النظر ، ويكاد يكون أصمّاً في أذنه اليمنى منذ إصابته في حرب 1948 . كان يرتدي بنطلوناً وقميصاً رخيصين ويغطي وجهه بواق يستعمله اللحّامون بينما كان يستخدم مشعل غاز استيلين ليصنع من الخردة تماثيل سورياًلية .

كان بعض الجيران يتساءل عما إذا كانت تلك طريقته للهرب الموقت مما اقترفت يداه . فهم يعرفون أنه مارس القتل من أجل إسرائيل ليس في معركة مفتوحة بل في مجابهات سرّية كانت جزءاً من حرب إسرائيل السرّية المستمرة ضد أعداء الدولة . ولم يكن أيٌّ من الجيران يعرف بالضبط كم عدد من قتلهم رافي إيتان مستخدماً يديه القويتين القصيرتين الغليظتين . فكل ما قاله لهم هو "كلما كنت أقتل كنت أنظر إلى عيونهم – بياض عيونهم . عندها أكون هادئاً جداً ومركّز التفكير جداً ، فلا أفكر إلا بما عليّ أن أقوم به . ثم أفعله . وينتهي الأمر" . وكان يرفق هذه الكلمات ببسمة محبّبة يستخدمها بعض الرجال الأقوياء إذ يطلبون مطاوعة الضعفاء لهم .

عمل رافي إيتان نائباً تنفيذياً لمدرسة العمليات في الموساد لما يقرب من ربع قرن . لم يكن من طبعه الجلوس خلف مكتبه لقراءة التقارير وإرسال غيره لتنفيذ أوامره . فكلما

سنحت الفرصة كان يدخل إلى الميدان ، فيسافر في العالم بغرض واضح ، ودافعه فلسفة لخَّصها بجملة بليغة واحدة "إذا لم تكن جزءاً من الحل ، فلا بد أنك جزء من المشكلة" .

لم يكن لأحد مثل قسوته الباردة ، ومكره وقدرته على الإرتجال بسرعة هائلة ومهاراته الفطرية لبزّ حتى أفضل الخطط وتعقّبه الملحاح لطريدته . وقد تضافرت كل هذه الصفات معاً في عملية واحدة خلّدت اسمه - اختطاف أدولف آيخمان البيروقراطي النازي الذي كان عنواناً لبشاعة "الحل الأخير" الذي تبنّاه هتلر .

كان الجيران في شارع شاي يحترمون رافي إيتان ، فهو من انتقم لموتاهم ، وهو رجل العصابات الذي سنحت له الفرصة لتذكير العالم بأن لا أمان لنازيّ . وما كانوا يتعبون من قبول دعوته لهم لزيارته والاستماع إليه وهو يصف عملية لا تضاهى في جرأتها . كان رافي يجلس محاطاً بتحفه الثمينة عاقداً ذراعيه القويتين ومحنياً رأسه المربع الضخم إلى جانب . كان يصمت برهةً ليتيح لمستمعيه أن يعودوا بمخيلتهم إلى الوقت الذي ولدت فيه دولة إسرائيل على رغم كل الصعاب ، ثم يبدأ الحديث ، بصوته القوي الذي يشبه صوت ممثّل قام بكل الأدوار بلا استثناء ، فيروي لأصدقائه الخلّص كيف تدبّر أمر اختطاف أدولف آيخمان ممهّداً السبيل لإحدى أكثر قصص الخطف إثارة في التاريخ .

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية تولّى الناجون مما يسمى "المحرقة النازية" بأنفسهم ملاحقة مجرمي الحرب النازيين . كانوا يسمون أنفسهم "نُقمين" (المنتقمون) . ولم يكونوا ليهتموا بالمحاكمات القانونية ، بل كانوا يعدمون أيّ نازي يعثرون عليه . وليس في علم رافي إيتان أنهم قتلوا غير الشخص المقصود في أيّ مرة . على الصعيد الرسمي لم تبدِ إسرائيل اهتماماً في تعقّب مجرمي الحرب ، فلم يكونوا من الأولويات . كانت إسرائيل دولةَ حديثة العهد تحيط بها الدول العربية المعادية . ولم تكن تتبنّى خططاً بعيدة المدى ، فهي دولة تكاد تكون مفلسة ، وما كانت تستطيع توفير الأموال لتصريف شرّ الماضي .

عام 1957 ، تلقّى الموساد نبأ مثيراً مفاده أن هناك من رأى آيخمان في الارجنتين . كان رافي إيتان قد أصبح نجماً صاعداً في الموساد نتيجة غزواته الماكرة للعرب ، فوقع الخيار عليه للقبض على آيخمان والمجيء به إلى إسرائيل للمثول أمام المحكمة .

قالوا له أن للعملية فوائد متعدّدة ومهمّة . فهي ستكون نوعاً من القصاص الإلهي لما حلّ بشعبه . وستذكّر العالم بمعسكرات الموت وبالحاجة إلى ضمان عدم تكرار ما حدث

أبداً . كما أنها ستضع الموساد في مقدم أجهزة الاستخبارات العالمية . فلم يسبق لأي جهاز استخبارات أن جرّب تنفيذ مثل هذه العملية . وكانت المخاطر لا تقل أهميّة . فسوف يكون ميدان عمله بعيداً آلاف الأميال عن بلده ، وسيسافر بأوراق ثبوتية مزوّرة ، وسيعتمد كلياً على مواهبه وهو يعمل في محيط معاد . كانت الأرجنتين ملاذاً للنازيين ، وربما انتهى الأمر بفريق الموساد في السجن أو حتى الموت قتلاً .

وانتظر رافي إيتان على مضض سنتين طويلتين حتى جرى التأكّد من صحّة المشاهدة الأولى المتردّدة ، ومن أن الرجل الذي يقيم في أحد أحياء الطبقة المتوسطة في بيونس آيرس باسم ريكاردو كلامنت هو أدولف آيخمان نفسه .

عندما جاء الإيعاز بالتحرّك أخيراً ، أصبح رافي إيتان "بارداً إلى حدٍّ قصي" . لقد أتمّ درس ما يمكن أن يتعثّر . وستكون العواقب السياسية والديبلوماسية (والمهنية الخاصة) هائلة . كما تساءل أيضاً عما سيحدث إذا تدخّلت الشرطة الارجنتينية بعد اعتقال آيخمان . يقول "قررت أنني سأخنق آيخمان بيديّ . فإذا قبضوا عليّ قلت للمحكمة أنني هكذا افهم قول التوراة أن العين بالعين" .

كانت شركة الطيران الاسرائيلية "العال" قد اشترت من مال الرُّشى لدى الموساد طائرة "بريتانيا" خصيصاً للقيام بالرحلة الطويلة إلى الأرجنتين . ويعلّق رافي إيتان :

"أرسلنا شخصاً إلى انكلترا ليشتري إحدى تلك الطائرات . فدفع المال وحصلنا على طائرتنا . على المستوى الرسمي كانت الرحلة المتجهة إلى الأرجنتين تُقلّ وفداً إسرائيلياً لحضور احتفالات الأرجنتين بالذكرى المائة والخمسين لاستقلالها . لم يكن أيٌّ من أعضاء الوفد يعرف لماذا كنا ذاهبين معهم أو أننا أنشأنا زنزانة في مؤخرة الطائرة لاعتقال آيخمان" .

وصل رافي إيتان وفريقه إلى بيونس آيرس في عيد العمل عام 1960 . وأقاموا في أحد البيوت السرية التي كان عميل للموساد سبقهم واستأجرها . وقد أطلق على واحد من هذه البيوت اسم "ماؤز" (حصن) . واتفق على أن تكون الشقة قاعدة للعملية . وسمّي بيت سري آخر "تيرا" (القصر) واتفق أن يكون مكان احتجاز آيخمان بعد اختطافه . أما البيوت الأخرى فتستخدم في حال الاضطرار إلى نقل آيخمان إلى مكان آخر اتقاءً لعملية تفتيش متوقّعة تقوم بها الشرطة . كما جرى استئجار دزينة من السيارات لاستخدامها في العملية .

بعد اكتمال الترتيبات هدأ سلوك رافي إيتان واشتد مضاءً . تبدّدت كل الشكوك

بالفشل وحلّ محل توتّر الانتظار توقّع العمل . وعلى مدى ثلاثة أيام أجرى رافي إيتان وفريقه مراقبة خفيّة لأدولف آيخمان الذي كان من قبل يتنقّل إلى حيث شاء في سيارة مارسيدس مترفة يقودها سائق خاص ، وقد أصبح الآن يتنقل بالباص وينزل عند قارعة شارع غاريبالدي في ضاحية من ضواحي المدينة بدقّة في المواعيد عُرفت عنه دائماً .

ليلة العاشر من أيار (مايو) 1960 اختار رافي إيتان لعملية الاختطاف سائقاً وشخصين آخرين لإخضاع آيخمان حالما يصبح داخل السيارة . كان أحد هذين الشخصين قد تلقّى تدريباً على إخضاع الأهداف في الشارع . فجلس رافي إيتان قرب السائق "على أهبة الاستعداد للمساعدة في أيّ حال" .

حدّد موعد العملية مساء اليوم التالي . وفي الساعة الثامنة مساء يوم الأحد 11 أيار (مايو) سارت سيارة الفريق في شارع غاريبالدي .

لم يكن الجوّ متوتّراً . فقد ولّى زمن التوتّر . كانوا صامتين ، فلم يكن عندهم ما يقولونه . نظر رافي إيتان إلى ساعته فإذا هي تشير إلى الثامنة وثلاث دقائق . سارت السيارة صعوداً وهبوطاً في الشارع الخالي . الساعة 8:04 . جاءت عدة باصات ورحلت . عند الساعة 8:05 وصل باص آخر . وشاهدوا آيخمان يهبط منه . يقول رافي إيتان أنه "بدا متعباً نوعاً ما . كان الشارع لا يزال خالياً . وسمعت في الخلف صوت باب السيارة يفتحه خبيرنا بالخطف . وسارت السيارة خلف آيخمان الذي كان يسير بسرعة كما لو أنه عائد إلى منزله لتناول طعام العشاء . كنت أسمع صوت الخبير وهو يتنفس بانتظام كما علّموه أثناء التدريب . كان قد قدّر مدة خطفه باثنتي عشرة ثانية . يخرج من السيارة ويمسك به من رقبته ثم يجرّه إلى داخل السيارة . يخرج ، يمسك ، يجرّ" .

سارت السيارة بمحاذاة آيخمان ، فاستدار قليلاً . ثم تعثّر الخبير برباط حذائه المحلول وكاد يقع على الأرض . ومرّت لحظة جمّدت فيه الصدمة رافي إيتان . لقد قطع نصف العالم للقبض على الرجل وها هم يكادون يضيّعونه بسبب تحلّل رباط حذاء .كان آيخمان قد بدأ يبتعد بسرعة ، فقفز رافي إيتان من السيارة .

يقول "أمسكت به من رقبته بقوة جعلت عينيه تجحظان . ولو شددت أكثر قليلاً لكان مات خنقاً . كان الخبير قد نهض وفتح الباب ، فقذفت بآيخمان على المقعد الخلفي . قفز الخبير وراءه وكاد يجلس عليه . لم يستغرق الأمر أكثر من خمس ثوان" .

من المقعد الأمامي كان رافي إيتان يشمّ رائحة نفس أيخمان النتنة بينما كان يتنفس بصعوبة . حرّك الخبير فكه صعوداً وهبوطاً . هدأ روع آيخمان حتى أنه عمد إلى سؤالهم ما معنى هذا الاعتداء .

لم يكلّمه أحد . وبهدوء وصلوا إلى بيتهم السريّ على بعد أميال . أومأ رافي إيتان إلى آيخمان أن انزع ملابسك . وبعدئذ قارن بين قياساته وتلك المستخرجة من ملف لمنظمة "أس .أس ." (العسكرية الحزبية النازية) كان قد حصل عليه . لم يفاجئه أن يرى آيخمان قد أزال جزئياً وشم الـ"أس .أس ." عن جسده . لكن قياساته الأخرى كانت جميعاً كما في الملف – حجم الرأس والمسافة من الكوع إلى الرسغ ، ومن الركبة إلى الكاحل . أمر بربط آيخمان بسلسلة إلى السرير . ولعشر ساعات تركه في صمت تام . كان رافي إيتان يريد "استثارة شعور اليأس فيه . وقبيل بزوغ الفجر كان آيخمان في أدنى حالاته العقلية . سألته ما اسمه ، فأعطى اسماً اسبانياً . قلت : لا لا لا ، أريد اسمك الألماني . فأعطى اسمه الألماني المستعار ، الذي استخدمه للفرار من ألمانيا . ومرة أخرى قلت : لا لا لا ، اسمك الحقيقي ، اسمك في "أس .أس ." . فتمدّد على السرير كما لو أنه يريد أن يتأهب ، وقال بصوت عال وواضح "أدولف آيخمان" . لم أوجّه إليه أي سؤال آخر . ما كنت بحاجة إلى ذلك" .

خلال الأيام السبعة التالية بقي آيخمان وخاطفوه في خلوة في المنزل . ولم يكن أحد يكلّم آيخمان . كان يأكل ويستحم ويذهب إلى المرحاض في صمت تام . يقول رافي إيتان :

"كان الحفاظ على الصمت أكثر من حاجة عملانية . لم نشأ أن يرى آيخمان مبلغ خوفنا . كان هذا سيمنحه الأمل . والأمل يجعل اليائس خطراً . كنت أريده أن يكون بلا حول" .

كان القرار الخاص بكيفية نقله من البيت إلى طائرة "العال" التي تنتظر إعادة الوفد الرسمي مليئاً بالسخرية المرّة . فقد أُلبس آيخمان بزّة الطيران الإضافية الخاصة بشركة "العال" التي أحضرها رافي إيتان معه من إسرائيل . ثم جرى حثّه على شرب زجاجة ويسكي كاملة مما أدخله في غيبوبة سكر .

ارتدى رافي إيتان وفريقه بزّات الطيران التي بحوزتهم ورشّوا أنفسهم بسخاء بالويسكي . وبعدما أُلبس آيخمان قبعة موظّف طيران وحُشِر في مؤخرة السيارة ، سار رافي إيتان بالسيارة

إلى القاعدة الجوية العسكرية حيث كانت طائرة "بريتانيا" تنتظر وقد شغّلت محركاتها .

عند بوابة القاعدة أشار الجنود الأرجنتينيون إلى السيارة بالتوقّف . كان آيخمان في المؤخرة يشخر ، ويتذكّر رافي إيتان :

"كانت السيارة تفوح برائحة الشراب كأنها معمل تقطير . تلك كانت اللحظة التي أكسبتنا جائزة "الأوسكار" في الموساد . قمنا بدور اليهود السكارى الذين دوّخهم الشراب الأرجنتيني القوي . سُرّ الحراس ولم يلقوا على آيخمان نظرة ثانية" .

وعند الدقيقة الخامسة بعد منتصف ليل 21 أيار (مايو) 1960 أقلعت "بريتانيا" وعليها أدولف آيخمان وهو لا يزال يشخر في زنزانته في مؤخرة الطائرة .

وبعد محاكمة طويلة دين آيخمان بتهمة ارتكاب جرائم ضد الإنسانية . ويوم إعدامه في 31 أيار (مايو) 1962 كان رافي إيتان في غرفة الإعدام في سجن الرملة . يقول "نظر آيخمان إليّ وقال : أيها اليهودي سيأتي يومك" . وأجبت "ولكن ليس اليوم يا أدولف ، ليس اليوم" . وفي اللحظة التالية انفتح الباب المسحور فسُمع صوت اختناق آيخمان . صعدت رائحة أمعائه ثم لم يبقَ إلا صوت الحبل المتدلي . صوت سارّ جداً" .

شيّد فرن خاص لحرق الجثة ، وخلال ساعات نثر الرماد على مساحة واسعة فوق البحر . كان بن غوريون قد أمر بإخفاء كل أثر حتى يقطع على المتعاطفين طريق تحويل آيخمان إلى رمز عبادة نازي . أرادت إسرائيل أن تمحوه عن وجه الأرض . بعدئذ جرى تفكيك الفرن ولم يستخدم أبداً . في تلك الأمسية وقف رافي إيتان على الشاطئ ونظر نحو البحر وهو يشعر بالراحة التامة "لقد أنهيت مهمتي . إنه شعور مريح دائماً" .

استمرت وظيفة رافي إيتان كنائب رئيس للعمليات في الموساد تدفعه بمشيته المترنحة عبر أوروبا للعثور على رجال العصابات العرب وإعدامهم . وأثناء قيامه بمهامه استخدم القنابل الموجّهة عن بعد ومسدس الموساد المفضل "الباريتا" ، وحيث استلزم الأمر السكون استخدم يديه إما لخنق ضحيته بسلك فولاذي أو لتوجيه لكمة مميتة إلى أسفل الجمجمة . وكان دائماً يقتل بلا ندم .

وعند عودته كان يقف لساعات عند موقده القائم في الهواء الطلق المكلّل بالشرر ، وقد استغرق اهتمامه كلّه لوي المعادن وفق حاجته . ثم يرحل ثانية في سفرات غالباً ما استدعت تغيير طائرته مراراً قبل أن يصل إلى وجهته الأخيرة . كان يختار لكل سفرة

جنسية أو هوية جديدة ، معتمداً على عدد كبير من جوازات السفر المسروقة أو المزوّرة بإتقان والتي حصل عليها الموساد بطول أناة .

وبين كل عمليتي قتل ، كان رافي إيتان يمارس مهاراته الأخرى وهي تجنيد المتطوّعين . وقد اعتمد طريقة ثابتة استغلّت عصبية اليهود .

يقول "كنت أقول لهم أن شعبنا يحلم منذ ألفي عام . ولألفي عام كنا نحن اليهود نصلّي من أجل الخلاص . بأغانينا وأشعارنا وفي قلوبنا أبقينا الحلم حياً وأبقانا الحلم أحياء . والآن تحقّق الحلم" . ثم أضيف : "وحتى نضمن أن يستمر نحتاج إلى أناس مثلكم" .

في المقاهي القائمة على جادات باريس ، وفي المطاعم القائمة على ضفاف الراين ، وفي مدريد وبروكسيل وحي "غولدرز غرين" في لندن ، كان يردّد هذه الكلمات المؤثرة . وكانت رؤيته لمعنى اليهودية تلاقي نجاحاً . وحين يواجه المتردّدين كان يتأنّق في مزج الشخصي بالسياسي فيعيد قصّ حكايات من أيام خدمته في منظمة "الهاغانا" مع مرويات عاطفية عن بن غوريون وزعماء آخرين . وكانت مقاومة المصغين تنهار .

ولم يلبث أن أصبح ينصاع له ما يزيد على مائة رجل وامرأة في أنحاء أوروبا : كانوا محامين وأطباء أسنان ومعلمي مدارس وأطباء وخياطين وأصحاب حوانيت وربات بيوت وسكرتيرين وسكرتيرات . وكان هناك مجموعة يدلّلها بصورة خاصة وهي اليهود الألمان الذين عادوا إلى أرض محرقتهم . ورافي إيتان يسميهم "جواسيسي الناجون" .

اعتنى رافي إيتان أثناء عمله الجاد في الجانب التنفيذي لعمليات الموساد أن ينأى بنفسه عن اللعب السياسي الذي استمر في إفساد أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية . كان على علم بمناورة "أمان" (الاستخبارات العسكرية) و"شين بيت" لاضعاف هيمنة الموساد .

بلغ سمعه أمر تشكيل وإعادة تشكيل العصابات السرية والتقارير البالغة الخطورة التي كانوا يرسلونها إلى مكتب رئيس الوزراء ، لكن الموساد بقي في عهد مئير عميت ثابتاً كالصخرة فأحبط كل المحاولات للانتقاص من موقعه المتميّز .

وفي أحد الأيام لم يعد مئير عميت يتولى القيادة ، فقد رحل صوت خطوته الرشيقة في الممرات ، ومعه نظرته المحدّقة الفاحصة والابتسامة التي لم تصل مرةً إلى شفتيه . بعد رحيله ، حثّ الزملاء رافي إيتان على السماح لهم بحشد المؤيدين لحلوله محل عميت ، مشيرين إلى أنه يتمتع بالمؤهلات وبالولاء والشعبية داخل الموساد . ولكن قبل أن يتمكن

رافي إيتان من اتخاذ قراره عُيّن للمنصب شخصٌ سمّاه حزب العمل وهو زفي زامير الكتبي الحيادي . استقال رافي إيتان . لم يكن على خلاف مع رئيس الموساد الجديد بل شعر بأنه لم يعد يحسّ "بالراحة" في الموساد . في عهد مئير عميت كان مسموحاً له أن يتحرّك بلا قيد ، وقد شعر أن زامير "سيتقيّد بحرفية النظام ، ولم يكن ذلك يروق لي" .

بدأ رافي إيتان عمله كمستشار خاص مقدّماً مهاراته للشركات التي تريد تعزيز أمنها أو لأحد الأثرياء الذي كان يرغب في تدريب موظفيه على طرق حمايته من الهجمات الإرهابية . لكن العمل لم يلبث أن تراجع . وبعد مرور عام أشاع رافي إيتان أنه مستعدّ للعودة إلى عمل الاستخبارات وهمومها .

عندما أصبح اسحق رابين رئيساً للوزراء عام 1974 عيّن المغامر اسحق هوفي لإدارة الموساد وجعله مسؤولاً تجاه أرييل شارون الصقري الذي كان مستشاراً لرابين لشؤون الأمن . وعلى الفور جعل شارون رافي إيتان مساعده الشخصي ، فوجد هوفي نفسه يعمل عن كثب مع رجل كان يشاركه موقفه الوحشي إزاء عمليات الاستخبارات .

بعد ثلاث سنوات جرى تغيير حكومي آخر وأصبح مناحيم بيغن رئيساً للوزراء ، فعيّن رافي إيتان مستشاره الشخصي لشؤون الإرهاب . كان أول أعمال إيتان ترتيب اغتيال أحد كبار المسؤولين الفلسطينيين .

بدأ رافي إيتان البحث بقصد القتل عن القائد علي حسن سلامة ، الذي يعرف في أنحاء العالم العربي باسم "الأمير الأحمر" . كان يُعرف بسرعة تنقّله من عاصمة عربية إلى أخرى موجهاً استراتيجيات المجموعات الثورية . مرة بعد أخرى كان رافي إيتان يعدّ العدّة لتوجيه الضربة لكن "الأمير الأحمر" كان يتابع تحرّكه . واستقر أخيراً في بيروت . كان رافي إيتان يعرف المدينة جيّداً ، ومع ذلك فقد قرّر أن ينعش ذاكرته فتخفّى بمظهر رجل أعمال يوناني وسافر إلى هناك . وفي الأيام القليلة التالية توصّل إلى معرفة مكان إقامة سلامة وتحركاته معرفة دقيقة .

عاد رافي إيتان إلى تل أبيب ووضع خططه . كان ثلاثة عملاء للموساد سيعبرون متخفّين كعرب إلى لبنان ويدخلون المدينة . فيستأجر أحدهم سيارة ، ويزرع الثاني سلسلة من القنابل في هيكلها وسقفها ونوافذ أبوابها . ويركنها الثالث على الطريق التي يسلكها "الأمير الأحمر" وهو يتّجه إلى مكتبه كل صباح . وبالاعتماد على التوقيتات الدقيقة التي

قدّمها رافي إيتان جرى التخطيط لانفجار السيارة لدى مرور سلامة . انفجرت فقضى سلامة نحبه .

أظهر رافي إيتان أنه عاد بقوّة إلى أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية ، لكن رئيس الوزراء مناحيم بيغن قرر أن رافي إيتان أصبح أثمن من أن يخاطر به في مغامرات مماثلة أخرى . فأبلغ مستشاره على الفور بوجوب بقائه في المكتب والتقليل من الظهور .

وفي الآونة الأخيرة استخدم جون لو كاريه إيتان كنموذج للشخصية الرئيسية التي تتعقب الإرهابيين وتنال منهم في روايته المثيرة "الطبالة الصغيرة" .

لكن فوران رافي إيتان الدائم لم يهدأ بمجرد منحه الصدقية لمخيلة روائي ، بل أراد أن يكون في قلب الحدث وليس قابعاً وراء طاولة أو مشاركاً في جولة لا تنتهي من اجتماعات التخطيط . فبدأ يلح على رئيس الوزراء بيغن بصورة متواصلة أن يكلّفه مهمة أخرى .

وبعد تردّد - نظراً لكون رافي إيتان كان مستشاراً ممتازاً لشؤون مكافحة الإرهاب - عيّن بيغن رافي إيتان في أحد أدق المناصب في أجهزة الاستخبارات ، وهو منصب يستدعي منه بذل جهد فكري عظيم ويرضي حماسته لعمل يشارك به شخصياً . كان منصب مدير مكتب الارتباط العلمي المعروف بأوائل حروف اسمه العبري "الكام" .

كان "الكام" قد أنشئ عام 1960 ليكون وحدة التجسّس التي تستقي المعلومات العلمية "بكل وسيلة ممكنة" لتزويد وزارة الدفاع بها . وكان هذا يفترض ، من حيث المبدأ ، القيام بأعمال السرقة والرشوة للحصول على المادة المطلوبة . ومنذ نشأة "الكام" وأعماله يعرقلها عداءُ الموساد الذي رأى في وحدة التجسّس هذه "الولد الجديد في الحي" . وحاول إيسر هاريل ، وبعده مئير عميت ، إلغاء "الكام" أو ضمّه إلى الموساد ، لكن نائب وزير دفاع إسرائيل ، شمعون بيريز ، أصرّ بعناد على أن وزارته بحاجة إلى وكالة جمع خاصة بها . ومضى "الكام" يقوم بعمله بجدٍ وهدوء ، فأقام مكاتب له في نيويورك وواشنطن وبوسطن ولوس أنجيليس وكلها مراكز رئيسية للعلم الحديث . وكان موظفو "الكام" يشحنون أسبوعياً وبانتظام صناديق تحوي المجلات التقنية إلى إسرائيل ، وهم على علم بأن مكتب التحقيقات الفيديرالي "أف .بي .آي ." يراقب نشاطاتهم .

واشتدّت المراقبة بعد عام 1968 ، عندما تبيّن أن أحد المهندسين الذين يجمّعون طائرة "ميراج 3 س" المقاتلة الفرنسية قد سرق ما يزيد على مئتي ألف خريطة . وقد حكم عليه

بالسجن لمدة أربع سنوات ونصف السنة لتقديمه المعلومات إلى "الكام" ليقوم بصنع مجسّمات للميراج . ولم يحقّق "الكام" منذ ذلك الحين أي نجاح يذكر .

وكانت ذكرى ضربة الميراج الموفقة هي ما حسم موقف رافي إيتان . ففي عرفه أن ما تحقّق من قبل يمكن أن يتحقّق مرة أخرى . ولذا ، فسيتسلّم "الكام" المحتضر ويجعل منه قوة لا يستهان بها .

كان "الكام" يعمل من مكاتب ضيقة في حي منعزل من أحياء تل أبيب . وقد ارتاع الموظفون الجدد عندما عرفوا أن رئيسهم هو تلك الشخصية الأسطورية ، فأخبرهم أن ما يعرفه عن العلم يقصّر عن ملء أنبوب مختبر . لكنه أضاف أنه تلميذ نجيب .

انغمس رافي إيتان في عالم العلوم وراح يبحث عن مجالات يستهدفها . كان يخرج من بيته قبل الفجر ويعود حوالي منتصف الليل ، وهو يحمل رزماً من الأوراق التقنية يروح يقرأ فيها حتى الساعات الأولى من الليل . ولم يكن الوقت يتّسع للاسترخاء بصنع منحوتات من الخردة . وفي فترات الاستراحة من استيعاب الكميات الهائلة من المعلومات عمل على إعادة الاتصال بجهازه القديم . كان مدير الموساد هو ناحوم أدموني ، وكان كرافي إيتان شديد التشكيك بمقاصد الولايات المتحدة في الشرق الأوسط . استمرت واشنطن في إظهار التزامها المعلن بإسرائيل ، وأبقت وكالة "سي .آي .أي ." خط الاتصال الخلفي الذي أنشأه إيسر هاريل وألن دالاس مفتوحاً . لكن أدموني كان يشكو من تفاهة المعلومات التي يستقيها من ذلك المصدر .

وكان رئيس الموساد قلقاً أيضاً إزاء تقارير تلقّاها من عملاء الموساد ومتطوعيها المرموقي المكانة في واشنطن . لقد اكتشفوا أن اجتماعات سرّية تُعقد بين مسؤولين رفيعي المستوى في وزارة الخارجية الأميركية وزعماء عرب على صلة بياسر عرفات جرى فيها بحث وسائل الضغط على إسرائيل لتكون ألين عريكةً إزاء المطالب الفلسطينية . وأبلغ أدموني رافي إيتان أنه بات يشعر أنه ما عاد يعتبر الولايات المتحدة "صديقاً لوقت الضيق" . وعزّز هذا الموقف حادثٌ سيهز ثقة أميركا بمناعتها أكثر من أي حادث وقع منذ حرب فيتنام .

في آب (أغسطس) 1983 اكتشف عملاء الموساد أن هجوماً قيد التخطيط يستهدف القوات الأميركية في بيروت التي تتمركز هناك كقوة لحفظ السلام . وتمكّن العملاء من التعرّف إلى شاحنة من نوع "مارسيدس" تحمل نصف طن من المتفجرات . ووفقاً للاتفاقات

السريّة كان يتوجب على الموساد أن تنقل هذه المعلومات إلى وكالة "سي .أي .أي ." ، لكن موظفي الموساد تبلغوا في اجتماع عقد في مقر الجهاز المطل على جادة الملك شاوول أن مهمتهم هي "ضمان استمرار مراقبتنا للشاحنة . أما في ما يتعلق بالأميركيين اليانكي فليس من شأننا حمايتهم . وبإمكانهم أن يراقبوا ما يعنيهم . إننا إذا تجاوزنا الحد في خدمة اليانكي فسنكون كمن يأتي بالدب إلى كرمه" .

وفي 23 تشرين الأول (أكتوبر) 1983 كان عملاء الموساد يراقبون عن كثب بينما كانت الشاحنة تسير مسرعة إلى داخل مقر كتيبة مشاة البحرية (المارينز) الأميركية الثامنة المتمركزة قرب مطار بيروت . قُتل في الحادث مائتان وواحد وأربعون جندياً من مشاة البحرية .

ويروي الضابط السابق في الموساد فيكتور أستروفسكي أن رد الفعل في الدوائر العليا في الجهاز كان : "أرادوا أن يحشروا أنفهم في مشكلة لبنان فليدفعوا الثمن" .

هذا الموقف زاد في تشجيع رافي إيتان على التفكير جدّياً في استهداف الولايات المتحدة . كانت أجهزتها العلميّة الأكثر تقدماً في العالم وتكنولوجيّتها العسكرية لا تبارى . ورأى "الكام" أن مجرد الحصول على بعض تلك المعلومات ضربة موفقة هائلة . كانت العقبة الأولى هي الأصعب : العثور على مخبر في وظيفة كبرى تؤهّله تقديم المادة المطلوبة .

استخدم رافي إيتان قائمة المتطوعين الأميركيين التي ساعد هو بنفسه في وضعها خلال فترة عمله في الموساد ، فعمّم على أعضائها أنه يودّ أن يتعرّف على شخص في الولايات المتحدة ذي خلفية علمية ومعروف بميوله نحو إسرائيل . ومرت أشهر من دون أن يجد ضالته .

ثم في نيسان (أبريل) 1984 ، حضر أفييم سيلا وهو عقيد في القوة الجوية الإسرائيلية كان في إجازة لمدة سنة يدرس خلالها علم الحاسوب في جامعة نيويورك ، حفلةً أقامها طبيب نسائي يهودي ثري في مانهاتن . كان سيلا شخصية مشهورة في صفوف الجالية اليهودية في المدينة التي كانت تعرف أنه الطيار الذي قاد الهجوم الجوي قبل ثلاث سنوات لتدمير المفاعل النووي العراقي .

كان بين المدعوين شابٌ حييّ ذو ابتسامة خجولة بدا مرتبكاً وسط مجموعة الأطباء والمحامين والمصرفيين . كان اسمه جوناثان بولارد ، وقد أخبر سيلا أنه ما جاء إلى الحفلة إلا

للتعرّف إليه . ارتبك سيلا لسماعه مثل هذا التزلّف الفاضح فانخرط معه في حديث مجاملة قصير ثم همّ بالابتعاد ، فسارع بولارد إلى الكشف عن إنه ليس صهيونياً ملتزماً فحسب ، بل يعمل أيضاً في الاستخبارات البحرية الأميركية . ولم يلبث الداهية سيلا أن عرف أن بولارد يعمل في "مركز الإنذار لمكافحة الإرهاب" في إحدى مؤسسات البحرية البالغة السريّة في سوتلاند في مريلاند ، وأن مسؤوليات بولارد تشمل رصد جميع المعلومات السرية عن النشاطات الإرهابية العالمية . وقد كان عمله من الأهمية بمكان جعلته يخضع لأعلى مستويات التدقيق الأمني داخل أجهزة الاستخبارات الأميركية .

لم يصدّق سيلا ما سمعه خصوصاً عندما بدأ بولارد يقدّم تفاصيل دقيقة عن حوادث لم تكن أجهزة الاستخبارات الأميركية تنسّق فيها مع نظيرتها الإسرائيلية . وبدأ سيلا يتساءل عن احتمال أن يكون بولارد جزءاً من خطة استدراج وتفخيخ وضعها مكتب "أف .بي .آي ." بهدف تجنيد أحد الإسرائيليين .

ومع ذلك كان هناك شيءٌ ما يوحي الصدق في بولارد الانفعالي . تلك الليلة ، اتصل سيلا بتل أبيب وتحدّث إلى رئيس استخبارات القوة الجوية ، فحوّل بدوره المكالمة إلى رئيس أركان القوة ، فصدرت الأوامر لسيلا بتطوير اتصاله ببولارد .

بدأ الرجلان يعقدان الاجتماعات في حلبة التزلج في مركز "روكفلر بلازا" ، وفي مقهى على الشارع الثامن والأربعين ، وفي حديقة "سنترال بارك" . وفي كل مرة كان بولارد يقدّم وثائق سريّة لتأكيد حقيقة ما يقوله . وكان سيلا ينقل المادة عبر ساع إلى تل ابيب وهو يلتذّ بالرعشة التي تنتابه لكونه على صلة بعملية استخبارات مهمة . ولذلك فقد ذُهل عندما قيل له أن رجال الموساد يعرفون كل شيء عن بولارد ، إذ كان قد عرض بالفعل قبل عامين أن يتجسّس لحسابهم ، لكنهم رفضوه باعتباره "عاجزاً عن ضبط عواطفه" . كذلك فأن أحد ضباط الموساد في نيويورك وصف بولارد بأنه "متوحّد... ونظرته إلى إسرائيل غير واقعية" .

كان سيلا غير راغب بالتخلي عن دوره في عملية كانت أكثر إثارة من الجلوس أمام حاسوب في صف دراسي ، ولذا فقد راح يبحث عن طريقة لإطالة أمد العملية . وخلال إقامته في نيويورك تعرّف سيلا على الملحق العلمي في قنصلية إسرائيل في المدينة ، ويدعى يوسف ياغور وهو يعمل بإمرة رافي إيتان رئيساً لجميع عمليات "الكام" في الولايات المتحدة .

دعا سيلا الملحق ياغور إلى تناول العشاء بحضور بولارد ، وهناك أعاد هذا على سمعه

أن إسرائيل محرومة من المعلومات الضرورية للدفاع عن نفسها ضد "الإرهابيين العرب" لأن الولايات المتحدة لا ترغب في الإساءة إلى علاقاتها مع الدول العربية المنتجة للنفط .

في تلك الليلة اتصل ياغور من هاتف سرّي في القنصلية برافي إيتان . كان ذلك في الساعات الأولى في تل أبيب ، لكن إيتان كان لا يزال يعمل في مكتبه . وفيما الفجر يوشك على البزوغ ألقى إيتان السماعة . بدا مبتهجاً ، فقد عثر على المخبر المطلوب .

وخلال الأشهر الثلاثة التالية واظب ياغور وسيلا على تعزيز صداقتهما ببولارد وزوجة المستقبل آن هندرسون ، فاصطحباهما إلى المطاعم الفاخرة وعروض المسرح والعروض السينمائية الأولى . واستمر بولارد في نقل الوثائق المهمة . ولم يتمالك رافي إيتان نفسه دون إظهار الدهشة إزاء جودة المادة العالية . فقرّر أن الوقت حان لمقابلة بولارد .

وفي تشرين الثاني (نوفمبر) 1984 دعا سيلا وياغور بولارد وهندرسون إلى اصطحابهما في رحلة مدفوعة التكاليف كافة إلى باريس . وأبلغ ياغور بولارد أن الرحلة "مكافأة صغيرة عن كل ما تفعلانه من أجل إسرائيل" . سافروا جميعاً على الدرجة الأولى ، ومن المطار نقلتهم سيارة يقودها سائق خاص إلى فندق "بريستول" حيث كان رافي إيتان بانتظارهم .

مع نهاية الليل كان إيتان قد وضع اللمسات الأخيرة على الترتيبات العملية التي سيتابع بولارد بموجبها خيانته . لقد ولّى عهد رفع الكلفة في التعامل . فسيلا سوف يبتعد عن الموضوع بعدما انتهى دوره . أما ياغور فسيصبح رئيس بولارد المباشر . وجرى وضع نظام تسليم مناسب للوثائق ، بموجبه يوصل بولارد هذه الوثائق إلى شقة ايريت ايرب ، وهو يعمل سكرتيراً في سفارة واشنطن ، حيث يجري استنساخ المواد على آلة "زيروكس" متطورة وضعت لهذا الغرض في مطبخ الشقة . وسيقوم بولارد بزياراته المتباعدة تباعد زيارات سيارته إلى مغاسل محدّدة . وبينما يجري غسل السيارة يسلّم هو الوثائق إلى ياغور الذي تكون سيارته في الغسل أيضاً . وكانت لوحة القياس تخفي آلة نسخ تعمل بنظام البطارية . كانت شقة ايرب ومغاسل السيارات على مقربة من مطار واشنطن الوطني مما يسهّل مجيء ياغور وعودته جواً إلى نيويورك . وفي القنصلية كان يستخدم آلة فاكس سرية لنقل الوثائق إلى تل أبيب .

عاد رافي إيتان إلى تل أبيب لينتظر النتائج . وكانت أعظم مما توقّعه بما لا يقاس :

تفاصيل شحنات الأسلحة الروسية إلى سورية والدول العربية الأخرى ، بما في ذلك المواقع الدقيقة لصواريخ "أس أس-21" و"أس أس-5" ، وخرائط وصور التقطتها الأقمار الفضائية لترسانات الأسلحة العراقية والسورية والإيرانية وضمنها مصانع إنتاج الأسلحة الكيماوية والبيولوجية .

وتوافرت لرافي إيتان بسرعة صورة واضحة عن أساليب جمع المعلومات السرية الأميركية ليس في الشرق الأوسط وحده بل وفي جنوب أفريقيا . كان بولارد قد زوّده بتقارير من عملاء "سي . آي . أي ." قدّمت خريطة لشبكة الاستخبارات الأميركية في البلاد بكاملها . واحتوت إحدى الوثائق على رواية مفصّلة لكيفية نجاح جنوب أفريقيا في تفجير قنبلة نووية في 14 أيلول (سبتمبر) 1979 في الطرف الجنوبي للمحيط الهندي . كانت حكومة بريتوريا قد أنكرت إنكاراً تاماً أنها أصبحت دولة نووية . ووضع رافي إيتان ترتيباً تُرسل الموساد وفقه نسخاً عما لديها من معلومات تتعلّق بجنوب أفريقيا إلى بريتوريا ، ما أدى إلى تدمير شبكة "سي .آي .أي ." . واضطر اثنا عشر عميلاً إلى الإسراع بالرحيل عن البلاد .

وخلال الأشهر الأحد عشر اللاحقة استمر جوناثان بولارد في تجريد الاستخبارات الأميركية من ممتلكاتها . وبعث إلى إسرائيل بما يزيد على ألف وثيقة بالغة السريّة تشكّل 360 قدماً مكعباً من الورق . وهناك كان رافي إيتان يلتهمها قبل أن يحيل المادة إلى الموساد . ومكّنت المعلومات ناحوم أدموني من اطلاع حكومة شمعون بيريز الائتلافية على كيفية الردّ على سياسات واشنطن الشرق أوسطية بطريقة لم تكن ممكنة من قبل . ويزعم أحد من دوّن ملاحظات عن اجتماعات الحكومة يوم الأحد في القدس "إن الإصغاء إلى أدموني كان البديل الممتاز للجلوس في المكتب البيضاوي (البيت الأبيض الأميركي) . فلم نكن نعرف آخر ما تفكّر به واشنطن في جميع القضايا التي تعنينا فحسب ، بل كان لدينا متسعٌ من الوقت للردّ قبل اتخاذ القرار" .

أصبح بولارد عاملاً حاسماً في السبل الغامضة لصنع السياسة الإسرائيلية وتعقيدات انتقاء الخيارات . وأجاز رافي إيتان تقديم جواز سفر إسرائيلي لبولارد باسم داني كوهين بالإضافة إلى راتب شهري سخيّ . وبالمقابل طلب من بولارد تزويده تفصيلات عن نشاطات التنصّت الإلكتروني في وكالة الأمن القومي "أن .أس .أي ." في إسرائيل وأساليب زرع أجهزة

تجسّس في سفارة إسرائيل في واشنطن وعناوينها الديبلوماسية الأخرى في الولايات المتحدة .

اعتقل بولارد قبل أن يسلّم المعلومات ، وذلك في 21 تشرين الثاني (نوفمبر) 1985 أمام السفارة الإسرائيلية في واشنطن . وخلال ساعات من ذلك ، كان ياغور وسيلا وسكرتير السفارة في واشنطن جميعهم على متن رحلة "العال" الذاهبة من نيويورك إلى تل أبيب ، للإفلات من قبضة رجال الـ"أف .بي .آي" . وفي إسرائيل اختفى هؤلاء عن الأنظار ولجأوا إلى الذراعين الواقيتين لأجهزة الاستخبارات الممتّنة . وحكم على بولارد بالسجن مدى الحياة وعلى زوجته بالسجن لمدة خمس سنوات .

عام 1990 كان بولارد يتعزّى بالجهود التي لا تعرف الكلل التي بذلتها المجموعات اليهودية القوية لتأمين الإفراج عنه . ونظّم مؤتمر المنظمات اليهودية الأميركية الكبرى ، وهو كونسورتيوم مؤلف مما يزيد على خمسين مجموعة ، حملة تستهدف فك أسره بحجة إنه لم يرتكب الخيانة العظمى ضد الولايات المتحدة "لأن إسرائيل كانت يومها ولا تزال حتى الآن حليفاً وثيقاً" . كذلك دعمت الحملة مجموعات يهودية دينية لا تقل تأثيراً عن المجموعات السابقة كـ"الاتحاد الاصلاحي للتجمعات العبرية الأميركية" و"الاتحاد الحرفي" . وقال الأستاذ في "معهد هارفرد للقانون" ألن م . ديرشوفيتز ، الذي كان محامي بولارد ، أنه لا يوجد دليل على أن الجاسوس أساء بالفعل إلى "قدرات البلاد على جمع المعلومات السرية أو أنه أفشى معلومات استخباراتية في أنحاء العالم" .

اتخذت أجهزة الاستخبارات الأميركية خطوة غريبة بعدما أثارت خوفها بوادر حملة علاقات عامة بارعة دوزنت حركاتها إسرائيل ، فخرجت عن صمتها إلى العلن وأوضحت حقائق خيانة بولارد . كان ذلك قراراً شجاعاً وخطيراً معاً . إذ أنه لم يلقِ الضوء على مادة حسّاسة فحسب ، بل عبأ اللوبي اليهودي القوي لمهاجمتهم . كانوا قد رأوا ما فعله هذا اللوبي لغيرهم في جوّ واشنطن المسعور . فيمكن الإضرار بسمعة شخصٍ ما أثناء تناول كأس من الشراب في وقت متأخر في سفارة أو في الاستراحة بين فصلي مسرحية في مركز كينيدي أو أثناء تناول عشاء هادئ في جورجتاون .

وكان رجال الاستخبارات يخشون أن يعمد كلينتون في "واحدة من لحظاته الدونكيخوتية" ، على حد قول مسؤول كبير في "سي .آي .أي ." لي ، إلى إطلاق سراح بولارد قبل انتهاء مدة ولايته حتى يضمن دخول إسرائيل في تسوية سلمية ، الأمر الذي

سيمنح كلينتون فرصة تحقيق آخر نجاح في سياسته الخارجية . كان مدير "سي .آي .أي ." ، أثناء كتابة هذه السطور ، جورج تينيت قد حذّر الرئيس من أن إطلاق بولارد سيضعف معنويات أجهزة الاستخبارات . ونقل عن كلينتون قوله : "سوف نرى ، سوف نرى" .

في تل أبيب ، كان رافي إيتان يتابع عن كثب كل خطوة ، ويقول لأصدقائه أنه "إذا تمكن جوناثان يوماً من المجيء إلى إسرائيل ، فسيسعدني أن أتناول فنجاناً من القهوة معه" .

في هذه الأثناء ، كان إيتان يبتهج ابتهاجاً عظيماً لتحقيقه النجاح في عملية أخرى نفّذها ضد الولايات المتحدة جعلت إسرائيل أول دولة نووية في الشرق الأوسط .

الفصل الخامس

سيف جدعون النووي

في ظلمة دار للسينما في تل أبيب عام 1945 شهد رافي إيتان ولادة العصر النووي فوق هيروشيما . وبينما تصاعد صفير الجنود الشبان الذين يحيطون به من كل جانب وأصوات ابتهاجهم وهم يشاهدون الشريط الوثائقي عن تدمير المدينة اليابانية ، كانت تراوده فكرتان . هل ستمتلك إسرائيل مثل هذا السلاح في يوم من الأيام؟ وماذا لو حصل جيرانها العرب عليه قبلها؟

وعلى مر السنين كان إيتان يستعيد هذين السؤالان بين الحين والآخر . لو كانت مصر تمتلك قنبلة نووية لكانت ربحت حرب السويس ولما وقعت حرب حزيران (يونيو) 1967 أو حرب 6 تشرين الأول (أكتوبر) 1973 . ولكانت إسرائيل صحراء نووية . وإذا توفرت إسرائيل على سلاح نووي فلن تُغلب .

في تلك الأيام كان إيتان عميلاً جل عمله هو قتل الثوار العرب وكان طرحه مثل هذه الأسئلة الاستراتيجية مجرد افتراضات نظرية فالإجابة من صلاحيات غيره . لكنه عندما تسلّم زمام القيادة في "الكام" بدأ يدرس الأمر بجدية . صار يشغله سؤال واحد فقط : هل بإمكانه أن يساعد على تزويد إسرائيل ترسانة نووية؟

كان يقرأ حتى وقت متأخر من الليل تنشّطه أربعين حبة فيتامين يبتلعها كل يوم عندما اكتشف كيف كان سياسيو إسرائيل وعلماؤها منقسمين في البداية حول الخيار النووي . كانت الملفات تفصّل وقائع الجدل الحامي داخل اجتماعات الحكومة وأحاديث العلماء المريرة وتدخّل رئيس الوزراء ديفيد بن غوريون في خضم الألم المبرح والاحتجاجات والمناقشات المطولة .

بدأت المشكلة عام 1956 عندما أرسلت فرنسا مفاعلاً بقوة أربعة وعشرين ميغاواط إلى إسرائيل . وأعلن بن غوريون أن "الغرض منه هو تموين "محطة ضخ" تحوّل الصحراء إلى جنة زراعية بتحلية بليون غالون مكعب من مياه البحر سنوياً" .

وعلى الفور أدى الإعلان إلى استقالة ستة من أصل سبعة أعضاء يؤلفون لجنة الطاقة النووية الإسرائيلية احتجاجاً على أن المفاعل كان نذيراً "النهج سياسي مغامر سيوحّد العالم ضدنا" . وساندهم في ذلك كبار الاستراتيجيين العسكريين في إسرائيل . فدان يغال ألون أحد نجوم حرب 1948 بصراحة "الخيار النووي" ، كما كان لاحتجاج اسحق رابين ، الذي لن يلبث أن يصبح رئيس أركان الجيش الإسرائيلي ، الصراحة نفسها . حتى أرييل شارون ، الذي كان ولا يزال من كبار الصقور في إسرائيل ، عارض بشدة بناء ترسانة نووية ، قائلاً "إننا نمتلك أفضل القوات التقليدية في المنطقة" .

تجاهل بن غوريون كل معارضيه وأصدر أمراً بجعل موقع المفاعل في صحراء النقب بالقرب من مستوطنة ديمونا الجرداء ذات العواصف الرملية . كانت ديمونا قد تحولت من زمان من محطة على طريق قوافل الجمال بين القاهرة والقدس إلى مكان منسي . ولم تعد الخرائط تشير إلى مكانها في الصحراء جنوبي تل أبيب . أما من الآن فصاعداً فلم يعد يسمح لواضعي الخرائط بتعيين موقع أولى خطوات إسرائيل المترددة في العصر النووي .

قام المفاعل تحت قبة ديمونا الفضية التي ارتفعت متحدّية حرّ الصحراء . وزاد عدد موظفي المفاعل على 2500 عالم وتقني يعملون في أقوى التحصينات طراً . ويجري فحص الرمال المحيطة بالموقع بانتظام للتأكّد من أن أحداً لم يتسلّل إلى مقربة منه . ويعرف الطيارون أن أي طائرة تخرق المنطقة العازلة التي تصل إلى خمسة أميال حول المفاعل ستتعرّض لإسقاطها . وقد بنى المهندسون مقراً للمفاعل بعمق ثمانين قدماً تحت الأرض ، وهو جزء من مجمّع سري يُعرف باسم "ماكون 2" . وفي قلب هذا المجمع مصنع للفصل والمعالجة جرى شحنه من فرنسا على أنه "آلات النسيج" .

وما كان بإمكان المفاعل وحده إمداد إسرائيل بقنبلة نووية أو أن ينتج مادة اليورانيوم أو البلوتونيوم القابلة للانشطار . فقد اتفقت حفنة الدول النووية في ما بينها على ألاّ تزوّد أحداً خارج "ناديها" الخاص ولو غراماً واحداً من أي من هاتين المادتين . وهكذا فبرغم جلال منظره فإن مفاعل ديمونا لم يتعدّ كونه مجرد تحفة للنظر بانتظار تلقّي المواد القابلة للانشطار .

بعد ثلاثة أشهر من تركيب المفاعل ، ظهرت شركة صغيرة لمعالجة المواد النووية في مصنع للفولاذ جرى تحويله بعد الحرب العالمية الثانية يقوم في بلدة أبولو في بنسلفانيا . كانت الشركة تدعى "شركة المعدات والمواد النووية" (نومك) وكان مديرها التنفيذي الدكتور سلمان شابيرو .

كان شابيرو وفقاً للمعلومات الحاسوبية في "الكام" من اليهود الأميركيين العاملين في حقل العلوم ، كما كان يصنّف جامع تبرعات متحمّساً لإسرائيل . وعرف رافي إيتان أنه عثر على حلّ لمشكلة إمداد مفاعل ديمونا بمواد قابلة للانشطار . فأمر بإجراء تحقيق في وضع شابيرو وكل موظف من موظفي شركته . وعهد بإجراء التحقيق إلى ضابط الموساد المقيم في واشنطن .

ومع بدء التحقيق استمر رافي إيتان بحشر نفسه في قصة انتقلت به من حرّ ديمونا الصحراوي إلى ممرات البيت الأبيض الباردة .

بين الوثائق التي توافرت لدى عميل الموساد نسخة من مذكرة أرسلتها إلى شابيرو في 20 شباط (فبراير) 1962 لجنة الطاقة النووية الأميركية التي حذّرته صراحة من "عدم التزام الشركة بإجراءات الأمن ما قد يعرّض الشركة للعقوبات التي ينصّ عليها القانون بما في ذلك قانون الطاقة النووية لعام 1954 وقوانين التجسّس" .

وقوّى التهديد شعور رافي إيتان بأنه قد عثر على السبيل إلى قلب الصناعة النووية الأميركية . وبدا أن "نومك" شركة سائبة من الناحية الأمنية وتعاني من مسك دفاتر خامل وإدارة لم تنل رضى الوكالة التي تتولى مراقبة المواد النووية في أميركا . وهذه الثغرات بالذات هي ما جعل الشركة ، بنظر إيتان ، هدفاً جذاباً .

كان سلمان شابيرو ابن حاخام يهودي حرفي أظهر ذكاء وحقق نجاحاً . ففي جامعة جون هوبكنز حصل على درجة دكتوراه في الكيمياء وهو في سن الثامنة والعشرين . وساعدته طاقته على العمل الشاق على أن يصبح عضواً بارزاً في مختبر الأبحاث والتطوير النووي في وستنغهاوس ، وهي الشركة التي تعاقدت معها البحرية الأميركية على تطوير مفاعلات غواصة .

وأظهرت التحقيقات في أوضاع شابيرو الشخصية أن بعض أقاربه من ضحايا "المحرقة النازية" وأن شابيرو "بوسائله الحذرة النموذجية "قدّم عدة ملايين الدولارات إلى معهد "تكنيون" في حيفا الذي يقوم بأعمال التدريب في العلوم والهندسة .

وعام 1957 ترك شابيرو عمله في وستنغهاوس وأنشأ شركة "نومك" . كان عدد حملة الأسهم خمسة وعشرين وجميعهم من الجاهرين بتعاطفهم مع إسرائيل . وقد وجد شابيرو نفسه رئيساً لشركة صغرى في صناعة عدوانية لا ترحم . وبالرغم من ذلك فقد تمكنت "نومك" من الحصول على عدد من العقود لاستخراج اليورانيوم المخصب وهي عملية تفضي عادة إلى خسارة كمّية من اليورانيوم خلال عملية الإنقاذ . وما كان ممكناً معرفة حجم الخسارة ولا وقت حصولها . وكان رد فعل رافي إيتان على هذه المعلومات الترقّب باهتمام .

وتابع رافي إيتان قراءة قصة سوء وضع العلاقات بين إسرائيل والولايات المتحدة بسبب رغبة الدولة اليهودية بامتلاك السلاح النووي ، وكيف تفاقم الوضع عندما زار بن غوريون واشنطن عام 1960 . فقد حضر سلسلة من الاجتماعات مع مسؤولين في وزارة الخارجية الأميركية الذين قالوا له صراحة أن امتلاك إسرائيل أسلحة نووية سيؤثر على ميزان القوى في الشرق الأوسط . وفي شباط (فبراير) 1961 ، كتب جون ف . كينيدي إلى بن غوريون مقترحاً أن تخضع ديمونا للتفتيش المنتظم الذي تتولاه وكالة الطاقة النووية الدولية .

وأصيب بن غوريون بالذعر فطار إلى نيويورك للقاء كينيدي في فندق "والدروف – استوريا" . كان الزعيم الإسرائيلي "قلقاً جداً" إزاء ما اعتبره "ضغوطاً أميركية لا تلين" . لكن كينيدي كان حازماً : فلا بد من التفتيش . فأذعن بن غوريون وهو يحاول إنقاذ بعض ماء وجهه ، وعاد إلى إسرائيل وهو مقتنع بأن "وجود كاثوليكي في البيت الأبيض لا يتّفق ومصلحة إسرائيل" . ولجأ رئيس الوزراء إلى الشخص الوحيد محل ثقته في واشنطن وهو أبراهام فاينبرغ وهو صهيوني يساند طموحات إسرائيل النووية .

كان فاينبرغ ابن نيويورك وأهم جامعي التبرعات اليهود لصالح الحزب الديموقراطي . ولم يخف فاينبرغ أسباب جمعه ملايين الدولارات كتبرعات ، فكل دولار يضمن مساندة الحزب لإسرائيل في الكونغرس . كما قدّم سراً أيضاً ملايين الدولارات الأخرى لإنشاء مفاعل ديمونا . وكان المال يأتي على شكل صكوك مصرفية إلى بنك إسرائيل المركزي في تل أبيب ، فتجنّب بذلك خضوعه لمحاسبة أجهزة مراقبة القطع الأجنبي في إسرائيل . وطلب بن غوريون من فاينبرغ أن "يقنع الصبي . خلِّ هذا المغفل يفهم واقع الحياة" .

كان أسلوب فاينبرغ ممارسة الضغط السياسي الصريح – ومثل هذا الضغط كان قد أثار

غيظ كينيدي عندما رشّح نفسه للرئاسة . وقتها قال له فاينبرغ بصراحة "إننا مستعدون لدفع أكلاف حملتك إذا تركت لنا أمر إدارة سياستك في الشرق الأوسط" . فوعد كينيدي بأن "يربح إسرائيل بقدر ما يستطيع" . ووافق فاينبرغ على مدّه بمساهمة لدعم حملته مقدارها خمسمائة ألف دولار "كمقدمة" .

وعاد فاينبرغ الآن إلى استخدام الأسلوب نفسه : إذا أصر الرئيس كينيدي على تفتيش ديمونا فـ"لا يعتمدن على الدعم المالي اليهودي في الانتخابات السياسية المقبلة" . فقد أبلغ روبرت ماكنمارا وزير خارجية كينيدي رئيسه أنه "يستطيع تفهّم طلب إسرائيل أن تحوز على قنبلة نووية" .

وعلى رغم ذلك ، كان كينيدي موطّد العزم ، واضطرت إسرائيل إلى قبول التفتيش . لكن الرئيس قدّم تنازلين في آخر لحظة ، فمقابل تفتيش ديمونا تبيع الولايات المتحدة إلى إسرائيل صواريخ أرض – جو من نوع "هوك" ، وكانت آنئذ أكثر الأسلحة الدفاعية تطوراً في العالم ، كما لا تتولى التفتيش وكالة الطاقة النووية الدولية بل فريق أميركي يعلن عن برنامج زيارته قبل أسابيع من بدئها .

ويستطيب رافي إيتان سرد تفاصيل قصة خداع إسرائيل للمفتشين الأميركيين .

جرى تشييد مركز مراقبة مزيف فوق المركز الحقيقي في ديمونا ، وزوّد لوحات مراقبة مزيفة وأدوات قياس مربوطة بحاسوب تقدّم صورة قابلة للتصديق عن قياس إنتاج مفاعل يشارك في خطة ريّ لتحويل صحراء النقب إلى أراض رعوية خصبة . وجُعلت المنطقة التي يحفظ فيها "الماء الثقيل" الذي جرى تهريبه من فرنسا والنرويج خارج نطاق عمل المفتشين "لأسباب أمنية" . ذلك أن الحجم الفعلي للماء الثقيل كان سيقدّم الدليل على أن المفاعل يتهيأ للاستخدام في أغراض مختلفة تماماً .

عندما وصل الأميركيون ارتاح الإسرائيليون لكون أي منهم لا يتكلّم العبرية لأن ذلك أضعف احتمال اكتشاف المفتشين للغرض الحقيقي من مفاعل ديمونا .

هكذا مهّدت الطريق لمهمة رافي إيتان .

كان الحصول على إذن لزيارة مصنع "نومك" سهلاً نسبياً . فقد طلبت سفارة إسرائيل في واشنطن الإذن من لجنة الطاقة النووية الأميركية "القيام نفر من علمائنا بزيارة المنشأة لزيادة فهمهم لأسباب قلق مفتشيكم إزاء إعادة معالجة النفايات النووية" . ومُنح الفريق

الإذن على رغم أن وكالة "سي .آي .أي ." كانت بدأت إجراء رقابة شاملة لمعرفة ما إذا كانت إسرائيل قد جندت شابيرو كعميل لها .

لم تكن إسرائيل قد جنّدته وقتها ولا بعد ذلك . فقد اقتنع رافي إيتان بأن شابيرو وطني مخلص وصهيوني يؤمن بحق إسرائيل بالدفاع عن نفسها . ولم يكن شابيرو يتمتع بثروة شخصية تراكمت من أموال أصابها من عائلته وأخرى من استثمارات ذكية في سوق الأسهم وحسب ، بل أن ثروته الشخصية تضخمت بسرعة جراء الأرباح الهائلة التي حققتها "نومك" حتى ذلك الوقت . كذلك لم يكن شابيرو خائناً مثل جوناثان بولارد فحبه لأميركا كان ظاهراً للعيان ، وكان رافي إيتان يعرف أن سعيه لتجنيده كجاسوس سيعود بنتائج عكسية . كان ينبغي إبقاء شابيرو بعيداً عن العملية التي بدأت تتكوّن ملامحها في ذهن رافي إيتان .

وعلى رغم ذلك فما كان ممكناً تجنّب بعض المخاطر . أرسل رافي إيتان عميلين سريين من "الكام" إلى أبولو للحصول على مزيد من المعلومات عن "نومك" . والعميلان هما أفرام حرموني الذي كان يعمل بغطاء دبلوماسي في السفارة الإسرائيلية في واشنطن بصفته "المستشار العلمي" وجريهام كفكافي وهو عميل استخبارات يعمل في الولايات المتحدة بصفته كاتباً علمياً مستقلاً .

وقام العميلان بجولة في مصنع إعادة المعالجة لكن لم يسمح لهما بالتصوير . وأشار شابيرو إلى أن ذلك يخرق أنظمة لجنة الطاقة النووية . وقد أظهر شابيرو حسن ضيافته لكنه كان حسب تعبير حرموني "شديد الارتباك" .

وقرّر رافي إيتان أن قد حان الوقت ليزور أبولو . فجمع مجموعة من "المفتشين" تضم عالمين من ديمونا خبيرين بإعادة معالجة النفايات النووية . كما ضمّت المجموعة عضواً سمّي مديراً "القسم الإلكترونيات في جامعة تل أبيب" . لم يكن في الجامعة مثل هذا المنصب فالرجل لم يكن سوى مسؤول أمني في "الكام" كلّف العثور على طريقة لسرقة النفايات القابلة للانشطار من المصنع . كان حرموني في الفريق وكانت مهمته لفت النظر الى الثغرات الأمنية التي كان قد لاحظها خلال زيارته السابقة . أما رافي إيتان فكان يحتفظ باسمه ومعه صفة "مستشار علمي لمكتب رئيس وزراء إسرائيل" .

وافقت السفارة الأميركية في تل أبيب على أعضاء الوفد ومنحتهم تأشيرات . كان

إيتان قد حذّر أعضاء الوفد من أنهم سيكونون تحت مراقبة مكتب "أف .بي .أي ." حال هبوطهم في نيويورك ، ولكنه فوجئ بعدم وجود أي دليل على ذلك .

صادف وصول الإسرائيليين إلى أبولو عودة شابيرو من جولة أخرى للبحث عن مواهب مميّزة في أحرام الجامعات الأميركية وإقناع العلماء المؤيدين لإسرائيل بالذهاب إليها و"حل مشاكلها التقنية والعلمية" . وكان يتعهّد بتسديد كامل نفقاتهم وتعويضهم عن أي نقص في رواتبهم .

تجنّب رافي إيتان وفريقه الأضواء أثناء إقامتهم في أبولو . فنزلوا في "موتيل" وأمضوا معظم أوقاتهم في مصنع "نومك" يتعلّمون الدقائق التقنية لإنتاج اليورانيوم العالي التخصيب من غاز فلوريد اليورانيوم السداسي . وأوضح شابيرو أن قوانين لجنة الطاقة النووية تقضي بإلزام "نومك" بدفع غرامات عن المواد المخصّبة المفقودة بمعدل عشر دولارات للغرام الواحد و4500 دولار للرطل .

وغادر رافي إيتان وجواسيسه أبولو بهدوء كما وصلوا .

ما أعقب ذلك نستنتجه من تقارير مكتب "أف . بي . أي ." ، ولكن حتى هذه لا تجيب عن بعض الأسئلة المحيّرة من نوع مدى شك سلمان شابيرو بالدوافع الحقيقية لزيارة رافي إيتان .

ويفيد تقرير لمكتب "أف . بي . أي ." بعد شهر من مغادرة الإسرائيليين أن "نومك" دخلت في شراكة تجارية مع الحكومة الإسرائيلية تتعلق بـ"تعقيم الأطعمة والعيّنات الطبية بتعريضها للإشعاعات الراديومية" .

ويشكو تقرير آخر للمكتب من أنه " نظراً لوجود تحذير على كل مستوعب بأنه يحتوي على مواد مشعّة لم تكن تفتح لتفحّصها ولا كان أحد ليسمح لنا بذلك" .

ويعود عدم السماح إلى أن السفارة الإسرائيلية في واشنطن أفهمت وزارة الخارجية الأميركية أنه إذا أخضعت المستوعبات للفحص فستضعها تحت الحصانة الدبلوماسية . واتصلت وزارة الخارجية بوزارة العدل وحذّرتها من العواقب الدبلوماسية الخطيرة لأي خرق لتلك الحصانة . ولم يكن بوسع عملاء مكتب "أف . بي . آي ." سوى مراقبة عملية تحميل المستوعبات على طائرات الشحن التابعة لشركة "العال" في مطار أيدلوارد .

وعلى رغم بذل مدير فرع "سي .آي .أي ." في تل أبيب جون هادن أقصى الجهد فلم يستطع ، كما قال ، أن "يؤكّد" أن المستوعبات نقلت إلى ديمونا . وسجّل مكتب "أف .بي .آي ." قيام تسع شحنات في الأشهر الستة التي أعقبت زيارة رافي إيتان . ولاحظ المكتب أن المستوعبات كانت تصل عند الغسق وتشحن قبل الفجر ، وأنها كانت جميعاً مغلّفة بالرصاص المستخدم في نقل اليورانيوم المخصّب ، وأُلصق على كل مستوعب تمغة من صفيحة رقيقة وضع عليها عنوان لمكان بالعبرية وعيّنت حيفا وجهته الأخيرة .

ورأى عملاء المكتب في مناسبات عدة "أنابيب موقد" - أي مستوعبات خزن لليورانيوم المخصّب - وقد وضعت في حجرات فولاذية عند رصيف التحميل في مصنع "نومك" . وكان على كل "أنبوب موقد" رقم يشير إلى أنه جاء من خزائن الشركة ذات السرية العالية . ومع ذلك فلم يكن بمقدور مكتب "أف .بي .آي ." التدخّل . ووفقاً لمذكرة للمكتب كان هناك "ضغط سياسي مارسته وزارة الخارجية لمنع وقوع أي حادث دبلوماسي" .

وبعد مرور عشرة أشهر توقفت الشحنات فجأة . ولم يسع مكتب "أف .بي .آي ." إلا الافتراض بأن ديمونا تلقّت ما يكفي من المواد القابلة للانشطار . وقد أجرت الوكالة عقب ذلك مقابلات مع شابيرو أنكر خلالها تزويده إسرائيل بمواد لصنع القنابل النووية . وقال مكتب "أف . بي . آي ." أن تدقيقه في سجلات الشركة أظهر تناقضاً في احتساب كمية المواد التي أعيدت معالجتها . وأصر شابيرو على أن " التفسير المنطقي المقنع" لأي خسارة في كميات اليورانيوم هو أنها تسرّبت في الأرض أو "انتشرت في الهواء" . وفي الحساب النهائي بلغ حجم المواد المفقودة مائة رطل . ولكن لم توجّه لشابيرو أي تهمة إجرامية .

في السنوات اللاحقة ثبتت صحة اعتقاد رافي إيتان بالسهولة التي أصبحت عليها سرقة المواد القابلة للانشطار بعد انهيار الاتحاد السوفياتي . وقد أثبتت صحة ذلك حادثة وقعت في مطار شيريميتيوفا في موسكو في العاشر من آب (أغسطس) 1994 .

عند الساعة 12:45 من بعد ظهر ذلك اليوم ارتدى جوستيانو طوريس بذلة رمادية داكنة اشتراها خصيصاً لهذه الرحلة ووصل متأخراً عمداً إلى رحلة طائرة "لوفتهانزا" الرقم 3369 المتجهة إلى ميونيخ . كان قوي البنية لكنه كان يتصبّب عرقاً وهو يحمل حقيبة "ديلزي" الجلدية السوداء الجديدة . قدّم طوريس تذكرة السفر على الدرجة الأولى وابتسم لموظفة الشركة ابتسامة التقطتها كاميرا نصبت سراً وراء المكتب لتسجيل كل حركة من حركاته .

كانت الكاميرات قد صوّرت سراً كل حركاته خلال الأشهر الماضية ، بما فيها اجتماعاته مع عالم نووي روسي ساخط يدعى إيغور طاشنكا ، ولقاءاتهما في "مرتفعات ستالين" ، ورحلاتهما على سفينة بخارية سياحية في نهر موسكو ، وعشاءاتهما في المطاعم الروسية التي تديرها المافيا ، وأخيراً الاجتماع الذي جرت فيه مبادلة حقيبة طاشنكا هذه بمغلف يحتوي على خمسة آلاف دولار . وكيفما قلّب طوريس الأمر كان يرى أنه عقد صفقة مربحة عظيمة . فالحقيبة تحتوي على مواد قابلة للانشطار .

كان جوستيانو طوريس يعمل ساعياً لدى جماعة تجار المخدرات الكولومبيين الذين وسعوا نطاق التهريب ليشمل مواد أخطر .

كانت داخل الحقيبة مستوعبات مختومة فيها مائتا غرام من مادة "بلوتونيوم 239" باعها طاشنكا له ، وتصل قيمتها في السوق السوداء إلى 50 مليون دولار . كان البلوتونيوم مهلكاً إلى حد أن ملامسة ذرة منه لا ترى بالعين يؤدي إلى الموت المحقّق . وكانت محتويات الحقيبة تكفي لصنع قنبلة نووية صغيرة .

كان المتوقع حسب أوري ساغي الرئيس السابق للاستخبارات العسكرية الإسرائيلية "كابوس كل رجل عاقل : حفنة من الإرهابيين يتصرّفون بمواد قابلة للانشطار تكفي لتدمير تل أبيب أو أي مدينة أخرى . لدى تحديد المهام اليومية للاستخبارات تعطى الأولوية القصوى للتصدي للتهديد النووي" .

كانت أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية قد عرفت منذ زمن بعيد أن بإمكان أعداء إسرائيل صنع قنبلة نووية بدائية . كان طالب فيزياء أميركي متخرج قد نفذ في السبعينات ووصف كل عملية من العمليات المطلوبة لذلك ، وقد أصدر كتاباً حول ذلك أحدث في صفوف الموساد ذعراً هائلاً .

وجرى افتراض سيناريوهات الدينونة . تصل قنبلة مفككة الأجزاء إلى متن إحدى السفن أو يجري تهريبها عبر الحدود البرية وتجميعها داخل إسرائيل . وتوضع شروط مستحيلة يطلب تلبيتها وإلا جرى تفجير القنبلة عن بعد . فهل تقف الحكومة موقفاً حازماً؟ وتوصّل محللو الموساد إلى أن الاستسلام غير وارد . كان هذا التوقع يستند إلى فهم عميق لعقلية أصحاب التهديد في ذلك الحين . ففي السبعينات كانت حتى المنظمات المتطرّفة تعّف عن تفجير قنبلة نووية لارتفاع الثمن السياسي والذي منه فقدان دعم الدول التي تمدها سراً بالعون .

تزايدت مخاوف الموساد عقب انهيار الشيوعية السوفياتية . فقد نشأت حلبة جديدة لعوامل عدم الاستقرار . وما كان ممكناً الجزم بتطور الأبعاد السياسية الجديدة داخل روسيا . وقد اكتشف الموساد أن صواريخ "سكود" السوفياتية قد بيعت بالعملة الصعبة لعدد من بلدان الشرق الأوسط . وساعد التقنيون السوفيات الجزائر في بناء مفاعل نووي . وتقتني روسيا مخزوناً ضخماً من الأسلحة البيولوجية بما فيها الأسلحة الجرثومية التي يمكنها قتل ملايين البشر . ماذا يحدث لو انتقل جزء بسيط منها إلى حوزة أعداء إسرائيل؟ إن محتوى قارورة صغيرة من المادة الجرثومية قد يهلك القسم الأعظم من تل أبيب . لكن الأهم من هذا هو الخوف من أن تبيع روسيا ترسانتها النووية . فهذا خطر "لا يمكن تجاهله" على حد تعبير ساغي .

رسم العلماء النفسيون في الموساد صورة سيكولوجية للعلماء الروس الذين يحتمل أن يقدموا المواد وما هي دوافعهم . وتبيّن أن هناك من سيتعاون من أجل المال فقط ، وهناك من يتعاون لأسباب أيديولوجية معقّدة . وكان طول القائمة التي تضم التسهيلات السوفياتية التي يمكن سرقة المواد منها أمراً مثبطاً للهمّة . أرسل المدير العام للموساد شبطاي شافيت عميلين إلى موسكو كلّفهما التسلّل إلى مجالس العلماء .

كانت أحدهما ليلا ، وهي مولودة لأبوين يهوديين في بيروت وحصلت على درجة في الفيزياء من الجامعة العبرية في القدس وعملت في قسم الاستخبارات العلمية في الموساد . وقد شاهدت الاجتماعات التمهيدية التي عقدها طوريس مع طاشنكا وكيف عقدت الصفقة .

كانت ليلا وزميلها قد تعاونا مع عملاء الموساد في ألمانيا وغيرها ، وبتتبّعها سير الاتصالات وصلت إلى كولومبيا ثم عادت إلى الشرق الأوسط . وتولى عملاء آخرون في الموساد مراقبة الاجتماعات التي عقدت في القاهرة ودمشق وبغداد . وأفادت معلومات جديدة أن البوسنة ربما اعتمدت كطريق لتهريب "البلوتونيوم 239" إلى وجهته الأخيرة : العراق . ولكن التجارب أظهرت صعوبة معرفة وإثبات علاقة النظام العراقي بالمسألة . وهذا ما دعا إلى السماح لطوريس بالسفر على طائرة ركاب تجارية لم تثر الشكوك وهو ينقل حمولة قاتلة . كان رئيسا الاستخبارات الروسية والألمانية قد درسا بعناية قرار السماح ، وتبيّن لهما أن خطر انفجار البلوتونيوم على الطائرة كان صغيراً إلى أبعد الحدود . وقد مُنح طوريس إذن

السفر من جانب حكومتيهما لمعرفة ما إذا كان سيقودهما إلى الجهة التي ستستخدم البلوتونيوم . لم تُستشر إسرائيل في الأمر . كانت العملية ألمانية - روسية رسمية . قبل ذلك انضم الموساد مراراً كشريك من وراء الستار بينما كانت أجهزة أخرى تدّعي المسؤولية .

في صباح ذلك اليوم من أيام آب (أغسطس) كانت ليلا تراقب من موقع معيّن بوابات المغادرة في المطار ، وكانت تعرف أن دورها في هذه القضية قد انتهى . كان عميل للموساد يُرمز إليه باسم "أدلر" قد أخذ موقعه المعيّن في بهو فندق "أكسلسيور" في وسط مدينة ميونيخ حيث سيسلم طوريس ما ينقله . وكان عميل آخر باسم "مورت" ينتظر في مطار ميونيخ وصول الرحلة 3369 .

وكان عميل ثالث يدعى "إب" يجلس على مبعدة مقعدين خلف طوريس في الطائرة المتّجهة غرباً في رحلة تستغرق ثلاث ساعات . كان الممر يفصل بين طوريس وفيكتور سيدورنكو نائب الوزير الروسي للطاقة النووية . وكانت من مسؤولياته حماية الترسانة النووية لبلاده . كان لدى روسيا وقتها حوالي 130 طناً من البلوتونيوم الصالح لصنع أسلحة نووية ، وهي كمية تكفي لصنع 16 ألف قنبلة نووية ، حجم كل منها يساوي ضعفي حجم تلك التي دمّرت هيروشيما .

كان سيدورنكو قد تلقى عدداً من التقارير المقلقة التي تقدم تفاصيل عن تراخي الضوابط وتدني المعنويات في صفوف موظفي مئات المعاهد ومراكز الأبحاث الروسية التي تستطيع الحصول على المواد المشعة . قبل بضعة أشهر ، اعتقل عامل في مصنع نووي في "الأورال" وهو ينقل كرات من اليورانيوم المشع في كيس من البلاستيك . وتمكّن عمال في مصنع آخر قرب منسك من تهريب ما يزيد على خمسة كيلو غرامات من اليورانيوم وإخفائها في بيوتهم . وكشف النقاب عن السرقة عندما بيع كيلو غرام من اليورانيوم بعشرين زجاجة فودكا . وها أن سيدورنكو يسافر إلى ألمانيا ليطمئن حكومة المستشار الألماني هيلموت كول إلى أن مثل هذه الحوادث لن تتكرر . كان الألمان يهدّدون بفرض عقوبات .

عند الساعة 5:45 بعد الظهر وفي الموعد المحدد حطت الرحلة 3369 في مطار فرانتز يوسف شتراوس في ميونيخ وسارت على المدرج حتى وصلت إلى موقفها . وبسرعة استقلّ سيارة كانت بانتظاره سارت به إلى منطقة سريّة . وهناك قيل له أن طاشنكا قد اعتقل للتو في موسكو .

دخل طوريس منطقة المسافرين الواصلين . لم يفاجئه وجود الشرطة الألمانية المدججة بالسلاح فقد طالما أظهرت ميونيخ حجم استعداداتها الأمنية بعد عملية دورة الألعاب الأولمبية ومقتل الرياضيين الإسرائيليين . أجرى طوريس مكالمة هاتفية إلى فندق "أكسلسيور" وتحدث إلى نزيل الغرفة 23 . كان بانتظاره إسباني يدعى خافيير أراتيبل الذي يعرّف عنه جواز سفره بأنه "صناعي" . أما في الواقع فقد كان سمسار البلوتونيوم . اتصل برجل يعرفه فقط باسم "خوليو أو" .

كان ضباط الاستخبارات الألمانية يراقبون المكالمات الهاتفية . وعندما عبر طوريس إلى قاعة الحقائب ليتسلم حقيبته كان يراقبه من مكتب قريب رئيس شرطة ميونيخ فولفغانغ ستوفاسيوس وكبير ضباط الاستخبارات .

أخذ طوريس حقيبته واتجه نحو مخرج من لا ينقل ما يستوجب دفع الرسوم الجمركية . وتبعه "إب" و"مورت" فما كان بوسعهما فعل أي شيء آخر ، فهما لا يملكان اعتقال أحد هنا . وخرج ستوفاسيوس من مكتبه معلناً بدء التحرك . وخلال ثوان أحاطت الشرطة بطوريس واقتادته مخفوراً . ونقلت الحقيبة إلى غرفة كان ينتظرها فيها شخص يلبس بذلة بيضاء ويحمل أداة "غايغر" لاكتشاف الجسيمات المؤذية وإحصائها . كان في الغرفة أيضاً خبراء في تفكيك القنابل ، وقد استخدموا آلة سهلة النقل تعمل بنظام أشعة "أكس" للتأكّد من أن الحقيبة ليست مفخّخة . كما لم يصدر عن أداة غايغر أي صوت يشير إلى وجود تسرّب في المواد القابلة للانشطار . فتحت الحقيبة وعثر في داخلها على مستوعبات البلوتيوم 239 وقد غلّفت بمادة بلاستيكية ثقيلة . ونزعت المستوعبات ووضعت في صناديق منيعة ونقلت إلى شاحنة مدرّعة . ومن هناك شحنت إلى مجمع الطاقة النووية الألماني .

وفي فندق "أكسلسيور" اعتقل أراتيبل ، أما خوليو - أو فقد تمكّن من التسلل عبر الحدود إلى المجر ، وقالت الشرطة أنها تبحث عنه . لكن ميونيخ لم تتوقع أن تجده قريباً . فقد عرفت المجر كإحدى نقاط عبور المهرّبين الروس إلى الغرب .

أبلغ عملاء الموساد تل أبيب بما جرى . وفي تل أبيب اعتبر المدير العام للموساد شبطاي شافيت أن ما حدث كان انتصاراً صغيراً آخر في المعركة الطويلة ضد الإرهاب النووي . لكنه كان يتساءل - ومعه آخرون - عن عدد الحقائب الأخرى التي تمكنت من التسلل ومتى سيربط وقوع انفجار نووي بتلبية مطالب مستحيلة .

على بعد أميال من شافيت تابع رافي إيتان الذي تتهمه وكالة "سي .آي .أي ." ومكتب "أف .بي .آي" بسرقة المواد النووية من مصنع "نومك" ، صرف وقت فراغه في نحت مزيد من التصاميم من مواد الخردة . كان يبدو متصالحاً مع العالم ، فقد نسي الناس عمليتي بولارد وأبولو ، وعندما كانوا يلحون عليه بالسؤال كان يقول أنه لا يتذكر الاسم الأول لبولارد أو شابيرو . كانت "الكام" قد أغلقت رسمياً . وأصرّ رافي إيتان على أن عمله هذه الأيام يختلف اختلافاً عظيماً عما كان عليه من قبل . فهو يعمل مديراً لشركة شحن صغرى في هافانا ويمتلك هناك حصة في شركة تتولى تصنيع المبيدات الحشرية الزراعية . وكان يزعم أن علاقة وثيقة تربطه بفيدل كاسترو ، "وهو أمر لا يسعد الأميركيين" . لم يزر الولايات المتحدة منذ رحلته إلى أبولو . وكان يقول أنه لا يرغب بذلك لأسباب ليس أقلها أنه يشكّ بأنهم سيسألونه "أسئلة كثيرة" عن جوناثان بولارد وما حدث بالضبط بعد زيارته إلى أبولو .

ثم في نيسان (أبريل) 1997 بدأ اسم رافي إيتان يظهر إلى جانب اسم جاسوس من الموساد في واشنطن كان مكتب "أف .بي .آي ." يعرفه باسمه الحركي "ميغا" .

وكان رافي إيتان علم من مصدره الرفيع المستوى في الموساد أن مكتب "أف .بي .آي ." بدأ يبحث دور "ميغا" المحتمل في طريقة إدارة جوناثان بولارد . هل كان "ميغا" مصدر بعض المواد البالغة السرية التي نقلها بولارد؟ كان مكتب "أف .بي .آي ." قد عاود استجواب بولارد في السجن فأقر بأن مركزه الرفيع لا يؤهله للحصول على بعض الوثائق ذات السرية غير العادية التي طلبها منه رئيسه المباشر ياغور . وكان "أف .بي .آي ." يعرف أن لمثل هذه الوثائق كلمة رمزية خاصة تستخدم للاطلاع عليها وهي تتغيّر باستمرار وأحياناً يومياً . ومع ذلك بدا أن ياغور عرف الكلمة الرمزية في غضون ساعات وقدّمها إلى بولارد . هل كان "ميغا" من زوّده بالكلمة الرمزية؟ هل كان "ميغا" الجاسوس الإسرائيلي الثاني في واشنطن الذي ارتاب مكتب "أف .بي .آي ." به منذ زمن بعيد؟ كم كانت علاقته وثيقة برافي إيتان؟

كانت هذه هي الأسئلة الخطيرة التي كانت تطرح في واشنطن ويمكن أن تحطم العلاقات بين واشنطن وتل أبيب .

اثر معرفة مكتب "أف .بي .آي ." أن رافي إيتان هو بطل قضية بولارد أقرّ الرجل بأن عهده في الاستخبارات الإسرائيلية قد شارف أخيراً على النهاية . كان يتطلع إلى إنهاء أيامه

وهو لا يواجه خطراً أعظم من أن ينسفع بنار موقد اللحام وهو ينحت أشكاله .

وعرف بالغريزة أن أحداث واشنطن تمسّه . فقد تحاول كتيبة خطف تابعة لوكالة "سي .أي .أي ." القبض عليه في إحدى روحاته وجيئاته من وإلى كوبا ، وتأتي به إلى واشنطن لاستجوابه . ويستحيل التكهن بما يمكن أن يحدث بعدها . إلا أن التهديد لا يقتصر عليه ، فاكتشاف وجود "ميغا" سيقضّ مضاجع الكبار في لجنة رؤساء أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية ، ومهمتها الأولى تنسيق جميع النشاطات الأمنية والاستخبارية في الداخل والخارج .

ولكن حتى أعضاء هذه اللجنة ما كانوا يعرفون من كان "ميغا" . فكل ما قيل لهم هو أنه يحتل منصباً رفيعاً في إدارة كلينتون . ولا يعرف أحد منهم إذا كان الرئيس قد ورثه من حكومة بوش . وحده رئيس الموساد العامل يعرف كم من الوقت أمضى "ميغا" في موقعه .

لكن أعضاء اللجنة كانوا يعرفون أن قسم مكافحة الاستخبارات في مكتب "أف . بي . آي ." كان يعتقد بالفعل بأن القعود عن معاقبة الموساد مردّه قوة اللوبي اليهودي في واشنطن وتمنّع الإدارات المتعاقبة عن التصدي . وبإمكان اللوبي أن يستجيب مرة أخرى للطلب إليه بإطفاء اللهيب المتّقد منذ اكتشاف "أف .بي .آي ." لـ"ميغا" أول مرة . في 16 شباط (فبراير) 1997 ، كانت وكالة الأمن القومي أمدت "أف .بي .آي ." باعتراض لمكالمة هاتفية ليلية من السفارة الإسرائيلية بين ضابط استخبارات في الموساد عرف باسم "دوف" ورئيسه في تل أبيب الذي لم يُكشف النقاب عن اسمه خلال المكالمة القصيرة .

كان "دوف" يسأل عن "توجيهات" بشأن "الاتصال بميغا" للحصول على نسخة من رسالة كتبها وارن كريستوفر الذي كان يومئذ وزيراً للخارجية إلى رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات . وتضمّنت الرسالة جملة تطمينات قدّمها كريستوفر إلى عرفات في 16 كانون الثاني (يناير) تتعلّق بانسحاب القوات الإسرائيلية عن مدينة الخليل في الضفة الغربية . وأمر الصوت في تل أبيب "دوف" بأن "ينسى الرسالة . فهذا ليس أمراً نستعين بميغا فيه" .

كانت هذه المحادثة القصيرة أول مفتاح عثر عليه مكتب "أف .بي .آي ." عن أهمية "ميغا" . فلم يسبق سماع هذا الاسم الرمزي من قبل خلال المراقبة المتواصلة على مدار الساعة للسفارة الإسرائيلية ودبلوماسييها . واستعان المكتب بحواسيب متطورة فضيّق البحث

المستعجل عن هوية "ميغا" إلى حدود أن يكون أحد أعضاء مجلس الأمن القومي أو على صلة بمسؤول كبير في هذا المجلس الذي يقدّم المشورة للرئيس في القضايا المتعلقة بالدفاع والاستخبارات . ويقوم مكتب هذا المجلس في البيت الأبيض ويضّم في عضويته نائب الرئيس ووزيري الخارجية والدفاع . ويقوم مدير الاستخبارات المركزية ورئيس الأركان المشتركة بدور استشاري . أما الموظفون الدائمون فيرأسهم مستشار الرئيس للأمن القومي .

ولا تزال سراً ، كهوية "ميغا" ، كيفية معرفة السفارة الإسرائيلية بأن اتصالاتها السرية بتل أبيب قد اخترقت . وسفارة واشنطن كحال جميع السفارات الإسرائيلية الأخرى تزوّد على الدوام بما يستجدّ من أنظمة أكثر تطوراً للبث المرمّز وفك الرموز . والجزء الأكبر من هذه المعدات مقتبسة عن مخططات هندسية أميركية مسروقة .

في صباح يوم بهيج ، في 27 شباط (فبراير) 1997 في تل أبيب حضر أعضاء لجنة رؤساء الأجهزة من مكاتبهم المختلفة في أنحاء المدينة وساروا على طريق عريض يدعى ريهوف شاؤل همليكو حتى بلغوا بوابة تحت الحراسة ، فوقفوا أمام حائط مصمت مرتفع تقوم على حفافيه أسلاك شائكة . لم يكن ظاهراً خلف الحائط إلا أسطح المباني ، وقد برز منها برج إسمنتي ضخم كان يراه كل سكان تل أبيب . وقد نصبت مجموعات قبيحة من الهوائيات الإلكترونية المتفاوتة الارتفاع . كان البرج واسطة العقد بين مقرات الجيش الإسرائيلي . ويعرف مجمّع المباني باسم "كريا" – المكان .

قبيل الساعة الحادية عشرة صباحاً ، استخدم رؤساء أجهزة الاستخبارات البطاقات الإلكترونية للدخول إلى مبنى يقع بالقرب من البرج . وكانت غرفة المؤتمرات التي دخلوها رثّة كمعظم المكاتب الحكومية .

ترأس الاجتماع داني ياتوم الذي عيّنه رئيس الوزراء بنيامين نتنياهو حديثاً لمنصب مدير الموساد . ويعرف ياتوم بتطرفه السياسي كحال نتنياهو ، وتسري إشاعات في تل أبيب عن أن مدير الموساد الجديد "حَضَن" رئيس الوزراء المحاصر عندما كانت حياته الشخصية المثيرة تهدّد مستقبله السياسي . أصغى الرجال المتحلقون حول طاولة المؤتمرات الخشبية باهتمام لياتوم وهو يطلعهم على الاستراتيجية الواجب اعتمادها إذا تحولت قضية "ميغا" إلى أزمة مستشرية .

وفقاً للاستراتيجية ستعمد إسرائيل إلى تقديم احتجاج شديد اللهجة لانتهاك الحصانة الدبلوماسية لسفارتها في واشنطن بزرع أجهزة تنصّت ، ومن شأن هذه الخطوة أن تتسبّب

بارتباك إدارة كلينتون . يلي ذلك خطوة ثانية يوجّه فيها المتطوّعون الذين لهم علاقات قوية بوسائل الإعلام الأميركية باختلاق روايات تفيد أن "ميغا" هو فك رمز غير دقيق لعبارة شعبية عبرية هي "إلغا" طالما كان الموساد يطلقها على وكالة الاستخبارات الأميركية "سي .أي .أي ." يضاف إلى ذلك أن كلمة "ميغا" جزء من كلمة معروفة للاستخبارات الأميركية هي "ميغاواط" وهي الاسم الرمزي الذي كان متداولاً حتى الآونة الأخيرة ويستخدم من قبل الموساد أيضاً للإشارة إلى تقاسم المعلومات السرية . وحسن الدلالة يقتضي أن يشير المتطوعون أيضاً إلى أن هناك كلمة أخرى ("كيلوواط") تستخدم للمعلومات المتعلقة بالإرهاب التي هي برسم التقاسم .

وختم ياتوم كلامه بالقول أن لا حاجة الآن لاتخاذ أي تدبير .

وفي آذار (مارس) 1997 اتخذ ياتوم تدبيره لدى تلقيه معلومات من ضابط الموساد المقيم في واشنطن ، فأرسل فريقاً من خبراء الاتصالات إلى واشنطن لمتابعة ما جاء في تقرير الضابط والمتعلق بمعلومات عن إجراء الرئيس كلينتون مكالمة جنسية مع موظفة سابقة في البيت الأبيض تدعى مونيكا لوينسكي . كان كلينتون يجري الاتصالات من المكتب البيضاوي إلى شقتها في مجمّع مباني ووترغيت . وإذ أن البيت الأبيض يتمتع بحماية وقائية إلكترونية كاملة فقد ركّز الفريق الإسرائيلي على شقة لوينسكي وراحوا يعترضون المكالمات الهاتفية الجريئة من الرئيس إلى لوينسكي . وكانت التسجيلات ترسل عن طريق ساعٍ بالحقيبة الدبلوماسية إلى تل أبيب .

وفي 27 آذار (مارس) دعا كلينتون لوينسكي مرة أخرى إلى المكتب البيضاوي وكشف لها أنه يعتقد أن سفارة أجنبية تسجّل مكالماتهما على شريط . ولم يطلعها على أي تفاصيل أخرى لكنه أنهى العلاقة بعد ذلك بوقت قصير .

وفي تل أبيب راح استراتيجيو الموساد يفكّرون في كيفية استخدام المكالمات المسجّلة المخجلة والتي تصلح مادتها للابتزاز . إلا أن أحداً لم يقترح إجراء أي محاولة لابتزاز رئيس الولايات المتحدة . لكن البعض رأى في التسجيلات سلاحاً قوياً بتصرف إسرائيل تستعمله كملاذ أخير في قضايا الشرق الأوسط إذا لم تستطع الاعتماد على دعم كلينتون .

وكان هناك إجماع عام بضرورة إطلاع مكتب "أف .بي .آي ." على المكالمات التي جرت بين كلينتون ولوينسكي . وحثّ بعض الاستراتيجيين ياتوم على استخدام "القناة

الخلفية" مع واشنطن وإفهام "أف .بي .آي ." بأن الموساد على علم بمكالمات الرئيس الهاتفية . فتكون هذه طريقة تعوزها البراعة لجعل المكتب يتوقف عن بحثه المستمر عن "ميغا" . واقترح جمهور آخر من المحلّلين اعتماد سياسة التروّي بحجة أن المعلومات ستكون بالغة الإثارة في أي وقت أذيعت . وانتصرت وجهة النظر هذه .

وفي أيلول (سبتمبر) 1998 نشر تقرير "ستار" وكان ياتوم قد تخلى عن منصبه كمدير عام للموساد . وتضمن التقرير إشارة مقتضبة إلى تحذير كلينتون للوينسكي في آذار (مارس) 1997 بأن هاتفه يخضع لمراقبة سفارة أجنبية . لم يتابع ستار المسألة عندما أدلت لوينسكي بشهادتها أمام هيئة المحلفين الكبرى في شأن علاقتها العاطفية بكلينتون . لكن مكتب "أف .بي .آي ." لم يرَ في المعلومات المثيرة التي كشف النقاب عنها سوى دليل آخر على عجز المكتب عن فضح هوية "ميغا" .

بعد ستة أشهر ، وفي 5 آذار (مارس) 1999 نشرت مجلة "نيويورك بوست" موضوع غلاف ارتكز إلى الأسرار التي كشفت عنها الطبعة الأولى لهذا الكتاب . وجاء في بداية التحقيق : "مارست إسرائيل الابتزاز ضد الرئيس كلينتون بشرائط تسجّل المكالمات الهاتفية للأحاديث الجنسية الساخنة مع مونيكا لوينسكي ، على حد ما جاء في كتاب جديد مثير . وكان الثمن الذي دفعه كلينتون لشراء صمت وكالة التجسس "الموساد" هو وقف عملية البحث التي كان يقوم بها مكتب "أف .بي .آي ." عن عميل إسرائيلي سري في أعلى مستوى" .

وخلال ساعات ظهرت رواية "نيويورك بوست" في آلاف الصحف الصادرة في أنحاء العالم ، وهي تشويه تام للحقائق التي نقلها هذا الكتاب التي اعتنيت بالتثبّت منها بالاستناد إلى مصادر في إسرائيل وهي حقائق يؤكدها آري بنمناشي وهو مستشار سابق لشؤون الاستخبارات لدى الحكومة الإسرائيلية . سقطت النقطة الأساسية في القصة التي رويتها وهي أن المدعي العام كينيث ستار لم يضغط بصورة كاملة لبلوغ تحقيقاته لإدانة الرئيس كلينتون إلى نهايتها المرجوة . وقد لاحظ ستار في تقريره الشهير أنه في 29 آذار (مارس) 1997 "قال (كلينتون) لها (لوينسكي) إنه يشك بأن سفارة أجنبية (لم يعيّنها بالضبط) تسجل مكالماته الهاتفية . وإذا سألها أي كان عن ممارسة الجنس على الهاتف فيجب أن تقول أنهما كانا يعلمان أن مكالماتهما تخضع للمراقبة طوال النهار وأن ممارسة الجنس على الهاتف كانت مصطنعة" .

وأشـارت كلمـات الرئيس بأقـوى مـا يمكن إلى أنه أصـبح يدرك أنه تحـوّل إلى هدف محتمل للابتزاز . وتحدّث كلينتون إلى لوينسكي عبر شبكة هاتف عامة – ليس هناك دليل على أنه حـاول أن يجعل الهاتف في شـقتـها سـرياً – فكأنه تعـمّد أن يجعل نفسـه عرضـة لاعتراض المتنصتين الأجانب وحتى المكانس الكهربائية القوية العاملة بنظام "الميكروويف" في وكـالة الأمن القـومي . ونظراً إلى أن كل رئيس يتلقى بصورة منتظمة أثناء ولايـته تقـارير الوكـالة فـلا شـك أنه كـان يعلم أن مكالماته إلى مونيكا تصل إلى مـفـبركي الإشـاعـات في واشنطن .

ويمكن للمرء أن يستشعر إحسـاسـاً بالرعب أحدثته الأسـرار التي كشـفـتُـهـا في البيت الأبيض في الردود على أسئلة الصحافيين التي قدّمها الناطقان بلسان البيت الأبيض باري تويف وديفيد ليفي . وهناك شعور بالارتباك يُستشعر في إجاباتهما أبقت عليه النسخ المكتوبة الرسمية التي وزعها البيت الأبيض :

سؤال : لماذا أبلغ الرئيس مونيكا لوينسكي إنه قلق لخضوع مكالماته الهاتفية للتسجيل؟

تويف : كـمـا تعـرف فلم نصدر أي تعليق على التفاصيل باستثناء شـهادة الرئيس أمام المحكمة في هذه القضية . وأننا لن نشرع الآن بإصدار مثل هذه التعليقات .

سؤال : عندما علم الرئيس بهذا الأمر هل استبد به القلق؟ أم هل فاجأه؟ ماذا كـان رد فعله يا سيد تويف؟

تويف : بصدق إنني لم أعرف رد فعل الرئيس حيال الكتاب .

سؤال : لماذا قال ما قال لمونيكا لوينسكي؟ لماذا حذّرها؟

تويف : لقد أجبت على هذا السؤال للتوّ . (ضحك) . إنني آسف .

سؤال : أعرف إنك لم تجب عليه ،لكنه مهم جداً .

تويف : مرة أخرى إننا لن ندخل في عملية التعليق على التفاصيل في ما عدا ما أدلى به الرئيس في شهادته .

سؤال : إنني لا أفهم لماذا تعتقد أنه يحق لك ألا تعلّق على مـا ينقل عن لسـان رئيس الولايات المتحدة وفيـه أنه يعتقد أن حكومة أجنبيـة تسجّل محادثاته . ومـا عليك إلا أن تقول : لا تعليق .

تويف : لقد طرحت أسئلة عن كل أنواع التعليقات التي صدرت أو جرى الإدلاء بها أمام محكمة ، ولم نتعدَّ ما جاء في شهادة الرئيس أمام المحكمة عند مناقشة هذه المسائل ، ولن نفعل ذلك .

سؤال : ذلك لأنك قلت أن الأمر غير محتمل ويتعلق بالجنس . ولكن الأمر يتعلق بالأمن القومي للولايات المتحدة وبالزعم بأن الرئيس قال أن حكومة أجنبية تسجّل أحاديثه . وكل ما تريد أن تقوله هو "آسف ، لا تعليق" .

تويف : إنني لن أضيف شيئاً على ما سبق له وأن أدلى به في شهادته .

ليفي : واضح إننا لا نعلم بوجود عميل سري في البيت الأبيض . ولكن هناك مسلكاً قديم العهد يسلكه الأشخاص الذين يتحدثون من على هذه المنصة وهو تحويل المكالمات إلى السلطات المختصة التي تتولى القيام بمثل هذه الأنواع من التحقيقات .

سؤال : هل حاول الرئيس مرة أن يتدخل في أي نوع من التحقيق أو في بحث جارٍ عن عميل سري؟

ليفي : لا ، لا أساس لمثل هذا الزعم على الإطلاق .

سؤال : لكن هناك أساساً . هناك شهادة تحت القسم أدلت بها لوينسكي وهي تسند إلى الرئيس قوله إن سفارة أجنبية تسجّل...

ليفي : وقد أجاب باري عن هذا السؤال لتوّه .

سؤال : كان جوابه إنه لن يعلق عليه . وهذا ليس جواباً ، مع احترامنا .

ليفي : دعوني أقول أمرين شهيرين .

تويف : لن أضيف إلى تعليقاتي شيئاً .

ليفي : إنني حتماً لن أضيف شيئاً إلى تعليقات باري . لكن دعوني أقول ما يلي : إننا نتّخذ كل الاحتياطات الضرورية لحماية الاتصالات التي يجريها الرئيس . وليس هناك أي أساس على الإطلاق للزعم الذي جاء في الكتاب .

سؤال : هل تستند إلى "سي . آي . أي ." أم أنك تدلي بذلك كردّ فعل تلقائي؟

ليفي : يمكنك أن تعتبر هذا كلاماً مسؤولاً .

سؤال : أفهم أن تجعل اتصالاته في مأمن . ولكن إذا تناول سماعة الهاتف واتصل بشقة أحد المواطنين العاديين عند الساعة 2:30 صباحاً ، فما الذي يجعلك تقول أن هاتف ذلك الشخص ليس مراقباً؟ هل النظام الأمني عندكم قادر على منع ذلك؟

ليفي : لقد وردت في الكتاب مزاعم خطيرة جداً ، وما أقوله هو أنه لا أساس على الإطلاق لهذه المزاعم . ولذلك سأكتفي بما ذكرت .

ولم تقم أي صحيفة جادّة بأي محاولة لاستطلاع تفاصيل جديدة لتلك الإجابات الموحية .

وقد تبين أن الموساد ليست المنظمة الوحيدة التي سجلت على شريط المكالمات الهاتفية الجنسية . فقد نقلت صحيفة "ذي أريزونا ريبابليك" المحلية عن السيناتور الجمهوري لولاية أريزونا جون كيل وهو عضو في اللجنة البرلمانية للاستخبارات قوله "إن وكالة استخبارات أميركية قد تكون سجلت على شريط المحادثات الهاتفية بين الرئيس كلينتون ومونيكا لوينسكي . إن وكالات مختلفة في الحكومة جعلت عملها تسجيل بعض الأمور لأسباب معينة ، وكانت إحدى هذه الوكالات" .

ورفض كيل أن يكشف للصحيفة هوية الوكالة أو الوكالات قائلاً "إن ذلك أمر لا يمكنني إطلاقاً أن أتحدث عنه بالتفصيل" . وتحدّث كيل عن مصادره فقال "من واقع هويتهم فهم يتمتعون بالصدقية . ويمكنك أن تفترض أنهم أشخاص كانوا لحيّز من الزمن موظفين في الحكومة الاتحادية" . وعمد إلى مقارنة وجود أشرطة التسجيل بالبرهان "الدامغ" في فضيحة ووترغيت .

هذه المزاعم المتفجرة تصدر عن سياسي محترم لم تجرِ متابعتها في الميدان العام .

ووفقاً لمصدر استخباراتي إسرائيلي رفيع المستوى فإن رافي إيتان تلقى مكالمة من ياتوم تؤكد الحاجة إلى الابتعاد عن الولايات المتحدة في المستقبل المنظور .

ولم يكن رافي إيتان بحاجة إلى من يقول له كم سيكون مثيراً للسخرية أن يقع هو ضحية الأسلوب نفسه الذي جعل منه أسطورة – اختطاف أدولف آيخمان . والأسوأ أن يُقتل بهدوء بإحدى الطرق التي لمّعت اسمه وسط أشخاص يرون أن الاغتيال جزء من الوظيفة .

الفصل السادس

المنتقمون

بعد ظهر يوم دافئ ، أواسط تشرين الأول (أكتوبر) 1995 ، كان تقنيٌ من قسم الأمن الداخلي (أي . بي . أم .) في الموساد يستخدم أداة إلكترونية فاحصة للبحث عن أجهزة التنصت في شقة تقع بالقرب من شارع بينسكر وسط تل أبيب . كانت الشقة أحد البيوت السرية التي يمتلكها الموساد في أنحاء المدينة ، وكان الفحص مؤشراً على الأهمية البالغة للاجتماع الذي سيعقد فيها . وبعدما تأكد الرجل من خلوّ الشقة من أي جهاز إلكتروني غادر المكان .

كان أثاث الشقة متبايناً وغير منسجم كأنه أبتيع من مستودع . كانت بضع لوحات رخيصة معلّقة على الحائط وتمثّل مشاهد تجتذب السيّاح . وكان في كل غرفة خط هاتف سري خاص . أما المطبخ فاستعيض فيه عن الأدوات الكهربائية بحاسوب ومودم وممزقة أوراق وآلة فاكسيميلي . ومكان الفرن وضعت خزنة .

والبيوت السرية تستخدم عادة لمنامة المتدرّبين على أعمال التجسّس في مدرسة الموساد في ضواحي المدينة أثناء فترات تدريبهم على مطاردة شخص ما ، أو تجنّب تعرّضهم للمطاردة ، وعلى كيفية إنشاء صندوق للرسائل الميتة أو تبادل المعلومات المخبأة داخل صحيفة . كانت شوارع تل أبيب ، ميدان اختباراتهم ليلاً ونهاراً ، تحت العين الساهرة لمدربيهم . ولدى العودة إلى البيوت السرّية كان التدريب يستمر على كيفية تعريف ضابط الاستخبارات بأحوال البلد الأجنبي الذي سينتقل إليه ، وكيفية كتابة الرسائل بحبر خاص أو استخدام الحاسوب لصوغ معلومات يمكن بثّها بموجات قصيرة على تردّدات إرسال معينة .

وكان من أهم الدروس التي تستغرق ساعات طويلة ومملّة كيفية إنشاء علاقة مع أشخاص أبرياء طيبي القلب . ويعتقد ياكوف كوهين ، الذي أمضى خمسة وعشرين عاماً كضابط استخبارات سرّي في مختلف أنحاء العالم ، أن من أسباب نجاحه ما تعلمه في هذه المحاضرات :

"كل امرئ ، أياً يكن ، يتحوّل إلى أداة . كنت أكذب عليهم لأن قول الحقيقة ليس داخلاً في طبيعة علاقتي بهم . كل همّي كان استخدامهم لفائدة إسرائيل . ومنذ البداية تعلمت مبدأ وهو : إفعل ما تراه في مصلحة الموساد وإسرائيل" .

أما الذين لم يستطيعوا قبول هذه العقيدة ، فلم يلبثوا أن أُقصوا عن الجهاز . ويعتبر دايفيد كيمحي أحد أفضل عملاء الموساد الميدانيين ، وهو يقول "إنها القصة القديمة المشهورة ، وفيها أن المدعوين كثرٌ من المختارون فقلّة . ونحن بهذا المعنى أشبه بالكنيسة الكاثوليكية . فالذين يبقون ينشئون علاقات تساعدهم على الاستمرار في حياتهم . إننا نطبق قاعدة "ساعدني أساعدك" . وتعتاد أن تأتمن الناس على حياتك . وما من أمانة أعظم من هذا" .

عندما يتخرّج الرجال والنساء المجازون لدخول البيوت السرّية وينتقلون إلى المرحلة التالية يكون هذا المبدأ قد انغرس في عقولهم . فقد أصبحوا الآن ضباط استخبارات يغادرون في مهمة أو يعودون لتسلّم أمر تكليفهم . وهم يُعرفون باسم "القافزون" لأنهم يعملون عبر الحدود لفترة قصيرة ، ولذا صاروا يسمّون البيوت السرية "مواقع قفز" ، وهو وصف مسرف في خياليته ولا يروق لرؤسائهم .

وأخيراً ، صارت البيوت السرّية تستخدم كأماكن للاجتماع بمخبر أو لاستجواب مشتبه به يمكن تحويله إلى "جاسوس" . والمصدر الوحيد المتوافر عن عدد هذه البيوت هو ضابط الموساد الصغير السابق فيكتور أُستروفسكي الذي زعم عام 1991 أن هناك "حوالي 35 ألفاً منها في العالم منها 20 ألفاً عاملة و15 ألفاً هاجعة . العملاء "السود" هم العرب والعملاء "البيض" هم من غير العرب . و"عملاء التحذير" هم عملاء استراتيجيون يُستخدمون للتنبيه إلى وجود استعدادات حربية ، مثل طبيب في مستشفى سوري يلاحظ أن إمدادات جديدة ضخمة من العقاقير والأدوية قد وصلته ، وموظف في الميناء يلحظ ازدياد نشاط السفن الحربية" .

ويتلقّى بعض هؤلاء العملاء تدريباتهم الأولى في بيت سرّي كالذي جرى تفحّصه بدقة متناهية للتأكد من خلوّه من أدوات التنصّت بعد ظهر ذلك اليوم من تشرين الأول (أكتوبر) . في وقت لاحق من ذلك اليوم سيجتمع حفنة من كبار العاملين في أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية حول طاولة العشاء في الشقة ليجيزوا عملية اغتيال ستحظى بموافقة كاملة من رئيس الوزراء اسحق رابين .

خلال السنوات الثلاث التي أمضاها رابين في منصبه ، حضر عدداً كبيراً من الجنازات لقتلى هجمات المقاومة الفلسطينية . وفي كل مرة كان يسير وراء حاملي بساط الرحمة ويشاهد الرجال يبكون وهم يصغون إلى صلاة العهد . ومع كل وفاة كان يقيم "جنازة في قلبي" . وبعدها كان يقرأ من جديد كلمات النبي حزقيال "وأجري عليهم نِقمات عظيمةً بتأديبِ سَخَطٍ فيعلمون أني أنا الربّ إذ أجعل نقمتي عليهم" .

لم تكن تلك المرة الأولى التي يوقع فيها رابين انتقامه . فقد شارك هو نفسه في غير مناسبة في عمليات انتقام . وكان أبرز هذه العمليات اغتيال نائب ياسر عرفات ، السيد خليل الوزير ، الذي يُعرف باسم أبي جهاد ، والذي يقيم في تونس . عام 1988 كان رابين وزير الدفاع عندما تقرّر في الشقة نفسها قرب شارع بينسكر قتل أبي جهاد .

ظلّ عملاء الموساد شهرين ينفذّون عملية مراقبة واسعة لفيلا أبي جهاد في منتجع سيدي بو سعيد في أحدى ضواحي تونس العاصمة . كان كل شيء قيد المراقبة والفحص والتدقيق من الطرق المؤدية إلى الفيلا ، إلى نقاط العبور ، إلى ارتفاع السياج وأنواعه ، إلى النوافذ والأبواب والأقفال والدفاعات والروتين الذي يعتمده حرس أبي جهاد . راقبوا زوجة أبي جهاد وهي تلعب مع أولادهما ، ومرّوا بها وهي تتبضّع ، ثم وهي تدخل إلى مزيّن الشّعر ، وأصغوا إلى مكالمات أبي جهاد الهاتفية وزرعوا أدوات تنصّت في غرفة نومه . وحسبوا المسافات بين الغرف وتعرّفوا إلى ما يفعله الجيران ، وإلى الأوقات التي يكونون في بيوتهم ، وسجّلوا أنواع السيارات التي تزور الفيلا وألوانها وأرقام لوحاتها .

كانت القاعدة التي وضعها مئير عميت في السنوات الماضية راسخة في أذهانهم وهم يُعدّون للاغتيال : فكّر كما يفكر من تريد قتله ولا تتوقف عن أن تكون أنت هو ألا عندما تضغط بإصبعك على الزناد .

وبعدما أنهى الفريق مهمته بنجاح عادوا إلى تل أبيب . وطوال الشهر التالي تدرّبوا على

مهمتهم داخل وحَوْل بيت سرّي للموساد قرب حيفا يشبه الفيلا التي في تونس . يجب أن تستغرق عملية الاغتيال منذ لحظة دخول بيت أبي جهاد اثنتين وعشرين ثانية فقط .

في 16 نيسان (أبريل) 1988 صدر الأمر بالتنفيذ . في تلك الليلة أقلع عدد من طائرات "بوينغ 707" التابعة لقوة الجو الإسرائيلية من قاعدة عسكرية تقع جنوبي تل أبيب . كانت واحدة تُقّل إسحق رابين وعدداً من كبار الضباط الإسرائيليين ، وكانت على اتصال دائم عبر لاسلكي سرّي بفريق الاغتيال الذي اتخذ أفرادُه مواقعهم بقيادة عميل اسمه الرمزي "سورد" . كانت الطائرة الأخرى مكدّسة بأدوات المراقبة والتشويش . وكانت طائرتان أخريان تنقلان خزانات الوقود . وعلى ارتفاع شاهق فوق الفيلا حام أسطول الطائرات في الفضاء وهو يتابع كل حركة على الأرض عبر تردّد لاسلكي سرّي . وبُعيد منتصف الليل في 16 نيسان (إبريل) سمع الضباط المحمولون جواً أن أبا جهاد قد عاد إلى منزله بسيارة المارسيدس التي كان ياسر عرفات قد قدمها له كهدية عرسه . سبق ذلك إقامة أجهزة استماع حسّاسة لالتقاط كل ما يجري داخل الفيلا .

من موقعه قرب الفيلا ، أعلن "سورد" عبر ميكروفون يعمل بحركة الشفاه إنه يسمع أبا جهاد وهو يصعد السلالم ويذهب إلى غرفة نومه ويهمس شيئاً لزوجته ويمشي على أطراف أصابعه إلى الغرفة المجاورة لتقبيل ابنه النائم قبل أن يمضي إلى مكتبه في الطبقة الأرضية . كانت طائرة الحرب الإلكترونية ، وهي النسخة الإسرائيلية لطائرة الرادار الأميركية "إيواكس" ، تلتقط هذه التفاصيل وتحوّلها إلى رابين في طائرة القيادة . وعند الساعة 12:17 صباحاً صَدَر أمرُه بالتنفيذ .

خارج الفيلا ، كان سائق أبي جهاد نائماً في سيارة المارسيدس . اندفع أحد رجال "سورد" نحوه ووضع مسدسه "الباريتا" الصامت في أذنه وضغط الزناد ، فسقط السائق قتيلاً على المقعد الأمامي .

بعدئذ ، وضع "سورد" وزميلٌ له في فريق الاغتيال شحنةً متفجرة عند قاعدة بوابة الفيلا الحديد الثقيلة . كانت المتفجرات البلاستيكية من النوع "الصامت" فلم تحدث صوتاً يذكر عندما خلعت الأبواب من مفاصلها . في الداخل كان حارسان لأبي جهاد يقفان عند قاعة الدخول وقد جمّدهما الانفجار فسقطا قتيلين بنيران صامتة .

ركض "سورد" إلى المكتب فوجد أبا جهاد يشاهد شريط فيديو من إنتاج منظمة التحرير

الفلسطينية . وإذ هم بالنهوض من مقعده أطلق "سورد" عليه الرصاص مرتين في صدره فهوى أبو جهاد إلى الأرض . اندفع "سورد" بسرعة وأطلق رصاصتين أخريين على جبهته .

وبينما كان يخرج من الغرفة التقى بزوجة أبي جهاد التي كانت تحمل ابنها الصغير بين ذراعيها . فانتهرها بالعربية صائحاً : "عودي إلى غرفتك!" . ثم اختفى هو وفريقه في ظلام الليل .

للمرة الأولى واجهت عملية اغتيال إسرائيلية انتقاداً علنياً . فقد أعلن وزير الحكومة عيزر وايزمان "إن تصفية الأشخاص لن يؤدي إلى تقدّم عملية السلام" .

وعلى رغم ذلك فقد استمر مسلسل الاغتيالات .

بعد شهرين اضطرت شرطة جنوب أفريقيا أخيراً إلى الكشف عن سرّ كانت إسرائيل ضغطت عليها لمنع تسرّبه . كان الموساد قد أعدم رجل أعمال من جوهانسبورغ يدعى آلان كيدجر كان يمدّ إيران والعراق بمعدّات عالية التقنية يمكن استخدامها لصناعة أسلحة بيوكيماوية . كان قد عُثر على كيدجر مقتولاً وقد بترت ساقاه وذراعاه . وقال كبير المحقّقين في شرطة جوهانسبورغ العقيد تشارلز لاندمان أن القتل كان "رسالة واضحة من حكومة إسرائيل أرسلتها عن طريق الموساد" .

قبل ستة أسابيع من اغتيال أبي جهاد أسهم الموساد إسهاماً عظيماً في عملية اغتيال أخرى مثيرة للجدل ذهب ضحيتها ثلاثة عناصر عزّل من منظمة "الجيش الجمهوري الايرلندي" ، قتلوا بعد ظهر يوم أحد في جبل طارق على يد فريق من رماة أجهزة الجوّ الخاصة البريطانية (أس .أي .أس .) .

في السنوات السابقة كان رافي إيتان قد جاء سراً بزملاء لهؤلاء الرماة من الاستخبارات البريطانية إلى تل أبيب ليشاهدوا بأم أعينهم كيف كان الموساد يعدم أعداءه العرب في أزقة بيروت ووادي البقاع في لبنان .

قبل أربعة أشهر من عملية الاغتيال الثلاثية في جبل طارق بدأ عملاء الموساد مراقبة مايريد فاريل وشون سافيج ودانيال ماك ـ كان وهم يعتقدون أنهم يقومون مرة أخرى "بجولة تبضّع مسرفة للحصول على أسلحة عربية للجيش الجمهوري الإيرلندي" .

ويعود اهتمام الموساد الشديد بنشاطات "الجيش الجمهوري الايرلندي" إلى عهد

حكومة مارغريت ثاتشر التي اعتمدت السرّية القصوى عندما جاءت برافي إيتان إلى بلفاست ليطلع قوات الأمن البريطانية على تطوّر العلاقات بين المجموعات المسلحة الإيرلندية وحزب الله اللبناني .

يقول رافي إيتان "وصلت في يوم ممطر . كان المطر يهطل كل يوم أثناء إقامتي في إيرلندة . وأطلعت البريطانيين على كل ما كنّا نعرفه . ثم قمت بجولة في الإقليم حتى بلغت الحدود مع الجمهورية (الإيرلندية) إلى الجنوب . اعتنيت بألاّ أعبر الحدود . تصوّر ما كانت ستقوله الحكومة الإيرلندية لو أنها ضبطتني! قبل مغادرتي أعددت العدة لمجيء رجال "أس .أي .أس ." إلى إسرائيل حتى يطّلعوا على بعض أساليبنا في التعامل مع الإرهابيين" .

من البدايات المبكّرة تطورت علاقة تعاون وثيق بين "أس . أي . أس ." والموساد . وكان ضباط كبار في الموساد يترددون على مقر "أس .أي .أس ." في هريفورد لاطلاع القوات الخاصة على عمليات تجري في الشرق الأوسط . وفي إحدى المناسبات تعقّبت وحدة مشتركة من الموساد و"أس .أي .أس ." عدداً من كبار المسؤولين في "الجيش الجمهوري الإيرلندي" من بلفاست إلى بيروت وأخذت لهم صوراً أثناء عقدهم اجتماعات مع قادة حزب الله .

وفي تشرين الأول (أكتوبر) 1987 تعقّب عملاء الموساد السفينة البخارية غير النظامية "أكسوند" بينما كانت تعبر مياه البحر المتوسط وهي تحمل 120 طناً من الأسلحة ضمنها صواريخ أرض – جو وقاذفات رمانات تعمل بنظام الدفع الصاروخي ، ومدافع رشاشة ومتفجرات وصواعق . وكانت هذه الأسلحة أبتيعت بوساطة مصادر "الجيش الجمهوري الإيرلندي" في بيروت . وقد اعترضت السلطات الفرنسية السفينة .

فشل الموساد في تحقيق تقدّم في علاقته مع سلطات الأمن الإيرلندية – ويعود ذلك برأي أحد ضباط الموساد إلى معارضة إسرائيل القوية لدور إيرلندة في حفظ السلام في لبنان – فجعل من أجهزة "أس . أي . أس ." البريطانية قناة لإفشاء أخبار شحنات الأسلحة الأخرى القاصدة إيرلندة إلى دبلن . وسرعان ما تبيّن لعملاء الموساد الذين يتعقبون وحدة الكوماندوس التابعة "للجيش الجمهوري الإيرلندي" في إسبانيا إن عناصر الوحدة لا ينوون الالتقاء بتجار أسلحة من الجنسيات العربية ولا إجراء اتصالات مع منظمة "إيتا" الباسكية المسلّحة . ومع ذلك فقد استمر فريق الموساد في تأثّر خطوات "وحدة الإرهاب الدولي" الإسبانية التي كانت هي أيضاً تتعقّب الثلاثي الإيرلندي .

في البداية كان الإسبان يراقبون عن بعد . كانت تلك عمليتهم ، وهي المرة الأولى التي انخرطوا فيها بجدية مع جهازي "أم .آي .5" و"أس .أي .أس ." في التعامل مع "الجيش الجمهوري الايرلندي" . وبالطبع سيعود إليهم الفضل إذا كان هناك فضل . وبسرعة ، أوضح الموساد إن كل ما يبتغونه هو تقديم المساعدة ، وهذا ما طمأن الإسبان الذين ما لبثوا أن بدأوا العمل مع الموساد .

عندما أضاع الإسبان أثر مايريد فاريل كان أحد ضباط الموساد هو من عثر عليها ، بعدما اكتشف إنها استأجرت سيارة أخرى ، بيضاء من طراز "فيستا" وركنتها بعدما عبأتها بأربعة وستين كيلو غراماً من مادة "سمتكس" الشديدة الانفجار وستة وثلاثين كيلو غراماً من الشظايا في مرأب للسيارات تحت الأرض في ماربيا .

هذا المنتجع الراقي مكانٌ مفضّل لعدد من الشخصيات العربية المعروفة التي تلجأ إليه من حرّ الصحراء القائظ . كما يقع على مسافة قصيرة من حوض بورتو بانوس حيث ترسو يخوت فاخرة يملكها عدد من مليونيرات العرب . ولطالما خشي الموساد من أن تُجرّ هذه الزوارق في البحر المتوسط لتهريب المتفجرات والأسلحة إلى المقاومين الفلسطينيين . وكان يشتبه بأن سيارة فاريل رُكنت لهذا الغرض استعداداً لرفعها على متن زورق ينطلق في رحلة بحرية إلى فلسطين .

وضع فريق الموساد السيارة تحت المراقبة وشاهدوا فاريل تجلس وراء مقود سيارة "فيستا" أخرى ، وهي السيارة نفسها التي استخدمتها لأخذ ماك ـ كان وسافيج في جولة سياحية في أنحاء إسبانيا في الأسابيع الفائتة . لحق اثنان من فريق الموساد بوحدة "الجيش الجمهوري الايرلندي" وهي تتجه جنوباً نحو بورتو بانوس . وبعد عشر دقائق من خروجها من ماربيا عبرت فاريل المدخل إلى حوض السفن وتابعت سيرها على طول الساحل .

دق ضابط الموساد ناقوس الخطر للشرطة الإسبانية باتصال من جهاز اللاسلكي يربطه بها ، وأبلغها أن ثلاثي "الجيش الجمهوري الإيرلندي" يتّجه نحو جبل طارق . وبدورهم نبّه الإسبان السلطات البريطانية . فتحرّك فريق "أس .أي .أس ." لأخذ مواقعه . وبعد ساعات سقطت فاريل وماك ـ كان وسافيج قتلى . لم يوجّه إليهم أيّ إنذار ولم يُعطَوا فرصة للاستسلام . أُعدموا .

بعد أسبوع من وقوع الحادث اتصل ستيفن لاندر ضابط "أم .آي .5" الذي اعترفت له

السلطات الرسمية بفضل إدارة العملية ـ والذي أصبح في ما بعد المدير العام لـ"أم .آي .5" ـ بأدموني وشكر الموساد على مساعدتهم في عملية الاغتيال .

في مساء ذلك اليوم من أيام تشرين الأول (أكتوبر) 1995 وفي المنزل السري القائم بالقرب من شارع بينسكر كانت الاستعدادات قد أُتمّت لعقد الاجتماع الذي سيقرّر مصير عملية الاغتيال التالية .

وقد اختير للإعدام الرئيس الديني لمنظمة الجهاد الإسلامي فتحي الشقاقي . كان الموساد قد توصّل إلى أن هذه المجموعة نسّقت مقتل أكثر من عشرين إسرائيلياً في باص دمّره في كانون الثاني (يناير) السابق اثنان من الانتحاريين بالقرب من بلدة بيت ليد الصغرى .

وبهذا الحادث ارتفع عدد الهجمات الدموية إلى ما يزيد على عشرة آلاف في ربع القرن السابق . في هذه الفترة قُتل أكثر من أربعمائة إسرائيلي وجُرح ألف آخرون . وقد جرى تعقّب العديد من الأشخاص المسؤولين عن قائمة الموت والتشويه وقتل العديد منهم في "كل تلك الأزقة التي لا اسم لها ، حيث المدية تكون أفعل أحياناً من المسدس ويكون المرء في موقف حياة أو موت" ، على حد قول ضابط المخابرات ياكوف كوهين الذي كانت له حصة في أعمال الانتقام .

في هذا العالم القاسي ، كان الشقاقي موضع احترام شعبه . كان هو من أفتى شخصياً بأن انتحاريي بيت ليد مغفورٌ ذنبهم عند الله ولا هم يقنتون . وللخروج بهذه الفتوى استقرأ آيات القرآن الكريم واستشهد بها لتعزيز فرضية فلسفية تقول أن الاضطهاد يساعد المضطهد على اكتشاف قوى جديدة فيه . وقام بتهيئة الانتحاريين نفسياً فساروا على طريق المراهقين اليابانيين الانتحاريين في الحرب العالمية الثانية ليلاقوا حتفهم في ذلك اليوم من كانون الثاني (يناير) وهم في حال اتّقاد ديني . بعدئذ كان الشقاقي هو من يوعز بنشر نعيهم في صحيفة الجماعة ويرثيهم في خطب الجمعة مؤكداً أن مثواهم الجنة .

وفي الأوساط التي نشط فيها الشقاقي كان شرفاً للعائلة أن تقدّم أحد أبنائها كشهيد للجماعة الإسلامية . وكان الشهداء يكرّمون كل يوم بعد آذان الصلاة . وكانت ذكراهم حيّة في مساجد جنوب لبنان .

بعد اختيار المجنّدين وتعيين الأهداف كان الشقاقي يحيل الشبان إلى خبراء المتفجرات

الاستراتيجيين الذين كان بوسعهم تحديد كمية المتفجرات المطلوبة لتدمير أي هدف بمجرد تفحّص صورة له . وكحال الكيميائيين القدامى ، كانوا يعملون في ضوء الخبرة وبدافع الغريزة ، وكانت لغتهم مليئة بعبارات توحي الموت : "المؤكسد" ، "مزيل الحساسية" و"اللدائنيات" و"العقاقير الخافضة المجمّدة" . هؤلاء كانوا جماعة الشقاقي . كان الشقاقي يستعير عبارة تفوّه بها مرة أحد زعماء عدوّه اللدود إسرائيل ، فيقول لهم "إننا نحارب إذن نحن موجودون" .

في تلك الليلة من ليالي تشرين الأول (أكتوبر) عندما كان مصيره يتقرّر في البيت السرّي في تل أبيب كان الشقاقي في منزله في دمشق مع زوجته فتحيّة . كان يتناول مع زوجته أكلته المفضلة "الكسكسي" المغربية ويطمئن زوجته إلى أن لا خوف على حياته في رحلته المتوقعة إلى ليبيا التي سيسعى خلالها إلى جمع أموال دعم أخرى من القذافي . وكان يأمل أن يحصل على كامل مبلغ المليون دولار الذي طلبه في رسالة بالفاكس بعث بها إلى طرابلس . وكالمعتاد سوف يُدفع المبلغ عبر مصرف ليبي في فاليتا في جزيرة مالطا . وكان الشقاقي يعتزم أن يمضي أقل من يوم واحد على الجزيرة قبل أن يعود أدراجه .

ودفعت أخبار توقّفه في مالطة بابنيه المراهقين إلى تقديم قائمة مشتروات : نصف دزينة من القمصان لكل منهما من متجر في مالطا كان الشقاقي قد زاره من قبل .

وتتذكّر فتحيّة الشقاقي تلك المرحلة : "كان زوجي مقتنعاً بأنه لو كان الإسرائيليون يخطّطون للتعرّض له لكانوا فعلوا قبل ذلك . فاليهود يردّون بسرعة على أي حادث . لكن زوجي كان متأكداً جداً بأنهم في حالته لن يفعلوا ما يغضب سورية" .

حتى قبل ثلاثة أشهر من ذلك كان الشقاقي مصيباً في حكمه على مزاج الحكومة الإسرائيلية . ففي أوائل صيف 1995 رفض رابين خطةً وضعها الموساد لشن هجوم بالقنابل الحارقة على شقة الشقاقي في ضاحية دمشق الغربية . كان أوري ساغي وقتها رئيساً للاستخبارات العسكرية والقائد الأعلى الفعلي للاستخبارات الإسرائيلية وذا سلطان حتى على الموساد . وقد أبلغ رابين أنه استبَين "تغيّراً في دمشق . فلا يزال الأسد عدوّنا صراحة . لكن الطريقة الوحيدة للتغلّب عليه هي أن نفعل ما هو غير مألوف ، أي أن نتخلّى عن مرتفعات الجولان كلياً ، ونخرج جميع جماعتنا من هناك حتى آخر فرد منهم . إنه ثمن باهظ . ولكنه السبيل الوحيد إلى سلام دائم ولائق" .

أصغى رابين إليه وهو يعلم كم كلّف الاستيلاء على مرتفعات الجولان أوري ساغي شخصياً . فقد أمضى معظم حياته العسكرية وهو يدافع عن جغرافيتها الوعرة . وقد أصيب أربع مرات في أثناء ذلك . ومع ذلك كان مستعداً لنسيان ذلك من أجل تحقيق السلام الحقيقي لإسرائيل .

أجّل رئيس الوزراء تنفيذ خطط الموساد لقتل الشقاقي بينما تابع ساغي استكشاف حقيقة آماله . كانت هذه الآمال قد ذبلت في حرارة الصيف فأمر رابين ، الذي كان قد حصل على جائزة "نوبل" للسلام ، باغتيال الشقاقي .

في آخر عملية كبرى وقعت أثناء ولايته أمر شبطاي شافيت ، رئيس الموساد ، "عميلاً أسود" في دمشق باستئناف المراقبة الإلكترونية لشقة الشقاقي . كان الجهاز الأميركي الذي يستخدمه العميل متطوراً إلى حد مكّنه من إبطال عمل قاطع الرادارات الدفاعية في نظام الاتصالات الروسي الصنع في شقة الشقاقي .

أرسلت تفاصيل زيارة الشقاقي العتيدة إلى ليبيا ومالطا إلى تل أبيب .

في تلك الليلة من ليالي تشرين الأول (أكتوبر) 1995 اخترق رؤساء أقوى ثلاثة أجهزة استخبارات في إسرائيل الجموع السائرة في شارع بينسكر في طريقهم إلى الاجتماع . كان كل منهم يؤيد الشروط المتعلقة بإعدام عدو لدود لإسرائيل ، وهي الشروط التي حددها مئير عميت بوضوح عندما كان مديراً عاماً للموساد :

"لا اغتيال للزعماء السياسيين فهؤلاء يعاملون سياسياً . ولا اغتيال لعائلة العدو المسلّح . ولكن إذا تدخلت عائلته في الأمر فليست مشكلتنا . كل عملية اغتيال لا بدّ أن تنال موافقة رئيس الوزراء . وكل أمر لا بد أن يجري وفقاً للقواعد المتّبعة . ومحاضر الاجتماع الذي يتّخذ فيه القرار تُحفظ . ويحافظ على نظافة وترتيب كل شيء . يجب ألا تبدو أعمالنا وكأنها عمل إجرامي ترعاه الدولة بل العقوبة القضائية القصوى التي يمكن أن تنزلها الدولة . فنحن لا نختلف عن الشانق أو أي جلاد عُيّن بموجب القانون" .

كان أول الواصلين شبطاي شافيت الذي كان زملاؤه يقسون عليه فيقولون أن تصرفاته تشبه تصرّفات موظف استقبال في أحد فنادق تل أبيب . فهو مثله يرتدي ملابس مكويّة مغبّاية ومثله يصافح زوّاره بيد لا تطيل المكوث . كان قد أمضى في منصبه ثلاث سنوات وكان يوحي بأنه لا يعرف كم سيبقى فيه .

بعده وصل العميد دوران تامير ، كبير ضباط الاستخبارات في الجيش الإسرائيلي ، وهو شاب رشيق في مقتبل العمر ، وكان مظهره يوحي النفوذ الباعث على الثقة الذي اكتسبه من سنوات طويلة في القيادة .

أخيراً وصل أوري ساغي وهو يختال في مشيته كإله محارب في طريقه إلى نجومية أكثر سطوعاً من موقعه كمدير للاستخبارات العسكرية "أمان" . كان يصرّ على أن سورية مستعدّة للتفاوض السلمي على رغم نوبة غضبها المتجدّدة ، وكانت وجهة نظره هذه التي يعرضها بصوته الرقيق وتواضعه تثير الجدال بين نظرائه .

كانت العلاقة بين الرجال الثلاثة "ودّية بحذر" على حد تعبير شافيت .

قال أوري ساغي "إننا لا نستطيع أن نتبارى في ما بيننا . وكرئيس لـ"أمان" كنت أعهد بالمهام للرجلين الآخرين . كنا نتنافس في ما بيننا ، ولكن طالما كنا نعمل للهدف ذاته فلا بأس" .

وعلى مدى ساعتين جلس الثلاثة حول طاولة غرفة الجلوس وراجعوا خطة اغتيال فتحي الشقاقي . كان إعدامه سيكون عملاً انتقامياً بحتاً وفق مبدأ "العين بالعين" التوراتي الذي يزعم الإسرائيليون إنه يسوّغ مثل عمليات الاغتيال هذه . لكن الموساد كان أحياناً يقتل شخصاً لمجرد إصراره على رفض وضع مهاراته في خدمة مطامح إسرائيل . وحتى لا تعمل هذه المواهب في خدمة العدو كانوا يصفّون الرجل بلا رحمة .

كان الدكتور جيرالد بول عالماً كندياً وأعظم خبراء العالم في البالستيات المدفعية . وقد منيت إسرائيل بالفشل غير مرّة وهي تسعى لشراء خبرته . فكان بول كل مرة يظهر كرهه للدولة اليهودية .

وكبديل ، عرض بول خدماته على صدام حسين لصنع مدفع عملاق قادر على إطلاق قذائف تحمل رؤوساً نووية وكيماوية وبيولوجية من العراق تصيب إسرائيل . كان طول ماسورة المدفع العملاق يبلغ 487 قدماً وهي مصنوعة من 32 طناً من الفولاذ تقدمها الشركات البريطانية إلى العراق . في أواخر عام 1989 جرى اختبار نموذج أوّلي فأطلق النار من مدى رماية مدفعية على الموصل في شمال العراق . وطلب صدام حسين أن يبنى ثلاثة من هذه المدافع بكلفة 20 مليون دولار . وأُعطي بول وظيفة ثابتة كمستشار مقابل مليون دولار أميركي . وأطلق على المشروع اسم رمزي : "بابل" .

كانت شركة بول "سبايس ريسرتش كوربوريشن" (أس . آر . سي .) مسجلة في بروكسل كشركة لتصميم الأسلحة . ومن بروكسل كانت الشركة ترسل مشتروات مفصلة إلى الشركات المصنّعة الأوروبية ، ومنها عشرون شركة بريطانية ، لتزويدها بالمدخلات ذات التقنيّة العالية .

وفي 17 شباط (فبراير) 1995 حصل ضابط استخبارات في بروكسل على نسخ من الوثائق تعيّن الأهداف التقنية لمشروع "بابل" وهي إنتاج مدفع عملاق يطلق صواريخ بالستية متوسّطة المدى . وكان قلب نظام الإطلاق في السلاح رزمة من ثمانية صواريخ من طراز "سكود" تمنح الرؤوس الحربية مدىً يصل إلى 1500 ميل . وبذلك تصبح إسرائيل وكذلك عدة مدن أوروبية في مدى إطلاق الصاروخ . وكان بول يعتقد بإمكان إنتاج مدفع عملاق قادر على إصابة لندن من بغداد وبدقة .

طلب ناحوم أدموني المدير العام للموساد لقاء عاجلاً برئيس الوزراء اسحق شامير . كان شامير زعيماً إرهابياً سابقاً حارب البريطانيين بقوة خلال الأسابيع الأخيرة من عمر الانتداب في فلسطين . وكان الموساد يحب مثل هذا النوع من الزعماء السياسيين الذين يؤيدون تأييداً تاماً تدمير أعداء إسرائيل عندما لا يكون بدّ من ذلك . خلال الستينات عندما كان علماء الصواريخ الألمان يعملون في مصر لتزويدها بأسلحة ذات مدى طويل قادرة على ضرب إسرائيل عبر صحراء سيناء ، استعان الموساد بخبرة شامير في التحضير لعمليات الاغتيال . كان اختصاصه خلال حكم الانتداب البريطاني إيجاد السبل للقضاء على الجنود البريطانيين . كان شامير قد أرسل عناصر من منظمته الإرهابية السرية لقتل العلماء الألمان ، وقد اصبح بعض هؤلاء السفاحين في ما بعد الأعضاء المؤسسين لوحدة الاغتيال في الموساد .

لم يستغرق درس شامير لملف بول في الموساد وقتاً طويلاً . كان الجهاز قد قام بعمله بدقة ، فتابع سيرة بول منذ نال درجة الدكتوراه في الفيزياء وهو في سن الثانية والعشرين ، بعدها عمل في مؤسسة تطوير الأبحاث والأسلحة التابعة للحكومة الكندية . وهناك اصطدم برؤسائه ، الأمر الذي زرع بذور عدائه الأبدي للبيروقراطيين . بعدها أنشأ شركته الاستشارية الخاصة ، وأصبح ما أسماه الملف ببعض السخرية "بندقية للإيجار" .

تكرّست شهرته كمخترع سلاح عام 1976 عندما صمّم مدفع "هويتزر" عيار 45 .

يستطيع أن يصيب أهدافاً على مسافة خمسة وعشرين ميلاً . وقتها كان السلاح المماثل الذي تملكه قوات حلف الأطلسي (الناتو) ذا مدى يصل إلى سبعة عشر ميلاً فقط . ولكن بول لم يلبث أن اصطدم بالسياسات الحكومية ، فمُنعت الدول الأعضاء في حلف "الناتو" من شراء المدفع الجديد بسبب نفوذ مجموعات اللوبي القوية العاملة لمصلحة كبار منتجي السلاح الأوروبيين . واضطر بول إلى بيع المدفع إلى جنوب أفريقيا .

بعدها انتقل بول إلى الصين حيث ساعد جيش التحرير الشعبي هناك على تطوير قدراته الصاروخية ، فقوّى صواريخ "سيلك ورم" التي لدى الصين بتطويل مداها وزيادة حمولتها من المتفجرات . بعدها عمدت الصين إلى بيع كميات من هذه الصواريخ إلى العراق . وقد استخدمت بغداد هذه الصواريخ أثناء حربها الطويلة ضد إيران ، لكنها احتفظت بكميات من منصاتها تكفي لإثارة قلق الموساد من أنها ستطلق لاحقاً على إسرائيل .

في هذه الأثناء ، كان مشروع "بابل" يتقدّم بنجاح ، فقد جرى اختبار نموذج أولي أكثر تطوراً . وأفاد معارضون للنظام العراقي جنّدتهم إسرائيل كمخبرين في العراق أن رؤوس الصواريخ تعدّ لحمل أسلحة كيماوية وبيولوجية . وبعد ظهر يوم 20 آذار (مارس) 1990 أثناء اجتماع عقده ناحوم أدموني مع رئيس الوزراء اسحق شامير في مكتبه ، وافق هذا على اغتيال بول .

وبعد يومين وصل فريق الاغتيال المؤلف من شخصين إلى بروكسل حيث كان بانتظارهم ضابط استخبارات إسرائيلي مقيم كان يرصد نشاطات بول عن قرب . وعند الساعة 6:45 مساء 22 آذار (مارس) 1990 وصل الرجال الثلاثة في سيارة مستأجرة إلى المبنى الذي تقع شقة بول فيه ، وكان كلّ من عضوي فريق الاغتيال يحمل مسدساً في قراب جلدي خبّأه تحت سترته .

بعد عشرين دقيقة كان بول البالغ من العمر 61 عاماً يفتح باب شقته الفاخرة لقارعيه . فأطلقوا عليه خمس طلقات أصابته في رأسه ورقبته وتركوه قتيلاً عند عتبة الباب . وأكد ابنه مايكل في ما بعد أن والده تلقّى تحذيراً بأن الموساد سيقتله ، لكنه لم يقل ممّن تلقّى التحذير ولماذا تجاهله والده .

حالما عاد فريق الاغتيال من مهمته بدأ قسم الحرب السيكولوجية في الموساد يغذّي وسائل الإعلام بروايات ملفقة تدّعي أن جيرالد قُتل لأنه كان يعتزم التراجع عن اتفاق عقده مع العراق . بعد خمس سنوات من اغتيال بول ، عاودت إسرائيل استخدام الأساليب نفسها

ضد "إرهابي" آخر مثل بول بنظر إسرائيل هو فتحي الشقاقي ، لكن هذه المرة بأمر مباشر من رئيس وزراء آخر هو اسحق رابين .

في 24 تشرين الأول (أكتوبر) 1995 غادر شابّان في أواخر العشرينات من عمرهما اسماهما الرمزيان جيل وران من تل أبيب في رحلتين منفصلتين ، فطار ران إلى أثينا وجيل إلى روما . وعلى المطار سُلّم كلّ منهما جواز سفر بريطانياً حمله متطوّع محلي . ووصل الإسرائيليان إلى مالطا في وقت متأخر من الليل ونزلا في فندق "دبلومات" المطل على مرفأ فاليتا العاصمة .

مساء ذلك اليوم تلقّى ران درّاجة نارية قال لموظفي الفندق إنه سيستخدمها في التجوّل في الجزيرة .

ولا يذكر أي من موظفي الفندق أن جيل وران أجريا أي اتصال ، بل انهما أمضيا معظم الوقت في غرفتيهما . وعندما قال أحد الحمالين أن حقيبة جيل ثقيلة غمزه جيل وقال إنها مليئة بسبائك الذهب .

في تلك الليلة اتصلت سفينة شحن كانت قد أبحرت من ميناء حيفا في اليوم السابق متجهة إلى إيطاليا باللاسلكي بسلطات ميناء مالطا لتبلّغها عن حدوث عطل في محرّكها وأنها ستضطر بينما يجري إصلاح العطل إلى اتخاذ اتجاه معيّن قرب الجزيرة . كان على متن السفينة شبطاي شافيت وفريق صغير من تقنيي الاتصالات في الموساد . وقد أقاموا اتصالاً باللاسلكي مع جيل الذي كان ينقل في حقيبته جهازاً صغيراً لكنه قويّ .

كان قفلا الحقيبة مصممين بطريقة تحدث انفجاراً في شحنتين داخل غطاء الحقيبة إذا فتح القفلان باتجاه اليسار بدلاً من اتجاه اليمين . وكان هوائي اللاسلكي وطوله ربع ميل من السلك ذي الألياف البصرية ملفوفاً بإحكام بشكل اسطوانة قطرها ست بوصات متصلة بأربعة هوائيات ثنائية الاستقطاب ثبتت داخل زاوية الحقيبة . تلقّى جيل خلال الليل عدداً من الرسائل اللاسلكية مصدرها السفينة .

كان فتحي الشقاقي قد وصل في اليوم السابق على طوافة تعمل بين طرابلس وفاليتا وبرفقته عدد من رجال الأمن الليبيين ظلوا على متن الطوافة . فقد انتهت مهمتهم مع بلوغ الشقاقي الشاطئ . كان الشقاقي حليقاً وقدّم نفسه إلى مسؤول قسم الجوازات المالطيين باسم إبراهيم درويش وهو اسمه على جواز سفره الليبي . بعدما سجّل اسمه في فندق "دبلومات"

أمضى عدة ساعات في المقاهي المطلة على البحر يحتسي القهوة ويتذوّق الحلويات العربية . كما أجرى عدداً من الاتصالات الهاتفية .

وفي صباح اليوم التالي كان الشقاقي عائداً وهو يحمل القمصان التي وعد بها ولديه . وفيما هو يسير بمحاذاة البحر سار رجلان يمتطيان دراجة نارية على مهل بجانبه وأطلق أحدهما النار على رأس زعيم حركة الجهاد من مسافة قريبة فأرداه قتيلاً . واُختفى الرجلان ولم يعثر على أي منهما . ولكن بعد ساعة كان زورق صيد يبحر من ميناء فاليتا ويلقي مرساة إلى جانب سفينة الشحن . ولم يلبث ربّان السفينة أن أبلغ سلطات الميناء أن العطل في المحرك قد أصلح موقتاً ، وأن السفينة ستعود إلى حيفا لمزيد من أعمال الصيانة .

في إيران أعلن يوم حداد وطني على الشقاقي . أما في تل أبيب ، فعندما سئل رئيس الوزراء اسحق رابين التعليق على الاغتيال قال "إنني لست حزيناً بالطبع" .

بعد أيام قليلة ، في 4 تشرين الثاني (نوفمبر) 1995 قُتل رابين في مهرجان للسلام أقيم في تل أبيب على مقربة من البيت السريّ الذي فيه جرى الإعداد لتنفيذ أمره باغتيال الشقاقي . كان مقتله على يد متعصّب يهودي يدعى يغال عمير الذي كان يتحلّى بصفات القسوة نفسها التي أثارت إعجاب رئيس الوزراء بالموساد .

كان اسحق رابين صقراً تحوّل إلى حمامة ، وكان الزعيم السياسي القوي الذي آمن بأن الفرصة الوحيدة للسلام في الشرق الأوسط هي ، كما نقل مرة خطأ عن التوراة ، "إن نحوّل سيوفنا إلى محاريث ونحرث الأرض مع جيراننا العرب" . وقد قتله أحد أفراد جماعته لأنه لم يقدّر أن أعداءه اليهود سيظهرون التصميم والشراسة نفسها – كما فعل أعداؤه العرب من قبل – في تدمير رؤيته المستقبلية .

عام 1998 كانت وحدة الاغتيال في الموساد تضم ثمانية وأربعين عضواً ستة منهم من النسوة . وكانوا جميعاً في العشرينات من عمرهم ويتمتعون بلياقة بدنية عالية . كانت إقامتهم وعملهم خارج مقر الموساد في تل أبيب في منطقة محظورة داخل قاعدة عسكرية في صحراء النقب . وكان بإمكانهم إحداث تغييرات في تلك المنشأة لتصبح صورة عن الشارع أو العمارة التي سينفذون فيها عملية الاغتيال . وكانت بتصرفهم سيارات للفرار ، كما كانت توضع عقبات في طريقهم .

والمدربون أعضاء سابقون في الوحدة وهم يشرفون على التدريب على استخدام أنواع

مختلفة من المسدسات ، ويعلّمون أعضاء الوحدة كيف يخفون القنابل ويحقنون أحداً بحقنة سامة وسط الزحام ويجعلون عملية القتل تبدو عرضية . كان أعضاء المجموعة يشاهدون أفلاماً لعمليات اغتيال ناجحة ، مثل اغتيال الرئيس جون ف . كينيدي مثلاً . وكانوا يدرسون وجوه وعادات عشرات الأهداف المحتملة المخزونة في حاسوبهم البالغ السريّة ، ويحفظون عن ظهر قلب خرائط شوارع المدن الرئيسية المتغيّرة باستمرار بالإضافة إلى تصاميم الموانئ الجوية والبحرية .

وتعمل الوحدة في فرق يتألّف كل منها من أربعة أشخاص يسافرون بصورة منتظمة في رحلات للتآلف إلى لندن وباريس وفرانكفورت ومدن أوروبية أخرى . كما يقوم هؤلاء من حين إلى آخر برحلات إلى نيويورك ولوس أنجيلوس وتورنتو . وخلال هذه الأسفار الخارجية كان يرافق الفريق مدربون يقيّمون مهارات أعضائه في التخطيط لإحدى العمليات من دون لفت الأنظار إلى ما يفعلونه . وكانت الأهداف المختارة من المتطوّعين المحليين الذين كانوا يُخطرون فقط بأنهم يشاركون في تمرين أمني يهدف إلى حماية منشأة تملكها إسرائيل . وكان المتطوّعون يجدون أنفسهم هدفاً لهجوم باغت في شارع هادئ ومحشورين داخل سيارة ، أو كانوا يُهَاجَمون في بيوتهم في منتصف الليل فيستيقظون ليجدوا أنفسهم في مواجهة السلاح .

كان أعضاء وحدة الاغتيال يتدرّبون بجدية فائقة ، لأن كل فريق كان على علم بما يعرف باسم "فشل ليليهامر الذريع" .

في تموز (يوليو) 1973 ، تلقّت الموساد إخبارية بأن "الأمير الأحمر" علي حسن سلامة ، أحد قادة المقاومة الفلسطينية ، كان يعمل نادلاً في مدينة ليليهامر النرويجية .

كان أعضاء وحدة الاغتيال مبعثرون في أنحاء العالم في مهام مختلفة ، فعمد مدير العمليات في الموساد آنئذ مايكل هراري إلى تشكيل فريق من خارج الوحدة لا يتمتع بخبرة ميدانية . لكن هراري كان واثقاً من أن تجربته هو كضابط استخبارات في أوروبا كانت كافية . كان الفريق يضم امرأتين هما سيلفيا رافائيل وماريان غلادينكوف وجزائري يدعى كمال بنعاي كان يعمل ساعياً لدى منظمة أيلول الأسود قبل أن يحوّله هراري بالإرهاب إلى عميل مزدوج .

ومنذ البداية واجهت العملية كارثة . فوصول دزينة من الغرباء إلى ليليهامر ، التي لم تشهد جريمة قتل منذ أربعين عاماً ، أثار التساؤلات والتكهنات . وبدأت الشرطة المحلية تراقبهم ، وكانت بالقرب من مكان الحادث عندما قتل هراري وفريقه نادلاً مغربياً يدعى

أحمد بوشيكي لا علاقة له بمنظمة التحرير ولم يكن حتى شبيهاً لسلامة . وتمكّن هراري وستة من أعضاء فريقه من الهرب ، لكن ستة عملاء للموساد ، بينهم المرأتان ، اعتقلوا .

وقد أدلوا باعترافات كاملة وكشفوا للمرة الأولى عن أساليب الموساد في الاغتيال وغيرها من التفاصيل المربكة عن النشاطات السرية للجهاز .

ووجهت للمرأتين وزملائهما من الذكور تهمة القتل من الدرجة الثانية ، وحُكِم على كل منهم بالسجن خمس سنوات .

لدى عودته إلى إسرائيل طُرد هراري من منصبه وأخلت الموساد شبكتها السرية في أوروبا بما فيها البيوت السريّة وصناديق الرسائل الميتة وأرقام الهاتف السرية .

بعد ست سنوات على العملية الفاشلة تمكّن الموساد من الإيقاع بعلي حسن سلامة في عملية دبّرها رافي إيتان الذي قال إن "الليليهامر مثال للناس غير المناسبين في العمل غير المناسب . كان يجب ألاّ تحدث ويجب ألاّ تحدث مرة أخرى" .

لكنها حدثت مرة أخرى .

في 31 تموز (يوليو) 1996 ثاني يوم مقتل 15 إسرائيلياً وجرح 157 آخرين في عملية انتحارية دبّرتها حركة "حماس" في سوق في القدس ، حضر رئيس الموساد داني ياتوم اجتماعاً برئاسة رئيس الوزراء بنيامين نتنياهو . كان هذا قد عاد لتوه من مؤتمر صحافي مشحون بالعاطفة تعهّد فيه بألاّ يهدأ حتى يقتصّ من مدبري العمليات الانتحارية .

كان نتنياهو يبدو للعيان هادئاً وموطّد العزم ، وكانت ردوده على الأسئلة مدروسة ورزينة . كان يقول أن حركة "حماس" لن تنجو من العقاب ، ولكن شكل هذا العقاب ليس موضوعاً للنقاش العلني . كان هذا هو "بيبي" الذي ظهر على شاشة قناة "سي .أن .أن ." التلفزيونية الفضائية خلال حرب الخليج ، وأدلى بتقديرات محكمة عن ردود فعل الحكومة العراقية وكيف تنظر إسرائيل إليها .

لكن نتنياهو ، في غياب الكاميرات وبحضور ياتوم وكبار ضباط الاستخبارات الآخرين ومستشاريه السياسيين ، كان في ذلك اليوم الخانق شخصاً آخر . لم يكن هادئاً ولا محلّلاً . بل إنه كان في غرفة المؤتمرات الحاشدة المجاورة لمكتبه كثيراً ما قاطع المتحدثين ليصيح بأنه "سيقتصّ من لقطاء "حماس" حتى ولو كان آخر عمل يقوم به" .

وينقل عنه أحد المخبرين قوله "جئت بكم لتقولوا لي كيف أفعل ذلك . ولا أريد أن أقرأ في الصحف شيئاً عن انتقام (بيبي) فهذا أمر يتعلق بالعدالة - عقاب عادل" .

لقد اتخذ القرار .

كان ياتوم معتاداً على نوبات المزاج الزئبقي التي تنتاب رئيس الوزراء ، فجلس قبالته على الطاولة صامتاً بينما استمرّ نتنياهو بالوعيد "أريد رؤوسهم . أريد موتهم . لا يهمني كيف يحصل ذلك ، فقط ليحصل! وأريد ذلك عاجلاً وليس آجلاً" .

اشتدّ التوتر عندما طلب نتنياهو من ياتوم أن يزوّده قائمةً بجميع زعماء حركة "حماس" وأماكن وجودهم الراهنة . لم يسبق لأي رئيس وزراء أن طلب تفاصيل عملانية حسّاسة في مثل هذه المرحلة المبكّرة . وظنّ غير واحد من الحضور أن "بيبي يريد إفهامنا إنه سيتولّى الإشراف على هذه العملية بنفسه" .

وتعمّق لدى بعض ضباط الموساد الشعور المربك بأن نتنياهو يقرّب الجهاز منه أكثر مما يُحتمل . وربما لشعور ياتوم بذلك أبلغ رئيس الوزراء أنه سيزوّده بالقائمة في ما بعد . وقدم رئيس الموساد بديلاً قائلاً "إن الوقت قد حان لبحث الجانب العملي للأمور" . فالعثور على أماكن إقامة زعماء "حماس" أمر دونه صعوبات .

ومرة أخرى انفجر نتنياهو بالصياح . فهو لا يريد الأعذار بل يريد أعمالاً . وهو يريد أن يبدأ العمل "هنا الآن" .

بعدما انفض الاجتماع كان لدى عدد من ضباط الاستخبارات انطباعٌ بأن بيبي نتنياهو تجاوز الخط الدقيق الفاصل بين الضرورة السياسية والشروط العملانية . لم يكن في الغرفة أحدٌ لم يفهم أن نتنياهو كان بحاجة ماسّة إلى ضربة موفّقة للاستهلاك المحلي لإقناع الجمهور بأن سياسة التصدّي الحازم لأعمال المقاومة الفلسطينية التي أوصلته إلى السلطة لم تكن كلاماً فارغاً . كذلك فقد خرج من فضيحة إلى أخرى ، وكان كلّ مرة ينقذ نفسه بإلقاء اللوم على الآخرين . كانت شعبيته عند أدنى مستوياتها ، وحياته الشخصية مادة الصحافة . وكان في أمسّ الحاجة إلى الظهور بمظهر الحاكم الفعلي ، وكان الإتيان برأس أحد قادة "حماس" وصفة موثوقة .

ولعل ضابط الاستخبارات الكبير الذي علّق على ما جرى كان يتحدث باسم الآخرين إذ قال "كنا متفقين على عدم الاعتراض على مبدأ قتل الحيّة بقطع رأسها ، ولكن ما أقلقنا

هو إطار الوقت . كل كلام بيبي عن "العمل الآن" كان هراءً . فأي عملية لها هذه الطبيعة تتطلب التخطيط المتأني . كان بيبي يريد نتائج سريعة كما لو أن اللعبة لعبة حاسوب أو كما لو أن واحدنا مثل أبطال أفلام الأعمال المثيرة القديمة التي يحب مشاهدتها . لكن مثل هذه الأمور لا تحدث في العالم الحقيقي" .

أمر ياتوم بإجراء عملية تفتيش واسعة في كل قرية عربية ، وأرسل ضباط استخبارات إلى غزة والضفة الغربية لجمع مزيد من المعلومات عن أماكن وجود قادة "حماس السريين" . وقد استدعاه رئيس الوزراء إلى مكتبه مرات عدة خلال شهر آب (أغسطس) 1997 ليسمع تقريره عن مدى التقدّم الذي حقّقه . لم يحقّق شيئاً . وتعجّ أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية بروايات عن طلب رئيس الوزراء من ياتوم أن يرسل أعداداً أخرى من الرجال في إطار العملية ، وكيف إنه ألمح إلى أنه ما لم يرَ نتائج ملموسة قريباً جداً فقد يلجأ إلى "إجراءات أخرى" . وسواء أراد نتنياهو أن يكون كلامه تهديداً أخرق لرئيس الموساد أم لا ، فإن ذلك لم يفلح . فقد ردّ ياتوم بالقول إنه "يفعل كلّ ما هو ممكن" . كان مغزى الكلام أنه إذا أراد رئيس الوزراء أن يطرده من منصبه فهذا بعض صلاحياته ، ولكن الجدال العلني الذي سيعقب ذلك لا محالة سيطرح أسئلة تتناول دور نتنياهو نفسه . لكن رئيس الوزراء استمر بطلب موت أحد قادة "حماس" وكان يريد ذلك بأسرع وقت .

بحلول أيلول (سبتمبر) 1997 كان نتنياهو قد بدأ يتصل بياتوم خلال كل ساعات الليل ليسأل عن سير الأمور . وأذعن رئيس الموساد للضغوط ، فاستدعى ضباطاً من مواقع أخرى . ويقول أحدهم إن ياتوم "كان يعيد رسم الخريطة كردّ فعل انعكاسي على إلحاح بيبي . وياتوم رجل صلب . ولكن حين يتعلق الأمر بالدفع والجذب فهو ليس نداً لبيبي الذي كان قد بدأ يتحدّث عن السرعة الفائقة التي بها وضع أخوه الخطة للإغارة على عنتيبي . لم يكن لهذه المقارنة أي معنى . ولكن هذه هي طريقة بيبي دائماً : استخدام أي شيء لإنفاذ إرادته" .

في 9 أيلول (سبتمبر) وصلت إسرائيل أنباءٌ تفيد أن "حماس" نفذت عملية جديدة أدّت هذه المرة إلى إلحاق إصابات بالغة بحارسين إسرائيليين للملحق الثقافي في سفارة إسرائيل المفتتحة حديثاً في العاصمة الأردنية عمّان .

بعد ثلاثة أيام وقبيل بدء العطلة الرسمية الأسبوعية طلب نتنياهو من ياتوم أن يأتي لتناول الغداء معه في منزله في القدس .

تناول الرجلان وجبة من الحساء والسلطة والسمك وتجرّعا بعض الجعة والمياه المعدنية، وعلى الفور أثار رئيس الوزراء موضوع عملية عمّان. كيف تمكن مسلحو حماس أن يصلوا إلى هذا القرب ويطلقوا النار؟ لماذا لم يصل الإنذار المبكر؟ ماذا سيفعل فرع الموساد في عمّان في هذا الشأن؟

قاطع ياتوم نتنياهو وهو في عزّ اندفاعه: هناك زعيم لـ"حماس" في عمّان، اسمه خالد المشعل يدير المكتب السياسي للحركة من مكتب في المدينة. أمضى الأسابيع الأخيرة وهو مسافرٌ في مختلف البلدان العربية، لكن الموساد في عمّان أفاد إنه عاد إليها.

فأجاب نتنياهو كمن مسّ بتيار كهربائي: "إذاً اذهبوا إليه واصرعوه! هذا ما يجب أن تفعلوه. اصرعوه! أرسلوا جهازكم في عمّان ليتولّى ذلك".

كان رئيس الموساد تحت وطأة ضغط لا يرحم مارسه حوالي ستة أسابيع رئيس وزراء أظهر يوماً بعد يوم أنه لا يحيط بالحساسية السياسية لأي عملية استخبارية. فراح يشرح لنتنياهو درساً واضحاً. وخلف نظارتيه ضاقت عيناه وهو يحذّر رئيس الوزراء من أن شن هجوم في عمّان سيدمّر العلاقة مع الأردن التي أنشأها سلفه إسحق رابين. وقتل المشعل على التراب الأردني سيقوّض عمليات الموساد في بلد قدّم فيضاً متواصلاً من المعلومات السرّية عن سورية والعراق والمتطرفين الفلسطينيين. وكان ياتوم يرى أن من الأفضل انتظار خروج المشعل مرة أخرى من عمّان ثم قتله.

ويُروى أن نتنياهو صاح: "أعذار. لا اسمع منك إلا الأعذار. إنني أريد عملاً. وأريد ذلك الآن. الناس تريد عملاً. قريباً يحلّ عيد رأس السنة (اليهودية). وهذه ستكون هديتي لهم".

منذ تلك اللحظة صارت كل خطوة يتّخذها ياتوم بحاجة إلى موافقة شخصيّة من نتنياهو. لم يسبق لأي رئيس وزراء إسرائيلي أن أظهر هذا الاهتمام الشخصي الكبير بعمل إجرامي ترعاه الدولة.

كان خالد المشعل في الحادية والأربعين من عمره. وكان شاباً ملتحياً وقويّ البنية. كان يقيم إلى جوار قصر الملك حسين وكان معروفاً بتعلّقه بزوجته وأطفاله السبعة. كان مهذباً وعذب الحديث، وقد بقي شخصية محاطة ببعض الغموض في الحركة الإسلامية. لكن المعلومات المتجمعة على عجل لدى فرع الموساد في عمّان أفادت أن المشعل هو العقل المدبّر وراء الهجمات الانتحارية على المدنيين الإسرائيليين.

توافرت لدى الموساد تفاصيل عن تحركات المشعل بالإضافة إلى صورة فوتوغرافية له التقطها خلسةً رئيس فرع الموساد . أرفق هذا الأخير تقريره بمناشدة شخصية أن يسعى ياتوم مرة أخرى إلى إقناع نتنياهو بألا يمضي في خطة الاغتيال في عمّان . إن مثل هذا العمل الأرعن سيعرّض للخطر عملاً مهماً مضاداً للتجسس استغرق عامين تعاون فيه الأردن مع إسرائيل .

رفض نتنياهو المناشدة قائلاً إنها نذير فشل وهو أمر لا يطيقه .

في هذه الأثناء ، كان فريق اغتيال من ثمانية أشخاص يعدّون العدة : كان فريق من شخصين سيتولّى فعلياً عملية إطلاق النار في وضح النهار ، أما الآخرون فسيقدّمون المساندة بما في ذلك السيارات . وسينطلق الفريق بكامل أعضائه عائداً إلى إسرائيل عبر جسر اللنبي قرب القدس .

كان سلاح الجريمة الذي سيستخدمه الموساد غير مألوف . فهو ليس مسدساً بل قارورة معبّأة بغاز أعصاب . كانت تلك أول مرة يستعمل فريق اغتيال إسرائيلي طريقة القتل هذه التي كانت الاستخبارات السوفياتية "كي .جي .بي ." وغيرها من وكالات الاستخبارات في الكتلة السوفياتية قد طوّرتها إلى درجة الكمال . كان العلماء الروس اليهود الذين هاجروا إلى إسرائيل حديثاً قد تجنّدوا في خدمة الموساد لصنع تشكيلة من الغازات السامة المميتة ، بما في ذلك "طابون" و"سارين" و"سومان" وجميعها غازات أعصاب تحرّمها المعاهدات الدولية .

وقد صُمّمت هذه المواد لتتسبّب بالموت الفوري أو البطيء . وفي كل الحالات يفقد الضحية السيطرة على أعضائه الداخلية ويعاني ألماً مبرّحاً يتمنى معه الموت . اختار الموساد هذا الشكل من القتل للمشعل .

وفي 24 أيلول (سبتمبر) 1997 وصلت وحدة الاغتيال جواً إلى عمّان من أثينا وروما وباريس حيث أمضى أعضاؤها أياماً قبل بدء تحركهم . كان بعض الأعضاء يحمل وثائق سفر فرنسية وإيطالية ، وأُعطي القاتلان الفعليان جوازي سفر كنديين باسمي باري بيدس وشون كندال . وقد زعما لموظفي فندق "إنتركونتيننتال" في عمّان إنهما سائحان . أما أعضاء الوحدة الآخرون فقد باتوا ليلتهم في السفارة الإسرائيلية على مسافة قصيرة من الفندق .

وفي اليوم التالي التحق بيدس وكندال بالباقين . وتفحّص الرجلان من جديد القارورة ، سلاح الجريمة . وما كان أحد يعرف ما نوع غاز الأعصاب الذي تحتوي عليه . وتكهّن العملاء

بأنه قد يحدث كل الأعراض من الهلوسة إلى النوبة القلبية قبل إحداث الوفاة . وأطلعهم رئيس فرع الموساد على آخر تحرّكات المشعل .

كان مسؤول الموساد في لندن في أيلول (سبتمبر) 1978 عندما قُتل منشق بلغاري يدعى جورجي ماركوف بغاز للأعصاب . كان أحد المارة قد طعنه في فخذه بطرف مظلّة ، ومات ماركوف ميتة شديدة الإيلام تسبّب بها سمّ "الريسين" القاتل المصنوع من بذور نبتة زيت الخروع . كان من طعنه عميلاً في الاستخبارات السوفياتية ولم يُقبض عليه أبداً .

أحس بيدس وكندال بالتفاؤل بعد سماعهما هذه القصة ، وعادوا إلى فندقهم قبيل منتصف الليل . وطلب كل منهما طعام الفطور في غرفته وفيه قهوة وعصير برتقال ومعجنات دانمركية . وفي صباح اليوم التالي عند الساعة التاسعة وصل بيدس إلى بهو الفندق ووقّع على قسيمة ليتسلّم سيارة مستأجرة زرقاء اللون من طراز "تويوتا" . وبعد قليل وصلت سيارة ثانية خضراء اللون من طراز "هيونداي" كان كندال قد استأجرها . وقال كندال لموظفي الاستقبال إنه و"صديقه" عازمان على استكشاف جنوب البلاد .

عند الساعة العاشرة صباحاً كان المشعل في سيارة يقودها سائق شخصي متجهاً إلى مقر عمله . وفي المقعد الخلفي للسيارة كان ثلاثة من أطفاله ، صبيّ وبنتان . تبعه بيدس بسيارته المستأجرة بحذر . وكان باقي أعضاء الفريق في الطريق في سيارات أخرى .

حالما دخلوا منطقة الحدائق في المدينة ، أبلغ السائق المشعل بأن أحداً يتعقّبهم ، فاتصل المشعل هاتفياً من السيارة بدائرة الشرطة في عمّان ليبلغهم ماركة سيارة بيدس ورقم لوحتها .

عندما مرت سيارة الـ"تويوتا" لوّح أطفال المشعل بأيديهم لبيدس كما كانوا يفعلون لسائقي السيارات الآخرين ، فتجاهلهم عميل الموساد . بعدئذ خرجت سيارة كندال "الهيونداي" الخضراء من الصف أمام سائق المشعل ، واختفت السيارتان في الزحام .

بعد لحظات اتصل ضابط في دائرة شرطة عمّان بالمشعل ليقول أن السيارة يستأجرها سائح كندي . ارتاحت أعصاب المشعل وراح يراقب أطفاله من جديد وهم يلوّحون بأيديهم لسائقي السيارات وقد وضعوا وجوههم على زجاج النافذة . كل صباح كانوا يتناوبون على الذهاب مع والدهم إلى عمله قبل أن يوصلهم السائق إلى مدرستهم .

وقبيل الساعة العاشرة والنصف دخلت سيارة المشعل شارع وصفي التل حيث كان حشد من الناس يتجمعون عند مدخل مكتب "حماس" . وكان بينهم كندال وبيدس . لم

يثر وجودهم أي ارتياب ، فكثيراً ما كان السياح الفضوليين يأتون إلى المكتب ليستزيدوا معرفة بأطماح "حماس" .

قبّل المشعل أطفاله بسرعة قبل أن يغادر السيارة . خطا بيدس نحوه كما لو كان يريد مصافحته . وكان كندال فوق كتفه يتحسّس بارتباك كيساً بلاستيكياً .

سأل بيدس بلطف : "السيد المشعل" .

نظر إليه المشعل بارتياب . في تلك اللحظة أخرج كندال القارورة وحاول أن يرشّ ما فيها داخل أذن المشعل اليسرى .

تراجع زعيم "حماس" وتنبّه مذعوراً وراح يمسح شحمة أذنه .

وحاول كندال مرة أخرى أن يرشّ الغاز داخل أذن المشعل . كان الناس حوله قد بدأوا يستفيقون من دهشتهم فامتدت الأيدي تحاول الإمساك بالعميلين .

صاح بيدس بالعبرية : "أُهرب" .

ركض بيدس مسرعاً إلى سيارته المركونة على مسافة قصيرة وكندال وراءه . كان سائق المشعل قد رأى ما يجري فبدأ يتراجع بسيارته ليصدم سيارة "تويوتا" .

كان المشعل يترنح ويئن والناس يحاولون الإمساك به حتى لا يقع ، وكان آخرون يصيحون طالبين سيارة إسعاف .

تمكّن بيدس من تجنّب الاصطدام بسيارة المشعل وقاد سيارته بسرعة إلى أعلى الطريق ، بينما كندال إلى جانبه لا يزال يتشبث بالقارورة نصف الفارغة .

كانت سيارات أخرى تتعقّبه . وكان أحد السائقين يستخدم هاتفاً خلوياً ويدعو إلى إغلاق الطرق في المنطقة . كما كان سائق المشعل يتّصل بدائرة الشرطة من هاتف سيارته .

عند هذا الحد كانت عناصر المساندة في فريق الاغتيال قد وصلت . فتوقّف أحدهم ولوّح لبيدس أن يترك سيارته ويصعد معه . وما أن خرج رجلا الموساد من سيارة "تويوتا" حتى كانت عربة أخرى تقطع عليهما الطريق ، ويخرج منها عدد من الرجال المسلحين ، أرغموا بيدس وكندال على الاضطجاع أرضاً . بعد لحظات وصلت الشرطة . وإذ تأكد لباقي عناصر فريق الاغتيال أن الأمر أفلت من يدهم رحلوا بسياراتهم ، وتمكّنوا أخيراً من العودة إلى إسرائيل خلسةً .

كان حظ بيدس وكندال عاثراً ، فنقلا إلى مقر الشرطة في عمان وهناك أخرجا جوازي سفرهما الكنديين وظلاّ يصران على أنهما ضحيتان "لخطط رهيب" . لكن وصول قائد وحدة مكافحة الاستخبارات الأردني المرعب سميح البطيحي وضع حداً لادعائهما . قال لهما إنه يعرف من يكونان وإنه قد أنهى للتوّ مكالمة مع مدير فرع الموساد . ويقول البطيحي أن مسؤول الموساد في ما بعد "باح بكل شيء . وقال أن هذين من جماعته وأن إسرائيل ستعالج الأمر مباشرةً مع الملك" .

وأمر البطيحي باحتجاز عميلي الموساد في زنزانتين منفصلتين ، على ألاّ يلحق بهما أي أذى .

في هذه الأثناء ، أُدخل المشعل إلى وحدة العناية الفائقة في مستشفى عمّان الرئيسي . كان يشكو من "طنين" مستمر في أذنه اليسرى ، و"شعور بالرعشة كما لو أن صدمة كهربائية تسري في جسدي" ، وكان يجد صعوبة متزايدة عند التنفس . فوضعه الأطباء على جهاز للتنفس الصناعي .

بلغت أخبار فشل العملية ياتوم عبر اتصال هاتفي سرّي من رئيس فرع الموساد في السفارة الإسرائيلية في عمّان . ويقال أن الرجلين كانا "وراء حدود الغضب" إزاء الفشل .

وعندما وصل ياتوم إلى مكتب نتنياهو كان الأخير قد تلقّى مكالمة هاتفية من الملك حسين على الخط الأحمر الذي أقيم بين الزعيمين لمعالجة الأزمات . أحد ضباط الاستخبارات الإسرائيلية تحدّث عن جو المكالمة في ما بعد ، فقال "سأل حسين بيبي سؤالين . ماذا يظن أنه فعل؟ وهل عنده ترياق للسمّ في غاز الأعصاب؟" .

قال الملك إنه يشعر كما لو أن أعز أصدقائه قد اغتصب ابنته ، وإنه إذا كان نتنياهو يفكّر بإنكار المسؤولية فليعلم أن عميليه أدليا باعترافات كاملة على شريط فيديو هو الآن في طريقه إلى واشنطن لتشاهده وزيرة الخارجية الأميركية مادلين أولبرايت . جلس نتنياهو محنياً فوق الهاتف "كلصّ ضُبِط متلبّساً" .

وعرض نتنياهو أن يأتي جواً وعلى الفور إلى عمّان "لشرح الموقف" إلى الملك ، فنصحه حسين إلا يضيّع وقته . ويستعيد ضابط الاستخبارات بذاكرته ما جرى :

"كان جو المحادثة جليدياً . ولم يحتج بيبي عندما أبلغه حسين إنه يتوقع الآن أن تطلق إسرائيل سراح الشيخ أحمد ياسين (زعيم "حماس" الذي تعتقله إسرائيل منذ سنوات) ،

بالإضافة إلى عدد من السجناء الفلسطينيين . استغرقت المكالمة بضع دقائق فقط . ولعلّها كانت أسوأ لحظة في تاريخ بيبي السياسي" .

بعدئذ تسارعت الأحداث . وخلال ساعة أُرسل الترياق جواً إلى عمّان على متن طائرة عسكرية إسرائيلية وقُدّم لمعالجة المشعل ، فبدأ يتماثل للشفاء . وخلال أيام تحسّنت صحته ، وعقد مؤتمراً صحافياً استخفّ فيه بالموساد . وعقد رئيس فرع الموساد في عمّان وسميح البطيحي اجتماعاً قصيراً تحدّثا خلاله على الهاتف مع ياتوم الذي وعد بجدّية بألاّ ينفّذ الموساد أي حادثة اغتيال أخرى على أرض الأردن . وفي اليوم التالي أجرت مادلين أولبرايت مكالمتين هاتفيتين مع نتنياهو أوضحت فيهما رأيها بما جرى مستخدمة أحياناً عبارات بمثل قسوة عبارات الملك حسين .

وإذ علمت كندا كيف أسيء استخدام جوازات سفرها ، استدعت سفيرها في إسرائيل ، في خطوة تبعد مسافة قصيرة عن قطع العلاقات الدبلوماسية .

عندما بدأت التفاصيل تتّضح تناولت الصحافة الإسرائيلية والعالمية نتنياهو بالنقد الشديد الذي كان سيدفع بأي مسؤول آخر إلى تقديم استقالته .

وفي غضون أسبوع ، أُطلق سراح الشيخ ياسين فاستُقبل استقبال الأبطال في غزة . وعاد كندال وبيدس إلى إسرائيل من دون جوازي سفرهما - فقد سلما إلى السفارة الكندية في عمّان "ليحفظا" .

ولم يعد ضابطا الاستخبارات إلى وحدة الاغتيال ، فقد أحيلا إلى الأعمال المكتبية العامة في مقر الموساد . ووفقاً لأحد ضباط الاستخبارات الإسرائيلية فإن ذلك "قد يعني تكليفهما أمن مراحيض المبنى" .

أما ياتوم فقد أصبح رئيساً كسيحاً . وشعر كبار مساعديه إنه لم يتصدّ لنتنياهو . وهبطت المعنويات أكثر في صفوف الموساد . وسرّب مكتب رئيس الوزراء أنباءً بأن "رحيل ياتوم أصبح لا بد منه" .

حاول ياتوم أن يجتثّ ما شبهه أحد كبار ضباط الموساد بـ"موجة الوهن العارمة التي كنّا نغرق فيها" . اتخذ ياتوم ما أسماه "وقفة بروسيّة" ، فحاول أن يُخضع موظفيه ، فوقعت مجابهات غاضبة وتهديدات بالاستقالة .

وفي شباط (فبراير) 1998 كان ياتوم هو من استقال في محاولة لقطع الطريق على ما اعترف بأنه "شبه تمرّد" . ولم يبعث رئيس الوزراء نتنياهو إلى رئيس استخباراته المهزوم رسالة الشكر المعتادة على ما قدمه من خدمات .

استقال ياتوم من منصبه مع بدء ظهور التموّجات الأولى لحديث مثير يتعلّق باغتيال رئيس الوزراء اسحق رابين . كان كاتب تحقيقات صحافية إسرائيلي يدعى باري خميش قد جمع بصفة خاصة تقارير طبية وأخرى تتعلق بعلم القذائف بالإضافة إلى روايات شهود عيان بينهم حراس رابين الشخصيون وأرملته والأطباء والممرضون وعدد من العاملين في أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية ممن تحدث إليهم . ومعظم ما تجمّع لديه كان أدلّة قدّمت إلى جلسة سرّية للمحكمة .

وبحلول عام 1999 ، بدأ خميش على رغم المخاطرة التي يعرّض نفسه لها ، بنشر ما توصّل إليه من نتائج على شبكة الإنترنت ، وهي إعادة مخيفة لمسلسل الشكوك التي أثيرت حول قصة المسلح الوحيد في اغتيال جون كينيدي عام 1963 . والخلاصات المحكمة التي قدمها خميش آسرة مقنعة على أقل تقدير . وقد خلص إلى أن "نظرية المسلّح الوحيد التي قبلتها لجنة شمغار الحكومية الإسرائيلية في قضية اغتيال رابين هي لفلفة لما كان في البدء محاولة اغتيال غير ناجحة مدبرة لزيادة شعبية رابين المتراجعة لدى الناخبين . كان يغال عمير قد وافق على أن يقوم بوظيفة المسلّح الوحيد بتوجيه من رئيسه أو رؤسائه في أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية . أطلق عمير رصاصة فارغة . وأطلق طلقة واحدة فقط ، وليس ثلاثاً كما زُعم . إن الفحوص المخبرية التي أجرتها الشرطة الإسرائيلية على طلقة فارغة عُثِر عليها في مكان الحادث لا تتماثل مع نوع مسدس عمير . ولم يشاهد الدم يسيل من رابين . ثم هناك سرّ اختفاء سيارة رابين لمدة تتراوح بين ثماني دقائق واثنتي عشرة دقيقة في رحلة لا تستغرق سوى خمس وأربعين ثانية إلى المستشفى في طرقات خالية طوّقتها الشرطة بنطاق من أجل مهرجان السلام الذي كان رابين يشارك فيه" .

وأكثر مزاعم خميش إثارةً ، وهو زعم آخر لم ينقضه أي مسؤول إسرائيلي ، يفيد أنه "خلال تلك الرحلة الغريبة إلى المستشفى بقيادة سائق ذي خبرة طويلة أطلق الرصاص الحقيقي مرتين على رابين وهذه المرة من مسدس أحد حراسه الشخصيين يورام روبين . وقد اختفى مسدسه في المستشفى ولم يعثر عليه من بعد . أخرجت من جسد رئيس الوزراء

رصاصتان وقد اختفتا لمدة إحدى عشرة ساعة . وروبين انتحر في ما بعد" .

تحدّث خميش إلى ثلاثة جراحين ناضلوا في غرفة العمليات لانقاذ حياة رئيس الوزراء ، وناقش معهم شهادة ضبّاط الشرطة الذين كانوا حاضرين عندما أطلق عمير النار . وقد شهد الضباط جميعاً بأنهم لم يرَوْا جروحاً ظاهرة في جسم إسحق رابين عندما وضع في السيارة . كان الجراحون متأكدين من إنه عندما وصل رئيس الوزراء إلى المستشفى كانت هناك دلائل واضحة على إنه أصيب بجرح عميق في صدره وبأذى بالغ بعموده الفقري وعند أسفل الرقبة . وأصرّ الجراحون على إنه ليس هناك من جرح ناشئ عن إصابة بطلق ناري يمكن أن يسمح لرابين بمغادرة مكان الحادث من دون أن تظهر دلائل على الجرح ، ثم يصل إلى المستشفى وقد أصيب بأذى متعدد .

وخلصت لجنة شمغار إلى أنها لم تعثر على أي دليل يؤكّد حدوث مثل هذه الجروح . وبناء عليه رفض الأطباء مناقشة المسألة .

وبالإضافة إلى تحقيق خميش الخاص ، هناك شهادة مستقلة أدلى بها صاحبها تحت القسم تؤكد زعمه بأن "ما حدث عميق وتآمري" .

في جلسة الاتهام أبلغ عمير المحكمة قوله : "لو قلت الحقيقة سينهار النظام كلّه . إن ما أعرفه كفيلٌ بتدمير هذا البلد" .

وشهد عميل في جهاز "شين بيت" كان قريباً من عمير عندما أطلق النار على رابين "إنني سمعت رجل شرطة يصيح طالباً من الناس الهدوء . الطلقة فارغة" . أدلى بشهادته في جلسة سرية .

وقالت ليا رابين في الجلسة نفسها أن زوجها لم يترنح ولم يسقط بعدما أطلق عليه الرصاص من مسافة قريبة . قالت "كان واقفاً وكان يبدو في صحّة تامة" . كما أصرّت أيضاً على القول إنها مُنعت من رؤية زوجها لمدة ساعة كاملة بعدما وصلت إلى المستشفى . وينقل خميش عنها أن ضابط استخبارات رفيع المستوى قال لها أنها يجب "ألاّ تقلق لأن القصّة كلّها تمثيلية" .

وقد رفضت أرملة رئيس الوزراء بإصرار أن تدلي بأي تصريح علني حول هذا الأمر أو أي جانب من جوانب اغتيال زوجها .

ويعتقد خميش أنها، كحال الممرضين السبعة عشر الذين كانوا في المستشفى عندما جيء برابين في ذلك اليوم، قد أُسكتت بعامل الخوف. "كانت الخطة شريرة وذكية. لقد أقنعوا رابين بأن يدع أحداً يطلق عليه النار لمساعدته على استعادة شعبيته. ولهذا لم يرتد سترتَه الواقية من الرصاص. واختاروا عمير بعناية ليجعلوا منه نجماً. كان مغفّلاً لها بهَ رئيسه أو رؤساؤه. ما لم يستطع أن يعرفه هو كيف استغلوا طلقته الفارغة لاغتيال رابين في سيارته في الطريق إلى المستشفى".

ولا تنطبق على باري خميش مواصفات المهووس بنظرية المتآمر. فهو يعتني بما يكتب، ويسند كل دليل بشهادة تؤيدها وسمعتها المحكمة. لم يندفع إلى الاستنتاج، وهو يعطي الانطباع بأن هناك أموراً كثيرة أخرى يمكنه أن يقولها لكنه لن يقولها – الآن. إنه من فئة قليلة من جيل الصحافيين الحالي في إسرائيل. فهو يستقل في نهجه ولا يوالي أحداً، والأهم من هذا كلّه إنه محلّ ثقة.

لقد نشر كل الدلائل التي حصل عليها حتى الآن على شبكة الإنترنت، لأسباب منها أن ذلك ضمانة للانتشار ومنها أيضاً أنه يريد أن يصل إلى الحقيقة. وتجعله واقعيته على اقتناع بأن الحقيقة قد لا تظهر في صورة تصلح لتقديمها إلى محكمة عدل.

الفصل السابع

الجاسوس الجنتلمن

في صباح يوم ربيعي رطب من عام 1997 ، أعطى دايفيد كيمحي تعليماته إلى مصممي الحدائق العرب في شأن إعادة تنسيق حديقته في إحدى ضواحي تل أبيب . كان سلوكه الخجول وصوته المعسول يليقان بحرم جامعي أكثر من التعامل مع عمال يدويين ، ما يوحي بتحدّر كيمحي من أجيال من الإداريين رفعوا في السابق علم بريطانيا على الأراضي البعيدة الواسعة . وكيمحي مولود في إنكلترا لأبوين يهوديين من الطبقة المتوسطة ، وتعزز تصرفاته اللائقة صورة الإنكليزي المثال .

أبرزت ملابسه الثمينة بنية جسدية حافظ على لياقتها بمواظبة التمارين واتباع حمية صارمة . وبدا الرجل المشرف على الستين أصغر بعشرين سنة من عمره كما بدت عليه الصفة الصبيانية . كانت كل حركة من حركاته ، فيما كان يتحدث إلى منسقي الحديقة ، سواء رد شعره عن جبينه أو الوقفات المطوّلة أو التحديق الكثير الاهتمام ، توحي أنه أمضى حياته متوحّداً في حرم الجامعة .

وفي الواقع ، كان دايفيد كيمحي كما يصفه مئير عميت "أحد مصادر الإلهام الفكري" لعدد كبير من عمليات الموساد . فإلى مهاراته المنطقية كان يتمتّع بأعصاب مثيرة فاجأت أكثر الأطراف يقظة بخطوات غير متوقعة ، وسرعان ما أكسبه هذا احترام الجميع وحتى زملائه الساخرين الذين غالباً ما ابتعدوا عنه لانصرافه إلى النشاطات العقلية . فقد كان بعده الشديد وغموضه غريبين عن أساليبهم غير المصقولة . وشعر العديدون ، ومنهم رافي إيتان ، أنه "إذا قلت لدايفيد (صباح الخير) ، فإن عقله يبدأ بالتفكير بمدى الخير وكم بقي من الصباح" .

اعتبر كيمحي ضمن الموساد مثال الجاسوس الجنتلمن الذي يتمتع بمكر هرّة الزقاق. بدأت رحلته في صفوف الموساد بعدما ترك جامعة أكسفورد عام 1968 وهو يحمل الدرجة الأولى في مادة العلوم الاجتماعية. وبعد بضعة أشهر جنّده الموساد بعد قليل من تعيين مئير عميت رئيساً. كان عميت يسعى لإدخال عدد من الخريجين ليكملوا الصورة إلى جانب عملاء قساة من أمثال رافي إيتان ممن تعلموا مهاراتهم في الميدان.

كيف وأين ومن جند كيمحي: كل هذه أمور سوف تبقى سراً إلى الأبد. ومفبركو الإشاعات في أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية يقترحون عدة سيناريوهات: منها إنه دخل السلك أثناء تناول عشاء مع ناشر يهودي عمل فترة كمتطوّع للموساد، ومنها أن دخوله كان في مكتب حاخام في معبد يهودي في منطقة "غولدرز غرين"، ومنها أن أحد أقاربه البعيدين قام بالمبادرة الأولى.

الشيء الوحيد المؤكد هو أنه صباح يوم من أيام الربيع في فترة الستينات دخل كيمحي مقر الموساد الرئيسي في تل أبيب، كعضو جديد في قسم التخطيط والاستراتيجية. كان هناك فرع لبنك إسرائيل في جانب، وعدة مكاتب تجارية ومقهى، فاحتار كيمحي ماذا يفعل أو أين يذهب. فانتظر في البهو الكهفي. كم كان هذا المدخل مختلفاً عن مدخل وكالة الاستخبارات الأميركية "سي. آي. أي."!

في "لانغلي" تعلن الوكالة عن نفسها بفخر بالرخام المرصوف على الأرض وقد نقشت عليه نجمة ذات ست عشرة زاوية على درع عليه صورة جانبية لرأس نسر أصلع، وكُتبَ "وكالة الاستخبارات المركزية للولايات المتحدة الأميركية". وعلى الحائط تظهر كلمات يوحنا الرسول عن كيف تحرّر الحقيقة من يعرفها. وخلف اللوحة يقوم صف من المصاعد يحرسها حرّاس مسلّحون.

أما هنا، في البهو الرثّ من المبنى الواقع في جادة الملك شاوول فلم يكن هناك سوى أمناء صندوق في المصرف وناس يجلسون على كراسي المقهى البلاستيكية. ولم تبدُ على أحد منهم أنهم بأي حال من موظفي الموساد. انفتح باب لا إشارات عليه يقع في آخر زاوية الرواق وظهر منه مسؤول قنصلي في سفارة إسرائيل في لندن وهو الذي زوّد كيمحي وثائق السفر. وبينما كان يسير بكيمحي نحو الباب شرح له أن وضعه الدبلوماسي شكّل غطاءً لعمله الحقيقي كضابط موساد في بريطانيا. وعند الباب سلّم كيمحي مفتاحين وقال له

أنهما من الآن فصاعداً وسيلته الوحيدة لدخول مقر الموساد . كان أحد المفتاحين يفتح الباب والآخر يفتح المصاعد التي تمر بطبقات الموساد الثماني . كان المقر بمرافقه الخاصة المنفصلة عن باقي البرج - من كهرباء وماء وصحيات - كمبنى داخل مبنى .

أصبح هذا المكان المركز الرئيسي للموساد عقب انتهاء حرب السويس عام 1956 . في شهر تشرين الأول من ذاك العام ، شنت القوات البريطانية والفرنسية والإسرائيلية عدواناً مشتركاً على مصر للاستيلاء على قناة السويس التي أمّمها الرئيس المصري جمال عبد الناصر . كان هذا الغزو نموذجاً لـ"دبلوماسية الزوارق الحربية" التي سيطرت على المنطقة لفترة طويلة . بالكاد أُنذرت الولايات المتحدة مسبقاً بهذا الغزو الذي تبين إنه شهقة الموت الأخيرة للهجمة البريطانية والفرنسية على الشرق الأوسط . مارست واشنطن ضغطاً دبلوماسياً هائلاً لوقف القتال خوفاً من دخول السوفيات في هذا الصراع إلى جانب مصر ما يؤدي إلى مواجهة بين القوتين العظميين . وعندما انتهى القتال في ضفاف قناة السويس وجدت بريطانيا وفرنسا أن الولايات المتحدة حلّت محلها كقوة أجنبية مهيمنة في الشرق الأوسط . لكن إسرائيل أصرت على الاحتفاظ بالأرض التي استولت عليها في جزيرة سيناء .

سافر ريتشارد هلمز الذي سيصبح في ما بعد مديراً لوكالة "سي . آي . أي ." إلى تل أبيب ، حيث كان في استقباله كبار المسؤولين في مقر الموساد . وهو يقول أن انطباعه عنهم هو أنهم كانوا "مجموعة من سماسرة العقارات يدللون باعتزاز على أسباب الراحة المتوافرة" .

بينما كان كيمحي ومرشده يصعدان بالمصعد أوضح الأخير بأن الطبقة السفلى تشتمل على مركز الاستماع والاتصالات وتوجد بالطبقة التالية مكاتب صغار الموظفين ، وأعطيت الطبقات العليا للمحلّلين والمخطّطين وموظفي العمليات . أما الأبحاث والتطوير ففي طبقة مستقلة . وفي الطبقة العلوية مكاتب المدير العام وكبار معاونيه .

أُفسح لكيمحي مكان بين المخطّطين والاستراتيجيين . وكان مكتبه كغيره من المكاتب مجهزاً بطاولة خشبية رخيصة وخزانة ملفات فولاذية لها مفتاح واحد وهاتف أسود ، ودليل هاتف داخلي ختمت عليه عبارة : "لا يسمح بنقله" . وأكملت قطعة السجاد الأثاث . كان المكتب مطلياً باللون الأخضر الزيتوني ويشرف على منظر شامل وعريض للمدينة . بعد مضي ثلاثة عشر عاماً ظهرت على المقر علامات البلى والتمزّق ، فقد انسلخ الطلاء عن بعض الجدران وتهرّأ السجاد .

ولكن على رغم هذه الثغرات ، شعر دايفيد كيمحي بأنه وصل في وقت حافل بالأحداث الخطيرة . كان مئير عميت على وشك المغادرة ليخلفه بعد وقت قصير رافي إيتان وكبار المسؤولين الآخرين في الموساد .

لم يلبث كيمحي أن تبيّن الصفات المميزة لزملائه : كان بينهم المحلل الذي كان يستهل دائماً حكمه بالكلمات التالية : "هذه مناورة أوروبية كلاسيكية" ، ورئيس القسم الذي يعطي إشارة البدء بتحرّك ما بحركة رصّ التبغ الأسود في تجويف غليونه . وحالما يتصاعد الدخان الأبيض يكون قد اتخذ قراراً . والاستراتيجي الذي ينهي دائماً التعليمات التي تعطى للضباط بالقول أن الجاسوسية تعلّم مستديم لأوجه الضعف الإنساني . كانوا جميعاً قد وصلوا إلى مراكزهم باستحقاق وقد رحّبوا بحماسة كيمحي ومقدرته على قلب أي مشكلة على رأسها ، كما شعروا بأنه يفهم تماماً أن كشف خِدع العدو أمر بأهمية إطالة أمد خِدع الموساد .

كان جزء من عمله يتطلب مراقبة الأحداث في المغرب ، فهناك يقيم عدد لا يستهان به من اليهود . كان مئير عميت قد حاول تحسين أوضاعهم بإنشاء "علاقة عمل" مع جهاز الأمن المغربي المخيف ، وذلك بالتحالف معه في السعي لإسقاط الرئيس المصري جمال عبد الناصر الذي يكره إسرائيل بمقدار كرهه للنظام في المغرب . كان الرئيس عبد الناصر يحلم بتأسيس اتحاد عربي قوي يمتد من قناة السويس إلى المحيط الأطلسي في المغرب .

وحمل التهديد الذي يمثله هذا الاتحاد لإسرائيل مئير عميت على تدريب المغاربة على أساليب مكافحة الاستخبارات وطرائق الاستجواب التي تقترب من أعمال التعذيب المتطورة .

كانت في المغرب معارضة صغيرة ولكن قاسية يتزعمها المهدي بن بركة . وقد رسم كيمحي ماضي بن بركة المهني ، فهو بدأ المعلم الوفي للملك وترأس في إحدى المرات المجلس الوطني الاستشاري في المغرب . ولم يكن ذلك البرلمان سوى برلمان أدرد يكتفي بالمصادقة الصورية على مراسيم الملك الجائرة بحق شعبه . وأخيراً أضحى بن بركة صوت المعارضة الحقيقي الوحيد للحكم . ومرة بعد مرة كان بن بركة ينجو بشق النفس من الوقوع في أسر رجال الملك . وإذ كان يعرف أن اعتقاله أمرٌ لا مفر منه هرب المدّرس السابق ذو الشخصية الأخّاذة إلى أوروبا ، ومن هناك تابع التخطيط لإسقاط النظام .

مرتين اقتربت مقاومة بن بركة الصغيرة الفعالة من شن هجمات ناجحة بالقنابل ضد الملك . فأمر الملك الغاضب بمحاكمة بن بركة غيابياً فحُكِم عليه بالموت ، فردّ بن بركة بإصدار أوامره بشن هجمات جديدة على الملك .

في شهر أيار (مايو) عام 1965 ، طلب الملك الحسن من الموساد مساعدته في معالجة قضية بن بركة . فأوكلت إلى دايفيد كيمحي مهمة تقييم هذا الطلب . وقبل نهاية الشهر سافر بجواز سفره البريطاني إلى لندن ، متظاهراً بأنه في إجازة ، لكنه في الواقع كان يضع اللمسات الأخيرة على خططه .

سافر كيمحي إلى روما ومعه جواز سفر بريطاني ثان مزيّف بمهارة وعليه تأشيرة دخول إلى المغرب زوّده به أحد المتطوعين لخدمة الموساد . في روما أمضى يوماً في جولات سياحية - للتأكد من أنه ليس مراقباً - ومن ثم تابع سفره إلى المغرب حيث استقبله على مطار الرباط محمد أوفقير ، وزير الداخلية المغربي المخيف .

خلال مأدبة عشاء أقيمت في تلك الأمسية التي أحيتها إحدى أفضل راقصات المغرب ، أفصح أوفقير عما يريده الملك : رأس بن بركة .

وحتى يظهر حسّ دعابته الفظة وتقديره لتاريخ اليهود ، أضاف أوفقير "إن سالومة اليهودية طلبت من الملك حيرود رأس أحد المشاغبين" .

أكد كيمحي صحة المعلومات ، ولكنه قال إن الأمر ليس بيده وأنه يتوجّب على أوفقير أن يرافقه إلى إسرائيل . وفي اليوم التالي سافر الاثنان إلى روما واستقلا الطائرة إلى تل أبيب . اجتمع مئير عميت بهما في بيت سري وكان مهذباً وحذراً أيضاً . قال لكيمحي أنه "غير متحمس كثيراً" لفكرة القيام بعمل أوفقير الوسخ بالنيابة عنه ، وأصرّ على أن "ينحصر دورهم بالأعمال التحضيرية" .

كان أوفقير قد عمد ، من وراء ظهر مئير عميت ، إلى وضع خطة تعاون مع أحد أجنحة جهاز الاستخبارات الفرنسية "سديس" لقتل بن بركة إذا تمكن هو من استدراجه إلى خارج بيته الحصين في جنيف وعبر الحدود السويسرية وجاء به إلى فرنسا . بقي مئير عميت متردداً ومصراً على أن يعطي رئيس الوزراء ليفي أشكول ، شخصياً ، موافقته على اشتراك الموساد ، حتى حصل عليها . فباشر الموساد عمله . سافر ضابط استخبارات مغربي المولد إلى جنيف وتسلّل إلى داخل جماعة بن بركة . وعلى مدى أشهر عدة كان العميل يزرع بعناية

فكرة مفادها أنه على اتصال بمليونير فرنسي متعاطف يأمل أن يرى الملك الحسن وقد أطيح فيعرف المغرب الديموقراطية الحقيقية . كان كيمحي هو من نسج هذه الرواية الخيالية . وفي 26 تشرين الأول (أكتوبر) 1965 عُلِم أن بن بركة الشديد الحذر "مثل كزبرة الثعلب" على وشك أن يسافر إلى باريس .

بعث مركز الاتصالات في الموساد برسالة مرمّزة إلى أوفقير في المغرب . وفي اليوم التالي سافر الوزير وفريق صغير من رجال الأمن المغاربة إلى باريس . وفي تلك الليلة أطلع جناح الاستخبارات الفرنسية المشارك الوزير على آخر التطورات . وقد منع عميل الموساد الذي رافق بن بركة إلى العاصمة الفرنسية من حضور الاجتماع فاتصل بكيمحي عبر هاتف سري طالباً التوجيهات . فتشاور كيمحي مع مئير عميت واتفقا على "أن أمراً قذراً يعدّ في الخفاء ، ويجب أن نبقى بعيدين" على حدّ قول عميت في ما بعد .

وفي مساء اليوم التالي كانت شاحنة مراقبة تابعة للاستخبارات الفرنسية تتّخذ موقعاً لها خارج مطعم في حي سان جرمان عندما وصل بن بركة وفي خلده إنه سيتناول العشاء مع المليونير . وبعدما انتظر ساعة بلا طائل غادر المطعم . وما إن خطت قدمه على الرصيف حتى أمسك به عميلان من الاستخبارات الفرنسية وأوثقاه ونقلاه إلى الشاحنة ، ومن هناك إلى فيلا في منطقة فونتناي-لو-فيكونت كانت الاستخبارات الفرنسية تستخدمها بين الحين والآخر لاستجواب المشتبه بهم . وطوال الليل أشرف أوفقير على استجواب بن بركة وتعذيبه ثم جرى إعدام الرجل المحطّم عند الفجر . التقط أوفقير صوراً فوتوغرافية للجثة قبل دفنها في حديقة الفيلا ، ثم عاد جواً إلى المغرب ليعرض الفيلم للملك .

عندما عُثر على الجثة بلغ الاستنكار في فرنسا أسماع سكان القصر الجمهوري ، فأمر شارل ديغول بإجراء تحقيق لم يسبق له مثيل أدى إلى تطهير واسع في جهاز الاستخبارات الفرنسية . وقد اجتهد مدير الجهاز ، الذي حرص على الإبقاء على علاقات الزمالة بين أجهزة الاستخبارات ، لإبقاء اسم الموساد بعيداً عن القضية . لكن ديغول الذي لا تربطه بإسرائيل علاقة ودّ كان على قناعة بتورّط الموساد . وقال لمساعديه أن العملية تحمل "العلامة المميزة لتل أبيب" . فعنده أن الإسرائيليين وحدهم من يظهر مثل هذا الازدراء للقانون الدولي . كانت بين إسرائيل وفرنسا علاقة وثيقة نشأت خلال حرب السويس عام 1956 ، فانتهت . وعلى الفور أمر ديغول بوقف إمدادات السلاح لإسرائيل إلى جانب كل تعاون على

صعيد الاستخبارات . ويقول مئير عميت إنه "يتذكر الضربات القوية التي كانت تنهال بغزارة من باريس" .

يقول كيمحي "إن طريقة معالجة مئير عميت للموقف كانت بطولية . كان بإمكانه أن يلقي اللوم عليّ أو على غيري ممن شاركوا في العملية . وبدلاً من ذلك فقد أصرّ على تحمّل كامل المسؤولية . كان قائداً حقيقياً" .

تحت وطأة رد فعل باريس عمدت حكومة رئيس الوزراء أشكول إلى الابتعاد عن رئيس الموساد . وصدرت الانتقادات من مصدر غير متوقع ، فكلما كان مئير عميت يردّ بالقول أن دور الموساد كان "هامشياً" ولم يزد على "تحضير عدد من جوازات السفر واستئجار بعض السيارات" ، كان سَلَفُه إيسر هاريل يصرّ على أن قضية بن بركة ما كانت لتحدث في عهده . وحذّر مئير عميت رئيس الوزراء من أنهما قد يغرقان معاً بتأثير مثل هذا النقد ، فردّ أشكول بتشكيل لجنة تحقيق برئاسة وزيرة الخارجية غولدا مئير . خلصت إلى أن على مئير عميت أن يستقيل . لكن عميت رفض الاستقالة حتى يستقيل أشكول نفسه ، فنشأت الأزمة . بقي مئير عميت سنة حتى اقتنع بأن موت بن بركة لن يطارده ويضايقه . لكن نجاته كانت أعجوبة .

في هذا الوقت كان كيمحي منشغلاً بأمور أخرى . درّب الفلسطينيون سراً وحدة كوماندوس لاستغلال ثغرة أمنية لم يتوقّعها الموساد واختطاف طائرة في الجو . حالما تجري السيطرة على الطائرة أثناء الطيران تتوجه إلى بلد عربي صديق ، وهناك يحتجز الركاب فلا يطلقون إلا مقابل فدية ، وقد تكون هذه إما مبالغ ضخمة من المال أو مبادلة الركاب بسجناء فلسطينيين تحتجزهم إسرائيل . وتكون المكافأة الإضافية الدعاية العالمية لقضية منظمة التحرير الفلسطينية .

في تموز (يوليو) 1968 خُطفت طائرة تابعة لشركة "العال" الإسرائيلية من روما إلى الجزائر . أذهلت جرأة العملية الموساد ، وطار فريق من ضباط الاستخبارات إلى الجزائر بينما كان كيمحي وغيره من المخططين يعملون بلا انقطاع تقريباً لصياغة خطة تفضي إلى إطلاق الركاب . لكن أي محاولة لاقتحام الطائرة سيعوّقها وجود طواقم الإعلاميين من أنحاء العالم الذين يغطون تطوّرات الحادث . وأوصى كيمحي بكسب الوقت أملاً في إضعاف الاهتمام بالحادث ليتمكن ضباط الاستخبارات من التحرّك . لكن الخاطفين توقعوا ذلك وبدأوا

يصدرون تهديدات مروّعة ما لم يُستجب لمطالبهم وهي إطلاق السجناء الفلسطينيين في سجون إسرائيل . كانت الحكومة الجزائرية تساند الخاطفين ، فتبيّن لكيمحي " أننا بين شاقوفين" . كان أحد الذين أبدوا تمنّعاً بالتوصية بمبادلة الأسرى بالركاب لعلمه "التام بنتائج مثل هذا العمل . فهو سيمهّد الطريق لمزيد من عمليات الخطف ، وسيؤمّن من الآن فصاعداً حصول قضية منظمة التحرير الفلسطينية على التغطية الإعلامية القصوى . وكان هذا رأي الحكومات الغربية التي لم يكن لديها ما تجيب به على عمليات الخطف . ولكن ماذا نفعل سوى الانتظار المتجهّم حتى تحدث عملية الخطف الجديدة؟" .

وقد تتالت العمليات بالفعل وكانت كل منها أفضل تخطيطاً من سابقتها . وخلال مدة قصيرة سيطر الخاطفون على نصف دزينة من طائرات الركاب وأظهروا أنهم ليسوا خبراء في إخفاء الأسلحة وزرع المتفجرات في أرجاء الطائرة فحسب بل قد تدرّبوا على قيادة الطائرة نفسها ولهم إلمام بالأعمال الفعلية لطاقم سطح الطائرة . تدرّبوا في الصحراء الليبية على تبادل إطلاق النار في ضيق حجرة الطائرة خصوصاً لعلمهم أن شركة "العال" صارت تحمل حراساً مسلحين على متن طائراتها – وكانت هذه من أولى الخطوات التي أوصى كيمحي باتخاذها . كذلك فقد أصاب كيمحي بتكهّنه بأن الخاطفين يعرفون قوانين البلدان المختلفة التي يطيرون إليها ومنها ، حتى إذا تم أسرهم استخدم زملاؤهم هذه القوانين لإطلاق سراحهم سواء بالمساومة أو بالتهديد .

وكان كيمحي يعلم أن الموساد في حاجة ماسة إلى حادث يمكّن جهاز الاستخبارات من التغلب على الخاطفين باستخدام مهارتين يشتهر بهما : المكر والقسوة . وكما استخدم الخاطفون الدعاية بنجاح كذلك كان كيمحي يريد عملية تأتي نتائجها بمثل المديح العالمي الذي أسبغ على إسرائيل بعد اختطاف أدولف أيخمان . ويجب أن تتضمن هذه العملية عنصراً درامياً مؤثراً ، وعنصر مخاطرة كبيرة ونتيجة غير متوقعة . وستتعاون هذه العناصر على إظهار استعادة الموساد زمام المبادرة .

في 27 حزيران (يونيو) 1976 كانت طائرة تابعة لشركة "آر فرانس" مليئة بالركاب اليهود في طريقها إلى باريس من تل أبيب عندما اختطفت بعد توقفها في مطار أثينا المشهور بالتراخي الأمني . كان الخاطفون أعضاء في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين – جناح وديع حداد ، وقد تقدموا بطلبين : إطلاق سراح أربعين فلسطينياً في السجون الإسرائيلية بالإضافة

إلى دزينة أخرى من المحتجزين في السجون الأوروبية ، واطلاق ألمانيين اعتقلتهما كينيا وهما يحاولان إسقاط طائرة لشركة "العال" الإسرائيلية بصاروخ من طراز "سام-7" فيما كانت تقلع من مطار نيروبي .

بعد توقّف قصير في الدار البيضاء ورفض السماح لها بالهبوط في الخرطوم ، طارت الطائرة إلى عنتيبي في أوغندا ، ومن هناك أعلن الخاطفون إنهم سيفجّرون الطائرة بجميع ركابها ما لم يُستجب لمطلبهم . وحدّد الموعد النهائي 30 حزيران (يونيو) .

داخل الجلسات المغلقة للحكومة الإسرائيلية في تل أبيب ، تراجع الشعار العلني المتبجّح الرافض "الاستسلام للإرهاب" ، فأيّد الوزراء إطلاق سراح سجناء منظمة التحرير الفلسطينية في إسرائيل ، وقدّم رئيس الوزراء رابين تقريراً أعدّه جهاز "شين بيت" يشير إلى وجود سابقة لإطلاق سراح بعض السجناء حتى بعد إدانتهم والحكم عليهم . وأعلن رئيس الأركان موردخاي غور إنه لا يوصي باتخاذ أي تدبير عسكري نظراً لعدم كفاية الاستخبارات الواردة من عنتيبي . وفيما استمرت مداولاتهم الكئيبة أفادت تقارير من عنتيبي أن المسافرين اليهود فصلوا على متن الطائرة عن الباقين الذين أطلق سراحهم وهم الآن في طريقهم إلى باريس .

كانت هذه هي الفرصة التي يحتاج الموساد إليها . أدلى اسحق هوفي رئيس الموساد في كلمة شهيرة له بوجهة نظر قوية وعاطفية تؤيد القيام بعملية إنقاذ ، ثم عمد إلى إزالة الغبار عن خطة رافي إيتان لاختطاف آيخمان ، التي رأى فيها أوجه شبه بالموقف الراهن ، منها أن رافي إيتان ورجاله اضطرّوا إلى العمل بدون عون محلي وبدون مساندة من قاعدتهم البعيدة ، وقد ارتجلوا بعض أعمالهم أثناء التنفيذ مستخدمين الوقاحة اليهودية المشهورة . وعليه ، فإن من الممكن تكرار التجربة . كان هوفي يتصبّب عرقاً وقد بحّ صوته أثناء المناشدة والجدال ، فحدّق في أرجاء القاعة وقال : "إذا تركنا جماعتنا يموتون فسنمهّد الطريق للطوفان . وما من يهودي سيكون في مأمن في أي مكان ، وهكذا ينتصر هتلر حتى وهو في قبره" .

وأخيراً قال رابين : "فلنجرب!" .

كان كيمحي في عداد الاستراتيجيين والمخططين العاملين في الموساد الذين جرت تعبئتهم . وجاءت الخطوة الأولى بفتح قناة اتصال سرية بين تل أبيب ونيروبي . كان هوفي قد رعى الرابطة الاستخبارية السرية التي أنشأها مئير عميت بين الموساد والاستخبارات

الكينية . وبدأت الرابطة تعطي نتائج فورية . سافر ستة من عملاء الموساد إلى نيروبي وتمركزوا في بيت سري من بيوت جهاز الاستخبارات الكيني ، ليكونوا رأس جسر للهجوم الرئيسي .

في هذه الأثناء ذلّل كيمحي إحدى الصعاب . لما كانت كل مهمة إنقاذ تستلزم التوقّف للتزود بالوقود في نيروبي ، أجرى كيمحي اتصالات هاتفية حصل خلالها على موافقة كينيا في غضون ساعات على السماح بالتزوّد بالوقود "لأسباب إنسانية" .

لكن بقيت المشكلة المرعبة وهي الوصول إلى عنتيبي . كانت منظمة التحرير الفلسطينية قد جعلت من المطار نقطة دخول لها إلى أوغندا التي منها أدارت المنظمة نشاطها ضد نظام الفصل العنصري الأبيض المؤيد لإسرائيل في جنوب أفريقيا . وبعد قطع علاقات أوغندا الدبلوماسية مع إسرائيل عام 1972 قدّم ديكتاتور أوغندا عيدي أمين مقر السفير الإسرائيلي السابق إلى منظمة التحرير الفلسطينية لتقيم فيه مقرها .

ورأى كيمحي أن من الضروري معرفة ما إذا كانت منظمة التحرير الفلسطينية لا تزال في البلاد . فمقاتلوها المتمرسون بالمعارك سيشكّلون قوة هائلة يصعب دحرها في الفترة القصيرة التي ستستغرقها عملية الإنقاذ الفعلية . فليس بمقدور القوات الإسرائيلية أن تبقى في الساحة لأكثر من دقائق وإلا تعرضت لخطر الهجوم المضاد القوي . أرسل كيمحي عميلين للموساد من نيروبي عبر بحيرة فكتوريا على ظهر زورق ونزلا قرب عنتيبي ، فوجدا أن مقر منظمة التحرير الفلسطينية مهجور . كان الفلسطينيون قد انتقلوا في الآونة الأخيرة إلى أنغولا .

ثم لجاءت ضربة الحظ التي تحتاج إليها أي عملية ، وذلك عندما اكتشف أحد ضباط الأمن الكينيين الذي كان برفقة عميلي الموساد إن أحد أقرباء زوجته كان يتولّى بالفعل حراسة الرهائن . فاستخدم الكيني التملّق وتمكّن من الدخول إلى المطار ومن رؤية أن الرهائن جميعاً بخير . إلا أنه وجد أنهم بحراسة خمسة عشر حارساً تبدو عليهم علامات التوتّر والعصبيّة . وجرى نقل هذه المعلومات إلى تل أبيب عبر اللاسلكي .

في هذه الأثناء ، استأجر عميلان آخران للموساد ، وهما طياران مؤهلان ، طائرة من طراز "سيسنا" وطارا بها من نيروبي بحجة تصوير بحيرة فكتوريا لإعداد كتاب سياحي مصوّر . وحلّقت الطائرة فوق مطار عنتيبي مباشرة فتمكن أحد العميلين من التقاط صور

دقيقة للمدرج والأبنية المجاورة . وأرسل الفيلم بالطائرة إلى تل أبيب حيث اقترح كيمحي اعتماد استراتيجية جديدة لزعزعة الخاطفين .

خلال عدة محادثات هاتفية مع قصر عيدي أمين ، أوضح المفاوضون الإسرائيليون في تل أبيب أن حكومتهم مستعدة لقبول شروط الخاطفين . ولإضفاء الصدقية على هذا الإذعان الظاهر جرت الاستعانة بدبلوماسي في قنصلية أوروبية في أوغندا استدعي "سراً" لمعرفة إذا كان بإمكانه التفاوض على اختيار العبارات المناسبة التي يقبل بها الخاطفون . وقال كيمحي للدبلوماسي "يجب أن لا تحط الصياغة من قدر إسرائيل وكذلك لا يجد الخاطفون أن قبولها مستحيل" .

أسرع الدبلوماسي إلى المطار وهو يحمل الأخبار وشرع في وضع مسودة للصيغة الملائمة . كان لا يزال يقوم بذلك عندما دخلت عملية "ثندربول" (الصاعقة) مراحلها النهائية .

حطّت طائرة إسرائيلية من طراز "بوينغ 707" لا إشارات عليها في مطار نيروبي . كانت مستشفى طائراً يقوده طيارون من الجيش الإسرائيلي يعرفون مطار عنتيبي . في الوقت نفسه أحاط ستة عملاء للموساد بذلك المطار وكل منهم يحمل جهازاً لاسلكياً عالي التردد وجهازاً إلكترونياً يشوّش على الرادار في برج المراقبة . لم يسبق لمثل هذا الجهاز أن استخدم في ظروف قتال فعلي .

تحت جنح الظلام خرج خمسون مظلياً إسرائيلياً من المستشفى الطائر ومضوا بالسرعة القصوى إلى بحيرة فكتوريا حيث نفخوا زورقهم المطاط وجذّفوا عبر الماء حتى بلغوا نقطة انتظار قريبة من شاطئ أوغندا وهم على أهبة اقتحام مطار عنتيبي . كان المشاركون في عملية الإنقاذ قد تدرّبوا جيداً عليها في تل أبيب ، وعندما حان الوقت عبرت قوة من طائرات النقل من طراز "س-130 هركيوليس" البحر الأحمر متجهة جنوباً وعاودت التزوّد بالوقود في نيروبي ثم بعدما حلّقت فوق أعالي البحر الأفريقي هوت نحو مطار عنتيبي .

نجحت خطة تعطيل الرادار . كانت سلطات المطار لا تزال تحاول أن تفهم ما جرى عندما حطّت طائرات "هركيوليس" الثلاث ومعها المستشفى الطائر . وخرج رجال الكومندوس بسرعة ودخلوا المبنى الذي يحتجز فيه الرهائن . كان عيدي أمين قد أطلق جميع أبناء الديانات الأخرى واحتفظ باليهود . لم يُدع المظليون المساندون للتدخل . من حيث كانت مواقعهم صعدوا إلى طائرة نقل إسرائيلية أخرى وعادوا أدراجهم .

في غضون خمس دقائق أُطلق سراح الرهائن وقتل محتجزوهم جميعاً بالإضافة إلى ستة عشر جندياً أوغندياً كانوا يحرسون الرهائن . فقدت القوة المهاجمة ضابطاً واحداً هو اللفتنانت يوناثان نتنياهو الأخ الأكبر لرئيس الوزراء اللاحق بنيامين نتنياهو الذي يقول إن سياسته المتشددة تجاه أعداء إسرائيل هي نتيجة لموت أخيه . قتل ثلاثة رهائن أيضاً .

كان ديفيد كيمحي يمنّي النفس برد انتقامي مثير على الخاطفين فحقّق أكثر مما توقّع . أصبحت عملية الإنقاذ في عنتيبي مفخرة الموساد وبزّت بذلك عملية اختطاف آيخمان .

وجد كيمحي نفسه ينغمس أكثر فأكثر في جهود الموساد ضد منظمة التحرير الفلسطينية . كان هذا الصراع المهلك يدور خارج حدود إسرائيل في شوارع المدن الأوروبية . كان كيمحي أحد الاستراتيجيين الذين أعدوا العدّة لظهور قتلة الموساد - أعضاء وحدة الاغتيال . كانوا يضربون في باريس وميونيخ وقبرص وأثينا . كانت أعمال القتل بعيدة عن كيمحي فلا يراها ، كحال قائد القاذفة الذي لا يرى أين تسقط قنابله . وساعدت هذه العمليات على تدعيم إحساس بالغلبة داخل الموساد . فقد كان للمعلومات القيّمة التي تصل من الاستراتيجيين الفضل في مفاجأة عناصر وحدة الاغتيال لخصومهم .

في صبيحة أحد الأيام وصل كيمحي إلى عمله ليجد أن زملاءه في حالة وجوم . فقد سقط أحد عملاء الموساد المدربين قتيلاً برصاص مسلّح من منظمة التحرير الفلسطينية في مدريد . كان القاتل مصدراً كان عميل الموساد يحاول تجنيده لاختراق صفوف المنظمة .

لم تكن تلك لحظة للحزن فتضافرت الجهود لمكافحة النار بالنار . يقول كيمحي إنها كانت مرحلة "لم نكن ننتظر أن يرأف بنا العدو ولم نكن نرأف به" .

واستمر الضغط القاسي للعثور على سبل جديدة للاقتراب من قيادة منظمة التحرير الفلسطينية ومعرفة ما أمكن عن أوضاعها الداخلية وصولاً إلى اغتيال قادتها . كان كيمحي يعتقد "أن قطع الرأس هو السبيل الوحيد لوقف حركة الذيل" . كان ياسر عرفات الرأس الأول على قائمة أهداف وحدة الاغتيال .

بحلول عام 1973 كان خطر آخر أشد هولاً قد بدأ يستولي على عقل كيمحي : احتمال اندلاع حرب شاملة ثانية مع العرب بقيادة مصر . لكن الموساد كان صوتاً مستوحداً في أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية . نقل رؤساء كيمحي قلقه في هذا الشأن لكن الاستخبارات العسكرية "أمان" رفضتها رفضاً قاطعاً . أشار استراتيجيوها إلى أن مصر قد

طردت قبل وقت قصير عشرين ألف خبير سوفياتي من أراضيها وهو أمر ينبغي الاستدلال به على أن الرئيس المصري أنور السادات يسعى إلى حل سياسي في الشرق الأوسط .

لم يقتنع كيمحي . وتوطّدت قناعته بالاستناد إلى المعلومات التي تجمعت لديه بأن السادات سيوجه ضربة وقائية ، لأن إسرائيل ترفض الإذعان للمطالب العربية . كانت مصر تريد استعادة أراضيها المحتلة وقيام دولة فلسطينية في الضفة الغربية وغزة المحتلتين . وكان كيمحي يعتقد أنه حتى لو قدمت إسرائيل هذه التنازلات فإن منظمة التحرير الفلسطينية ستتابع حربها الدموية لتركيع إسرائيل .

وزاد ذعر كيمحي عندما استبدل السادات وزير دفاعه السابق بشخصية أكثر تشدّداً كان أول عمل قام به تعزيز دفاعات مصر على طول قناة السويس . كان قادة مصر العسكريون يقومون بزيارات منتظمة إلى العواصم العربية الأخرى طلباً للمساعدة ، وكان السادات قد وقّع اتفاقاً جديداً مع موسكو لشراء الأسلحة .

رأى كيمحي في كل هذه الإشارات إنذارات بالسوء . وعنده "إن المسألة ليست متى تقع الحرب بل في أي يوم تبدأ" .

لكن قادة الاستخبارات العسكرية "أمان" استمروا في التقليل من أهمية التحذيرات التي تأتيهم من الموساد ، وقد أبلغوا قادة الجيش الإسرائيلي أنه حتى لو بدا أن الحرب ستبدأ فستكون هناك "مهلة إنذار لا تقل عن خمسة أيام" ، وهي مدة تزيد عن حاجة القوة الجوية الإسرائيلية لتكرار نجاحها العظيم في حرب حزيران (يونيو) 1967 .

وردّ كيمحي بأن من المؤكّد أن العرب تعلّموا من أخطاء الماضي ، لكنه وجد أنه أصبح موصوماً بأنه عضو "في جهاز الموساد مهووس بالحرب" ، وهي تهمة لا تتفق مع شخص مثله يعتني بكل كلمة يتفوّه بها . ولم يكن بوسعه سوى الاستمرار في تقييم الاستعدادات المصرية ومحاولة الاستدلال على تاريخ محتمل لبدء الهجوم .

أخلى الحر القائظ في آب (أغسطس) 1973 مكانه في تل أبيب لأيلول (سبتمبر) منعش . وأفادت آخر تقارير ضباط الموساد على طرف سيناء من قناة السويس أن الاستعدادات المصرية تقوى . أنهى مهندسو الجيش وضع اللمسات الأخيرة على زوارق التجسير التي يستخدمها الجنود والمدرعات لعبور القناة . وعندما أقنع الموساد وزير الخارجية الإسرائيلي بإثارة موضوع الاستعدادات المقلقة أمام الأمم المتحدة ردّ المندوب المصري مهدّئاً

بأن "هذه النشاطات روتينية" . هذه الكلمات كان لها برأي كيمحي "ذات نوع الصدقية" الذي كان لما تفوّه به السفير الياباني في واشنطن عشية الهجوم على ميناء "بيرل هاربر" .

ومع ذلك قبلت "أمان" الإيضاح المصري . وأكثر ما أدهش كيمحي هو أنه بحلول تشرين الأول (أكتوبر) وحيثما استقر نظره المستطلع كانت هناك دلائل أخرى على متاعب توشك أن تقع . كانت ليبيا قد أمّمت للتّو شركات النفط الغربية ، وكان الحديث يدور في دول الخليج المنتجة للنفط عن قطع كل الإمدادات النفطية إلى الغرب .

ومع ذلك فقد استمر الاستراتيجيون في "أمان" في قراءتهم الخاطئة للمشهد الاستخباري . فعندما تعرّضت الطائرات الحربية الإسرائيلية لهجمات الطائرة السورية ، وانتهى الاشتباك بانتصار للقوة الجوية الإسرائيلية ساعدت عليه معرفة طياريها التكتيكية المكتسبة من طائرة "الميغ" المسروقة من العراق رأت "أمان" أن في إسقاط اثنتي عشرة طائرة سورية دليلاً آخر على أنه حتى لو أعلن العرب الحرب فستكون هزيمتهم ساحقة .

وليل 5-6 تشرين الأول (أكتوبر) ، تلقّى الموساد أوضح دليل على الإطلاق على أن الحرب ستقع وربما خلال ساعات . فقد أفاد عملاء الجهاز ومخبروه في مصر بأن القيادة العسكرية العليا في مصر أعلنت حالة الإنذار القصوى . لم يعد ممكناً تجاهل الأدلة .

في الساعة السادسة صباحاً انضم رئيس الموساد زفي زامير إلى اجتماع لرؤساء الاستخبارات في "أمان" عقد في وزارة الدفاع . كان المبنى شبه فارغ ، فاليوم عيد الغفران وهو أقدس الأعياد اليهودية ، وهو يوم راحة حتى لليهود غير المتدينين ، فيه تتوقّف الخدمات العامة بما في ذلك الإذاعة الرسمية التي كانت دائماً وسيلة الجيش لتعبئة الاحتياط عند إعلان الطوارئ الشاملة .

وأخيراً وأمام الدلائل القاطعة التي قدّمها الموساد تقرّر اتخاذ خطوات عملية فدُقّ ناقوس الخطر في جميع أنحاء إسرائيل بأن سوريا في الشمال ومصر في الجنوب تعدّان لهجوم مزدوج وشيك على إسرائيل .

بدأت الحرب في الساعة 1:55 بالتوقيت المحلي بينما كانت الحكومة الإسرائيلية في جلسة طارئة وقد طمأنها استراتيجيو "أمان" إلى أن الهجمات السورية والمصرية لن تبدأ قبل الساعة السادسة من بعد الظهر . وقد تبيّن أن تحديد "أمان" للوقت لم يكن إلا عملية تخمين محض .

لم يسبق لأجهزة الاستخبارات الإسرائيلية في تاريخها كله أن منيت بمثل هذا الفشل الذريع في التكهّن بوقوع حدث ما . لقد أُهملت تماماً الأدلة الدقيقة التي قدمها ديفيد كيمحي وغيره .

بعد انتهاء الحرب بنجاة إسرائيل من هزيمة محققة جرت عملية تطهير واسعة في الدوائر العليا لـ"أمان" . ومرةً أخرى أصبح الموساد سيّداً بلا منازع لأجهزة الاستخبارات الإسرائيلية وذلك على رغم حدوث تغيير رئيسي فيه . فقد أقصي زامير عن منصب المدير العام لأنه لم يظهر مقداراً كافياً من الجزم في مقارعة نظيره في "أمان" . وحلّ اسحق هوفي في منصب المدير العام للموساد .

كان موقف كيمحي من تعيين هوفي كرئيس للموساد مشوباً بالتردّد . فمن جهة كان هوفي من طينة مئير عميت . فكلاهما ذو قامة منتصبة ويتمتعان بخبرة قتالية معترف بها ، وبالسلوك القاطع نفسه وعدم القدرة على تحمّل الحمقى بأي شكل . لكن هوفي كان صريحاً إلى حد الوقاحة ويعود تاريخ التوتّر بينه وبين كيمحي إلى عهد كان من مهامهما فيه تدريب مجندي الموساد في معهد التدريب . كان هوفي ذا عقلية عملية اكتسبها من حياته في المزرعة التعاونية (الكيبوتز) ، ولم يكن يطيق صبراً إزاء ميل كيمحي للتفكير البطيء ولهجته الإنكليزية الراقية حين يتحدث إلى الطلاب . ولكن كيمحي لم يعد عميلاً محنكاً فحسب بل أصبح نائب هوفي . فقد رقّي إلى منصب نائب المدير العام قبيل رحيل زامير . واتفق هوفي وكيمحي على ضرورة وضع خلافاتهما الشخصية جانباً لضمان استمرار الموساد في أعلى مستويات الفاعلية في الأداء .

كلّف كيمحي إحدى أصعب المهام في الموساد وهي إدارة الملف اللبناني في الجهاز . بعد سنتين على حرب تشرين الأول (أكتوبر) 1973 ، اندلعت الحرب الأهلية في ذلك البلد ، وعندما تسلّم كيمحي الملف كان المسيحيون اللبنانيون يخوضون حرباً خاسرة . وكما حدث قبل سنوات عندما ذهب سلمان إلى السفارة الإسرائيلية في باريس إيذاناً ببدء عملية سرقة طائرة "الميغ" العراقية ، كذلك ذهب موفد عن المسيحيين في أيلول (سبتمبر) 1975 وطلب من إسرائيل مدّهم بالسلاح لإنقاذهم من خطر الإبادة . وحُوّل الطلب إلى مكتب كيمحي فرأى في ذلك فرصة أمام الموساد للتدخّل في شؤون لبنان .

قال لهوفي أن من المنطقي سياسياً تقديم "مساندة جزئية" للمسيحيين في مقارعة

المسلمين الذين يقولون بتدمير إسرائيل . وقد قُبل هذا التفسير ، واتُفق على أن تعطي إسرائيل للمسيحيين ما يكفيهم من الأسلحة للتصدي للمسلمين على ألاّ يؤدّي ذلك إلى تشكيلهم خطراً على إسرائيل . وبدأ الموساد في شحن السلاح من إسرائيل إلى لبنان ، وأعقب ذلك تعيين كيمحي ضباطاً من الموساد في القيادة المسيحية . وكانت الحجة الظاهرة أن هؤلاء الضباط سيساعدون على تحقيق أفضل فائدة من السلاح الإسرائيلي ، أما السبب الحقيقي فهو أن هؤلاء الضباط سيمدّون كيمحي بسيل لا ينقطع من المعلومات السرية لمساعدته على متابعة التطور العام للحرب الأهلية . وقد مكّنت المعلومات السرية من شن عدد من الهجمات الناجحة على معاقل منظمة التحرير الفلسطينية في جنوب لبنان .

لكن علاقة الجهاز بالمسيحيين ساءت في كانون الثاني (يناير) 1976 ، عندما وجّه قادة المسيحيين الدعوة للجيش السوري لتقديم مزيد من العون لمواجهة توسّع رقعة نفوذ التحالف اليساري – الإسلامي ، وهو تطوّر رأت فيه دمشق تهديداً لأمنها . وخلال أيام قليلة ، كان آلاف الجنود السوريين ممن اشتد عودهم في المعارك يدخلون لبنان ويقتربون من حدوده مع إسرائيل . واكتشف المسيحيون بعد فوات الأوان أنهم "جاءوا بالدب إلى كرمهم" ، كما في تعبير كيمحي .

ومرة أخرى سعى المسيحيون اللبنانيون إلى الموساد طالبين المساعدة . لكن كيمحي تبيّن أن شبكته التي تتولّى مدّهم بالسلاح لم تكن كافية . كان المطلوب قيام إسرائيل بعملية لوجستية شاملة . فأرسلت عشرات الدبابات والصواريخ المضادة للدبابات وغيرها من أسلحة الجيش الإسرائيلي إلى المسيحيين . وهكذا بدأ أوار الحرب الأهلية في لبنان يشتد وخرجت عن سيطرة الجميع .

وتحت غطاء هذه الحرب شنّ كيمحي حرب عصابات خاصة ضد بعبع إسرائيل ، منظمة التحرير الفلسطينية . ولم يلبث هذا القتال أن توسع ليشمل الشيعة اللبنانيين . وأصبح لبنان ميدان تدريب يطوّر فيه الموساد تكتيكاته ليس فقط في عمليات الاغتيال بل في الحرب السيكولوجية . كان ذلك هو العصر الذهبي لرجال الموساد .

أما داخل مقر الموساد فقد كانت العلاقات بين كيمحي وهوفي في تدهور . ودار الهمس عن خلافات عنيفة حول شؤون عملانية ، وقيل أن هوفي يخشى أن يكون كيمحي يطمح إلى الحلول مكانه ، وأن كيمحي يشعر بأن المساهمة المهمة التي يقدّمها لا تحظى بالتقدير

المناسب . ولا يزال كيمحي حتى الآن يحجم عن مناقشة مثل هذه المسائل مكتفياً بالقول إنه "لن يضفي على الإشاعة صبغة احترام بالتعليق عليها" .

وفي صباح أحد أيام ربيع 1980 ، استخدم كيمحي بطاقة الدخول التي حلت محل المفتاحين للدخول إلى مقر الموساد الرئيسي . وحالما وصل إلى مكتبه قيل له أن هوفي يريد أن يراه فوراً . فمضى كيمحي إلى مكتب المدير العام وقرع الباب ودخل وأغلق الباب وراءه . ما دار بين الرجلين أصبح جزءاً من أسطورة الموساد . والحكاية تتحدث عن صياح مرتفع بازدياد واتهامات واتهامات مضادة . استغرق الشجار العنيف عشرين دقيقة خرج بعدها ديفيد كيمحي من المكتب ولم ينبس ببنت شفة . لقد انتهى عمله في الموساد . لكن نشاطاته الاستخبارية في خدمة إسرائيل كانت على وشك أن تستخدم على حلبة مألوفة : الولايات المتحدة . ولن يتعلق الأمر هذه المرة بسرقة مواد نووية ، بل بالفضيحة التي صارت تعرف باسم "إيران غيت" .

بعد فترة من الوقت درس فيها احتمالات المستقبل ، قبل ديفيد كيمحي وظيفة المدير العام لوزارة الخارجية الإسرائيلية . كان المنصب يتلاءم بصورة رائعة مع قدرته على التفكير في الانخراط في الموقف والخروج منه . وقدّم المنصب لكيمحي فرصة استغلال كفاءاته في الساحة الدولية في ما يتجاوز لبنان بكثير .

وصلت قصة الرئيس نيكسون وفضيحة "ووترغيت" في الولايات المتحدة إلى خاتمة لا بد منها خلّفت "وكالة الاستخبارات الأميركية" (سي .آي .أي .) معمّمة بالشك والريبة ، كما لم يحدث لها منذ مقتل الرئيس كينيدي ، إذ ظهرت معلومات مثيرة متزايدة عن نشاطات الوكالة خلال عهد نيكسون .

درس كيمحي كل جانب من جوانب المأساة ، "مستوعباً الدروس التي يجب تعلّمها من كارثة مفاجئة ما كان يجب أن تقع . الموضوع الأساسي هو أنه ما كان ينبغي أن يحتفظ نيكسون بتلك الأشرطة . ولولاها لربما كان لا يزال رئيساً" .

في قضية أقرب جغرافياً إليه من فضيحة "ووترغيت" كان ما يحدث في إيران ، حتى كمسألة تهم إسرائيل بصورة دائمة ، يشغل باله . مع نجاح آية الله الخميني وأنصاره من رجال الدين في تثبيت سيطرتهم ، أصيب كيمحي بصدمة قويّة إذ تبيّن مبلغ خطأ وكالة "سي . آي . أي ." ووزارة الخارجية الاميركية في تقدير الوضع .

لكن الرئيس الجديد المقيم في البيت الأبيض رونالد ريغان وعد ببزوغ فجر جديد للوكالة الأميركية . فقد علم كيمحي من مصادر معلوماته في واشنطن أن "سي .آي .أي ." ستصبح ذراع ريغان الضاربة في سياسته الخارجية . كان على رأس الوكالة وليام كيسي الذي شعر كيمحي بالغريزة بأنه ليس صديقاً لإسرائيل ، بل كان شخصاً يمكن بزّه بالمناورة إذا دعت الحاجة .

وخلال السنتين التاليتين كان من صلب عمل كيمحي مراقبة عمليات "سي . آي . أي ." في أفغانستان وأميركا الوسطى . وكان انطباعه أن العديد من هذه العمليات "كانت تفتقر إلى التخطيط وتجمع بين جمع المعلومات بطريقة متخلفة وتدبير اغتيالات شديدة القسوة" .

ومرة أخرى انشدّ اهتمام كيمحي للتركيز على إيران وما حدث في بيروت .

بعد أشهر قليلة من تسلّم كيمحي مسؤولياته في وزارة الخارجية ، بدأت إسرائيل تسلّح إيران بتأييد ضمني من الولايات المتحدة . قدّمت إسرائيل العون من أجل إضعاف نظام بغداد كجزء من تكتيك إسرائيلي قديم العهد يصفه كيمحي بأنه "لعب على الحبلين" .

بعد ثلاث سنوات وقعت حادثتان كان لهما تأثير في مجرى الأمور . وقع انفجار السيارة المفخّخة الذي قتل فيه 241 جندياً أميركياً من سلاح مشاة البحرية (المارينز) ، وازداد شك الأميركيين بأن الموساد كان على علم مسبق بالهجوم ، وأن جهاز الاستخبارات الإيرانية ساعد في الإعداد له . ضغطت واشنطن على إسرائيل لوقف مدّ طهران بالسلاح ، وتزايد الضغط مع خطف وتعذيب ثم مقتل وليام بكلي رئيس فرع وكالة "سي آي . أي ." في بيروت . وبتوالٍ سريع احتجزت جماعات تدعمها إيران سبعة أميركيين آخرين كرهائن .

كانت إدارة ريغان تتبنّى لهجة حازمة وقد وصلت إلى الحكم بناء على وعد بقمع الإرهاب ، ولذا فلم يكن ممكناً القعود عن الحركة بينما كان مواطنون أميركيون يذوون في قاع أنقاض بيروت . لكن رد الفعل الانتقامي لم يكن وارداً . فعندما اقترح ريغان قصف طهران بالقنابل استبعد اقتراحه أشدّ معاونيه تشدّداً . وكان رأي قادة قوة التدخل السريع "دلتا فورس" أن أي محاولة إنقاذية ستمنى بالفشل .

في تلك الأثناء جرت محادثة بين الرئيس وروبرت ماكفارلن وهو جندي سابق في

"المارينز" شديد الولاء ومستشار الرئيس للأمن القومي . ويذكر كيمحي أن ماكفارلن كان قد أخبره أن المحادثة جرت كالآتي :

– سيدي الرئيس ما هو الشيء الذي يحتاج إليه الإيرانيون حاجة ماسة؟

– اخبرني أنت يا بوب .

– السلاح ليقاتلوا العراق .

– إذاً نعطيهم ما يحتاجون إليه ونستعيد جماعتنا في المقابل .

وتبنّى ريغان وماكفارلن ، على رغم تحذير كيسي وغيره من رؤساء أجهزة الاستخبارات الأميركية ، وجهة نظر مبسّطة تفيد أن تسليح إيران لن يؤدي إلى ضغط حكّام إيران على جماعة بيروت لإطلاق الرهائن فحسب ، بل سيحسّن علاقات الإدارة الأميركية بطهران . وربما أضيفت إلى ذلك فائدة إضعاف موقف موسكو في إيران . كانت هذه بداية ما صار يعرف في ما بعد باسم "إيران غيت" .

عُهد إلى العقيد في مشاة البحرية أوليفر نورث بمهمة تقديم الأسلحة . وقد قرّر هو وماكفارلن استبعاد الـ"سي .آي .أي ." من خططهما . كانا ميالين إلى اتخاذ خطوات عملية ، وهذه العقلية القائمة على المناورات عادت عليهما بالفائدة في فيتنام . وقد بلغهم من مصادر مختلفة أن الإسرائيليين مثلهم . وهكذا "حان الوقت لإقحام إسرائيل في المسألة" ، على حد قول نورث . أضف إلى ذلك فكرة زيارة الأرض المقدسة ، فنورث مسيحي متديّن وقد استمرأ فكرة تأثّر خطى المسيح .

قدّر رئيس وزراء إسرائيل الجديد اسحق شامير أن هناك شخصاً واحداً قادراً على تلبية طلب واشنطن المساعدة وضمان حماية مصالح إسرائيل . وفي 3 تموز (يوليو) 1983 طار ديفيد كيمحي للقاء ماكفارلن في البيت الأبيض . قال كيمحي أنه يعتقد أن صفقة مقايضة السلاح بالرهائن ستنجز . وسأل ما إذا كانت الـ"سي . آي . أي ." "مشاركة فعلياً" ، فقيل له أنها ليست كذلك .

وسأل ماكفارلن بدوره ما إذا كان الموساد على علاقة بالأمر ، قائلاً "فكما نعرف أنهم هم من يتولّون نشاطكم السري وراء الحدود" . فأخبره كيمحي أن وزير الدفاع اسحق رابين وشامير قرّرا استبعاد الموساد وأوكلا الأمر إليه بكليّته . وقال ماكفارلن إنه راضٍ . ولم يقل له

كيمحي أن رئيس الموساد يومئذ ناحوم أدموني يشاطر كيسي مخاوفه من أن صفقة مقايضة السلاح بالرهائن مشوبة بالمخاطر العملانية .

ذهب ماكفارلن إلى مستشفى بيثيسدا البحري ليعرض وجهات نظر كيمحي على الرئيس ريغان الذي كان يتعافى من عملية في القولون . فسأله الرئيس باهتمام : هل يضمن كيمحي الحفاظ على سريّة الصفقة؟ إن تسريب نبأ عنها قد يضرّ بعلاقات الولايات المتحدة بأصدقائها العرب الذين يخشون من الاتجاهات الراديكالية المتزايدة في طهران .

ويزعم كيمحي أن ماكفارلن طمأن ريغان إلى أن إسرائيل ستحفظ السرّ . فعقدت الصفقة وسافر كيمحي عائداً إلى إسرائيل ، ثم عاد بعد أسبوعين إلى واشنطن . وعلى مائدة عشاء عرض خطته على ماكفارلن .

ويذكر كيمحي أن المحادثة سارت على الشكل الآتي :

سأل كيمحي : هل أبدأ بالأخبار السارة أم غير السارة؟

فردّ ماكفارلن : الأخبار السارة .

فقال كيمحي : سنشحن الأسلحة إليكم مستخدمين الطرق نفسها التي استخدمناها من قبل .

ورد ماكفارلن : لا مانع .

كانت خطة كيمحي تضمن ألا تكون الولايات المتحدة على اتصال مباشر مع إيران ، وذلك حتى لا يتعرّض للخطر موقف الإدارة العنتري القائل بالتشدد مع الإرهاب . فحظر الأسلحة الأميركي المفروض على إيران سيبقى سليماً ، وإذا أطلق سراح الرهائن فلن يكون ذلك نتيجة مقايضة مباشرة بالأسلحة .

وسأل ماكفارلن : ماذا عن الأخبار غير السارة؟

فقال كيمحي أن مصادر اتصالاته الرفيعة في إيران ليست على يقين من أن حكام إيران سيتمكنون بالفعل من تأمين الإفراج عن رهائن بيروت . وأضاف "إن الراديكاليين يخرجون عن سيطرة طهران" .

لم يظهر ماكفارلن خيبة أمله . وفي اليوم التالي أبلغ وزير الخارجية جورج شولتز ريغان الذي كان قد عاد إلى مزاولة عمله أن المخاطر أكبر من الاحتمال . فماذا لو أن الإيرانيين

أخذوا الأسلحة ثم كشفوا الصفقة لإحراج "الشيطان الأكبر" ، كما يسمّون الولايات المتحدة؟ ألن يدفع ذلك بالعراق إلى الاقتراب أكثر فأكثر من المعسكر السوفياتي؟ وماذا عن حال الرهائن؟ فقد يسيء ذلك إلى وضعهم . واستمرت المناقشة طوال فترة ما قبل الظهر حتى إذا حل موعد تناول الغداء بدا التعب جلياً على ريغان . وعندما أعلن قراره كان له وقع المفاجأة . لقد وافق الرئيس على تأييد الاقتراح القائل بتعويض الولايات المتحدة إسرائيل عن كل الأسلحة التي تبيعها إلى إيران . ومرة أخرى عاد كيمحي أدراجه وهو يحمل إذناً بالتحرّك . ومع ذلك فقد أصرّ شامير على ضرورة اتخاذ كل الخطوات الممكن اتخاذها حتى يمكنه "إنكار أي علاقة له بالقضية إذا برزت أي مشكلة" .

وحتى يضمن كيمحي ذلك جمع حشداً متبايناً من الشخصيات للبدء بالعملية . كان بين هؤلاء عدنان خاشقجي البليونير السعودي المعتاد على أكل الكافيار بالرطل وتعقب النساء الجميلات الشهيرات . وكان بينهم أيضاً منوشهر غوربانيفار وهو عميل سابق في جهاز الأمن السّري الشهير في أيام الشاه ، "السافاك" ، الذي لا يزال يتصرّف كجاسوس موجهاً الدعوات للاجتماعات في منتصف الليل . وكان بينهم ياكوف نمرودي وهو يضاهي غوربانيفار بالغموض وكان يدير شبكة عملاء لـ"أمان" ، وشغل من قبل منصب ملحق إسرائيل العسكري في إيران خلال حكم الشاه . وكان دائماً في صحبة آل شويمر مؤسس "صناعات الطائرات الإسرائيلية" الصامت .

توسّط خاشقجي لعقد صفقة تمهّد لكل ما سيليها ، وبموجبها يرأس بنفسه كونسورتيوم يعفي الولايات المتحدة من كل مسؤولية إذا لم توفِّ إيران بالتزاماتها ، كما يحمي إيران إذا لم تكن الأسلحة مقبولة وفقاً للمواصفات . ومقابل هذه الضمانات يتلقّى الكونسورتيوم عمولة مقدارها عشرة في المائة من قيمة شراء جميع الأسلحة التي ستدفعها الولايات المتحدة نقداً . كذلك يقوم الكونسورتيوم بدور المنطقة العازلة لضمان تصديق الإنكار الذي سيصدر عن حكومتي إيران والولايات المتحدة إذا لم تسر الأمور على ما يرام . وكان واضحاً لدى جميع الأطراف أن الكونسورتيوم سيعمل بعيداً عن أي ضابط سياسي وسيكون ديدنه الربح المادي .

وفي أواخر آب (أغسطس) 1985 حطت في طهران أول حمولة طائرة من الأسلحة مصدرها إسرائيل . وفي 14 أيلول (سبتمبر) أُطلق في بيروت سراح رهينة أميركي هو القس

بنيامين وير . ومع تسارع الوتيرة انضم مزيد من اللاعبين السفلة إلى الكونسورتيوم وكان بينهم مايلز كوبلاند وهو ضابط سابق في "سي . آي . أي ." . وكان كوبلاند عشية سقوط شاه إيران قبل أن يصبح اسمها الجمهورية الإسلامية في إيران قد أرسل عملاء للـ"سي .آي .أي ." إلى أسواق طهران يوزعون ورقات المائة دولار على كل من يجرؤ أن يصيح "عاش الشاه" . كذلك اشترك في العملية شخصيات سرية أخرى كضابط جهاز الأمن البريطاني "أس . أي . أس ." السابق الذي أدار من قبل شركةً في لندن قدّمت للموساد خدمات عامة . في تلك الأثناء كان صانعو القرار في إسرائيل وواشنطن يغضّون الطرف . فكل ما يعنيهم أن العملية دخلت حيّز التنفيذ تحت أنوف العالم الذي لم تساوره الشكوك ـ بعد .

ويبلغ إجمالي ما تلقّته إيران بموجب هذا الترتيب 128 دبابة أميركية ومئتي ألف صاروخ "كاتيوشا" استولت عليها إسرائيل في جنوب لبنان وعشرة آلاف طن من القذائف المدفعية من جميع العيارات وثلاثة آلاف صاروخ جو – جو ، وأربعة آلاف بندقية وحوالي خمسين مليون طلقة ذخيرة .

من قاعدة ماراما الجوية في أريزونا شُحنَ جواً ما يزيد على أربعة آلاف صاروخ من طراز "تاو" إلى غوتيمالا لتبدأ رحلتها الطويلة إلى تل أبيب . ومن بولندا وبلغاريا شُحنَ ثمانية آلاف صاروخ أرض – جو من طراز "سام – 7" ، بالإضافة إلى مائة ألف بندقية "أي كا – 47" (كلاشنيكوف) . وباعت الصين مئات الصواريخ بحر – بحر من طراز "سيلك ورم" ، وسيارات مدرّعة وناقلات جنود برمائية . وقدمت السويد مدفعية عيار 155 مم وبلجيكا صواريخ جو – جو .

وشحنت الأسلحة مع شهادات تشير إلى أن إسرائيل هي وجهتها الأخيرة . ومن القواعد العسكرية في صحراء النقب أعدّ الكونسورتيوم طائرات نقل مستأجرة لنقل السلاح جواً إلى إيران . وتلقى الكونسورتيوم أجرته عن كل شحنة من الأموال التي دفعتها إيران مستخدمة حسابات مصرفية في سويسرا . وبلغ إجمالي المبالغ في نهاية الأمر سبعة ملايين دولار . لم تتلقَ إسرائيل أي مقابل مالي ، واكتفت بمشاهدة إيران تحسّن قدراتها على قتل مزيد من العراقيين في الحرب الطويلة الدائرة بينهما . كان هذا مثال آخر على سياسة "فرّق تسد" التي رفع ديفيد كيمحي لواءها بحماسة .

وعلى رغم ذلك فإن غرائزه المصيبة نبّهته إلى أن ما بدأ "كعملية سهلة" يواجه خطر الإفلات من كل سيطرة . وبرأيه "كان الكونسورتيوم واقعاً تحت نفوذ أشخاص لا ثقة بهم" .

عندما أنشأ كيمحي الكونسورتيوم كان يقدم مثلاً على الواقعية السياسية التي تتبعها إسرائيل . فقد كانت هذه راغبة في مساعدة الولايات المتحدة لأنها تعرف أنها لا تستطيع أن تعيش من دون دعم واشنطن لها في مجالات أخرى . كما أراد بما فعله أن يظهر أن بإمكان إسرائيل أن تنشط بحزم على الساحة الدولية وتحتفظ بالأمر سراً .

ولكن كيمحي أحسّ بأنه كلما طال أمد عملية مقايضة السلاح بالرهائن كلما ازدادت فرصة انكشاف أمرها . وفي كانون الأول (ديسمبر) 1985 أبلغ الكونسورتيوم إنه لا يستطيع أن يبقى معنياً بنشاطاته ، مستخدماً الذريعة المعروفة وهي أن عمله في وزارة الخارجية يرهقه .

شكره الكونسورتيوم على مساعدته وأقام له حفلة عشاء وداعية في أحد فنادق تل أبيب ، وقيل له أن مستشار بيريز المتحمّس لمكافحة الإرهاب أميرام نير حلّ محلّه في وظيفة ضابط الارتباط الإسرائيلي .

وأقرّ كيمحي لاحقاً أنه في تلك اللحظة وُضعت صفقة مقايضة الأسلحة بالرهائن على الطريق السريع نحو الهلاك . فإذا كانت بحاجة لمن يحيد بها عن الطريق فقد عثرت عليه في شخص نير ، الصحافي السابق الذي أظهر ميلاً عنيفاً لاعتبار الاستخبارات الفعلية جزءاً من العالم نفسه الذي تقيم فيه روايات جيمس بوند المثيرة التي كان مغرماً بها . كانت هذه نقطة ضعف مهلكة شاركه فيها رجال في الموساد كانوا يرون أن بإمكان الصحافيين أيضاً أن يخدموا أغراضهم .

في نيسان (أبريل) 1999 أظهر ديفيد كيمحي أنه لم يفقد مهاراته في حسن قراءة الموقف السياسي الراهن في الشرق الأوسط . فياسر عرفات الرجل الذي تآمر كيمحي مرة لاغتياله "لأنه كان عدوي اللدود ، وكنت على يقين بأن موته انتصار عظيم لإسرائيل" أصبح الآن "أمل إسرائيل الأكبر في سلام طويل الأمد" ، على حد قول كيمحي . وهو يقول "أن السيد ياسر عرفات لا يزال مختلفاً عن صورة الجار الوفي التي في ذهني لكنه الزعيم الفلسطيني الوحيد القادر على تقديم التنازلات لإسرائيل مع الاحتفاظ بالسلطة والدعم المحلي" .

ويعتقد كيمحي أنه وجد قاسماً مشتركاً مع عرفات . فهو مقتنع بأن زعيم منظمة التحرير الفلسطينية قد اعترف أخيراً بما سبقه كيمحي إلى رؤيته قبل ربع قرن وهو "الخطر الحقيقي الذي يمثّله التطرّف الإسلامي في الألفية الجديدة" .

في مكتبه الصغير المطل على الحديقة التي أزهرت أشجارها ، قدّم كيمحي خلاصة متوازنة ، فقال "إنني لا أستطيع أن أسامح عدوي القديم على مصادقته على قتل أبناء بلدي قبل عشرات السنين . ولكنني لا أستطيع أن أسامح نفسي لحرمان عرفات والإسرائيليين من فرصة إنهاء سفك الدماء إلى الأبد" .

الفصل الثامن

أورا والوحش

إكتظّ البهو المتكهّف في فندق ميريديان – فلسطين في بغداد كالعادة في نهار الجمعة الأخير من شهر نيسان (إبريل) 1988 ، وكان الجوّ بهيجاً . فقد ربح العراق للتوّ معركة فاصلة ضد إيران في خليج البصرة ، وأجمعت الآراء على أن الحرب تقترب من نهايتها بعد ثماني سنوات دامية .

بين أسباب الانتصار العراقي الوشيك الأجانب الذين كانوا يجلسون في البهو وهم يرتدون سترات مهندمة وسراويل مكويّة بعناية ، وعلى وجوههم ترتسم ابتسامات التجّار الناجحين . كانوا تجّار أسلحة جاءوا لبيع أحدث أسلحتهم ، مع أنهم قلّما استعملوا تلك الكلمة مؤثرين التعبيرات الأكثر حيادية : "السطح البيني الأمثل" و"أنظمة التحكّم" ، و"طاقة النمو" وغيرها . وكان بينهم ممثلو شركات صنع الأسلحة في أوروبا والاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة والصين . وكانت الإنكليزية لغتهم التجارية المشتركة يرطنون بها بلهجات متباينة .

لم يكن أصحاب الدار العراقيون بحاجة إلى ترجمان : فما يعرض عليهم هو تشكيلة من القنابل والطوربيدات والألغام وغيرها من الأجهزة الفتّاكة . وقد وزّعت الكراسات لطائرات مروحية ذات أسماء كاريكاتورية مثل "سي نايت" و"شينوك" و"سي ستاليون" . إحدى هذه الطائرات ، "بيغ ماذر" (الأم الضخمة) تستطيع حمل جسر صغير ، وأخرى "ذي إنكرديبل ماشين" (الآلة الهائلة) قادرة على جوقلة فصيل من الجند . وأظهرت بعض الكراسات صور مدافع تطلق ألفي قذيفة في الدقيقة ، أو تضرب هدفاً متحرّكاً في الظلمة

الدامسة بهداف مصنوع من رقاقة حاسوب . وكانت كل الأسلحة معروضة للبيع .

كان أصحاب الدار يتكلّمون بلغة اصطلاحية خاصة يفهمها التجار أيضاً . فـ "عشرون في اليوم" تعني عشرين مليون دولار يوم استلام البضاعة ، و"ثلاثون في نصف ونصف ناقص واحد" تعني ثلاثين مليون دولار كبضاعة بالأمانة يدفع نصفها سلفاً والباقي في اليوم السابق لشحن الأسلحة . وكلّ الأقساط تدفع بالدولار الأميركي ، العملة المفضّلة حتى الآن في هذا العالم المغلق .

كانت هذه السوق المتغيّرة أبداً حيث يجتمع التجّار والزبائن لتناول الشاي بالنعناع تقام برعاية ضبّاط من دائرة المخابرات العامة التي يديرها برزان التكريتي الأخ غير الشقيق لصدام حسين .

كان بعض تجار الأسلحة في بهو الفندق في أحد الأيام قبل سبعة أعوام عندما أخبرهم مضيفوهم المصدومون أن اسرائيل التي يكنّون لها عداءً أشد ضراوة من عدائهم لإيران ، قد وجهت ضربة قوية للآلة العسكرية العراقية .

فمنذ قيام الدولة اليهودية وحالة حرب رسمية تقوم بين إسرائيل والعراق . كانت إسرائيل على ثقة من أن بإمكان قواتها تحقيق الانتصار في أي حرب تقليدية . ولكن في عام 1977 ، اكتشف الموساد أن الحكومة الفرنسية التي كانت قد زوّدت إسرائيل بالقدرة النووية أعطت العراق أيضاً مفاعلاً نووياً وأمدّته بـ "المساعدة التقنية" . وقد أقيم المرفق في التويثة في شمال العراق .

فبدأ سلاح الطيران الإسرائيلي التخطيط لضرب الموقع بالقنابل قبل أن "يحمّى" بقضبان اليورانيوم ويبدأ الإنتاج ، لأن تدميره عندئذ قد يؤدّي إلى تفشّي الموت والتلوّث في المنطقة كلها ويعرّض إسرائيل للإدانة العالمية .

ولهذه الأسباب ، عارض إسحق هوفي ، رئيس الموساد حينها ، الإغارة بحجة أن الضربة الجوية ستتسبّب في كل حال في خسارة باهظة بالأرواح في صفوف التقنيين الفرنسيين وتثير شك البلدان الأوروبية بنيّات إسرائيل السلمية . كما أن قصف المفاعل سيضع حداً نهائياً للمحاولات الضعيفة الجارية لإقناع مصر بتوقيع معاهدة سلام .

وجد إسحق هوفي نفسه رباً لأسرة منقسمة في ما بينها . وكانت حجّة عدد من رؤساء الدوائر عنده أن لا بديل لتعطيل المفاعل . فصدّام حسين عدو لا يرحم . ومتى اقتنى سلاحاً

نووياً ، فلن يتردّد في توجيهه نحو إسرائيل . ومنذ متى تهتم إسرائيل بكسب الأصدقاء في أوروبا؟ إن أميركا هي من يهتمّ الإسرائيليون لموقفها ، وما تقوله واشنطن سراً هو أن تدمير المفاعل لن يترتّب عليه سوى صدور تأنيب خفيف من الإدارة الأميركية .

وسلك هوفي مسلكاً آخر ، فاقترح أن تضغط الولايات المتحدة دبلوماسياً على فرنسا لوقف تصدير المفاعل . ولكن واشنطن تلقّت رداً صاداً جافاً على طلبها من باريس ، وعندها اختارت إسرائيل الطريق المباشر ، فأرسل هوفي على وجه السرعة فريقاً من العملاء الميدانيين للإغارة على المصنع الفرنسي في لا سين سور مير قرب تولون حيث كانوا يبنون المفاعل العراقي ، فجرى تدمير قلبه ، وأعلنت المسؤولية عن ذلك منظمة لم يسمع بها من قبل أطلقت على نفسها اسم "المجموعة البيئية الفرنسية" ، وهو الاسم الذي اختاره هوفي بنفسه .

وفيما شرع الفرنسيون في بناء قلب جديد للمفاعل ، أرسل العراقيون يحي المشدّ ، العضو في وكالة الطاقة النووية العراقية ، إلى باريس للاتفاق على شحن الوقود النووي إلى بغداد ، فأرسل هوفي فريقاً من القتلة لاغتياله . قام بعض أعضاء الفريق بمراقبة الشوارع المحيطة فيما استعمل اثنان منهم مفتاحاً خاصاً لدخول غرفة نوم المشدّ فذبحوه وطعنوه في القلب ثم نهبوا الغرفة للإيحاء بأن الغرض كان السرقة . وقد أخبرت مومس كانت في غرفة ملاصقة رجال الشرطة بأنها اختلت بالعالم قبل ساعات من موته . وبعد ذلك ، فيما كانت تختلي بزبون آخر سمعت "حركة غريبة" في غرفة المشدّ . وبعد ساعات من إدلائها بإفادة إلى الشرطة قُتلت المرأة في حادث اصطدام مدبّر ، ولم يعثر على السيارة الجانية . أمّا القتلة فعادوا على طائرة لشركة "العال" الإسرائيلية إلى إسرائيل .

برغم هذه الضربة الجديدة ، استمرّ العراقيون تدعمهم فرنسا في محاولتهم التحوّل إلى دولة نووية . وفي تل أبيب ، تابع سلاح الطيران الإسرائيلي استعداداته الخاصة فيما استمر جدل رؤساء الاستخبارات مع هوفي في شأن اعتراضاته المتواصلة . وواجه رئيس الموساد معارضة لموقفه من جهة لم يتوقّعها ، إذ ادّعى نائبه ، ناحوم أدموني ، أن تدمير المفاعل لم يكن ضرورياً ، لكنه سيلقّن "أيّ عربي آخر ذا طموحات كبرى درساً" .

وفي تشرين الأول (أكتوبر) 1980 ، استحوذ الجدال على اهتمام جميع جلسات الحكومة برئاسة مناحم بيغن . وأعيد طرح وجهات النظر ذاتها من جديد . وشيئاً فشيئاً

أصبح موقف هوفي المعارض للهجوم بلا سند . ومع ذلك ، جاهد هوفي ، فعرض موقفه في مقالات متقنة كتبها وهو يدرك أنه إنما كان يكتب نعيه المهني .

وشيئاً فشيئاً خرج أدموني بازدرائه لموقف هوفي إلى العلن . ومع ذلك ، استغرق الأمر ستة أشهر أخرى من الصراع المرير بين رئيس الموساد المحاصر وكبار موظفيه قبل أن توافق الأركان العامة على الهجوم في 15 آذار (مارس) 1981 .

كان الهجوم تحفة تكتيكية . طارت ثماني قاذفات مقاتلة من طراز "أف 16" الأميركية ترافقها ست مقاتلات معترضة من طراز "أف 15" الأميركية أيضاً على مستوى كثبان الرمل ، فعبرت الأردن قبل أن تندفع بسرعة البرق باتجاه العراق ، فبلغت الهدف في اللحظة المحدّدة ، الساعة 5:34 بعد الظهر بالتوقيت المحلي ، أي بعد دقائق قليلة من رحيل فريق الإنشاء الفرنسي . بلغ عدد الضحايا تسعة واستحال المصنع النووي أنقاضاً . وعادت الطائرات المغيرة سالمة . بعدها انتهى عمل هوفي في الموساد ، وحلّ محلّه أدموني .

والآن في صباح ذلك اليوم من أيام نيسان (أبريل) 1988 ، كان تجّار السلاح الجالسون في بهو الفندق ، والذين واسوا قبل سبعة أعوام مضيفيهم وقد أذهلهم الاعتداء الإسرائيلي ــ قبل بيع العراق أجهزة الرادار المتطوّرة ــ سيذهلون هم أنفسهم لو علموا أن عميلاً للموساد يقيم في الفندق ويتولّى بهدوء تدوين أسمائهم وما كانوا يعرضونه للبيع .

في وقت مبكّر من يوم الجمعة ذاك ، توقّف النشاط التجاري في البهو لدى وصول برزان التكريتي ، مدير المخابرات العراقي ، بصحبة جماعة من الحرس الخاص . سار الأخ الشقيق لصدام حسين بخطى واسعة نحو المصعد في طريقه إلى جناح في الطبقة العليا حيث كانت بانتظاره مومس ممتلئة الجسم طويلة القامة جيء بها خصيصاً من باريس من أجل متعته . كان عملها غالي الثمن وشديد الخطورة ، فقد اختفى عدد من المومسات ممن سبقنها بعدما قضى منهن التكريتي وطراً .

غادر مدير المخابرات الفندق عند العصر . ومن جناح مجاور لجناح المومس ، ظهر رجل فتيّ طويل القامة يرتدي سترة قطنية زرقاء وسروالاً كاكيّ اللون . كان وسيماً على وهن قليل ، وكان يمسّد شاربيه أو يفرك وجهه بحركة عصبية تلازمه ، مما يفاقم من قابليته للسقوط بيد الأعداء .

كان اسمه فرزاد بازوفت . في التفاصيل الواردة في استمارة التسجيل الفندقية والتي

ترسل منها نسخة إلى إدارة المخابرات ، ذكر بازوفت أنه "كبير المراسلين للشؤون الخارجية" في صحيفة "الأبزرفر" ، صحيفة الأحد القومية في لندن . كان الوصف غير دقيق ، فمراسلو الصحيفة المتفرّغون الذين يقومون بالمهام الخارجية وحدهم مخوّلون تسمية أنفسهم "مراسلين للشؤون الخارجية" . أما بازوفت فكان صحافياً غير متفرّغ كتب في العام الفائت عدّة تحقيقات موضوعها الشرق الأوسط نشرتها "الأبزرفر" . واعترف بازوفت للمراسلين في وسائل الإعلام الأخرى ممن كانوا على متن الرحلة المتوجّهة إلى بغداد أنه كان دائماً يقدّم نفسه على أنه "كبير المراسلين للشؤون الخارجية" في صحيفة "الأبزرفر" في رحلاته إلى بغداد ومدن أخرى لأنه بذلك يضمن حصوله على أفضل غرف الفندق المتوافرة . كان هذا الخيال البريء مثالاً أخر على صبيانيّته المحبّبة .

ولم يكن زملاء بازوفت في الصحيفة يعلمون أن له جانباً مظلماً من شخصيته ربما كان سيعرّضهم للخطر لو اشتبه أحدٌ بكونهم على صلة بالسبب الحقيقي لوجوده في بغداد . كان بازوفت عميلاً للموساد .

جنّده الموساد بعد وصوله إلى لندن قبل ثلاث سنوات من طهران حيث جعلت آراؤه الصريحة المعادية لنظام آية الله الخميني حياته عرضةً للخطر . وكغيره ممن سبقوه ، وجد بازوفت لندن غريبة والشعب الإنكليزي متحفّظاً . وحاول في البداية إيجاد دور له في المجتمع الإيراني في المنفى ، وسرعان ما جعله اطّلاعه الواسع على البنية السياسية الراهنة في طهران ضيفاً معزّزاً على موائدهم . غير أن مشهد الوجوه المألوفة نفسها ما لبث أن أصاب الفتى الطموح المضطرب بالملل .

راح بازوفت يبحث عمّا هو أمتع من تحليل الأخبار الواردة من طهران ، فبدأ توطيد العلاقات مع عدو إيران ، العراق . في منتصف الثمانينات ، كان عدد كبير من العراقيين يقيمون في لندن ضيوفاً على الرحب والسعة ، إذ كانت بريطانيا لا ترى فحسب أن العراق سوق استهلاكية كبيرة لسلعها بل ترى أن العراق بقيادة صدام حسين سيجبه التطرّف الإسلامي الإيراني الخطر .

ووجد بازوفت نفسه محل ترحيب في الحفلات العراقية . كان مضيفوه الجدد أكثر اطمئناناً واستعداداً للاسترخاء من الإيرانيين ، ففتنهم بأخلاقه الكريمة ونكاته الحاضرة دائماً عن الحكومة الإيرانية .

في إحدى هذه الحفلات كان رجل أعمال عراقي اسمه عبد الحميد ، وكان يصغي إلى بازوفت وهو سكران قليلاً كعادته عند نهاية الأمسية ، وهو يتحدّث بلا انقطاع عن طموحه الملحّ لأن يصبح مراسلاً صحافياً ، وكيف أن بوب وودوارد وكارل بيرنستين اللذين اسقطا الرئيس نيكسون كانا مثله الأعلى . وأخبر بازوفت عبد الحميد إن أعظم أمنياته الإطاحة بآية الله الخميني .

كان بازوفت حينها ينشر بعض المقالات في صحيفة إيرانية محدودة الانتشار موجّهة للإيرانيين في المنفى البريطاني .

وعبد الحميد اسم مستعار لعميل موساد عراقي المولد . وقد ضمّن التقرير الذي بعثه إلى تل أبيب ملاحظة عن بازوفت وعمله الحالي وطموحاته . وكان ما قام به مألوفاً . فمئات الاسماء تُرسل كل أسبوع لتجد مكانها في بنك المعلومات لدى الموساد .

كان ناحوم أدموني مدير الموساد ويتشوّق لتطوير مصادر معلوماته في العراق فأوعز إلى عميل الموساد في لندن بأن يطوّر علاقته ببازوفت . فاصطحبه عبد الحميد لتناول العشاء مراراً واصغى إليه وهو يشكو من أن رئيس تحرير الصحيفة التي يعمل فيها لا يحسن استغلال إمكاناته . فاقترح عليه مضيفه أن يحاول العبور إلى قلب الصحافة الإنكليزية . فلا بد أن هناك فرصة عمل لمراسل صحافي يتمتّع بمهارات لغوية ممتازة واطلاع على شؤون إيران . واقترح عبد الحميد أن يبدأ بالاتصال بهيئة الإذاعة البريطانية "بي .بي .سي ." .

كان بين العاملين في الهيئة الإذاعية عدد من المتطوعين لخدمة الموساد ممن يتضمّن عملهم رصد البرامج المعدّة للبثّ عن إسرائيل ومراقبة الموظفين في القسم العربي في الـ"بي .بي .سي" . ولا يُعرف ما إذا كان أي متطوّع قد ساعد في العثور على عمل لبازوفت ، لكنه بعد لقاء عبد الحميد سرعان ما كُلّف مهمة بحث في "بي .بي .سي" . وقد أبلى بلاء حسناً ، فكلّف مهمة غيرها . ووجد رؤساء التحرير المناوبون أن في إمكانهم الاعتماد على بازوفت لمساعدتهم على فهم مكائد طهران .

وفي تل أبيب رأى أدموني أن قد حان الوقت للقيام بالخطوة التالية . ومع تزايد الاهتمام بالأسرار المكشوفة عن فضيحة "إيران غيت" في الولايات المتحدة ، قرّر رئيس الموساد أن يفضح دور ياكوف نمرودي ، العميل السري السابق في جهاز "أمان" الإسرائيلي ، في الفضيحة السريعة الانتشار . فقد كان عضواً في الكونسورتيوم الذي أنشأه ديفيد كيمحي

واستعمل خبرته الاستخبارية لاستبعاد الموساد عما كان يدور . وكان نمرودي المخادع السريع الكلام قد اضطرّ وزير الخارجية الأميركي جورج شولتز عند بدء مقايضة صفقة الأسلحة بالرهائن إلى التصريح "إن برنامج إسرائيل مختلف عن برنامجنا ، وإن أي علاقة استخبارية مع إسرائيل في ما يتعلق بإيران قد لا تكون مما يروق لنا الاعتماد عليها اعتماداً كلّياً" .

بعدما انسحب كيمحي من الكونسورتيوم بقي نمرودي فيه لفترة من الزمن . ولكن مع اصطخاب الأصداء الوافدة من واشنطن وازدياد حرج إسرائيل جرّاءها ، توارى العميل السري السابق لـ "أمان" عن الأنظار ليحمي رأسه . لكن أدموني المتألّم من طريقة معاملة نمرودي للموساد قرّر إحراج نمرودي علناً ، وفي الوقت نفسه تعزيز موقف بازوفت المهني ليصبح أكثر فائدة في خدمة الموساد .

زوّد عبد الحميد المراسل بتفاصيل وافية جعلته يدرك أن هذه ربما كانت فرصته الكبرى ، فأخذ بازوفت القصّة إلى "الابزرفر" فنشرتها مع إشارات إلى إسرائيلي غامض يدعى نمرودي متورّط في فضيحة "إيران غيت" . وما لبث بازوفت أن أصبح يكتب بانتظام لـ "الابزرفر" حتى نال جائزته المرتجاة التي يطمح لها غير الموظفين الثابتين فأصبح له أخيراً مكتبه الخاص . وبذلك لم يعد بازوفت مضطراً إلى دفع ثمن المكالمات التي يجريها لتعقّب أحداث قصة ما من منزله . كما أجيز له استرداد ما ينفقه أثناء استضافة مصادر أخباره . لكن بازوفت بقي لا يتقاضى أجراً سوى عمّا ينشر في الصحيفة . وكان هذا ما يحفزه للعثور على أخبار جديدة وبذل أقصى الجهد للذهاب في رحلات إلى الشرق الأوسط . ففي مثل هذه الحالة تسدّد الصحيفة كامل نفقاته ، ويتمكّن كحال جميع المراسلين أمثاله من التلاعب بحساب النفقات لتحصيل مبالغ من المال تزيد عما أنفقه بالفعل . فشحّ المال كان دائماً إحدى مشاكل بازوفت ، وهو ما كان يحرص على إخفائه عن زملائه في "الابزرفر" .

ولم يخامر الشك أحداً في أن المراسل الذي كان يمضي الساعات وهو يتحدّث بالفارسية مع مصادر أخباره كان سارقاً أدانته المحكمة . فقد أمضى بازوفت ثمانية عشر شهراً في السجن بعد عملية سطو قام بها على مؤسّسة مالية للإقراض العقاري . ولدى نطقه بالحكم ، أمر القاضي بترحيل بازوفت بعد نهاية مدّة سجنه . فاستأنف بازوفت الحكم متذرّعاً بأنه سيواجه الإعدام إذا هو أُعيد إلى إيران . وقد رُفض الاستئناف ، لكنه مُنح "إذناً استثنائياً" للبقاء في بريطانيا لمدة غير محدّدة . وهذه خطوة غير مألوفة بقيت دواعيها سراً محفوظاً لدى وزارة الداخلية البريطانية .

هل تنبّه الموساد إلى إمكانيات بازوفت فاستخدم أحد المتطوّعين الرفيعي المستوى في الحكومة البريطانية لتسهيل الأمور؟ هذا أمر لم يحسم ، لكن الاحتمال وارد .

بعد خروجه من السجن بدأ بازوفت يصاب بنوبات من الاكتئاب عالجها بتناول الأدوية المثلية . هذا الجانب الخاص من حياته اكتشفه أحد عملاء الموساد . ريوبرت أليسون الكاتب الإنكليزي والنائب عن حزب المحافظين ، وهو خبير متميّز في سبل التجنيد في صفوف الاستخبارات صرّح في ما بعد بأن شخصية كشخصية بازوفت تجعله هدفاً كبيراً للموساد .

بعد عام من تعرّف عبد الحميد إلى بازوفت جنّده . أما كيف وأين جرى التجنيد فأمر لا يزال مجهولاً . ومن المؤكد أن المبالغ المالية الإضافية دخلت في اعتبارات بازوفت الذي كان لا يزال يعاني من ضيق ذات اليد . وبالنظر إلى كونه ممن ينظرون إلى الحياة بمنظار دراماتيكي فقد يكون دخل في اعتباراته إمكان تحقيق أحد أحلامه وهو أن يكون جاسوساً على طريقة مراسل الشؤون الأجنبية الراحل الذي يكن بازوفت له الاحترام : فيلبي . فهذا أيضاً عمل في صحيفة "الأوبزرفر" للتمويه عن نشاطه كجاسوس سوفياتي .

ومن المؤكد أن بازوفت بدأ يبني لنفسه بعض الشهرة فعوّض عن ضعف أسلوبه في الكتابة بأعمال البحث الجيّدة . وكل ما عثر عليه في إيران أحاله إلى عميل الموساد في لندن . وإلى جانب ما ينشره من تحقيقات في "الأوبزرفر" كان بازوفت يقوم بمهام صحافية بتكليف من شبكة تلفزيون "إندبندنت تليفجن نيوز" المستقلة وصحف مجموعة "ميرور" . في ذلك الوقت كان رئيس قسم الشؤون الخارجية في صحيفة "ديلي ميرور" نيقولاس ديفيس الذي كانت له موهبة الصحافيين في القيل والقال والقدرة على تحمّل الشرب بالإضافة إلى كونه حسن المعشر . وقد تخلّى ديفيس عن لكنته الإنكليزية الشمالية ، ويقول زملاء له أنه أمضى الساعات وهو يتعلّم ويتقن لهجته العذبة الحالية . وهو يجتذب النساء بحسن تصرّفه وطريقته الرجولية في طلب طعام العشاء واختيار النبيذ الجيّد . وكن يعجبن به كرجل مجرّب كثير الأسفار إذ يتحدث عن الأماكن النائية وكأنها جزء من اقطاعاته الخاصة . وفي الهزيع الأخير من الليل كان يتحدّث تلميحاً أثناء تناول كأس آخر من الشراب عن مغامرات كان بعض الخبثاء يشيرون إليها على أنها من "رومانسيات نيك" .

ولم يكن أحد على علم بأن ناحوم أدموني قد أعطى الضوء الأخضر لتجنيد ديفيس في الموساد . وقد فات ذلك زملاءه في صحيفة "ميرور" والحلقة الواسعة من أصدقائه خارج عالم

الصحافة وحتى زوجته جانيت الممثلة الأسترالية المولد التي لعبت دوراً في "دكتور هو" المسلسل التلفزيوني الناجح الذي عرضته "بي .بي .سي ." .

وكان ديفيس يصرّ دائماً على أنه حتى ولو "جرت مفاتحته بالأمر" ، فهو لم يعمل كعميل للموساد وأن وجوده في بهو الفندق بعد ظهر يوم الجمعة من نيسان (أبريل) كان بصفته صحافياً يراقب تجّار الأسلحة وهم يهتمّون بشؤون تجارتهم . ولم يستطع في ما بعد أن يتذكّر ما دار بينه وبين بازوفت من حديث في البهو ، لكنه قال "أتصور أننا تحدّثنا عما كان يجري" . وقد رفض تقديم إيضاحات أخرى وتمسّك بهذا الموقف بعناد .

سافر الرجلان إلى العراق مع مجموعة صغيرة من الصحافيين بينهم مؤلف هذا الكتاب الذي كان في مهمة بتكليف من وكالة "برس اسوسيياشن" البريطانية . أثناء الرحلة التي انطلقت من لندن أمتع ديفيس مجموعة الصحافيين بروايات بذيئة عن روبرت ماكسويل الذي كان قد اشترى صحف "ميرور" . فوصفه بأنه "وحش جنسي يتمتّع بشهية نهمة لإغواء السكرتيرات العاملات لديه" . وقد أوحى بوضوح بأنه مقرّب من ماكسويل مع أن "الكابتن بوب صعب المعشر بصورة لا تطاق ، ويعرف أنني أعرف أكثر مما ينبغي ولذا لا يستطيع طردي" . اعتبر المستمعون أن زعم ديفيس أنه محصّن ضد الصرف من العمل بسبب ما كان يعرفه عن ماكسويل ليس سوى كلام طنّان ومفخّم .

كان بازوفت هادئاً أثناء الرحلة فلم يفُه بكلام كثير لزملائه وأكتفى بالتحدّث إلى مضيفي الطائرة باللغة الفارسية . وساعدت مهاراته اللغوية في مطار بغداد على تسهيل مصاعب الترجمة مع "المرافقين" العراقيين . وفي حركة مسرحية همس ديفيس قائلاً "إن هؤلاء المرافقين ليسوا سوى رجال أمن" ، وأضاف وكأنه يطلق نبوءة : "هؤلاء المغفّلون لن يكتشفوا الجاسوس حتى ولو دلّهم أحد عليه" .

في فندق فلسطين – ميرديان ، أبلغ ممثل "ميرور" رفاق السفر أنه لم يأتِ إلا لـ"الملله الشديد من لندن" . لكنه أوضح أنه لا يعتزم التقيّد بالبرنامج الرسمي الذي يشتمل على زيارة إلى ميدان البصرة حيث سيعرض الجيش العراقي ما غنمه من انتصاره على القوّات الإيرانية . وقال بازوفت أنه لا يعتقد أن صحيفته مهتمّة بالرحلة جنوباً نحو الخليج .

في يوم الجمعة ذاك من نيسان (أبريل) 1988 أمضى بازوفت الساعات في بهو الفندق وهو يراقب تجّار الأسلحة في رواحهم ومجيئهم ويتحادث مرّات مع ديفيس ، وفي المساء

جلس في مقهى الفندق يتناول الطعام وحده . واعتذر عن عدم قبول دعوة الصحافيين الآخرين من لندن للانضمام إليهم قائلاً أنه يحتاج إلى "التفكير ببرنامجه" . وأثناء تناوله وجبة الطعام ، نودي عليه ليردّ على مكالمة هاتفية في البهو . ولمّا عاد بعد بضع دقائق بدا مستغرقاً في التفكير . كان قد طلب بعض الحلوى لكنه غادر الطاولة فجأة متجاهلاً النكات البذيئة التي أطلقها بعض الصحافيين عن فتاة يخبئها .

لم يعد بازوفت حتى اليوم التالي . وبدا أكثر توتراً وقال لبعض الصحافيين ومنهم كيم فلتشر – وهو صحافي غير متفرّغ يعمل في صحيفة "ديلي ميل" – "أنتم بريطانيو المولد والنشأة فلا بأس عليكم . أما أنا فإيراني إي أنني مختلف" . وقد تساءل فلتشر كما غيره من الصحافيين الإنكليز عما إذا كان "بازوفت قد عاد للقرع على فكرة مدى صعوبة وضعه باعتبار نشأته" .

أمضى بازوفت معظم وقته في ذلك اليوم وهو يذرع بهو الفندق أو يقبع في جناحه . وقد غادر الفندق مرتين لفترتين قصيرتين . وفي البهو أجرى عدة محادثات مع نيقولاس ديفيس الذي روى في ما بعد أن بازوفت كان "كأي صحافي يلاحق قصته ، قلقاً ما إذا كان سيفوز بما يريده" . أما من جهته فقد أعلن رئيس القسم الخارجي في صحيفة "ميرور" أنه لن يكتب شيئاً ، "فليس في هذا المكان ما يثير اهتمام الكابتن بوب" .

وعصر ذلك اليوم غادر بازوفت الفندق مرة أخرى . وكالمعتاد تعقّبه أحد المرافقين العراقيين . لكنه عندما عاد كان بمفرده ، وسمع الصحافيون بازوفت يتذمّر من تعقّبه في كل مكان "ككلبة مهتاجة" . ولم تحسّن ضحكة ديفيس مزاج بازوفت البتّة ، فعاد إلى جناحه في الفندق من جديد . وعندما عاود الظهور في البهو قال لعدد من المراسلين إنه لن يعود معهم إلى لندن . وبصوت غامض يحبّ أن يتحدّث به أحياناً ، أضاف "استجدّ أمر مهم" . وقال فلتشر "فقط قصّة مهمة يمكن أن تبقيني هنا" .

وبعد ذلك ببضع ساعات غادر بازوفت الفندق . وكانت تلك آخر مرة يراه فيها أي من صحبه قبل أن يظهر على شريط الفيديو الذي وزّعه النظام العراقي في أنحاء العالم بعد سبعة أسابيع من اعتقاله واعترافه بأنه جاسوس في خدمة الموساد .

في تلك الأثناء ، كان بازوفت في مهمة كلّفه بها الموساد ، وهي مهمة كانت سترهق كاهل العملاء المدرّبين أنفسهم . فقد أُمر بأن يحاول اكتشاف مبلغ تقدّم خطط جيرالد بول

لتزويد العراق بالمدفع العملاق . ويظهر تكليف صحافي مثل هذه المهمّة بوضوح مدى استعداد رؤسائه لاستغلاله . كما اتخذ الموساد من جانبه الخطوات التي تظهر أن بازوفت ، إذا قبض عليه ، يعمل في خدمة شركة مقرّها لندن تدعى "ديفنس سيستمز ليمتد" . وعندما اعتقل بازوفت على مقربة من أحد حقول اختبار المدفع العملاق عثر رجال الأمن العراقيون أيضاً بحوزته على عدد من الوثائق التي تشير إلى أن بازوفت أجرى عدداً من المكالمات من الفندق بمكاتب الشركة المذكورة . وقد أنكرت الشركة أي علم لها ببازوفت ، كما أنكرت أن تكون لها صلة بالموساد .

ومن شاهد شريط الفيديو لاحظ أن عيني بازوفت كانت أحياناً تحدّقان في الفراغ ثم ترفّ جفونهما فجأة في سرعة وتجوبان في أنحاء الغرفة التي ظهر في مؤخرتها ستار مزخرف بحاليق متعرّشة . بدا بازوفت كشخص مقتنع بأن لا حول له ولا قوة في تجنّب فنائه .

في تل أبيب تفحّص العلماء النفسيون في الموساد كل لقطة . وكان رأيهم أن مراحل تحطّم بازوفت سارت على النهج نفسه الذي لاحظه المحققون الإسرائيليون عندما كانوا ينتزعون الاعترافات من مناضل فلسطيني معتقل . فقد مرّ بازوفت في البداية بمرحلة عدم التصديق وهو إنكار غريزي لحقيقية ما يحدث له . ثم اجتاحه شعور طاغ ومفاجئ ومدمّر بأن الأمر حقيقي . لقد تورّط . عند هذا الحد يمكن أن يكون المراسل المسكين قد أحسّ بردّي فعل ، الأول هو الذعر المشلّ والثاني رغبة جامحة بالكلام . ولعلّه هنا أدلى باعترافه على شريط الفيديو بأنه عميل للموساد .

وتوحي نبرة صوته الرتيبة بأنه أصيب بنوبات من الاكتئاب الخارجي المنشأ أثناء اعتقاله ، وذلك كنتيجة لإبعاده عن أشياء حياته المألوفة وتعطيل أسلوب حياته المعتاد تعطيلاً كاملاً . ولعلّه شعر بتعب دائم ، وما كان النوم القليل الذي سمح له بأن يغطّ فيه يكفي لإنعاشه . وعند هذا الحد بلغ ميله لاتهام نفسه مرحلته المدمّرة وشعوره باليأس ذروته . وسيطر عليه اتهامه لنفسه . ولعلّه كحال السجين في رواية كافكا "المحاكمة" شعر بأنه "غبي" لأنه تصرّف كما فعل وعرّض حياة الآخرين للخطر .

وتُظهر عينا بازوفت على شريط الفيديو أنه تلقّى جرعات مخدّرة . وقد تبيّن لعلماء الصيدلة في الموساد استحالة معرفة نوع العقاقير التي استخدمت معرفة دقيقة .

أدرك ناحوم أدموني أن ذلك الاعتراف المذلّ الذي تضمّنه شريط الفيديو يمثّل تمهيداً

لإعدام بازوفت ، فأمر خبراءه في الحرب النفسية بشن حملة لاتقاء الأسئلة المحرجة المتعلّقة بتورّط الموساد مع بازوفت .

وسرعان ما انتقد نواب بريطانيون علناً صحيفة "الأوبزرفر" لإيفادها بازوفت إلى العراق . وفي الوقت نفسه جرى إمداد بعض الصحافيين الموثوق بهم بروايات مفادها أن صدّام حسين كان يشاهد أشرطة الفيديو التي تصوّر كل مرحلة من مراحل استجواب بازوفت . وربما صحّ هذا الزعم . لكن المؤكد أن مروّجي هذه الروايات استخدموها كذريعة لتذكير العالم بأن التعذيب والقتل من الأدوات السياسية التي تستخدمها الدولة في العراق . أُعدم بازوفت شنقاً في بغداد في آذار (مارس) 1990 . وكان آخر ما نقل عنه وهو أمام المشنقة قوله "إنني لست جاسوساً إسرائيلياً" .

في لندن ، قرأ نيقولاس ديفيس تنفيذ الإعدام في خبر بثّته وكالة "رويترز" وصل إلى القسم الخارجي في صحيفة "دايلي ميرور" . وتنفيذاً للتوجيهات المتعلّقة بكل الأخبار التي تجيء من الشرق الأوسط ويرى أنها مهمة ، حمل ديفيس التقرير إلى مكتب روبرت ماكسويل .

منذ عام 1974 والناشر ماكسويل أحد أقوى المتطوعين لخدمة الموساد في بريطانيا . ويقول ديفيس وهو يستعيد ما حدث "قرأ بوب التقرير ولم يعلّق بشيء" ، لكن ديفيس لا يذكر "بكل صدق" ما كان شعوره إزاء موت بازوفت .

في تل أبيب ، كان أحد الذين قرأوا خبر تنفيذ الإعدام أحد أكثر الشخصيات التي عملت في خدمة رؤساء الموساد نبضاً بالحيوية : آري بنمناشي . لم يكن سمع ببازوفت من قبل . ولكن كما يتوقّع منه فقد شعر بنمناشي الزئبقي الشخصية بالحزن لكون "رجل طيب آخر وجد في المكان غير المناسب في الوقت غير المناسب" . مثل هذه الأحكام العاطفية هي ما جعل بنمناشي الأسمر الوسيم السريع البديهة مستبعداً من الترشيح لمنصب بارز في أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية . ومع ذلك فقد بقي مدة عشر سنوات ، من 1977 وحتى 1987 ، يشغل منصباً حساساً في قسم العلاقات الخارجية لقوّات الدفاع الإسرائيلية ، وهو أقوى تنظيمات أجهزة الاستخبارات وأكثرها سريّة .

عام 1974 ، أنشأ قسم العلاقات الخارجية رئيس الوزراء يومئذ اسحق رابين . كان رابين يتلوّى مما أصاب إسرائيل من الهجوم السوري – المصري المفاجئ في حرب تشرين الأول (أكتوبر) 1973 ، فرأى أن أفضل طريقة لتجنّب وقوع مثل هذا العطل الاستخباري مرة أخرى

إنشاء هيئة دائمة ترصد أجهزة الاستخبارات الأخرى، وفي الوقت نفسه تقوم بجمع المعلومات السرية الخاصة بها.

وتحت مظلة قسم العلاقات الخارجية المذكور أنشئت أربعة فروع عاملة، كان أهمها "سيم" الذي يمدّ بـ"المساعدات الخاصة" العدد المتنامي من حركات التحرير في إيران والعراق وإلى درجة أقل سورية والمملكة العربية السعودية. أما الفرع الثاني في الأهمية "ريش" فيتولى ملف العلاقات مع شبكات الاستخبارات الصديقة، وفي رأس القائمة "مكتب أمن الدولة" في جنوب أفريقيا. وهناك في الموساد وحدة مشابهة تدعى "تيفيل" تقيم هي أيضاً علاقات وثيقة مع أجهزة الاستخبارات في جنوب أفريقيا. والعلاقات بين "ريش" و"تيفيل" غالباً ما يشوبها التوتّر بسبب التداخل المحتوم في وظيفتهما. وتدعى الدائرة الثالثة في قسم العلاقات الخارجية "الرابطة الخارجية"، وهي تتعامل مع الملحقين العسكريين الإسرائيليين وعناصر الجيش الإسرائيلي الآخرين المنتدبين للعمل في الخارج. وترصد هذه الدائرة أيضاً نشاطات الملحقين العسكريين الأجانب في إسرائيل. وهو أمر أورث شقاقاً هذه المرة مع "شين بيت" الذي كان حتى قيام الدائرة الجديدة صاحب الصلاحية الوحيد في مراقبة مثل هذه النشاطات. أما الدائرة الرابعة فتدعى "الاستخبارات 12" وقد أنشئت للتنسيق مع الموساد فزاد تأزم العلاقات مع العاملين في الطبقة العليا من ذلك المبنى القائم على بوليفار الملك شاوول. فقد شعروا أن قسم العلاقات الخارجية سيحدّ من سلطتهم.

أنتدب بنمناشي للعمل في "ريش" وعيّنت له مسؤولية الملف الإيراني. وقد تسلّم وظيفته في الوقت الذي كانت إسرائيل توشك أن تخسر أقوى حلفائها في المنطقة. لقد عمل شاه إيران بجدّ طوال ما يزيد على ربع قرن وبعيداً عن الأضواء لإقناع جيران إسرائيل من العرب بإنهاء حال العداء تجاه الدولة اليهودية. كان لا يزال يحقّق نجاحاً محدوداً خصوصاً مع الملك الأردني حسين عندما أطاحت عرش الطاووس الذي يجلس عليه ثورة آية الله الخميني الإسلامية في شباط (فبراير) 1979. وعلى الفور سلّم الخميني مبنى السفارة الإسرائيلية في طهران إلى منظمة التحرير الفلسطينية. وبالسرعة نفسها عمدت إسرائيل إلى مساعدة الأكراد على شن حرب عصابات ضد النظام الجديد. كذلك استمرت إسرائيل بمدّ طهران بأسلحة تستخدمها ضد العراق. كانت سياسة "قتل الجانبين معاً" التي تبنّاها ديفيد كيمحي وغيره في الموساد قد وضعت قيد التنفيذ.

وسرعان ما وجد بنمناشي نفسه شريكاً في مخطط ديفيد كيمحي الجهنمي لمقايضة الرهائن بأسلحة تقدّم إلى إيران . وسافر الرجلان معاً إلى واشنطن حيث يزعم بنمناشي أنه طاف خلسة في أروقة البيت الأبيض الواسعة واجتمع إلى الرئيس ريغان وتخاطب مع كبار مساعديه بدون تكلّف .

وبنمناشي شخصية جذّابة ومتهوّرة ما جعله ضيفاً دائماً على حفلات أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية حيث يتبادل كبار السياسيين المعلومات مع مسؤولي الاستخبارات لما فيه فائدة الجانبين . ويشتهر بنمناشي ببراعته في رواية القصص . وفي الوقت الذي بدأ فيه كيمحي صفقة مقايضة الرهائن بالأسلحة عُيّن بنمناشي "المستشار الشخصي" لرئيس الوزراء اسحق شامير لشؤون الاستخبارات ، بعدما أبلغ شامير قوله أنه يعرف أين "دفنوا الجثث" . وقرر كيمحي أن وظيفة بنمناشي الجديدة تجعله الخيار المثالي للعمل مع ضابط الاستخبارات الوحيد الذي يكنّ له بنمناشي إعجاباً لا يضاهى : رافي إيتان . وبعد أخذ موافقة رئيس الوزراء أُعفي بنمناشي من جميع الواجبات الأخرى ليعمل مع إيتان . وانتقل الرجلان إلى نيويورك في آذار (مارس) 1981 . ويذكر بنمناشي أن غرضهما كان صريحاً : "كان أصدقاؤنا في طهران في حاجة ماسّة إلى معدّات إلكترونية متطوّرة لقوتهم الجوية ودفاعاتهم الجوية والأرضية . وطبيعي أن تريد إسرائيل مساعدتهم بقدر ما تستطيع في حربهم ضد العراق" .

استخدم الرجلان في سفرهما جوازي سفر بريطانيين ، وانشأا شركة في حي المال في نيويورك . ولم يلبثا أن شكّلا فريقاً من خمسين سمساراً طافوا في أنحاء صناعة الإلكترونيات الأميركية بسرعة بحثاً عن المعدّات المناسبة . وقد أرفقت المبيعات جميعاً بشهادات الوجهة الأخيرة التي تفيد أن المعدات ستستخدم في إسرائيل فقط . ويذكر بنمناشي : "كانت بحوزتنا أكوام من الشهادات التي كنا نملؤها ونرسلها إلى إسرائيل للحفظ في حال اهتمّت جهة ما في التحقّق" .

وأرسلت المعدات جواً إلى تل أبيب . وهناك ، ومن دون المرور على الجمارك نقلت إلى طائرات مستأجرة من شركة "غينيس بيت" في أيرلندا التي نقلتها إلى طهران . كان اختيار شركة "غينيس بيت" ، وهي شركة محترمة لتأجير الطائرات ، أمراً بديهياً . كذلك فإن رافي إيتان هو من طلع بفكرة الاستعانة بطيارين أيرلنديين . فقد حافظ على ما يسميه "زبائني

الأيرلنديين . فإذا أردت عقد صفقة ، فاعلم أن الأيرلنديين يتقنون اللعبة . فكل ما يعنيهم هو الدفع في الموعد المحدّد" .

ومع ازدياد حجم عملية نيويورك بات من الضروري إنشاء شركة قابضة مركزية لمعالجة ملايين الدولارات الناتجة عن شراء وبيع الأسلحة . واختير للشركة اسم "أورا" وتعني "الضوء" بالعبرية .

وفي آذار (مارس) 1983 وجّه رافي إيتان بنمناشي لتجنيد نيقولاس ديفيس للعمل في "أورا" . ومن المؤكد تقريباً أن الجاسوس الكبير سمع بديفيس عن طريق الموساد ، والموساد سمع بديفيس من بازوفت الذي قام ببعض الأعمال الصحافية من خارج "ميرور" بطلب من رئيس القسم الخارجي في الصحيفة . في وقت لاحق من الشهر نفسه التقى بنمناشي وديفيس للمرة الأولى في بهو فندق "تشرشل" في لندن . وبنهاية الاجتماع شعر بنمناشي بأنه عثر في ديفيس على الرجل المطلوب . وفي اليوم التالي تناول الرجلان طعام الغداء في منزل ديفيس وكانت زوجة الصحافي جانيت حاضرة . وسرعان ما تكوّن لدى بنمناشي انطباع بأن ديفيس المتحدّث الحلو اللسان يخشى أن يفقدها . فقال في نفسه "هذا جيد . إنها نقطة ضعفه" .

اتفق على قيام ديفيس بوظيفة المستشار لشركة "أورا" أثناء لقاء عقد في فندق "دان أكاديا" المطلّ على البحر شمال تل أبيب . ويذكر بنمناشي : "اتفقنا على أن يكون هو قناتنا اللندنية لتمرير الأسلحة وعنوان الاتصالات لمختلف الصفقات الإيرانية وغيرها . وسيستخدم عنوان منزله على أوراق "أورا" وخلال النهار يمكن للجانب الإيراني الذي نتعامل معه الاتصال برقم هاتف مكتبه المباشر :3530-822" .

وفي المقابل يتلقى ديفيس عمولات تتناسب مع دوره الجديد كطرف رئيسي في عملية إمداد إيران بالأسلحة . أما المبلغ الإجمالي الذي سيتلقاه فهو 1.5 مليون دولار تودع في حسابات مصرفية في جزر الكايمان وبلجيكا ولوكسمبورغ . وقد استخدم جزءاً من هذا المال في تسوية قضية طلاقه ، إذ تلقّت جانيت مبلغاً مقطوعاً مقداره 50 ألف دولار . وسدّد ديفيس جميع قروضه المصرفية واشترى منزلاً من أربع طبقات تحوّل مقراً أوروبياً لـ"أورا" ورقم هاتفه 0015-231 ، وصار عنوان اتصال آخراً لتجار الأسلحة الذين باتوا جزءاً من حياة ذلك الصحافي . وبوصفه رئيساً للقسم الخارجي في صحيفته بدأ ديفيس يزور الولايات المتحدة وأوروبا وإيران والعراق .

وراقت لبنمناشي رؤية ديفيس وهو "يقدّم نفسه أثناء أسفاره على أنه يمثل مجموعة "أورا" . فكان يرتّب الاجتماع ، عادة خلال نهاية الأسبوع ، ويسافر إلى المدينة المعيّنة ويعدّ العدّة لإرسال عدد الأسلحة المطلوبة ولتسديد الثمن" .

عام 1989 تلقّى حجة الإسلام علي أكبر هاشمي رفسنجاني في إيران برقية من شركة "أورا" تتعلّق ببيع إيران أربعة آلاف صاروخ من طراز "تاو" كلفة الواحد منها 13800 دولار . وخلصت البرقية إلى التأكيد على أن "نيقولاس ديفيس هو يمثل شركة "أورا" ومخوّلٌ توقيع العقود" .

كان ذلك زمن العيش الرغد في حياة آري بنمناشي ونيقولاس ديفيس والشخصية القوية التي يزداد حجم ظهورها في خلفية الأحداث المتكشفة : روبرت ماكسويل . لكن أياً من هؤلاء لم يشكّ للحظة بمبلغ قتامة حقيقة القول الشائع الذي يستحسن ديفيس استخدامه : "ليس هناك شيء اسمه غداء مجّاني" ، أو بكلام آخر : لكل شيء ثمنه .

الفصل التاسع

مال رشى وجنس وأكاذيب

بدت الأمور في ذلك الصباح من أواخر شهر آذار (مارس) عام 1985 مختلفة كثيراً عندما استقل آري بنمناشي رحلة الخطوط الجوية البريطانية الصباحية المبكرة من تل أبيب إلى لندن . وبينما كان يتناول طعام الإفطار أثناء الرحلة ، فكّر ملياً بأن حياته أصبحت على أحسن ما يرام . فإلى جانب جني الأموال الطائلة ، تعلّم الكثير على يدي ديفيد كيمحي خلال رحلات الصيد في عالم بيع الأسلحة الشديد التعقيد . وفي هذه الأثناء ، تعمّقت ثقافته في العلاقة المتداخلة المستمرة بين السياسيين ورؤساء الاستخبارات في إسرائيل . يقول بنمناشي "بالمقارنة مع زملائي السابقين فان تاجر الأسلحة العادي منهم كان صبياً في جوقة المنشدين" . لقد عيّن المشكلة :

أنها النتائج التي نجمت عن مغامرة إسرائيل في لبنان الذي انسحبت منه في ما بعد وهي مدمّاة ومضعضعة المعنويات . كان السياسيون يتوقون إلى استعادة هيبتهم فأطلقوا العنان كاملاً لأجهزة الاستخبارات لشن حرب لا هوادة فيها ضد منظمة التحرير الفلسطينية التي رأوا أنها وراء جميع مشاكل إسرائيل . وكانت النتيجة وقوع سلسلة من الفضائح تتعلق بتعذيب وقتل "إرهابيين مشتبه بهم" أو حتى عائلاتهم . عُيّن اسحق هوفي رئيس الموساد السابق رئيسا للجنة حكومية تشكلت نتيجة للتحقيق في السلوك الوحشي ، وخلصت إلى أن عملاء الاستخبارات كانوا يكذبون دائما أمام المحكمة بشأن طريقة الحصول على الاعترافات . فغالباً ما كانت الأساليب المتّبعة فظّة . ودعت اللجنة إلى اتباع "الإجراءات اللائقة" .

لكن بنمناشي كان يعلم أن التعذيب مستمر ، وقال "من الأفضل أن يكون المرء بعيداً عن مثل هذه الأمور الشنيعة" . واعتبر أن ما يفعله هو ، كبيع الأسلحة إلى الإيرانيين لقتل عدد لا يُعَدّ ولا يحصى من العراقيين ، "أمر مختلف" . كما أن مأزق رهائن بيروت ، وهو السبب الرئيسي وراء أعمال السمسرة والصفقات التي يشارك فيها ، لا يعنيه كثيراً . كان همّه جني المال . وعلى رغم رحيل كيمحي ظل بنمناشي يعتقد أن دوامة الخيل التي يركبها لن تقف إلا بقرار منه ، وعندها سيخرج منها مليونيراً كبيراً . وفي حسابه تصل قيمة تجارة شركة "اورا" الآن إلى "مئات الملايين" نتج معظمها عبر ذلك المنزل القائم في ضواحي لندن والذي يستخدمه نيقولاس دايفيس لإدارة عمليات "اورا" الدولية .

كان بنمناشي يعلم أن دايفيس مستمرٌ في تكديس ثروة خاصة به ، تزيد كثيراً على الخمسة وستين ألف جنيه إسترليني التي يتقاضاها كراتب سنوي عن عمله كمحرر للشؤون الأجنبية في صحيفة "الدايلي ميرور" . فمثل هذا المبلغ كان يساوي عمولة دايفيس الشهرية من "اورا" . لم يأبه بنمناشي لاستيلاء الصحافي "على حصة كبيرة من كعكة الحلوى ، فما يتبقّى منها وافر . ولا يزال الاحتفال قائماً" .

كان روبرت ماكسويل يوزّع الشمبانيا بسخاء على ضيوف مكتبه القائم على رأس مبنى مجموعة صحف "ميرور" . وعندما تحطّ طائرة الخطوط الجوية البريطانية سيذهب بنمناشي في سيارة "ليموزين" يقودها سائق خاص لمقابلة ماكسويل الذي يرسل السيارة الفخمة لإظهار مدى تقديره له ، كما يعتقد بنمناشي . وسيكون إلى جانبه في السيارة المدير العام للموساد ناحوم أدموني الذي يصل على متن طائرة "العال" بعد ساعة من موعد وصول طائرة الخطوط الجوية البريطانية . كان بنمناشي يعتزم تمضية الوقت بانتظار أدموني في مطار هيثرو ، في مراجعة ما تجمّع لديه عن كيفية تحوّل ماكسويل أحد بارونات الصحافة الأقوياء إلى أهم متطوّع لخدمة الموساد .

تطوّع ماكسويل لتقديم خدماته في نهاية اجتماع عقده عام 1984 في القدس مع شمعون بيريز الذي كان قد شكّل أخيراً حكومة ائتلافية . ويتذكر أحد معاوني بيريز أن اللقاء كان "لقاء الغرور بالمصاب بجنون العظمة" . كان بيريز متغطرساً واستبدادياً . ولكن ماكسويل لم ييأس ، فقال مثلاً "إنني سأجعل الملايين تتدفّق على إسرائيل" و"سأنعش الاقتصاد" . كان يتصرّف كمرشح للانتخابات . وكان كلامه طنّاناً ، وقاطع محادثه غير مرة ،

وخرج عن الموضوع ، وأطلق نكاتاً غير مهذبة . أما بيريز فجلس مكانه وهو يبتسم ابتسامة مثلوجة" .

كان بيريز يدرك أن ماكسويل قد أنشأ على مر السنين علاقات قوية في أوروبا الشرقية ، ولذا رتّب لماكسويل لقاءً مع أدموني . وجرى الاجتماع في "الجناح الرئاسي" في فندق الملك داود في القدس حيث أقام ماكسويل . وقد وجد الرجلان جامعاً مشتركاً هو نشأتهما في وسط أوروبا . فماكسويل مولود في تشيكسلوفاكيا (الأمر الذي حدا ببيريز إلى إطلاق إحدى دعاباته القليلة قائلاً أن ماكسويل "هو التشيكي الواثب (أيضا الصك بلا رصيد) الوحيد الذي يعرفه ولا ينقصه المال" . وكان يجمعهما التزامهما الشديد بالصهيونية ، واعتقادٌ بأن لإسرائيل حقاً إلهياً بالوجود . كما تجمع بينهما شهيّة عظيمة للطعام والخمر الجيدة .

أبدى أدموني اهتماماً شديداً بوجهة نظر ماكسويل بأن كلا الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي تحدوهما الرغبة نفسها في تحقيق السيطرة الكونية ولكن بطرق مختلفة اختلافاً كبيراً . فالفوضى الدولية تمثّل جزءاً من إستراتيجية روسيا ، في حين ترى واشنطن العالم ضمن تصنيف "الأصدقاء" و"الأعداء" ، وليس كدول ذات مصالح إيديولوجية متضاربة . وعرض ماكسويل رؤيا تبصّرية أخرى منها أن الاتصال السرّي بين وكالة الاستخبارات الأميركية "سي .آي .أي ." ونظيرتها الصينية أقلق وزارة الخارجية الأميركية التي رأت أن ذلك سيصطدم بالعمل الديبلوماسي والنشاطات السياسية في المستقبل .

رسم ماكسويل صورتين دقيقتين لرجلين يهتم بهما أدموني كثيراً ، فقال أنه بعد لقاء رونالد ريغان خرج بشعور بأن الرئيس متفائل أبديّ يستخدم جاذبيته لإخفاء صورة السياسي الصلب . وأخطر نقطة ضعف لدى ريغان هي تسطيحه الأمور خصوصاً في الشرق الأوسط حيث لا يعدّل طول تفكيره في الأمور من حكمه الأوّلي الانفعالي .

اجتمع ماكسويل أيضاً بوليام كيسي ، رئيس الاستخبارات الأميركية ، وكان حكمه عليه أنه ضيّق الأفق ، وأنه ليس صديقاً لإسرائيل . كان كيسي يدير وكالة ذات كفاءة عالية بأفكار قديمة تتعلّق بدور الاستخبارات في ميادين الصراع العالمي السياسي الراهن . ويرى ماكسويل إن أوضح ما يكون ذلك في الطريقة التي أساء فيها كيسي قراءة نيّات العرب في الشرق الأوسط .

تطابقت هذه الآراء تماماً مع آراء ناحوم أدموني . وبعد الاجتماع ركب الرجلان سيارة

أدموني إلى مقر الموساد الرئيسي حيث اصطحب المدير العام ضيفه في جولة على بعض المنشآت .

والآن بعد مرور سنة على اجتماعهما سيتقابل الرجلان مرة ثانية في 15 آذار (مارس) 1985 .

دخل أدموني وبنمناشي جناح ماكسويل في مركز صحيفة "ميرور" في حي هاي هولبرن في لندن ، من دون علم مسبق بأن هناك شخصاً آخر سيجالسانه ويشاطرانه حلقات الحلوى والسمك المدخّن والقهوة التي أمر ماكسويل بأن يأتوه بها كلما جاء إلى مكتبه .

وفي حركة استعراضية قدّم ماكسويل لضيفيه فيكتور شبريكوف نائب رئيس الاستخبارات السوفياتية "كي .جي .بي ." وأحد أقوى زعماء التجسّس في العالم .

ويقول بنمناشي في تصريح مكبوح قصداً "أن وجود أحد زعماء "كي . جي . بي ." في مكتب أحد ناشري الصحف البريطانية قد يبدو حماقة غريبة ،لكن غورباتشوف كان حينئذ على صلات ودية برئيسة الوزراء مارغريت ثاتشر فكانت مشاهدة شبريكوف في بريطانيا أمراً مقبولاً" .

لكن يختلف الرأي في ما سيكون عليه موقف مؤسسة الإيديولوجية الثاتشرية ومبادئ التجارة الحرّة التي تدعو لها إزاء جدول أعمال الاجتماع . شارك أدموني وبنمناشي في النقاش وهما متمددان على أرائك مكتب ماكسويل الوثيرة . كانوا يسألون عما إذا كان بإمكان شبريكوف ضمان سلامة كميات ضخمة من الأموال إذا جرى تحويلها إلى المصارف السوفياتية؟ كان المال سيأتي من أرباح "اورا" من مبيعات الأسلحة الأميركية إلى إيران .

سأل شبريكوف عن حجم الأموال موضوع السؤال فأجابه بنمناشي "450 مليون دولار أميركي يعقبها مبلغ مماثل . بليون أو أكثر" . نظر شبريكوف إلى ماكسويل للتأكّد من حقيقة ما سمعه فأومأ ماكسويل بحماسة وصاح "هذه هي البيريسترويكا" .

استحسن بنمناشي الاتفاق أكثر لبساطته . فلن تكون هناك جمهرة من الوسطاء الذين ينتزعون حصصهم من السمسرة . فليس ثمّة سوى "ماكسويل بعلاقاته وشبريكوف لما يتمتع به من سلطان . وسيكون دوره ضمان عدم سرقة السوفيات للأموال . واتُّفق على أن تحوّل دفعة الـ 450 مليون دولار الأولى من مصرف "كريدي سويس" إلى "بنك بودابست" في المجر . وسيتولّى هذا المصرف تحويل الأموال إلى المصارف الأخرى في الكتلة السوفياتية" .

وسيتلقى روبرت ماكسويل عمولة محدّدة قيمتها ثمانية ملايين دولار عن وساطته لعقد الاتفاق . وتصافح الجميع بالأيدي علامة الاتفاق ، واقترح ماكسويل شرب كأس الشمبانيا نخب مستقبل الرأسمالية في روسيا . بعدئذ انتقل ضيوفه على متن طائرته المروحية إلى مطار هيثرو حيث تابعوا رحلات العودة إلى بلادهم .

وباستثناء نيقولاس دايفيس لم يفطن الصحافيون في مبنى مجموعة صحف "ميرور" إلى أنهم قد فوّتوا فرصة الحصول على خبر صحافي ضخم . ولن يلبثوا أن يفوّتوا الفرصة مرة أخرى عندما سيغدر ماكسويل بمهاراتهم الصحافية في محاولة منه لحماية إسرائيل .

منذ بداية علاقته بالموساد ، اتُّفق على أن ماكسويل أثمن من أن يقحم في شؤون جمع المعلومات السرية . ويقول أحد العاملين في أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية : كان ماكسويل يسوّي المشكلات على المستوى الأعلى في حسابات الموساد . كان على اتصال بكبار المسؤولين . وكانت قوة صحفه تجعله موضع ترحيب رؤساء الدول ورؤساء الحكومات . ونظراً لرفعة مقامه كانوا يتحدثون إليه وكأنه رجل دولة فعلي ، غافلين عن الجهة التي سيبلّغها المعلومات . وكان مقدار كبير مما بلّغه مجرد ثرثرة ، لكن بعضه كان قيّماً ولا شكّ . وكان ماكسويل يعرف كيف يطرح الأسئلة . لم يخضع لأي تدريب عندنا ، لكنه كان يتلقّى توجيهات بشأن النواحي التي ينبغي استكشافها .

في 14 أيلول (سبتمبر) 1986 اتصل ماكسويل بناحوم أدموني على خطه الهاتفي المباشر لينقل إليه أخباراً محبطة . أحد الصحافيين غير المرتبطين من مواليد كولومبيا ويدعى أوسكار غيريرو عرض على صحيفة "صانداي ميرور" التي تصدر الأحد ويملكها ماكسويل قصة مثيرة ستمزق الحجاب المتقن الصنع الذي يموّه الغرض الحقيقي من مفاعل ديمونا . وزعم غيريرو انه يتحدث بإسم تقنيّ سابق عمل في المفاعل النووي مدةً فتمكّن من جمع الأدلة ، بما فيها الصور التي تظهر أن إسرائيل أصبحت دولة نووية كبرى تملك ما لا يقل عن مائة سلاح نووي ذات قوات تدميرية متباينة . وكحال جميع المكالمات التي يتلقّاها أو يجريها مكتب المدير العام للموساد تم تسجيل هذه المكالمات أوتوماتيكياً . ويزعم العامل نفسه في أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية في ما بعد أن المحادثة جرت كالتالي :

أدموني : ما هو اسم هذا التقني؟

ماكسويل : فعنونو . موردخاي فعنونو .

أدموني : أين هو الآن؟

ماكسويل : في سيدني في اوستراليا على ما أظن .

أدموني : سأتصل بك في ما بعد .

أجرى أدموني الاتصال الأول برئيس الوزراء شمعون بيريز الذي أصدر أمراً باتخاذ كل ما يلزم "التأمين الموقف" . بهذه الكلمات أجاز بيريز تنفيذ عملية تقدّم مثالاً آخر على فعالية الموساد القاسية .

تثبّت موظفو مكتب أدموني بسرعة من أن فعنونو عمل في مفاعل ديمونا في الفترة من شباط (فبراير) 1977 وحتى تشرين الثاني (نوفمبر) 1986 . وقد عيّن لمهمة في "ماكون-2" أحد أكثر وحدات الإنتاج العشر سرّيةً في المفاعل . ويبدو المبنى الإسمنتي الذي لا نافذة له أشبه بمستودع ، لكن سماكة جدرانه تكفي لحمايته من اختراق أقوى عدسات الكاميرات الفضائية . ويقوم داخل المبنى الذي يشبه غرف العمليات الحربية نظام من الجدران المصطنعة تقود الزائر إلى مصاعد تهبط عبر الطبقات الست إلى حيث يجري إنتاج الأسلحة النووية .

كان التصريح الأمني الذي يحمله فعنونو يمكّنه من الدخول بلا اعتراض إلى كل زاوية من زوايا "ماكون-2 " . كانت بطاقته الأمنية الخاصة - الرقم 520 - وتوقيعه على وثيقة تتعلق بقانون الأسرار الرسمية الإسرائيلي يكفلان عدم تعرّض أحد له أثناء قيامه بواجباته كمراقب في المناوبة الليلية .

وذهل أدموني إذ قيل له أن من شبه المؤكد أن فعنونو تمكّن خلال أشهر ، وبطريقة ما ، أن يلتقط سراً صوراً للتصميم الداخلي لـ "ماكون-2 " بما فيها لوحات السيطرة وصناديق القفازات وآلات صنع القنابل النووية . وتبيّن من الأدلة أنه خبّأ أفلامه في خزانة ملابسه وتمكّن من تهريبها من المكان الذي يفترض أنه الأشدّ تحصيناً في إسرائيل .

وطالب أدموني بمعرفة كيفية تمكّن فعنونو من تحقيق ذلك كلّه وربما أكثر من ذلك . وماذا لو انه تمكّن حتى الآن من اطلاع وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية (سي .آي .أي .) على ما لديه؟ أو الروس؟ أو البريطانيين أو الصينيين؟ أن الخسارة ستكون فوق مستوى الوصف . وستظهر إسرائيل أمام العالم كدولة كاذبة - دولة كاذبة تتمتع بقدرة على تدمير جزء كبير من العالم . من هو فعنونو؟ ولمصلحة من تراه يعمل؟

ولم تلبث أن جاءت الأجوبة . فعنونو يهودي مغربي ولد في 12 تشرين الأول (أكتوبر) 1954 في مراكش حيث كان والداه المتواضعان يملكان متجراً . وعام 1963 عندما تمثّل العداء لليهود في أعمال عنف صريحة هاجرت العائلة إلى إسرائيل واستقرت في مدينة بئر سبع عند صحراء النقب .

عاش فعنونو سني مراهقة عادية . وكغيره من الشبان ، التحق بالخدمة العسكرية عندما بلغ السن . كان شعره وقتها قد بدأ يتساقط ، فبدا أكبر من سنيّه التسع عشرة . وترقّى إلى رتبة رقيب أول في وحدة اكتساح الألغام المتمركزة في الجولان . وبعد انتهاء الخدمة العسكرية ، تسجّل في جامعة رامات أبيب في تل أبيب . وبعدما رسب في امتحانين تقدّم لهما عند نهاية السنة الأولى من دراسته للحصول على درجة في الفيزياء ، ترك الجامعة . وصيف 1976 تقدّم بطلب لوظيفة جرى الإعلان عنها هي تقنيّ متدرّب يعمل في ديمونا . وبعد مقابلة طويلة مع مسؤول الأمن في المصنع قُبل طلبه وأُلحق بدورة مكثّفة في الفيزياء والكيمياء والرياضيات واللغة الإنكليزية . وقد أبلى بلاءً حسناً فأُعطيَ أخيراً وظيفة تقنيّ في ديمونا في شباط (فبراير) 1977 .

جرى الاستغناء عن خدمات فعنونو في تشرين الثاني (نوفمبر) 1986 ، وكُتبت ملاحظة في ملفّه الأمني بأنه يحمل "معتقدات يسارية ومحبّذة للعرب" . وغادر فعنونو إسرائيل إلى أوستراليا فوصل إلى سيدني في أيار (مايو) من العام التالي . وأثناء هذه الرحلة التي سارت على طريق سبقه إليه إسرائيليون شبان عبروا الشرق الأقصى ، تخلّى فعنونو عن معتقده الديني وأصبح مسيحيّاً . قُدّمت لأدموني صورٌ من مصادر متعددة أظهرت فعنونو كشاب غير جذاب من النوع المتوحّد ، فلم يكن له أصدقاءٌ حقيقيون في ديمونا ، ولم تكن له صديقات . كان يمضي وقته في منزله بقراءة كتب عن الفلسفة والسياسة .

وقال علماء النفس في الموساد لأدموني أن رجلاً كهذا قد يكون متهوّراً ذا إحساس بالقيم منحرف ، وغالباً ما يكون متحرّراً من الوهم . أن مثل هذه الشخصية قد تكون خطرة في سلوكها المفاجئ .

في أوستراليا ، كان فعنونو يقوم بدهان إحدى الكنائس عندما تعرّف إلى أوسكار غيريرو وهو صحافي كولومبي يعمل في سيدني . ولم يلبث الصحافي الثرثار أن لفّق قصة غريبة يُبهج بها أصدقاءه في حي "كينغز كروس" الخليع في سيدني . فزعم أنه مكّن عالماً نووياً

إسرائيلياً كبيراً من الانشقاق وهو يحمل تفاصيل عن خطط إسرائيل لضرب جيرانها العرب بالأسلحة النووية ، وأنه تمكّن من خداع الموساد فأخفى العالِم في بيت آمن في إحدى ضواحي المدينة بينما تولّى هو ، غيريرو ، تسويق "بيع السبق الصحافي الأكبر في القرن العشرين" .

انزعج فعنونو من هذه المزاعم الفارغة ، فقد تحوّل إلى داعية سلام ملتزم وهو يرغب في نشر قصته في صحيفة جادّة حتى ينبّه العالم إلى الخطر الذي باتت إسرائيل ، بنظره ، تمثّله بسبب قدرتها النووية . وكان غيريرو قد اتصل بمكتب صحيفة "صانداي تايمز" اللندنية في مدريد ، فأرسلت الصحيفة المشتهرة بجسارتها صحافياً إلى سيدني لإجراء مقابلة مع فعنونو .

وسرعان ما فضح الاستجواب تلفيقات غيريرو ، فبدأ يشعر أنه يكاد يفقد السيطرة على قصة فعنونو . وازدادت مخاوفه عندما قال الصحافي من "صانداي تايمز" أنه سيصطحب فعنونو معه إلى لندن حتى يمكن التحقّق أكثر من صحة مزاعمه . كانت الصحيفة تعتزم أن تُخضع التقنّي إلى الاستجواب على يد أحد أهم علماء بريطانيا النوويين .

راقب غيريرو فعنونو ورفيق رحلته وهما يصعدان إلى الطائرة المسافرة إلى لندن ، وكانت شكوكه تتزايد لحظة بعد لحظة . كان يحتاج إلى من يشور عليه بما يفعل كي يعالج الموقف ، فلم يجد أمامه إلا عضواً سابقاً في جهاز الاستخبارات والأمن الأوسترالي (أسيس) ، فقال له غيريرو انه خسر بالحيلة قصةً ستهزّ العالم ، ووصف بالضبط ما تمكّن فعنونو من تهريبه من ديمونا ومنها ستون صورة التقطها داخل "ماكون – 2 " ، بالإضافة إلى الخرائط والرسوم . وقد كشفت هذه بصورة قاطعة أن إسرائيل هي سادس أقوى دولة نووية في العالم .

ومرة أخرى لم يحالف الحظ غيريرو ، إذ أنه لم يحسن اختيار من ينصحه . فقد اتصل عميل الاستخبارات الأوسترالية السابق بالجهاز الذي كان يعمل فيه وأعاد على مسمع مسؤوليه ما سمعه من غيريرو . كانت هناك علاقة تعاون بين الموساد والجهاز الأوسترالي يقدم الإسرائيليون في إطاره المعلومات السرية عن الحركات العربية المناضلة من الشرق الأوسط وحتى المحيط الهادئ ، فأبلغ الأوستراليون عميل الموساد الملحق بالسفارة الإسرائيلية في كانبيرا بشأن الاتصال الذي تلقّوه من موظفهم السابق . وعلى الفور نُقلت المعلومات عن طريق الفاكسميلي إلى أدموني ، لكنها كانت مسبوقة بمعلومات أشدّ خطورة . فخلال رحلته

إلى أوستراليا توقّف فعنونو في النيبال وزار السفارة السوفياتية في كتمندو . فهل ذهب إلى هناك ليطلع موسكو على الأدلّة التي لديه؟

ظل متطوّع لخدمة الموساد يعمل في حاشية ملك النيبال ثلاثة أيام حتى اكتشف أن الغرض الوحيد من زيارة فعنونو للسفارة هو الاستيضاح عن وثائق السفر التي يحتاج إليها لتمضية إجازة في الاتحاد السوفياتي في موعد لاحق لم يحدّده . وقد خرج من السفارة محملاً برزمة من الكتيبات السياحية الملوّنة .

في الساعات التي تلت سفر فعنونو إلى لندن بدعوة من "صانداي تايمز" حاول غيريرو أن يعقد صفقة مربحة سريعة ، فعرض نسخة من وثائق فعنونو على صحيفتين أوستراليتين ، لكنهما رفضتاها على أنها مزوّرة .

ودبّ اليأس في غيريرو فلحق بفعنونو إلى لندن ، وإذ لم يتمكّن من العثور عليه حمل الوثائق إلى صحيفة "صانداي ميرور" ، وكان فيها صورة لفعنونو التقطت له في أوستراليا . وخلال ساعات عرف نيقولاس دايفيس بأمر الوثائق فأبلغ ماكسويل على الفور ، وبدوره اتصل الناشر بأدموني . وبعد ساعات عندما عاود رئيس الموساد الاتصال بماكسويل تلقّى أدموني صدمة جديدة . لقد صدّقت "صانداي تايمز" قصة فعنونو فبات من الضروري إذاً معرفة ما صوّره ذلك التقنيّ . كان يأمل أن يتمكن من تحضير ردّ يقلّل من حجم الأضرار . فالأخبار الواردة من كانبيرا تفيد أن دافع غيريرو الوحيد هو المال ، وإذا أمكن إظهار فعنونو بالصورة نفسها ، عندها يمكن شنّ حملة تضليل ناجحة مؤدّاها أن صحيفة "صانداي تايمز" وقعت ضحية محتالين .

ومرة أخرى جيء بأري بنمناشي الذي لا يعرف الكلل ليقدّم خدماته ، فأمره أدموني بالسفر إلى لندن للحصول على النسخ التي أطلع غيريرو "صانداي ميرور" عليها . وقد صرح بنمناشي في ما بعد للصحافي الأميركي المجرّب سيمور هيرش بالقول : "رتّب نيقولاس دايفيس اجتماعاً بين غيريرو وبيني على أنني صحافي أميركي "خطير" . وخلال الاجتماع أبدى غيريرو حماسةً لعقد صفقة بيع جديدة ، فعرض عليّ بعض الصور الملوّنة التي التقطها فعنونو . ما كنت لأتبين مدى أهميتها ، فلا بد أن يطّلع عليها الخبراء في إسرائيل فقلت لغيريرو إنني احتاج إلى نسخ منها ، فحَرَن . فقلت يجب أن أعرف إذا كانت حقيقية إذا كان يريد بيعها ، وأن نيقولاس يشهد لي" .

فسلّم غيريرو بضعة صور إلى بنمناشي نقلها عبر أحد السعاة إلى تل أبيب .

زاد وصولها من حالة الذعر ، إذ تعرف المسؤولون في ديمونا على "ماكون - 2" في الصُوَر . وأظهرت إحدى هذه الصور مكان تصنيع الألغام الأرضية النووية التي ستُزرع على حدود مرتفعات الجولان السورية . لم يعد وارداً إمكان تحطيم صدقيّة فعنونو . فكل فيزيائي نووي سيعرف الغرض من هذه المعدات .

شكّل رئيس الوزراء بيريز فريقاً خاصاً لمراقبة الوضع . وألحّ بعض رؤساء الأقسام في الموساد على إرسال فريق من القتلة إلى لندن للبحث عن فعنونو واغتياله . فرفض أدموني الفكرة . لن تتمكّن صحيفة "صانداي تايمز" من نشر كل ما أبلغها إياه فعنونو ، ولكن حالما تنتهي الصحيفة من التعامل معه سيخضع لاستجواب رجال جهاز "أم .آي .6" ووكالة "سي .آي .أي ." الأميركية وستواجه إسرائيل بذلك مزيداً من المشكلات . والأهم من ذلك معرفة كيفية مزاولة فعنونو نشاطاته التجسّسية في ديمونا ، وهل عمل بمفرده أم مع أشخاص آخرين ، وإذا كان له شركاء فلحساب من يعملون؟ والسبيل الوحيد لمعرفة ذلك هو بإعادة فعنونو إلى إسرائيل واستجوابه .

كان أدموني بحاجة إلى طريقة لإخراج التقني من المخبأ الذي أمّنته له صحيفة "صانداي تايمز" . سيكون أسهل تدبُّر أمر فعنونو عندما يخرج من مخبئه ، وإذا ارتؤي قتله فلن تكون المرة الأولى التي يرتكب الموساد جريمة قتل في شوارع لندن . ففي إطار البحث المزعوم عن مدبّري مقتل الرياضيين الإسرائيليين في دورة الألعاب الأولمبية في ميونيخ ، واغتيالهم ، قتل الموساد أحد عناصر منظمة "أيلول الأسود" في حادث سير مدروس بعناية بينما كان يسير عائداً إلى فندقه في بلومزبري .

في لندن توقّعت صحيفة "صانداي تايمز" أن تفعل إسرائيل كل ما بوسعها حتى تدمّر صدقية فعنونو فرتّبت لقاء استجوبه خلاله الدكتور فرانك بارنبي وهو فيزيائي نووي ذو كفاءة عالية عمل في مشروع بناء الأسلحة النووية البريطانية في ألدماستون . وقد خلص إلى أن الصور والوثائق حقيقية ، وان ما يتذكّره التقني الإسرائيلي من تفاصيل دقيق .

بعدئذ أقدمت صحيفة "صنداي تايمز" على اتخاذ خطوة مشؤومة ، فعرض كاتب التحقيق الصحافي أمام السفارة الإسرائيلية في لندن ملخّصاً لما كشف فعنونو النقاب عنه بالإضافة إلى نسخ مصوّرة عن جواز سفره والصور التي التقطها وكذلك تقييم بارنبي . وكان

القصد من ذلك حمل الحكومة الإسرائيلية على الاعتراف . وبدلاً من ذلك استنكرت السفارة المواد واعتبرتها "لا تمتّ للحقيقة بصلة" .

وتسبّبت الصور التي قدمت إلى السفارة في لندن باشتداد حالة الذعر في تل أبيب . يقول بنمناشي "وقعت الواقعة . كنت لا أزال في لندن عندما قال لي دايفيس أن ماكسويل يريد أن يراني . فالتقينا في المكتب نفسه الذي وافقت فيه على أن أدفع له ثمانية ملايين دولار كعمولة لقاء إخفاء أموالنا وراء "الستار الحديدي" . وأوضح ماكسويل انه يعرف كيف سيكون التعامل مع قصة فعنونو ، فقد تحدّث للتوّ مع رئيسي في تل أبيب" . نتيجة لتلك المكالمة ، طلع أدموني أخيراً بخطة لإخراج فعنونو من مخبئه .

في العدد التالي من صحيفة "صانداي ميرور" نُشرت صورة كبيرة لموردخاي فعنونو وإلى جانبها قصّة تسخر من التقني ومن أوسكار غيريرو وتصف الصحافي الكولومبي بأنه كاذب ومخادع ، كما تصف الزعم بشأن قدرة إسرائيل النووية بأنه خدعة . كان ماكسويل هو من أملى التقرير وهو من أشرف على إبراز موقع صورة فعنونو .

كانت تلك الطلقة الأولى في حملة التضليل الكبرى التي أشرف عليها قسم الحرب السيكولوجية في الموساد .

بعد قراءة تقرير "صانداي ميرور" ثارت ثائرة فعنونو حتى أنه قال لصحافيي "صانداي تايمز" الذين يقومون على حراسته منذ جاء إلى لندن انه "يريد أن يتوارى عن الأنظار . لا أريد أن يعرف أحد بمكاني" .

كان التقني المذعور يقيم في آخر فندق اختاره مرافقوه ويدعى "مونتباتن" ويقع قرب شارع شافتسبوري آفنيو في وسط لندن .

عقب نشر خبر "صانداي ميرور" جرت تعبئة المتطوعين لخدمة الموساد في لندن للعثور عليه . وقدّمت لوائح بأسماء الفنادق والنزل إلى عشرات المتطوعين اليهود الأمناء للتفتيش فيها . في كل اتصال كان المتطوع يصف فعنونو في ضوء الصورة التي نشرتها"صنداي ميرور" ، ويدّعي انه قريب له يريد أن يعرف ما إذا كان يقيم في الفندق .

ويوم الأربعاء 25 أيلول (سبتمبر) تلقّى أدموني نبأ من لندن يفيد بأنهم عثروا على مكان فعنونو ، فأذن ذلك ببدء تنفيذ المرحلة الثانية من خطته .

منذ بدأ التجسس في التاريخ قامت الصلة بينه وبين الشَرَك الجنسي . ففي الكتاب الرابع من موسى تنقذ العاهرة رحاب حياة جاسوسين من جواسيس يشوع من قبضة جهاز مكافحة الاستخبارات في مملكة أريحا . وكان هذا أول لقاء مؤرخ بين أقدم مهنتين في العالم . إحدى خليفات رحاب في تجارة الحب والتجسس هي ماتا هاري ، وهي غانية هولندية عملت لحساب الألمان في الحرب العالمية الأولى وأعدمها الفرنسيون . ومنذ البداية عرف الموساد قيمة الشَرَك الجنسي . يقول مئير عميت "إنه أحد الأسلحة . فالمرأة تتمتع بمهارات تميّزها عن الرجل . إنها تعرف كيف تصغي . وحديث الوسادة ليس مشكلة عندها . أن تاريخ الاستخبارات الحديثة مليء بقصص النساء اللواتي يستخدمن أجسادهن من أجل خير بلادهن . ومن الحماقة القول أن إسرائيل لم تفعل ذلك . لكن نساءنا متطوّعات نبيلات المشاعر ، وهن يعرفن ما ينتظرهن من مخاطر . أن مثل هذه المهام تتطلّب شجاعة من نوع خاص . وليس المهم مضاجعة شخص ما ، بل جعله يعتقد إنك ستفعل ذلك في مقابل ما سيطلعك عليه . وتأتي بعد هذا المهارات العظيمة التي يجري استغلالها لهذا الغرض" .

اختار ناحوم أدموني بنفسه عميلة تتمتع بكل الصفات المطلوبة لإغواء موردخاي فعنونو والإيقاع به في شَرَك الموساد .

كانت تشيريل بنتوف مساعدة عميل موساد . ولدت في أورلاندو في فلوريدا لعائلة يهودية غنيّة ، وقد انتهى زواج والديها بطلاق صاخب . وجدت عزاءها في الدراسات الدينية التي أدّت بها إلى تمضية ثلاثة أشهر في مزرعة تعاونية (كيبوتز) في إسرائيل . وهناك انغمست في درس التاريخ اليهودي واللغة العبرية ، فقرّرت البقاء في إسرائيل . وفي الثامنة عشرة من عمرها تعرّفت وأغرمت بيهودي من مواليد فلسطين يدعى أوفر بنتوف كان يعمل محللاً في جهاز "أمان" . وبعد سنة من تعارفهما اقترنا .

كان بين المدعوين إلى حفلة الزفاف عدد من كبار المسؤولين في جهاز الاستخبارات الإسرائيلية وكان بينهم عضو في شعبة التجنيد في الموساد . وسأل تشيريل خلال الحفلة الأسئلة التي توجّه إلى أي عروس ، ومنها هل ستستمر في العمل بعد الزواج؟ هل ستنجب حالاً؟ كانت تشيريل متأثرة بالاجواء الاحتفالية فقالت أن خطتها الوحيدة هي أن تعمل على إيجاد السبيل لتعيد إلى بلدها قليلاً من الكثير الذي أعطتها إياه ، مشيرة إلى أن إسرائيل هي "عائلتها" . بعد شهر من عودتها من شهر العسل اتصل بها ضيف حفلة الزفاف

هاتفياً وقال لها إنه فكّر بما تحدّثا عنه وهو يظن أنه عثر على الطريقة التي يمكنها بها تقديم العون .

واتفقا على اللقاء في مقهى في وسط تل أبيب . أدهشها إذ ذكر لها بدقة متناهية علاماتها المدرسية وتاريخ عائلتها وكيف تعرّفت إلى زوجها . ولعله استشعر غيظها لما أظهره من تعد على خصوصياتها ، فأوضح أن كل هذه المعلومات مسجّلة في ملف زوجها في جهاز "أمان" .

كان مسؤول التجنيد يدرك أن العلاقة بينه وبين الشخص المرشح للتجنيد غالباً ما تتطلب الحذر ، فهي تشبه العلاقة بين مشعوذ ومبتدئ يخضع لعملية الإدخال إلى طائفة سرية لها إشاراتها الخاصة وتعويذاتها وطقوسها . بعد اطلاع تشيريل على هوية الجهة التي يعمل معها ألقى المسؤول موعظة معدّة سلفاً . فقال أن الموساد تبحث دائماً عن أشخاص يريدون أن يخدموا بلدهم . أثناء حفلة زفافها وصفت إسرائيل بأنها عائلتها والواقع أن هذا حال الموساد . حالما يُقبل طلبك الانضمام تصبحين فرداً من أفراد العائلة التي تحميك وترعاك . وفي المقابل تقومين بخدمة العائلة كما يطلب منك . فهل يعجبها هذا؟

أعجب هذا تشيريل . قيل لها أنها ستخضع لاختبارات أوّلية . خلال الأشهر الثلاثة التالية أُجري لها عدد من الامتحانات الكتابية والشفوية في بيوت سرية مختلفة في أنحاء تل أبيب . وقد سجلت على الدوام معدل ذكاء هو 140 في كل هذه الاختبارات . وهذا المعدل العالي ، إضافة إلى نشأتها الأميركية ومعلوماتها العامة ومهاراتها الاجتماعية ، جعلت منها مجنّدة فوق المعدل الوسطي . وقيل لها أنها تصلح للتدريب .

قبل ذلك كانت لها جلسة أخرى مع مسؤول التجنيد الذي قال لها أنها توشك الدخول إلى عالم لن يمكنها أن تتحدث عن اختباراتها فيه لأحد ، ولا حتى زوجها . وفي مثل هذا المكان الموحش ستشعر بأنها عرضة للوقوع في إغراء الثقة المفسد ، ولكن ينبغي ألاّ تثق بأحد سوى زملائها . سوف تتلقى درساً في الخديعة ، وتتعلّم كيفية استخدام أساليب تتنافى مع كل إحساس بالشرف والحشمة . وينبغي أن تقبل الطرق الجديدة لتحقيق المطلوب . وقد تجد بعض ما يطلب منها القيام به مقيتاً جداً لكن عليها أن تنظر إلى الأمر في ضوء المهمة التي تقوم بها .

مال مسؤول التجنيد نحوها فوق الطاولة في غرفة المقابلات ، وقال انه لا يزال بإمكانها

أن تغيّـر رأيهـا من دون أن تتعـرّض لاتهامـات مضـادة . كـمـا لـن يكون هناك أي إحسـاس بالتخلّف عن القيام بالواجب من جهتها . قالت تشيريل أنها على استعداد تام للخضوع للتدريب .

خلال السنتين التاليتين وجدت نفسها في عالم كان حتى ذلك الوقت جزءاً صغيراً من تسليتها المفضّلة وهي مشاهدة الأفلام السينمائية . علّموها كيف تشهر مسدساً أثناء جلوسها على كرسي ، وكيف تتذكر أكبر عدد ممكن من الأسماء التي تلمع أمامها على الشاشة الصغيرة بسرعة متزايدة . كما علّموها كيف تخبئ مسدساً من نوع "باريتا" داخل سروالها ، على الورك ، وكيف تحدث فتحة خفية في تنورتها أو فستانها لتسهيل تناول المسدس .

بين الحين والآخر ، كان مجنّدون آخرون من أفراد صفّها يتركون مدرسة التدريب . ولم تكن تلك الحالات موضوع نقاش . أرسلوها في مهام للتدرّب منها اقتحام غرفة فندق يقيم فيها أحد النزلاء وسرقة وثائق من أحد المكاتب . وكان مدرّبوها يحلّلون طرقها لساعات طويلة . وكانوا يوقظونها من الفراش في منتصف الليل ويرسلونها في تمارين جديدة مثل التعرّف إلى أحد السيّاح في أحد النوادي الليلية ثم التخلص منه عند مدخل فندقه . وكان معلّموها يراقبون كل خطوة من خطواتها .

وجّهوا إليها أسئلة حميمة عن تجاربها الجنسيّة ، كم رجلاً عاشرت قبل زوجها؟ وهل تضاجع رجلاً غريباً إذا استدعت مهمتها ذلك؟ فأجابت بصدق أنها لم تعرف رجلاً قبل زوجها وأنها إذا تيقّنت تماماً من أن نجاح مهمّتها مرتهن لمضاجعة رجل غريب فستفعل . ويكون ما تفعله عملاً جنسياً صرفاً خالياً من الحب . وقد تعلّمت كيف تستخدم الجنس كي تُكره الآخرين على عملٍ ما وكيف تغريهم وكيف تسيطر عليهم . وأجادت ذلك كلّه إجادة تامة .

علّموها كيف تفرغ مشط رصاص كاملاً في أحد الأهداف ، ودرست المذاهب الإسلامية المختلفة وكيفية صنع صندوق للرسائل الميتة . وأمضت يوماً كاملاً حتى أتقنت اتقاناً تاماً صنع العوّام ، أي لصق زيق من الميكروفيلم داخل أحد المغلّفات . وخصّصت يوماً كاملاً آخر للتنكّر بحشو القطن بمهارة داخل فمها حتى تغيّر ملامح وجهها . وتعلّمت سرقة السيارات والتظاهر بالسكْر والتحرّش بالرجال .

وفي أحد الأيام استدعاها رئيس مدرسة التدريب إلى مكتبه وراح ينظر إليها من فوق

ومن تحت كأنه يتفحّصها فيتأكّد من كل بند في لائحة مخزونة في عقله . وأخيراً قال لها إنها قد نجحت .

وعيّنت تشيريل بنتوف مساعدة عميل في دائرة الموساد المكلّفة التنسيق مع السفارات الإسرائيلية . كان دورها المحدّد أن تظهر كصديقة أو زوجة لأحد ضباط الموساد الفاعلين . وقد عملت في عدد من المدن الأوروبية مدّعية أنها مواطنة أميركية ، فكان لها عدد من "العشاق" و"الأزواج" ، لكنها لم تضاجع أيّاً منهم .

كان أدموني هو من حدّثها عن أهمية مهمتها الجديدة ، فبعدما عُرف مكان إقامة فعنونو سيكون عليها أن تستخدم مواهبها حتى تغريه بالرحيل عن بريطانيا . وهذه المرّة ستتخفّى وراء زعم بأنها سائحة أميركية تسافر وحيدة في أوروبا بعد تجربة طلاق مؤلمة . ولتعزيز صدقيّة قصتها يمكنها استخدام تفاصيل من قصة انفصال والديها . وكان الجزء الأخير من قصّتها أن لها "أختاً" في روما ، وستكون مهمتها هي أن إصطحاب فعنونو إلى هناك .

يوم الثلثاء 23 أيلول (سبتمبر) 1986 انضمّت تشيريل بنتوف إلى فريق من تسعة ضباط موساد سبقوها إلى لندن . كانوا يعملون بإمرة مدير العمليات في الموساد بني زئيفي وهو شخص كالح الوجه له أسنان وسخة من أثر التدخين المتواصل .

كان ضباط الموساد يقيمون في فنادق تقع بين شارعي أكسفورد ستريت و ستراند . كان إثنان منهم ينزلان في فندق "ريجنت بالاس" . أما تشيريل بنتوف فقد نزلت في فندق "ستراند بالاس" في الغرفة رقم 320 باسم مستعار هو سيندي جونسون . واستأجر زئيفي غرفة في فندق "مونتباتن" على مقربة من الغرفة الرقم 105 التي ينزل فيها فعنونو .

ولعله كان من بين اوائل الناس الذين لاحظوا تقلّب مزاج التقني المنشق ، فقد كانت تبدو على فعنونو علائم الإجهاد . كانت لندن بيئة غريبة لشخص نشأ في بلدة بئر السبع الصغيرة . وعلى الرغم من جهود مرافقيه فقد كان متوحّداً ومتعطّشاً لصحبة النساء ومضاجعتهن . كان علماء النفس في الموساد قد توقّعوا مثل هذا الاحتمال .

ويوم الأربعاء 24 أيلول (سبتمبر) ألحّ فعنونو على مرافقيه من العاملين في صحيفة "صانداي تايمز" بأن يدعوه يخرج بمفرده فوافقوا متردّدين . لكن أحد المخبرين الصحافيين تبعه من دون علمه إلى ساحة لستر سكوير حيث رأى فعنونو وقد شرع في التحدّث إلى إحدى النساء . وقد وصفت الصحيفة تلك المرأة في ما بعد بأنها "في أواسط العشرينات من العمر

طولها متر وسبعون سنتيمتراً ، ممتلئة الجسم شعرها أشقر مصبوغ وشفتاها غليظتان وتضع قبعة بنيّة اللون وترتدي بذلة بسروال من التويد البنّي ، وتنتعل حذاءً بكعب عالي ، وربما كانت يهودية" .

وبعد قليل افترقا . عندما عاد فعنونو إلى الفندق قال لأحد مرافقيه أنه تعرّف إلى "فتاة أميركية تدعى سيندي" . وقال إنه يعتزم أن يراها ثانية . قلق المخبرون الصحافيون وقال أحدهم إن ظهور سيندي في ساحة لستر سكوير قد يكون أكثر من مجرد صدفة ، لكن فعنونو رفض مخاوفهم . ومهما يكن ما قالته سيندي له فقد راق له إلى حد أنه يعتزم أن يمضي مزيداً من الوقت بصحبتها ، وليس في لندن بل في شقة "شقيقتها" في روما .

سافر بني زئيفي وأربعة ضباط موساد على الطائرة نفسها التي حملت تشيريل وفعنونو إلى روما . لدى وصولهما ركبا سيارة أجرة إلى شقة في الحي القديم من المدينة . هناك كان ثلاثة من ضباط الموساد بالانتظار ، فتكاثروا على فعنونو وحقنوه بمخدّر شلّ حركته . وفي وقت لاحق من تلك الليلة وصلت سيارة إسعاف ونُقل فعنونو على نقالة من المبنى . وقال ضباط الموساد الذين تظاهروا بالقلق للجيران أن قريباً لهم أصيب بوعكة . وصعدت تشيريل إلى سيارة الإسعاف التي انطلقت بهم .

خرجت سيارة الإسعاف مسرعة من روما واتّجهت إلى الساحل . وهناك في نقطة أُتُفق بشأنها من قبل كان زورق سريع بالانتظار فنقلوا فعنونو إليه . كان الزورق على موعد مع سفينة شحن ترسو بعيداً عن الشاطئ ، فحملوا فعنونو إليها وسافر بني زئيفي وتشيريل معه . بعد ثلاثة أيام ، وفي وسط الليل ، كانت السفينة ترسو في ميناء حيفا .

وسرعان ما واجه موردخاي المستجوبين المهرة العاملين بإمرة ناحوم أدموني . كان ذلك مقدّمة لمحاكمة سريعة حكم بنهايتها بالسجن مدى الحياة في زنزانة . أما تشيريل بنتوف فتوارت عن الأنظار وعادت إلى عالمها السريّ .

بقي موردخاي فعنونو ما يزيد على إحدى عشرة سنة في السجن الانفرادي في زنزانة كانت إسرائيل تنوي أن تبقيه فيها لسنوات عدة في القرن التالي . كانت ظروف معيشته كئيبة ، فالطعام رديء ومدّة التريّض اليومية ساعة واحدة ، وكان يمضي وقته في العبادة والقراءة . ثم أذعنت حكومة إسرائيل للضغط الدولي فوافقت في آذار (مارس) 1998 على السماح بنقله إلى ظروف أخفّ وطأةً ، لكنه بقي أحد سجناء الضمير الذين تطالب منظمة

العفو الدولية بالافراج عنهم وتذكّر صحيفة "صاندي تايمز" قرّاءها باستمرار بمحنته . ولم يتلقّ فعنونو أي مبلغ من المال عن السبق الصحافي العالمي المثير الذي قدّمه للصحيفة . وعام 1998 ، خليَ سبيله من السجن الانفرادي ، لكن بالرغم من المناشدات المتجدّدة التي أطلقها محاموه فالأمل ضعيف باحتمال إطلاق سراحه .

بعد عشر سنوات عادت تشيريل إلى اورلندو ، وقد أصبحت أسمن وكان شعرها الذي كانت تهتم بتمشيطه من قبل يتطاير في نسيم بحر فلوريدا . كانت تزعم أنها تمضي إجازة في عالم "ولت ديزني" بصحبة ابنتيها الصغيرتين .

في نيسان (أبريل) 1997 واجهها مراسل لصحيفة "صاندي تايمز" ، فلم تنكر أنها لعبت دوراً في عملية الخطف . وقالت إن مصدر قلقها الوحيد هو أن "يؤذي" النشر "وضعها" في الولايات المتحدة .

أما آري بنمناشي فكان أقل حظاً . لقد شاهد عدداً من الرجال الأكفاء يأتون ثم يذهبون ضحيّة التحايل المستمر داخل أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية . لكنه لم يظنّ أبداً أن دوره سيأتي .

عام 1989 أُلقي القبض عليه في نيويورك واتّهم بالتآمر "مع آخرين" على خرق قانون ضبط صادرات الأسلحة بمحاولته بيع طائرة عسكرية من طراز "س – 130" إلى إيران . كانت الطائرة قد بيعت أصلاً لإسرائيل .

خلال جلسات المحكمة الأولى قالت إسرائيل أن "لا علم لها" ببنمناشي ، فأطلع المحكمة على ملف عن إفادات التوصية التي وضعها رؤساؤه في أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية ، وحين قالت الحكومة الإسرائيلية إنها مزوّرة ، قدّم بنمناشي إلى المحكمة أدلّة قاطعة تثبت العكس . عندها قالت الحكومة الإسرائيلية إن بنمناشي "مترجم من الدرجة الدنيا" موظّف "لدى" أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية . فردّ بنمناشي على ذلك بأن جوهر الدعوى المقامة ضدّه ــ أي بيع الطائرة ــ قد رخّصته الحكومتان الإسرائيلية والأميركية . وتحدّث عن صفقات بيع أسلحة مجازة إلى إيران بقيمة مئات ملايين الدولارات .

وساد الجزع في تل أبيب من جديد . خضع رافي إيتان وديفيد كيمحي للاستجواب في شأن حجم معلومات بنمناشي وحجم الأذى الذي يمكن أن يلحقه . ولم تكن الإجابات مطمئنة تماماً . فقال رافي إيتان إن بإمكان آري بنمناشي أن يفضح بالتفصيل الشبكة

الأميركية - الإسرائيلية لبيع الأسلحة إلى إيران والتي تمتدّ تشعباتها إلى كل مكان ، فتنزل إلى أميركا الوسطى فالجنوبية ، وتعبر إلى لندن ثم استراليا ، وتقطع أفريقيا وتصل إلى عمق أوروبا .

وبينما كان بنمناشي ينتظر مثوله أمام المحكمة في سجن في نيويورك زاره محامو الحكومة الإسرائيلية وعرضوا عليه صفقة : أن يقرّ بذنبه مقابل تسوية مالية سخيّة تضمن له حياة هانئة بعد خروجه من السجن . وقرّر بنمناشي أن يقول الحقيقة ، وكان قد بدأ في ذلك عندما قرّرت هيئة المحلّفين الفيدرالية فجأةً ، في تشرين الثاني (نوفمبر) 1990 ، أن تبرّئه من كل التهم .

ويقول عدد من زملائه السابقين في الاستخبارات الإسرائيلية أن نجاته من العقاب من حسن حظّه . وهم يزعمون أنه في إطار محاولاته استعادة حرّيته استخدم ما سمّاه أحد ضبّاط الموساد "طريقة المدفع الرشّاش" بتوجيه الهجوم لكل من يهدّد حرّيته . ويستعيد كيمحي بذاكرته ذلك الوقت فيرجّع صدى تحرّق العديدين ، فيقول "كلّ ما أردناه هو أن يختفي عن ناظرنا . لقد شرع في إيذائنا وإيذاء بلده وأمنه . لقد كان ولا يزال خطراً" .

لكن إسرائيل لم تحسب حساب انتقام بنمناشي . وضع كتاباً عنوانه "أرباح الحرب" كان يأمل أن يحقّق ما حقّقه قبله وودورد وبرنستين في كتابهما عن فضيحة "ووترغيت" الذي أدّى إلى سقوط الرئيس ريتشارد نيكسون . وكانت غاية بنمناشي التي حدّدها بنفسه واضحةً : "تصويب الأخطاء الرهيبة التي حدثت في الثمانينات والعمل على إخراج المسؤولين عنها من السلطة" .

عُقدت في تل أبيب اجتماعات مستعجلة ، وجرت مناقشة فكرة شراء مخطوطة الكتاب وإقفال باب الخزنة عليها . وقد ذُكر أن بنمناشي قد رفض مبلغاً ضخماً من المال ــ يقال أنه مليون دولار ــ للبقاء صامتاً وبالتالي فمن غير المحتمل أن يكون قد غيّر موقفه الآن . فتقرّر استنفار كل متطوّع لخدمة الموساد في حقل النشر في نيويورك لاستخدام كل وسيلة ممكنة لمنع ظهور الكتاب . وليس مؤكّداً مبلغ النجاح الذي حقّقوه ، لكن المخطوطة التي عرضت على عدد من كبار الناشرين لم تنشرها إلاّ دار "شريدان سكوير برس" الصغيرة في نيويورك .

ويصف بنمناشي الكتاب بأنه "قصّة الحكم بالمكيدة . كيف يقرّر حفنة من الأشخاص

في بضع وكالات استخبارات سياسات حكوماتهم ، ويديرون سرّاً عمليات ضخمة من دون محاسبة الشعب لهم ، ويسيئون استخدام السلطة وثقة الناس ويكذبون ويستغلّون وسائل الإعلام ويخدعون الجمهور . وأخيراً وليس آخراً ، إنه قصة حرب لا يخوضها الجنرالات بل مدنيون مرتاحون في مكاتب مكيّفة الهواء لا يبالون بالمعاناة الإنسانية" .

رأى البعض في الكتاب فعل تكفير غير مكبوح قام به مؤلّفه ، في حين رأى آخرون أنه رواية مضخّمة عن مجموعة أحداث لعب بنمناشي الدور الرئيسي فيها .

في لندن ، كرّر روبرت ماكسويل ما كان قد فعله مراراً ، فاختبأ وراء القانون وهدّد بإقامة الدعاوى على كل من يجرؤ على ترديد المزاعم التي أطلقها بنمناشي عنه . ولم تكن أي صحيفة مستعدّة لاستخدام مهاراتها في التحقيق لإقامة الدليل على صحّة مزاعم بنمناشي .

وكما اعتقد بنمناشي يقيناً مرةً ، بقي روبرت ماكسويل مقتنعاً مثله بأنه لا يُغلب لسبب بسيط وهو أنه أصبح لصّاً لحساب الموساد ، فكلما زاد نهبه لمصلحتهم كلما زاد اعتقاده بأن لا غنى للجهاز عنه .

وكما قال بنمناشي مرةً ، كذلك كان ماكسويل يحبّ أن يقول أثناء زياراته لإسرائيل بأنه هو أيضاً يعرف أين يُخفون الجثث . ولم يَخفَ عن الموساد مغزى هذا الكلام .

الفصل العاشر

علاقة خطيرة

روبرت ماكسويل الذي طرد مرةً صحافياً لأنه زوّر فواتير نفقاته كان هو نفسه يسرق أموال صندوق التقاعد لموظفيه لدعم الموساد . وتمثّل السرقات الضخمة نموذجاً على مكر الموساد وغلظة قلب مسؤوليه واستعدادهم المتزايد للدخول في مغامرات شديدة الخطورة .

كان ماكسويل قد تولّى شخصياً تحويل الأموال عبر سلسلة من المناورات المالية المترابطة التي أثارت دهشة المحققين في أعمال الاحتيال المالي لما تتميّز به من نفاق رفيع الطراز . لقد أعطى ماكسويل الاحتيال الواسع النطاق بعداً جديداً تماماً ، فحوّل مئات آلاف الدولارات دفعة واحدة إلى الحساب المصرفي الخاص للموساد لدى مصرف إسرائيل المركزي في تل أبيب . وكانت هذه الأموال تنظّف أحياناً عبر حساب مصرفي للسفارة الإسرائيلية في لندن لدى مصرف "باركليز" . واستخدم ماكسويل في عمليات الاحتيال المالي مصارف أخرى لم تكن تدري بما يجري ومنها "كريدي سويس"في جنيف ، وهو المصرف الذي حوّل منه بنمناشي 450 مليون دولار من أرباح "أورا" بتواطؤ من ماكسويل . وكانت أموال صندوق التقاعد المسروقة تجوب العالم أحياناً فتهبط في مصرف "كميكال بنك" في نيويورك ومصرف "فيرست ناشونال بنك" الأسترالي ومصارف في هونغ كونغ وطوكيو . وحده روبرت ماكسويل كان يعلم بأمر اختلاس المال ، وأين كان هذا المال قد وصل في رحلته في كل مرحلة . وما زاد الطين بلّة أنه كثيراً ما وجّه أوامره إلى صحفه بمهاجمة "الجريمة المنظمة" .

كان فيكتور أستروفسكي الإسرائيلي الكندي المولد الذي عمل كضابط في الموساد من 1984 إلى 1986 أول من اكتشف ما كان يجري : "كان الموساد يموّل عدداً من عملياته في

أوروبا من مال مسروق من صندوق تقاعد صحيفة ماكسويل . فقد وضعوا أيديهم على أموال الصندوق حالما اشترى ماكسويل مجموعة "ميرور" الصحافية بأموال اقترضها من الموساد وبالاستعانة باستشارات خبيرة قدّمها محلّلو الجهاز الماليّون . والجانب الفاسد في الأمر ، إلى جانب السرقة ، هو أن كل من عمل في مؤسسته الصحافية وسافر إلى أي بلد في الشرق الأوسط كان موضع اشتباه بالعمل لخدمة الموساد ، وكان على مسافة إشاعة واحدة من حبل المشنقة" .

حين كان ماكسويل يزور إسرائيل كان محل حفاوة تُعدّ لرؤساء الدول . فيكون ضيف شرف على حفلات الاستقبال التي تعدّها الحكومة ، وتقدّم له أفخر الأجنحة أثناء إقامته . لكن الموساد كان حذراً ومتهيئاً للّحظة التي تقرّر "اليد التي تطعمه" أن تقفل مزاريبها فجأة . وإذ اكتشف الموساد سعة شهية ماكسويل الجنسية وتفضيله الجنس عن طريق الفم نظراً لضخامة حجمه ، فقد أعدّ الجهاز العدة أثناء زيارات رجل الأعمال الثري لتكون في خدمته واحدة من مجموعة العاهرات التي يوظّفها الموساد لأغراض الابتزاز . ولم يلبث الموساد أن اقتنى مكتبة صغيرة من شرائط الفيديو التي تصوّر ماكسويل في أوضاع جنسية فاضحة . فقد أخفيت في حجرة نوم ماكسويل في جناحه في الفندق آلة تصوير للتجسّس عليه .

نُشرت مزاعم أستروفسكي في كتابين وضعهما بنفسه لا يزالان يثيران غضب أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية جميعاً . والكتابان هما "عن طريق الخداع" و "الجانب الآخر للخداع" ، وقد أماط الكاتب فيهما اللثام عن الأسرار التي اطّلع عليها أثناء عمله في الموساد . في هذين الكتابين وصف أستروفسكي الأساليب العملانية وسمّى عدداً كبيراً من ضبّاط ما زالوا في الخدمة وقد يكون قد فضح بعضاً منهم في عملية كشف كلاسيكية نفّذها شخص كيدي يعتقد أنه ظُلم عندما أُقصي من صفوف الموساد .

ومن المفارقات أن الحكومة الإسرائيلية تجاهلت نصيحة ماكسويل بلزوم الصمت إزاء مزاعم أستروفسكي . ففي لقاء عقده في تل أبيب مع رئيس الوزراء اسحق شامير ضرب رجل الأعمال الثري مثلاً ما حدث عندما حاولت حكومة ثاتشر البريطانية وقف نشر كتاب وضعه ضابط سابق في جهاز "أم .آي .5" يدعى بيتر رايت . كان كتابه "صائد الجواسيس" يسرد هو أيضاً تفاصيل مربكة عن جهاز الأمن البريطاني . وقد تابعت الحكومة البريطانية حملتها لوقف نشر الكتاب حتى لحقت بها هزيمة نكراء في المحاكم الأسترالية حيث كان مقرّ

دار النشر التي أصدرت كتاب رايت . بعدئذ أصبح "صائد الجواسيس" الكتاب الأكثر مبيعاً في العالم وظهرت بريطانيا بمظهر الغباء .

وواجهت الحكومة الإسرائيلية المصير نفسه . فتحت ضغط أعضاء حاليين وسابقين في الموساد - كان مئير عميت وإيسر هاريل أشد الداعين إلى اتخاذ إجراءات عملية ضد أستروفسكي - وجّه شامير أوامره إلى المدّعي العام لإقامة الدعوى لمنع نشر الكتاب الأول لعميل الموساد السابق .

وأذكت القضية نار العداء الخبيث لدى شامير لأميركا والمتجذّر في اعتقاد ثابت بأن الولايات المتحدة تتحمّل جزءاً من المسؤولية عن المحرقة . فثمة من يزعم أن شامير يعتقد أنه كان على الرئيس روزفلت أن يتوصّل إلى "ترتيب" - إحدى الكلمات المفضّلة لدى شامير - مع هتلر لتحلّ أميركا و"الرايخ الثالث" محل بريطانيا التي كانت يومها الدولة العظمى المهيمنة في الشرق الأوسط . وكان هتلر سيسمح بدوره بسفر اليهود إلى فلسطين ، وبذا ما كانت المحرقة لتحدث .

وعلى رغم تفاهة الفكرة فقد انعكست في مواقف شامير من الولايات المتحدة التي بلغت حدّ الكراهية . فأجاز شخصياً و"كبادرة حسن نية" (وهي إحدى العبارات المفضّلة لدى شامير) تحويل جزء من وثائق تقع في حوالي خمسمئة ألف ورقة ، كان جوناثان بولارد قد سرقها ، إلى الاتحاد السوفياتي . وكان شامير يأمل أن تؤدي هذه البادرة إلى تحسين علاقات إسرائيل بموسكو . كانت الوثائق تتضمّن معلومات سريّة أميركية راهنة عن الدفاعات الجوية السوفياتية والتقرير السنوي الذي أعدّته وكالة "سي .آي .أي ." الأميركية عن قدرة روسيا الإجمالية على خوض الحرب . وتضمّنت إحدى الوثائق صوراً التقطتها الأقمار الفضائية واعتراضات للإتصالات ومعلومات وفّرها الرادار وتقارير من عملاء لوكالة "سي .آي .أي ." في الاتحاد السوفياتي . وتقول إحدى الروايات أنه عندما قال ناحوم أدموني لشامير أن المعلوّمات سوف تمكّن أجهزة مكافحة التجسّس السوفياتية من اكتشاف الجواسيس ، شقل كتفيه علامة عدم الاكتراث .

خلال الاجتماع الذي ناقش الرجلان فيه موضوع أستروفسكي أعاد شامير على مسامع روبرت ماكسويل ما كان قد أبلغه للآخرين ، وهو أنه سيفعل ما بوسعه لمكافحة النفوذ الأميركي في العالم ، وأنه على اقتناع بأن واشنطن شجّعت أستروفسكي على نشر كتابيه بغرض الانتقام .

وطلب شامير من ماكسويل تعبئة إمكاناته الإعلامية الواسعة لتحطيم صدقية أستروفسكي . وأشار ماكسويل إلى أن الموساد لا بدّ قد اطلع على ظروف نشأته قبل تجنيده في صفوف الجهاز .

ومع ذلك اصبح أستروفسكي هدفاً لحملة تشهير في وسائل ماكسويل الإعلامية بما فيها صحيفة "معاريف" الصغيرة الحجم التي تصدر في تل أبيب . فوُصف بأنه خيالي وكاذب ، وعلى عكس ماكسويل ليس صديقاً وفياً لإسرائيل .

ويقرّ أعضاء كبار في أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية الذين قرأوا كتابي أستروفسكي بعناية بأن كثيراً مما قاله صحيح .

رفضت محكمة نيويورك وجهة نظر الحكومة الإسرائيلية بأن الأسرار التي كشف أستروفسكي النقاب عنها تهدّد أمن إسرائيل . وقد أصبح الكتاب أحد أكثر الكتب مبيعاً .

وكان أستروفسكي أول من تحدّث علناً عن علاقات روبرت ماكسويل بالموساد ، لكنه بالتأكيد لم يكشف الحقيقة بكاملها . فالقصة ، كما حال أمور كثيرة ، تتشابك جذورها الثابتة مع نشاطات صديق شامير القديم والحميم رافي إيتان .

تعرّف الرجلان أحدهما بالآخر في الخمسينات أثناء خدمتهما في الموساد وكانا يتشاطران تصميماً على الكفاح من أجل أن يكون لإسرائيل مكان تحت الشمس .

وعام 1986 ، بعد ثلاثين عاماً ، كان شامير هو من وقف إلى جانب رافي إيتان خلال حملة الانتقاد القاسية التي واجهها في أعقاب فضيحة بولارد ، إذ اتُّهم بأنه كان يترأس "مجموعة من ضباط الاستخبارات العصاة الذين تصرّفوا بدون تفويض" .

كانت تلك الكذبة محاولة يائسة بذلتها الحكومة الإسرائيلية لتنأى بنفسها عن حادثة أفادت أجهزة استخباراتها منها إفادة قصوى مثلما أفادت منها أجهزة الاستخبارات في الاتحاد السوفياتي وجنوب أفريقيا . فقد تغاضت إسرائيل تغاضياً كلياً عن حصول البلدين على معلومات قيّمة تتعلّق بنشاطات التجسّس الأميركية .

وعلى رغم ذلك ، ومع تزامن إماطة اللثام عن دوره في فضيحة مبيعات الأسلحة إلى إيران ، تعرّض رافي إيتان لأذى بالغ ألحقه به محترفون . وعلى رغم جروحه العميقة وغضبه لإلقاء زملائه اللوم عليه وحده ، فقد لزم سيّد الجواسيس العجوز الصمت في العلن . أما في

حضور أصدقائه الموثوقين الذين كانوا يجلسون من قبل معه ويستمعون بذهول إلى دوره في القبض على أدولف آيخمان ، فقد صارت لديه قصة أخرى يخبرها هي قصة انقلاب إسرائيل على نفسها .

وشيئاً فشيئاً قلّ عدد زوار رافي إيتان في شارع شاي ، وعدد من ينضمّون إليه لإبداء الإعجاب بالاشكال التي يصنعها من الخردة المعدنية .

كان يمضي الساعات وهو يقف وحيداً أمام الفرن شاهراً مشعله المتّقد وقد انشغل تفكيره ليس فقط بالاستياء من طريقة معاملته بل بالخطط الموصلة إلى عودته إلى الساحة من جديد بل وجني بعض المال أيضاً . كان قراره الاستمرار في خدمة بلده على رغم ما لحقه من خزي يشتمل على بساطة مؤثرة : "لم تعد الوطنية كلمة دارجة في هذه الأيام . أنا وطني وأؤمن ببلدي . وسواء كان ذلك صواباً أو خطأ ، فإنني سأحارب كل من يهدّد هذا البلد أو يهدّد شعبه" .

من هنا منبع الخطة التي وضعها سراً في عزّ تورّطه في فضيحة "إيران غيت" . وكحال غيرها من خطط رافي إيتان فإن هذه الخطة استدعت منه استخدام موهبته الأكيدة في استغلال فكرة طلع بها آخرون . ومن شأن هذه الخطة متى رأت النور أن تضيف إلى شهرته كمعتقل أدولف آيخمان شهرة أخرى هي أنه أصبح شريكاً مقرّباً من روبرت ماكسويل .

عام 1967 عاد إلى الولايات المتحدة خبير الاتصالات وليام هاملتون من فيتنام حيث أنشأ شبكة من مراكز التنصّت الإلكتروني لرصد قوات الفيتكونغ أثناء حركتها وسط الأدغال . وقد تلقّى هاملتون عرض عمل في وكالة الأمن القومي . وكانت مهمته الأولى وضع قاموس فيتنامي – إنكليزي داخل نظام الحاسوب ، ففعل ، فكان قاموسه العون الكبير في ترجمة رسائل الفيتكونغ واستجواب السجناء .

في ذلك العهد كانت ثورة الاتصالات الإلكترونية – تكنولوجية الأقمار الصناعية ومجموعات الدارات الكهربائية الضئيلة الحجم – تغيّر وجه صناعة المعلومات السرية . فقد كانت طرق تشفير أسرع وأكثر أماناً وصورٌ أفضل تصل إلى الحواسيب بسرعة متزايدة . وصارت الحواسيب أصغر وأسرع ، وأصبح بإمكان المجسّات المتطورة الفصل بين آلاف المحادثات ، وبإمكان التحليل الطيفي الفوتوغرافي أن يختار من أصل ملايين النقاط فقط ما هو مطلوب ، وأتاحت الرقاقات الحاسوبية الاستماع إلى همسة على مسافة مائة ياردة ، كما

صار بالإمكان الرؤية في ظلمة الليل بفضل العدسات العاملة بنظام الأشعة ما فوق الحمراء .

وساهمت قوى الألياف البصرية للمجتمع الجديد في الاستخبارات العملانية . فجمع المعلومات والربط بينها على نطاق لا يتجاوز كثيراً قدرات البشر قدّم أداة قوية تستخدم في البحث عن النمط وطريقة العمل في النشاطات الإرهابية . وبدأ العمل على برنامج "نظام مقارنة التحليل الوجهي وإزالته" والمعروف باسم "فيسيز" ، وهو برنامج أحدث ثورة في نظام التعرّف على شخص من خلال الصور . ويعمل برنامج "فيسيز" بتسعة وأربعين خاصية كل منها مصنّفة على ميزان مرقّم من 1 إلى 4 . وبإمكان هذا البرنامج أن يصدر 15 مليون قرار ثنائي (نعم / لا) في لحظة .

وبربط الحواسيب في ما بينها وقيامها بعمليات بحث متزامنة أمكن الوصول إلى نتيجة مذهلة وهي 40 مليون قرار ثنائي في لحظة . وبدأ حجم الحواسيب نفسها يتقلّص مع احتفاظها بذاكرة تحفظ من المعلومات ما يعادل ما في مرجع من خمسمائة صفحة .

أثناء قيامه بمهام عمله في وكالة الأمن القومي رأى هاملتون أن هناك فرصة استثمارية في تلك السوق المتوسّعة على الدوام . فسوف يصنع برنامجاً حاسوبياً للاتصال ببنوك المعلومات في أنظمة الحاسوب الأخرى . ومتى استُخدم هذا البرنامج في عمل الاستخبارات فسيتيح لصاحبه اعتراض معظم الأنظمة الأخرى من دون علم أصحابها . وكان شعوره الوطني وراء قراره أن تكون حكومة الولايات المتحدة أول زبون يشتري هذا النظام .

وكان هاملتون على ثقة بأنه سيقدم لأجهزة الاستخبارات الأميركية وللبلاد فرصةً لتحقيق التفوّق ، كما فعلت وكالة "ناسا" الفضائية الأميركية في مجال تكنولوجيا الفضاء . وإذ لقي تشجيعاً من وكالة الأمن القومي انكب المخترع على عمله الذي خصّص له ست عشرة ساعة يومياً وطوال أيام الأسبوع . وكان هاملتون المثال النموذجي الذي تضج بأمثاله وكالة الأمن القومي ، فكان مأخوذاً بعمله وشديد التكتّم بشأنه .

وبعد ثلاث سنوات شارف هاملتون على إنتاج أداة المراقبة المثلى ، وهي برنامج يستطيع تعقّب حركات عدد لا يحصى من الناس في أي بقعة من العالم . فالإنذار الذي وجهه الرئيس ريغان للإرهابيين بـ"أنكم تستطيعون الهرب لكنكم لا تستطيعون الاختباء" بات على وشك أن يصبح جدياً .

استقال هاملتون من عمله في وكالة الأمن القومي واشترى شركة صغيرة تدعى

"إنسلو" . وكان عمل الشركة المعلن التدقيق في دعاوى المحاكم وتبيّن ما إذا كانت هناك خلفية مشتركة للمتقاضين والشهود وعائلاتهم وحتى محاميهم وبكلام آخر لكل من له علاقة بدعوى ما . أطلق هاملتون على النظام الحاسوبي اسم "بروميس" ، ومع حلول عام 1981 تمكّن من تطويره إلى حد مكّنه من تسجيل الحقوق الفكرية للبرنامج وتحويل "إنسلو" إلى شركة صغرى ناجحة .

اعترضت وكالة الأمن القومي زاعمةً أنه استخدم تسهيلاتها في أعمال البحث التي أدّت إلى إنتاج البرنامج . لكن هاملتون أنكر الزعم وعرض تأجير "بروميس" لوزارة العدل على قاعدة واضحة : كلما استخدمت الوزارة البرنامج تسدّد أجراً محدداً لشركة "إنسلو" . ولم تكن الصفقة المقترحة مغرية ، فوزارة العدل كغيرها من الوزارات متعاقدة مع مئات الجهات التي تقدم لها مختلف الخدمات . ولكن الوزارة أرسلت نسخة من برنامج هاملتون إلى وكالة الأمن القومي طالبة "تقييمه" ، وذلك من دون علم الرجل نفسه .

وتبقى الأسباب التي دفعت إلى مثل هذا العمل غامضة . فهاملتون كان قد قدّم عرضاً أمام الوزارة أظهر بالفعل أن البرنامج يستطيع أن يقوم بكل ما يزعم مقدرةً على القيام به ، وبالضبط البحث في حياة الناس بطريقة لم تكن ممكنة من قبل . ويقدّم البرنامج لوزارة العدل وذراعها الأمني مكتب التحقيقات الفيدرالية "أف .بي .آي ." وسيلة فعالة في مكافحة تبييض أموال المافيا والنشاطات الإجرامية الأخرى . وبين ليلة وضحاها يستطيع البرنامج أيضاً أن يحدث انقلاباً في حرب إدارة مكافحة المخدرات "دي .إي .أي ." ضد كبار التجار الكولومبيين . أما بالنسبة لوكالة الاستخبارات الأميركية "سي .آي .أي ." فبإمكان البرنامج أن يكون سلاحاً له فعالية قمر التجسس نفسها . كانت أوجه الاستخدام أكثر من أن تحصى .

في هذه الأثناء ، كان أحد الشخصيات البارزة في عالم السمسرة والصفقات ويدعى ايرل برايان قد سمع ببرنامج "بروميس" . كان برايان رئيس قسم الصحة في ولاية كاليفورنيا في عهد حاكمية ريغان للولاية . ولما كان برايان يتكلم الفارسية فقد شجّعه ريغان على وضع خطة "للعناية الصحية" (مديكير) لمصلحة الحكومة الإيرانية . كانت تلك إحدى المقترحات الدونكيشوتية التي أغرم بها رئيس الولايات المتحدة المقبل : فتقديم نسخة عن برنامج "العناية الصحية" سيظهر الوجه المضيء لأميركا ، وفي الوقت نفسه يحسّن صورة الولايات

المتحدة في المنطقة . وفي عبارة رسخت في ذاكرة برايان قال له ريغان "إذا حقّقت خطة العناية الصحية النجاح في كاليفورنيا فستحقّق النجاح في أي مكان آخر" .

خلال زيارته إلى طهران استرعى برايان انتباه رافي إيتان الذي كان حينها أحد ربّان سفينة مقايضة السلاح بالرهائن التي كانوا يتوجهون بها نحو الصخور . فدعا برايان لزيارة إسرائيل ونشأت بينهما علاقات ودّ على الفور ، فأُعجب برايان برواية مضيفه عن كيفية اختطاف آيخمان ودهش رافي إيتان بالمقدار نفسه لوصف ضيفه لحياة البذخ والرخاء في كاليفورنيا .

وما لبث رافي إيتان أن تبيّن أن برايان لم يتمكّن من توسيع دائرة معارفه في إيران ، وأنه كان يقول في مجالسه الخاصة أن اقتراح ريغان وضع برنامج للعناية الصحية لإيران "يكاد يكون أكثر ما سمعت به من اقتراحات مجنونة منذ وقت طويل" . وقد ظل الرجلان على تواصل على مدى السنوات . فأرسل رافي إيتان بطاقة بريدية إلى برايان من أبولو في بنسلفانيا حيث كان يزور مصنع "نومك" ، وذلك برغم برنامج الزيارة الحافل . وكتب إيتان على البطاقة "هذا مكان يسرّ المرء أن يكون منه" . أما برايان فقد بقي يطلع رافي إيتان على شؤون برنامج "بروميس" .

وعام 1990 وصل برايان إلى تل أبيب . كانت الرحلة الطويلة التي قطعها قد أرهقته جداً . وكان وراء شحوب وجهه غضبُه من استخدام وزارة العدل الأميركية نسخةً من برنامج "بروميس" لتعقّب تبييض الأموال وغيرها من النشاطات الإجرامية .

وبدون سبب واضح أحسّ رافي إيتان أن صديقه القديم وصل في الوقت المناسب . فقد احتدم الصراع من جديد بين الموساد وأجهزة الاستخبارات الإسرائيلية الأخرى . أما السبب فكان الثورة الفلسطينية الجديدة "الانتفاضة" ، وبإمكان " بروميس" أن يكون سلاحاً فعّالاً في التصدي لها .

توسّع نطاق الثورة بسرعة هائلة أذهلت الإسرائيليين وقوّت تماسك الفلسطينيين في الضفة الغربية وغزّة . وكلما ازداد عدد من يعتقلهم الجيش الإسرائيلي ويصيبهم بالرصاص ويقتلهم ويضربهم بقسوة ويقتلعهم من منازلهم ، كلما زادت سرعة انتشار الانتفاضة . وكانت لافتةً حالةُ الرضى الضمني في أنحاء العالم عندما استخدم فتى عربي طائرة شراعية لاختراق دفاعات إسرائيل المتطوّرة على الحدود مع لبنان والهبوط في بستان قريب

من مستعمرة كريات شمونة (الخالصة) . وفي خلال دقائق قتل ستة جنود إسرائيليين مدججين بالأسلحة وجرح سبعة غيرهم قبل مصرعه .

ترسّخت العملية المثيرة في عقول الفلسطينيين وأحيطت بالقداسة . أما في أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية فقد راح الجميع يتبادلون الاتهامات الغاضبة بالتقصير . اتهم "شين بيت" جهاز "أمان" ، وكلاهما اتهم الموساد لفشله في الحصول على إنذار مبكر من لبنان . وزاد الأمر سوءاً في ما بعد . فقد تمكن ستة مناضلين مسجونين بتهم الإرهاب من الفرار من سجن شديد التحصين في غزة . واتهم الموساد "شين بيت" بالتقصير ، فردّ هذا بأن خطة الهرب نظّمت من خارج إسرائيل مما أعاد التهمة إلى الموساد .

ويكاد لا يمرّ يوم من دون سقوط الجنود والمدنيين الإسرائيليين قتلى بالرصاص في شوارع القدس وتل أبيب وحيفا . وكان وزير الدفاع اسحق رابين في أمسّ الحاجة لاستعادة زمام المبادرة فأعلن تنفيذ سياسة "القوة والبأس وعمليات الضرب المبرّح" ، إلا أنها لم تفلح .

أعجزت الصراعات العميقة بين أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية هذه الأجهزة عن الاتفاق على سياسة منسّقة لمواجهة مقاومة فلسطينية ضخمة لم ترَ مثلها إسرائيل منذ حرب 1948 . وزاد الطين بلّة النقد الأميركي المستند إلى الادلّة المتزايدة المعروضة على شاشات التلفزيون عن الطرق الوحشية التي يستخدمها الجنود الإسرائيليون . وللمرة الأولى بدأت شبكات التلفزيون الأميركية المعروفة باتجاهها المؤيد لإسرائيل بعرض الأفلام التي ضاهت بالوحشية المستخدمة ما حدث في ساحة تيانانمن في بيجين . أحد هذه الأفلام أظهر جنديين إسرائيليين وهما يحطّمان ذراع شاب فلسطيني بحجر ضخم ، وأظهر فيلم آخر دورية للجيش الإسرائيلي وهي تضرب امرأة فلسطينية حاملاً . وفي فيلم آخر أيضاً ظهر أطفال من الخليل وهم يتلقّون ضربات وحشية على أجسادهم بأعقاب بنادق الجنود الإسرائيليين .

اندمجت الأطراف المشاركة في الانتفاضة وشكّلت القيادة الوطنية الموحدة للثورة . وزُوّد كل حيّ عربي بتعليمات بالعربية تتعلّق بكيفية تنظيم الإضرابات وإغلاق المحال ومقاطعة البضائع الإسرائيلية ورفض الاعتراف بالإدارة المدنية . وكان الأمر شبيهاً بالمقاومة التي ظهرت في الأيام الأخيرة من الاحتلال الألماني لفرنسا في الحرب العالمية الثانية .

كان ناحوم أدموني في حاجة ماسة لتأكيد دور الموساد البارز بين أجهزة الاستخبارات

الإسرائيلية فلجأ إلى خطوات عملية . وفي 14 شباط (فبراير) 1988 أرسل فريقاً من القتلة إلى ميناء ليماسول القبرصي فزرعوا قنبلة شديدة الانفجار في هيكل سيارة فولكسفاكن من طراز "غولف" يملكها أحد قادة الانتفاضة ويدعى محمد التميمي . وكان معه ضابطان كبيران من منظمة التحرير الفلسطينية ، فقتل الثلاثة في الانفجار الضخم الذي اهتزّ له الميناء كله .

وفي اليوم التالي نفّذ الموساد عملية أخرى ، فزرع لغماً أُلصق بهيكل "سوي فاين" ، سفينة الركاب التي كانت منظمة التحرير الفلسطينية قد اشترتها في إطار عملية دعائية منظّمة . وكان مؤملاً أن تبحر السفينة إلى حيفا وعلى متنها ممثلو الصحافة العالمية فتثير المشاعر وهي تذكّر العالم بـ"حق العودة" إلى الوطن الذي حرم منه الفلسطينيون . وستعيد هذه الرحلة إلى الذاكرة بصورة أكثر حدّة حادثة الزوارق اليهودية التي تحدّت قبل أربعين سنة البحرية البريطانية وجاءت بالناجين من المحرقة النازية إلى فلسطين تحت شعار "الحق بالعودة" أيضاً .

أما "سوي فاين" فدُمّرت .

لكن هاتين العمليتين لم تنجحا في الفتّ من عضد الفلسطينيين . وفي كل مناسبة ، تمكن الثوار من التفوّق بالذكاء على الإسرائيليين الذين كان رد فعلهم الوحيد اللجوء إلى العنف والمزيد منه . وراح العالم يراقب إسرائيل وهي تظهر عجزها عن وقف الانتفاضة ، بل واكثر من ذلك قد خسرت الحرب الدعائية . وعقد المعلقون المقارنة ، فأشاروا إلى أن ما يجري هو نزاع عصري بين داوود وغوليات (جالوت) يقوم فيه الجيش الإسرائيلي بدور العملاق الكريه .

شرح رافي إيتان هذا كلّه وأموراً أخرى سواه إلى ضيفه إيرل برايان . أما برايان فأطلعه بدوره على كيفية عمل "بروميس" . وأضاف إنه يرى أن تطوير البرنامج إلى السرعة القصوى يحتاج إلى وقت وجهد إضافيين . وتأكد لرافي إيتان أن ذلك التطوير سيجعل للبرنامج تأثيره على الانتفاضة .

وكخطوة أولى ، بإمكان النظام أن يخترق أنظمة الحاسوب العاملة في مكاتب منظمة التحرير الفلسطينية السبعة عشر القائمة في أماكن مختلفة من العالم لمعرفة وجهة سفر عرفات التالية والإطلاع على خططه . وأزاح رافي إيتان جانباً بحثه عن الخردة المعدنية ليركّز على كيفية استغلال العالم الجديد الرائع الذي يقدمه "بروميس" .

فلم يعد من الضروري مثلاً تركيز الاعتماد على الاستخبارات البشرية لفهم عقلية "الإرهابي" . فبالاستعانة بـ"بروميس" أصبح ممكناً معرفة مكان وزمان هجومه التالي بالضبط . وبإمكان "بروميس" أن يتأثّر كل خطوة يقوم بها هذا العدو .

بلا شك فإن تحقيق إيتان مثل هذا السبق سيجعله من جديد شخصية قوية في أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية . لكن الجراح التي أصابته من هجمات زملائه السابقين أعمق بكثير . فقد جرى التخلّي عنه من دون أن يبقى له سوى راتب تقاعدي متواضع . والسن يتقدّم به وعليه واجب أوّل نحو عائلته التي اضطره عمله سابقاً إلى إهمالها فترات طويلة . لقد أتاح "بروميس" الفرصة لإصلاح الأضرار ، وإذا أحسن استخدامه فقد يدرّ ذلك عليه ثروة طائلة . لكن رافي إيتان المشهور بذكائه لم يكن عبقرياً في استخدام الحاسوب ، فبالكاد تتجاوز مهارته حدود إدارة "المودم" . لكن سنوات خدمته في مكتب "لاكام" قدّمت له فرصة التعرّف إلى جميع ما يحتاج إليه من خبراء .

عندما عاد برايان إلى الولايات المتحدة شكّل رافي إيتان فريقاً صغيراً من المبرمجين الذين عملوا سابقاً في "لاكام" ، فأعادوا تشكيل مكوّناته المختلفة وأضافوا بعض العناصر الخاصة حتى أصبح من المتعذّر أن يدّعي أحد ملكية "بروميس" بصورته الجديدة . لكن رافي إيتان قرّر الإبقاء على الاسم الأصلي لأن ذلك "أداة تسويق جيدة توضح ماهية النظام" .

وصار بإمكان عملاء الاستخبارات غير المدرّبين على تكنولوجيا الحاسوب ، بخلاف معرفة أي المفاتيح يلمسون ، أن يطّلعوا على المعلومات والتقييمات التي تتجاوز بشموليتها ما يمكن أن يحملوه داخل رؤوسهم . فبإمكان قرص "بروميس" الدخول في حاسوب حضني واختيار ما يتلاءم مع مهمّته من عدد لا يحصى من الخيارات . وستنتفي به الحاجة إلى التفكير الإستنتاجي وذلك لوجود أمور صحيحة ولكنها غير ذات أهمية ينبغي أخذها في الحسبان مما يجعل من غير الممكن الاقتصار على التفكير البشري . وبالإمكان برمجة "بروميس" لإزالة كل خطوط التحقيق غير الضرورية وجمع المعلومات والتنسيق بينها في سرعة وعلى نطاق يتجاوزان القدرة البشرية .

ويقول بنمناشي أن رافي إيتان طلب إضافة عنصر آخر قبل بيع البرنامج ، وهو يزعم أنه استدعي للقيام بدور رئيسي في إدخال "باب مسحور" ، وهي رقاقة كمبيوتر تُزرع داخل

الحاسوب وتمكّن رافي إيتان من معرفة ما يريده مقتني الحاسوب من معلومات من دون معرفة الأخير .

كان بنمناشي يعرف شخصاً يمكنه صنع باب مسحور لا تستطيع أكثر آلات الفحص الدقيق الحديثة اكتشافه . ويملك الرجل شركة حاسوب صغيرة لأعمال البحث والتطوير في شمال كاليفورنيا . ويعرفه بنمناشي من أيام الدراسة الأولى ، وقد وافق على تجهيز الرقاقة التي لا تُرى بالعين المجردة مقابل خمسة آلاف دولار ، وهو مبلغ اعتبره بنمناشي ضئيلاً . وبعدها جاء دور إخضاع الرقاقة للاختبار .

جرى اختيار الأردن لإجراء الاختبار ليس فقط لأنها تقوم على حدود إسرائيل بل لأنها أصبحت ملاذاً لزعماء الانتفاضة . وكان هؤلاء يوجّهون من الأردن جماهير الفلسطينيين في الضفة الغربية وغزة . فبعد تنفيذ إحدى العمليات يتسلّل رجال المقاومة الفلسطينية عبر الحدود إلى الأردن ، وغالباً ما فعلوا ذلك برضى الجيش الأردني .

وتبعاً لذلك ، وحتى قبل الانتفاضة ، أصبح الأردن مكاناً يطوّر فيه الموساد مهاراته الإلكترونية . وفي السبعينات اتصل تقنيو الموساد بجهاز حاسوب باعته شركة "آي .بي .أم" لجهاز الاستخبارات العسكرية الأردني . وقد كمّلت المعلومات المستقاة بهذه الطريقة ما قدّمه عميل موساد شديد التكتم زرعه رافي إيتان داخل قصر الملك حسين . لكن بإمكان "بروميس" أن يقدم أكثر من هذا .

وكان من المستحيل بيع النظام إلى الأردن مباشرة لأن قيام علاقات تجارية طبيعية بين البلدين أمرٌ لم يكن قد تحقّق بعد . وبدلاً من ذلك فقد عقدت الصفقة شركة "هادرون" التي يملكها ايرل برايان . وعندما ركّب خبراء الحاسوب العاملون في الشركة البرنامج في المقر العسكري في عمّان اكتشفوا أن الأردنيين يستخدمون جهازاً من تصميم فرنسي لتتبّع نشاطات قادة منظمة التحرير الفلسطينية . وقد جرى توصيل "بروميس" سراً بالنظام الفرنسي . وفي تل أبيب لم يلبث رافي إيتان أن حصل على النتائج المرجوة عندما أطلعه الباب المسحور على من هم قادة منظمة التحرير الفلسطينية الذين تتعقّبهم السلطات الأردنية .

وكانت المرحلة التالية تحضير عرض البيع لـ"بروميس" . وجرى اختيار عرفات على أنه النموذج المثالي . فقد اشتهر عرفات بأنه شديد الاهتمام بالشأن الأمني ، فكان يغيّر خططه

باستمرار ، ولم يكن يبيت في السرير نفسه ليلتين متعاقبتين ، ويغيّر مواعيد الطعام في اللحظة الأخيرة .

وكلما انتقل عرفات من مكان إلى آخر أُدخلت التفاصيل في حاسوب مصون في منظمة التحرير الفلسطينية . لكن "بروميس" تمكّن من اختراق دفاعاته لمعرفة الأسماء المستعارة وجوازات السفر المزيّفة التي يستخدمها . وتمكّن البرنامج أيضا من الإطلاع على فواتير هاتفه ومعرفة الأرقام التي طلبها . وبعدها يقوم البرنامج بمقابلة هذه المعلومات مع المكالمات الهاتفية الأخرى التي أجريت من تلك الأرقام . وبذلك تمكّن "بروميس" من تكوين صورة عن اتصالات عرفات .

وإذا كان على سفر عمد عرفات إلى إبلاغ سلطات الأمن المحليّة بوصوله ، فتُتّخذ الإجراءات لتأمين حمايته . لكن "بروميس" يتمكن من معرفة التفاصيل باعتراض أجهزة الحاسوب لدى الشرطة . وحيثما حلّ عرفات أصبح غير قادر على الاختباء من "بروميس" .

وتيقّن رافي إيتان من أن إمكانات إيرل برايان وشركته لا تستطيع الوفاء بالحاجة لتسويق "بروميس" عالمياً . فهذا أمر يتطلب شخصاً له علاقات دولية هائلة وطاقة لا حدود لها ومهارات تفاوضية أكيدة . كان رافي إيتان يعرف رجلاً واحداً يتمتّع بهذه المؤهلات : روبرت ماكسويل .

ولم يستغرق إقناع ماكسويل بالفكرة وقتاً طويلاً . وكعادته عند وجود صفقة تدرّ عليه الأرباح ، أعلن ماكسويل بطريقته الحماسية أنه يمتلك شركة حاسوب يستطيع بيع "بروميس" عبرها . كانت شركة "ديغيم كومبيوتر ليمتد" تتخذ مقراً لها في تل أبيب وكانت قد بدأت تلعب دوراً مفيداً في نشاطات الموساد . وقد سمح ماكسويل لعملاء الموساد الذين يزعمون أنهم موظفون في "ديغيم" باستخدام مكاتب الشركة الفرعية في أميركا الوسطى والجنوبية . هذه المرة رأى ماكسويل أن الفرصة سانحة لتحقيق أمرين أحدهما تحقيق أرباح طائلة من تسويق "بروميس" عبر "ديغيم" ، والثاني إظهار أهميته مرة أخرى أمام الموساد وبالتالي إسرائيل .

كانت نبرة ماكسويل قد بدأت خلال الزيارات الأخيرة التي قام بها إلى إسرائيل تثير القلق . فقد أبلغ أدموني أنه ينبغي أن يبدأ بالاستعانة بالمنجّمين لمعرفة ما يدور في خَلَد أعداء إسرائيل . وبدأ يقترح أهدافاً لأعمال التصفية . ورغب في مقابلة فرق القتلة في

الموساد وزيارتهم في مخيمات التدريب . وقد رفض رئيس الموساد جميع هذه الطلبات بحزم لا يجانب التهذيب . لكن بدأت الأسئلة تطرح في دوائر الموساد عن ماكسويل . هل كان سلوكه مجرّد سلوك مجنون عظمة يريد أن يتباهى بمكانته؟ أم هل يكون ذلك نذيراً لأمر آخر؟ هل سيأتي أخيراً اليوم الذي يصبح فيه روبرت ماكسويل ، بالرغم من كل ما فعله من أجل إسرائيل ، في حالة عقلية مضطربة وحالة تقلّب مزاج تجعلانه عبئاً فوق الأعباء؟

لكن أحداً لم يكن يشك بأن ماكسويل مسوّق ممتاز لـ"بروميس" أو مسوّق لكفاءة النظام ، وهو بالضبط ما يهتم به جهاز الموساد . كان الموساد أول من اقتنى البرنامج الذي أدى خدمة عظيمة في الحملة ضد الانتفاضة . وقد عمد عدد كبير من القادة الفلسطينيين إلى مغادرة الأردن إلى مواقع آمنة في أوروبا بعدما سقط عدد منهم في الأردن صرعى عمليات اغتيال نفذّها قتلة الموساد .

وسجّل البرنامج نجاحاً مثيراً عندما اتصل أحد قادة الانتفاضة الذي نقل مكان إقامته إلى روما برقم هاتف في بيروت صنّفته حواسيب الموساد على أنه منزل خبير متفجّرات معروف . كان القائد الفلسطيني يرغب في الاجتماع بخبير المتفجرات في أثينا . فاستخدم الموساد "بروميس" لمعرفة جميع ترتيبات سفر الرجلين من خلال مكاتب السفر في كل من روما وبيروت . وأظهرت تحريات إضافية أجريت في بيروت أن خبير المتفجرات أخطر شركات الماء والكهرباء المحلية بوقف إمداداتها عن منزله . كما أظهرت عملية بحث قام بها "بروميس" في الحواسيب المحلية لمنظمة التحرير الفلسطينية أن خبير المتفجرات غيّر سير رحلته في اللحظة الأخيرة . لكن ذلك لم ينجّه من الموت ، فقضى في حادث انفجار في سيارة مفخّخة أثناء رحلته إلى مطار بيروت . وبعد ذلك بوقت قصير قتل القائد الفلسطيني في روما في عملية دهس سُجِّلت ضد مجهول .

في الوقت نفسه ، استخدم الموساد "بروميس" للإطلاع على الأخبار السريّة لعدد من الأجهزة في غواتيمالا . أماط الموساد اللثام عن علاقات تقوم بين قوّات الأمن في البلاد وتجّار المخدرات ووكلائهم في الولايات المتحدة . وقد قدّم الموساد الأسماء إلى "إدارة مكافحة المخدرات" و"مكتب التحقيقات الفيدرالي" .

وفي جنوب أفريقيا استخدم عميل للموساد في السفارة الإسرائيلية برنامج "بروميس" لتعقّب أعضاء المنظمة الثورية المحظورة في البلاد ومصادر اتصالاتهم مع مجموعات في الشرق

الأوسط . وفي واشنطن استخدم خبراء الموساد في السفارة الإسرائيلية "بروميس" للإطلاع على الاتصالات الجارية بين البعثات الديبلوماسية الأخرى والوزارات الأميركية . وحدث مثل ذلك في لندن وغيرها من العواصم الأوروبية . واستمر البرنامج بمدّ الموساد بمعلومات قيّمة . وعام 1989 جرى بيع ما تزيد قيمته على 500 مليون دولار أميركي من نسخ البرنامج في بريطانيا وأستراليا وكوريا الجنوبية وكندا . وكان يمكن أن يكون الرقم أكبر لولا أن وكالة الاستخبارات الأميركية أنزلت نسختها الخاصة إلى الأسواق برسم وكالات الاستخبارات . واستخدم رجال جهاز "أم .آي .5" برنامج "بروميس" في ايرلندا الشمالية لتعقّب الإرهابيين وتحرّكات زعماء سياسيين بينهم جيري آدامس .

كما تمكّن ماكسويل من بيع البرنامج إلى جهاز الاستخبارات البولونية ، "يو .بي ." . وفي مقابل ذلك سمح البولونيون ، على حد زعم بنمناشي للموساد بسرقة طائرة من طراز "ميغ-29" . وتذكّر العملية بسرقة الطراز الأقدم لطائرة "ميغ" من العراق . فقد سهّل الأمر جنرال بولوني يدير مكتب "يو .بي ." في غدانسك مقابل مليون دولار أميركي أودعت في حساب مصرفي في "سيتي بنك" في نيويورك ، إذ اعتبر الطائرة غير صالحة للطيران بالرغم من أنها كانت قد وصلت حديثاً من مصنع الطائرات الروسي . وقد فكّكت الطائرة ووضعت أجزاؤها في صناديق كُتبَ عليها "معدّات زراعية" وشحنت جواً إلى تل أبيب . وهناك أعيد تجميع الطائرة وأخضعتها قوة الجو الإسرائيلية لاختبار طيران ، وذلك لتمكين الطيارين الإسرائيليين من مواجهة طائرات "ميغ-29" العاملة في سورية .

مضى على حادثة السرقة عدة أسابيع قبل أن تكتشفها موسكو خلال جردة روتينية للطائرات التي ترسل إلى بلدان حلف وارسو . فقدّمت موسكو احتجاجاً شديد اللهجة إلى إسرائيل دعمته بالتهديد بوقف السماح لليهود السوفيات بالهجرة . أما الحكومة الإسرائيلية فبعد اطمئنانها إلى أن قوتها الجوية قد اكتشفت كل أسرار طائرة "الميغ" ، اعتذرت بحرارة عن "الحماسة الخاطئة التي أظهرها ضباط عملوا بدون تكليف رسمي" ، وأعادت الطائرة على الفور . وأما جنرال "يو .بي ." فقد كان قد فرّ إلى الولايات المتحدة ليكون على مقربة من ثروته المالية . ووافقت واشنطن على منحه هوية جديدة في مقابل السماح لقوات الجو الأميركية بالقيام بنفسها بتفحّص طائرة "الميغ" .

عقب ذلك ، سافر روبرت ماكسويل إلى موسكو لإجراء مقابلة مع ميخائيل غورباتشوف

كما أُعلن رسمياً . أما سبب الزيارة الحقيقي فهو بيع "بروميس" لجهاز "كي .جي .بي ." . وأتاح الباب المسحور في البرنامج الفرصة لحصول إسرائيل بصورة استثنائية على الأسرار العسكرية السوفياتية مما جعل الموساد أحد أكثر الأجهزة اطلاعاً على النيات الروسية .

ومن موسكو سافر ماكسويل إلى تل أبيب . وكالمعتاد أُعدّ له استقبال الملوك ، فأُعفي من جميع شكليات المطار وقَدِم مسؤول رسمي من وزارة الخارجية لاستقباله .

وعامل ماكسويل المسؤول كما يعامل موظفيه ، فأصرّ على أن يحمل المسؤول حقائبه بنفسه ويجلس إلى جانب السائق . وطلب ماكسويل أيضاً أن يعرف أين مرافقه الدرّاج ، ولما قيل له أن لا مرافق دراجاً في الرحلة هدّد بالاتصال بمكتب رئيس الوزراء والعمل على طرد المسؤول . وفي كل مرة توقّفت السيارة عند إشارة المرور كان ماكسويل يحاضر في المسؤول السيئ الطالع . وظلّ على هذا المنوال حتى وصل إلى جناحه في الفندق . وهناك كانت عاهرته المفضّلة بانتظاره ، لكنه صرفها ، فثمة أمور أكثر إلحاحاً من إرضاء حاجاته الجنسية تشغل باله .

كانت إمبراطورية ماكسويل الصحافية في لندن تواجه متاعب مالية خطيرة . وهي توشك على وقف عملياتها ما لم تُضَخّ فيها كميات ضخمة من المال . لكن حيّ المال في لندن الذي طالما زوّده بالتمويل من قبل يظهر ممانعة الآن في تقديم المطلوب . فقد تبيّن لأرباب المال الذين تعرّفوا إلى ماكسويل أن وراء تهديده ووعيده وأساليبه المترفّعة رجلاً فقد فطنته المالية التي كانت تغفر له عندهم الكثير من ذنوبه . ففي ما مضى كان يهتاج ويطلق التهديدات في مواجهة أتفه التحديات ، لكن المصرفيين كانوا يكبحون جماح غضبهم ويذعنون لمطالبه . وذاك عهد مضى ، إذ بات يتردد في مصرف إنكلترا المركزي والمؤسسات المالية الأخرى في المدينة أن الرهان على ماكسويل محفوف بالمخاطر .

واستند المصرفيون لمعلوماتهم الى تقارير سريّة وردتهم من إسرائيل تفيد أن المستثمرين الإسرائيليين يضغطون على ماكسويل لإعادة أموالهم التي استخدمها في شراء مجموعة "ميرور" . فقد مضى موعد استحقاق الدفع منذ وقت طويل والإسرائيليون يلحّون كثيراً في طلباتهم . وقد وعد ماكسويل الدائنين بعائدات أعلى على اموالهم إذا هم صبروا عليه وذلك في محاولة منه لتجنّب ضغوطهم . لكن ذلك لم يرق للإسرائيليين الذين قالوا أنهم يريدون استعادة أموالهم الآن . ولهذا السبب جاء ماكسويل إلى تل أبيب ، فقد كان يأمل أن يتملّقهم

علّهم يمنحونه تمديداً آخر . ولم تكن الدلائل تبشّر بالخير . فقد تلقّى أثناء الرحلة عدة مكالمات هاتفية من المستثمرين الغاضبين الذين هدّدوا بإحالة القضية إلى السلطة التنظيمية في حي المال في لندن . وشغلت بال ماكسويل قضية أخرى . فقد اختلس بعض الأرباح الهائلة من "أورا" عندما عُهد إليه بإخفائها في مصارف الكتلة السوفياتية ، فاستخدم المال لإنقاذ مجموعة "ميرور" . كان قد سرق كل ما تمكن من سرقته من صندوق تقاعد الموظفين في المجموعة الصحافية ، وما اختلسه من "أورا" لا يغطي جزءاً كبيراً مما فقده الصندوق .

ومتى انكشف أمر السرقة سيجد ماكسويل نفسه ليس في مواجهة أصحاب الرساميل الإسرائيليين وحدهم بل في مواجهة بعض الرجال القساة ومنهم رافي إيتان . كان ماكسويل يعرف عن عميل الموساد السابق ما يكفي لجعله يتوقّع ألا تكون تلك المواجهة سارةً على الإطلاق .

في جناحه في الفندق بدأ ماكسويل يرسم استراتيجيته . إن حصته من تسويق شركة "ديغيم" لبرنامج "بروميس" لن تكفي لاجتثاث الأزمة . ولن تكفي أيضاً أرباحه من "معاريف" الصحيفة الإسرائيلية الصغيرة الحجم التي تشبه صحيفة "دايلي ميرور" التي يملكها . ولكن كان هناك احتمال واحد وهو شركة "سايتكس" ومقرّها تل أبيب التي يملكها ماكسويل والتي تصنّع معدات طباعية عالية التقنية . وإذا تمكّن من بيع "سايتكس" في سرعة فإن المال المتحصّل يساعد في حل المشكلة .

استدعى ماكسويل مدير "سايتكس" ، ابن رئيس الوزراء اسحق شامير إلى جناحه . فجاءه المدير بأخبار غير سارّة : عقد صفقة بيع سريعة أمر مستبعد . فشركة "سايتكس" التي تحقّق نجاحاً تواجه في الوقت نفسه منافسة متزايدة . والوقت غير مناسب لطرحها للبيع . والبيع يعني فقدان عدد من الموظفين الأكّفاء لوظائفهم وذلك في وقت أصبحت البطالة فيه مشكلة خطيرة في إسرائيل .

وأحدث رد الفعل سورة غضب هائلة لدى ماكسويل الذي رأى آخر آماله بإنقاذ وضعه يتبدّد . لكنّه ارتكب خطأ تكتيكياً عندما وبّخ نجل رئيس الوزراء الذي أخبر والده على الأثر أن ماكسويل يواجه متاعب مالية صعبة . ولعلم رئيس الوزراء بالعلاقات التي تربط ماكسويل بالموساد عمد إلى إبلاغ ناحوم أدموني بالأمر ، فدعا هذا إلى عقد اجتماع لكبار موظفيه لدرس كيفية معالجة هذه المشكلة المستجدّة .

وتبيّن في ما بعد أن المجتمعين بحثوا في عدد من الخيارات .

أولاً : أن يطلب الموساد من رئيس الوزراء أن يستخدم نفوذه الكبير مع المستثمرين الإسرائيليين ليس للانتظار لفترة أطول للحصول على أموالهم بل لتعبئة إمكاناتهم ومعارفهم من أجل جمع المال اللازم لإنقاذ ماكسويل من ورطته . وقد رُفض هذا الخيار على أساس أن ماكسويل أزعج شامير كثيراً بموقفه المتعجرف . وكان الجميع يعرفون أن شامير يتمتّع بحسّ قوي لحفظ الذات ولا بد أنه يريد أن يبقى بعيداً عن ماكسويل .

ثانياً : أن يحثّ الموساد المتطوعين لخدمته من ذوي المناصب العليا في حي المال في لندن على مساندة خطة إنقاذ ماكسويل . وفي الوقت نفسه يشجّع الموساد أصدقاءهم من الصحافيين البريطانيين على تدبيج روايات تساند رجل الأعمال المبتلي .

وقد استُبعدت هذه الاقتراحات ، إذ تلقى أدموني تقارير من لندن تشير إلى أن عدداً كبيراً من المتطوعين لخدمة الموساد يرحّبون بالتخلّص من ماكسويل ، وأن لا صحافيين خارج مجموعة صحف "ميرور" سيقدمون على كتابة روايات إيجابية عن رجل أعمال كبير صرف السنوات العديدة وهو يوجّه التهديدات لرجال الصحافة .

ثالثاً ، وهو الخيار الأخير : أن يقطع الموساد جميع علاقاته مع ماكسويل . وفي هذا الخيار مخاطرة . فبالنظر لحال ماكسويل العقلية المترجرجة فقد يستخدم صحفه لمهاجمة الموساد بالفعل . ويمكن أن يكون لذلك عواقبه البالغة الخطورة باعتبار ما سُمح له بالاطلاع عليه من أسرار .

في ضوء هذه الملاحظة الكئيبة اتفق المجتمعون على أن يجتمع أدموني بماكسويل ويذكّره بمسؤوليته تجاه الموساد وإسرائيل على السواء . في تلك الليلة اجتمع الرجلان حول طاولة عشاء في جناح ماكسويل في الفندق . ولا يزال ما دار بينهما من حديث سراً . ولكن بعد ساعات من الاجتماع ، غادر ماكسويل تل أبيب في طائرته الخاصة . وكانت تلك المرة الأخيرة التي شوهد فيها في إسرائيل حياً .

وعاد ماكسويل إلى لندن . وبدا أنه يحقّق نجاحاً في التمسّك بمجموعته الصحافية برغم الظروف الصعبة . وشبّهه البعض بدرويش أفريقي دوّام لدورانه السريع حول نفسه فيما كان ينتقل من اجتماع إلى آخر طلباً للدعم المالي . وبين الحين والآخر كان يتّصل بالموساد طالباً التحدّث إلى أدموني ، وكان دائماً يقول لسكرتيرة المدير العام أن "التشيكي الصغير" على

الخط . وكان هذا اللقب قد أطلق على ماكسويل عند تجنيده . ولا أحد يعرف ما دار بين الرجلين أثناء تلك المكالمات .

لكن مفتاحاً صغيراً سيظهر في ما بعد من عميل سابق للموساد يدعى فيكتور أستروفسكي الذي يعتقد أن ماكسويل كان يصرّ على أن وقت تسديد ديونه قد حان ، وأن مبلغ المال الضخم الذي سرقه من صندوق تقاعد موظفي "ميرور" يجب أن يعاد إليه الآن . كذلك اقترح ماكسويل أيضاً أن يسعى الموساد بالنيابة عنه لإطلاق سراح موردخاي فعنونو وتسليمه إليه . وعندئذ سيأتي ماكسويل بالتقني الإسرائيلي إلى لندن ويتولى بنفسه إجراء مقابلة صحافية معه لنشرها في صحيفة "ديلي ميرور" . وتكون المقابلة "فعل ندامة" من جانب فعنونو وستُكتب بطريقة تظهر الرحمة الإسرائيلية . وبالوقاحة المخجلة التي ميّزت كثيراً من أعماله ، أضاف ماكسويل أن نشر المقابلة سيعزّز أرقام توزيع صحيفته ويعيد فتح ما انغلق من أبواب أمامه في حي المال في لندن .

ولم يكن أستروفسكي وحده من تبيّن أن هذه الخطة المجنونة كانت ما حسم موقف الموساد وأقنعه بأن روبرت ماكسويل أصبح يشكّل خطراً على إسرائيل .

وقدّم ماكسويل دليلاً آخر على سلوكه الغريب عندما اتصل هاتفياً بأدموني يوم 30 أيلول (سبتمبر) 1991 ، من دون أن يموّه تهديده هذه المرة . فقد عاودت أوضاعه المالية الانتكاس من جديد وأصبح هو موضوع تحقيقات يجريها البرلمان وتشارك فيها وسائل الإعلام البريطانية التي لم تعد تجد رادعاً في جمهرة المحامين المرتفعي الأجور الذين يقفون إلى جانب ماكسويل ويهدّدون بإطلاق ما في جعبتهم من دعاوى قضائية . ومضى ماكسويل يقول لأدموني أنه ما لم يبادر الموساد فوراً إلى إعادة جميع الأموال المسروقة من صندوق تقاعد موظفي "ميرور" فقد لا يكون بإمكانه الإبقاء على سر لقاء أدموني نفسه برئيس جهاز "كي .جي .بي ." السابق فلاديمير كريوتشكوف . وكان الأخير سجيناً في موسكو ينتظر محاكمته عن دوره في محاولة انقلابية فاشلة لإطاحة ميخائيل غورباتشوف . وكان من أبرز عناصر الانقلاب اجتماع عقده كريوتشكوف على متن يخت ماكسويل في البحر الأدرياتيكي قبيل محاولة الانقلاب .

كان الموساد قد قطع وعداً خلال اللقاء بأن تستخدم إسرائيل نفوذها لدى الولايات المتحدة والبلدان الأوروبية الرئيسية لتأمين الاعتراف الدبلوماسي بالنظام الجديد في موسكو .

وفي المقابل يسهّل كريوتشكوف السماح بهجرة اليهود السوفيات جميعاً إلى إسرائيل . ولم يتوصّل النقاش إلى أي نتيجة ملموسة ، لكن الكشف عنه سيلحق أذى بالغاً بصدقيّة إسرائيل تجاه النظام الروسي القائم وتجاه الولايات المتحدة .

ويقول فيكتور أستروفسكي في كتابه أنه في تلك اللحظة "عقد اجتماع يميني صغير في مقر الموساد توصّل إلى إجماع على تصفية ماكسويل" .

وإذا صح زعم أستروفسكي الذي لم تنفه إسرائيل رسمياً فمن المستبعد أن تكون المجموعة اليمينية قد نفذت قرارها من دون الحصول على تأييد له على أعلى المستويات ، وربما بمعرفة رئيس الوزراء اسحق شامير الذي شارك بنفسه من قبل في تنفيذ عمليات قتل أعداء الموساد .

ولعل ما أعطى المسألة صفة التعجيل في صفوف الموساد صدور كتاب للمحقق الصحافي الأميركي الشهير سيمور هيرش بعنوان "خيار شمشون : إسرائيل وأميركا والقنبلة" ، والذي يروي قصة تحوّل إسرائيل إلى قوة نووية . فقد فوجئ الموساد بنبأ صدور الكتاب ، وأُرسلت نسخ منه في سرعة إلى تل أبيب . والكتاب يستند إلى وثائق مهمة ، ولكن كان بإمكان إسرائيل معالجة الموقف بفاعلية بلزوم الصمت . فقد تعلّمت درساً قاسياً من خطئها في مقارعة ناشر كتاب أستروفسكي ، وهو ناشر هذا الكتاب أيضاً . ولكن كانت المشكلة هي أن هيرش كشف عن علاقات ماكسويل بالموساد . وتركّزت هذه العلاقات بصورة خاصة في معالجة مجموعة "ميرور" لقصة فعنونو والعلاقة بين نيقولاس ديفيس و"أورا" وآري بنمناشي .

وكما كان منتظراً اختبأ ماكسويل خلف كتيبة من المحامين الذين أقاموا دعاوى قضائية ضد هيرش ودار النشر البريطانية . ولكن هيرش قرّر قبول التحدّي ، ورفض هذا الصحافي الذي حاز على جائزة "بوليتزر" أن يذعن ويتراجع . ووُجّهت في البرلمان أسئلة أكثر تحديداً عن علاقات ماكسويل بالموساد . وعادت الشكوك القديمة تُطلّ برأسها من جديد ، وطالب نواب في البرلمان استندوا إلى الحصانة النيابية ، بمعرفة حجم معلومات ماكسويل عن عمليات الموساد في بريطانيا . ويقول فيكتور أستروفسكي : "كانت الأرض قد بدأت تشتعل تحت قدمَيْ ماكسويل" .

وزعم أستروفسكي أن خطة الموساد الشديدة الإحكام لقتل ماكسويل كانت ترتكز على إقناعه بالمجيء إلى موعد لقاء حيث يوجّه الموساد ضربته . وثمة شَبَه قوي بين هذه الخطة والمؤامرة التي أدت إلى مقتل مهدي بن بركة في باريس .

في 29 تشرين الأول (أكتوبر) 1991 ، تلقّى ماكسويل مكالمة هاتفية من عميل في السفارة الإسرائيلية في مدريد ، طلب منه المجيء إلى إسبانيا في اليوم التالي . ويقول أستروفسكي أن العميل "وعد بتسوية الأمور فلا داعي للخوف" . وأُبلغ ماكسويل بأن عليه السفر جواً إلى جبل طارق والصعود إلى يخته "الليدي غيزلين" والإيعاز لطاقم بحارته بالإقلاع إلى جزر الكناري و"الانتظار هناك حتى ورود رسالة" .

ووافق روبرت ماكسويل على أن يفعل وفق التوجيهات . ويوم 30 تشرين الأول (أكتوبر) وصل أربعة إسرائيليين إلى ميناء الرباط في المغرب وزعموا أنهم سيّاح يمضون إجازة صيد في عمق البحر . ثم استأجروا يختاً يعمل بمحرّك وانطلقوا نحو جزر الكناري .

ويوم 31 تشرين الأول (أكتوبر) وصل ماكسويل إلى ميناء سانتا كروز في جزيرة تناريف ثم تناول طعام العشاء وحيداً في فندق "منسي" ، وانضم إليه أحدهم في ما بعد فجالسه لفترة قصيرة .

ولا تزال هوية الرجل وموضوع محادثتهما جزءاً من لغز آخر أيام روبرت ماكسويل . وبعد ذلك بقليل عاد ماكسويل إلى يخته وأعطى أوامره بالعودة إلى البحر . وخلال الست وثلاثين ساعة التالية أبحرت "الليدي غيزلين" بين الجزر وسارت في سرعات مختلفة ، على أنها ظلت بعيدة عن اليابسة . وكان ماكسويل قد أبلغ ربّان اليخت أنه لا يزال يدرس أين سيتّجه في ما بعد . ويقول أفراد الطاقم أنهم لا يذكرون أن ماكسويل اظهر مثل هذا التردّد من قبل .

تحت عنوان "كيف ولماذا قُتل روبرت ماكسويل" ، نشرت مجلة "بيزنس أيج" البريطانية ما أسمته "سبقاً صحافياً عالمياً" زعمت فيه أن قاتلَين عبرا في زورق مطاطي خلال الليل من يخت يعمل بمحرّك كان يتعقّب "الليدي غيزلين" . ولدى صعودهما إلى اليخت وجدا ماكسويل على الجزء الخلفي من متن اليخت فغلباه قبل أن يتمكن من طلب النجدة ثم "حقن أحد القاتلين فقاعة هواء في رقبة ماكسويل عبر الوريد الوداجي ، وبعد لحظات قليلة مات ماكسويل" .

وخلصت المجلة إلى أن الجثة أُلقيت من عن السفينة وعاد القاتلان إلى يختهما . ولم يعثر على ماكسويل قبل مرور ست عشرة ساعة ، وهو وقت كافٍ لاختفاء أثر غرز الحقنة نتيجة للانغماس في الماء والتهام السمك للجلد .

والمؤكد أنه خلال ليل 4 –5 تشرين الثاني (نوفمبر) كانت متاعب الموساد مع ماكسويل

تستريح في أمواج الأدرياتيكي الباردة . ولم تتمكن التحقيقات التي أجرتها الشرطة وتشريح الجثة على أيدي الأطباء الإسبان من الإجابة عن جميع الأسئلة . لماذا لم يبق إلا اثنان من أصل اثني عشر فرداً من أفراد الطاقم صاحيَين بينما جرت العادة أن يشترك خمسة أفراد في نوبة الحراسة؟ لمن أرسل ماكسويل عدداً من الرسائل بالفاكس خلال تلك الساعات؟ ماذا حدث للنُسخ؟ لماذا استغرق أفراد الطاقم كل ذلك الوقت حتى توصّلوا إلى أن ماكسويل ليس على متن اليخت؟ ولماذا تأخّروا في إخطار الجهات المعنيّة بذلك سبعين دقيقة أخرى؟ وحتى اليوم لم تتوافر إجابات شافية عن كل ذلك .

كلّف ثلاثة أخصائيين أسبان بتشريح الجثة ، فأمروا بإرسال الأعضاء والأنسجة الحيوية إلى مدريد لإخضاعها لمزيد من الفحوص . لكن عائلة ماكسويل تدخّلت قبل أن يتم ذلك وأعطت تعليماتها بتحنيط الجثة وشحنها جواً إلى إسرائيل حيث تدفن . وعلى غير عادتها لم تعترض السلطات الإسبانية على ذلك .

من أو ماذا أقنع العائلة بأن تتّخذ مثل هذا القرار المفاجئ؟

يوم 10 تشرين الثاني (نوفمبر) 1991 أقيمت جنازة ماكسويل عند جبل الزيتون في القدس وهو مدفن تحيطه إسرائيل بهالة من الإجلال . وقد أسبغت على الجنازة كل مظاهر الفخامة التي تتصف بها المناسبات الرسمية ، فحضرها زعماء الحكومة وقادة المعارضة . وكان بين الحضور ما لا يقل عن ستة من رؤساء أجهزة الاستخبارات الحاليين والسابقين ، وقد أصغوا إلى رئيس الوزراء شامير وهو يقول في تأبينه "لقد فعل (ماكسويل) لإسرائيل أكثر مما يمكن البوح به اليوم" .

كان بين الحضور رجل يرتدي بذلة سوداء وقميصاً أسود اللون مع قبّة رومانية عند الرقبة . إنه من أصل لبناني وشكله شبحي ، فطوله لا يزيد على خمسة أقدام ووزنه لا يزيد كثيراً على مئة رطل . لكن الأب إبراهيم لم يكن قساً عادياً . إنه موظف في سكرتارية الدولة في الفاتيكان .

ولم يكن حضوره الحذر الجنازة لمجرد الاحتفاء بالعبور الأرضي لروبرت ماكسويل بل للإشارة إلى مبلغ تطوّر العلاقات السرية آنذاك بين الفاتيكان وإسرائيل . كان ذلك مثلاً رائعاً يؤكد صحة قول مئير عميت أن لا حدود للتعاون في حقل الاستخبارات .

الفصل الحادي عشر

الأحلاف غير المقدسة

لطالما افتُتن رؤساء الوزراء الإسرائيليون واحداً بعد الآخر بفكرة انتخاب البابا حاكماً مطلقاً مدى حياته ، فيكون زعيماً لا يتعرّض للمساءلة من أي جهة قضائية أو تشريعية كانت . ويقف الحبر الأعظم على قمة بنيان هرمي ملكي ، ويمارس دوراً استثنائياً في صياغة النظرة الاقتصادية والسياسية والأيديولوجية ليس لأتباع المذهب الكاثوليكي فحسب بل للعالم كله . ويُنقل عن بن غوريون أنه قال مرة "دع عنك ذلك الهذر عن عدد الفرق العسكرية التي تأتمر بأوامر البابا ، وانظر إلى عدد الناس الذين يستطيع أن يستنجد بهم" .

ما يثير اهتمام الموساد هو السريّة الشديدة التي يعمل الفاتيكان بها . وهذه السريّة أوالية معزّزة واضحة المعالم وتغطي كل ما يقوم به الحبر الأعظم . وغالباً ما تأخرّ شهوراً ظهور التلميحات الأولى عن علاقة البابا بمبادرة ديبلوماسية من أي نوع ، ومع ذلك فنادراً ما كانت تفاصيل هذه العلاقة تجد طريقها إلى النشر . وكان كل رئيس للموساد يودّ لو يمكنه اختراق ستار السريّة ، لكن جميع المحاولات التي بذلتها حكومة إسرائيل وجهاز الموساد لإنشاء علاقة طبيعية مع الفاتيكان واجهت رفض الحاضرة الحازم .

ويعود السبب إلى أن سكرتارية الدولة في حاضرة الفاتيكان - وهي نظيرة وزارة الخارجية في الدول الأخرى - تضم جناحاً قوياً يكنّ العداء لإسرائيل . وعند هؤلاء الأساقفة المحترمين أن الضفة الغربية وقطاع غزّة "أرض محتلة" وأن مرتفعات الجولان السورية "ضمّت ضمّاً" ، وهي أرض سورية . وقد اعتاد هؤلاء على أن يخرجوا بسياراتهم من دولتهم الصغيرة إلى شقق يقطنها أصدقاء لهم من جنسيات عربية مختلفة في شارع "فيا كوندوتي"

في روما أو ينضمّوا إلى حفلات الاستقبال التي يقيمونها في "بياتزا نافونا" ويصغوا بهدوء إلى وجهات نظرهم الخاصة بكيفية تحقيق السلام في المنطقة .

ويلزم الكهنة الحذر في ما يقولونه لاعتقادهم بأن للدولة اليهودية عملاء في كل مكان يراقبون ويصغون وربما سجلوا الأصوات والتقطوا الصُّوَر . وإحدى التحذيرات الأولى التي يتلقاها الموظفون الجدد في السكرتارية هي توخّي الحذر من "أن تكون هدفاً للتجسس أو المراقبة خصوصاً لعملاء بلدان يرفض الفاتيكان بشدة الاعتراف الديبلوماسي بها" . وإسرائيل في أعلى قائمة هذه البلدان . وقد أكّد البابا يوحنا بولس الثاني لدى انتخابه عام 1978 على إبقاء الحال على ما هو عليه ، لكنه بعد مضي سنوات عدة على ولايته وافق أخيراً على منح إسرائيل الاعتراف الديبلوماسي الكامل .

كانت المعلومات التي يتلقّاها البابا عن إسرائيل تمر إليه عبر ديبلوماسييه الكهنة من أصدقاء العرب الذين يقيمون في الطبقة الثالثة من "القصر الرسولي" ، مقر الجهاز الديبلوماسي البابوي المزدحم ذي الإضاءة المصطنعة والتهوية البائسة . ويعرف الجهاز باسم "قسم الشؤون الاستثنائية" وهو مسؤول عن تنفيذ السياسة الخارجية للفاتيكان . وتستخدم مكاتبه العشرون مقدار ما تستخدم وزارات الخارجية الرئيسية الأخرى من أعمال مكتبية ، دلالة على توسّع مصالح الفاتيكان الديبلوماسية في أرجاء العالم .

ويقبع مكتب الشرق الأوسط في مكاتب ضيّقة تطل على ساحة "سان دا ماسو" الرائعة الواقعة في وسط القصر الكبير .

وكان موضوع إحدى أولى الدراسات التي قدّمها المكتب للبابا البولوني الأصل عند تولّيه منصبه القضية الشائكة التي تتعلّق بمنح القدس وضعاً قانونياً دولياً ووضعها بإشراف قوات تابعة للأمم المتحدة ، وأن يكون الفاتيكان مسؤولاً عن الأماكن المسيحية المقدّسة في المدينة . وقد بلغت إسرائيل أنباء هذا الاقتراح في أوائل عام 1979 ، إذ جرت إعادة تصوير وثيقة قدّمها أحد الأساقفة إلى لبناني مسيحي يقيم في روما . كان أحد موظفي هذا الثري اللبناني متطوّعاً في جهاز الموساد . وقد أثارت فكرة إمكان تدويل القدس غضب رئيس الوزراء آنذاك مناحيم بيغن الذي أمر رئيس الموساد إسحق هوفي بمضاعفة جهوده لعقد اتصالات مع الفاتيكان .

كان كلا الرجلين على علم بما حدث آخر مرة حاول فيها الموساد عقد مثل هذه

الاتصالات تحت غطاء زيارة رسمية قامت بها سلف بيغن، غولدا مئير .

أواخر عام 1972، وبعد طول انتظار، تلقَّت غولدا مئير رسالة من البابا بولس السادس تفيد استعداده لاستقبالها في لقاء خاص قصير . وفي كانون الأول (ديسمبر) من ذلك العام وخلال الجلسة الأسبوعية لأعضاء الحكومة تساءل هؤلاء عما إذا كان اللقاء سيكون ذا جدوى، فردّت بالقول إنها مفتتنة "بالبنيوية الماركسية للبابوية . فهي تتمتع بنفوذ مالي يكاد يكون غير مسبوق . ثم أنها تعمل من دون أحزاب سياسية أو نقابات . فالجهاز كلّه منظّم بغرض التحكّم . فالإدارة البابوية تتحكّم بالأساقفة وهؤلاء يتحكّمون بالإكليروس والإكليروس يتحكّم بالجسم المدني . هذا نظام يشتمل على عدد كبير من السكرتاريات والمفوضيات والبنى ويبدو مصمّماً بالضبط لأعمال التجسّس والإخبار" .

حُدّد موعد اللقاء البابوي لصباح 10 كانون الثاني (يناير) 1973 . وأُخطرت غولدا مئير بأن مدة اللقاء مع البابا هي خمس وثلاثون دقيقة بالضبط، وعند نهاية اللقاء سيجري تبادل الهدايا . لم يتعيّن جدول أعمال محدّد للقاء، لكن غولدا مئير كانت تطمع بإقناع البابا بالقيام بزيارة الى اسرائيل يكون الغرض الرسمي منها إقامة قدّاس لحوالي مئة ألف مسيحي عربي في البلد . لكنها كانت تعرف أيضاً أن الزيارة ستعزّز موقف إسرائيل تعزيزاً قوياً في الساحة الدولية .

ولاعتبارات أمنية تقرّر ألاّ يجري الإعلان مسبقاً عن لقاء مئير بالبابا . ففي ختام زيارتها لمؤتمر الاشتراكيين الدوليين في باريس ستسافر غولدا مئير إلى روما بطائرة مستأجرة من شركة "العال" الإسرائيلية . وأثناء الرحلة يجري إبلاغ الصحافيين الذين برفقتها أنها ذاهبة إلى الفاتيكان .

سافر زفي زامير رئيس الموساد جواً إلى روما للإشراف على الترتيبات الأمنية . فالمدينة مرتع للعصابات الإرهابية من الشرق الأوسط وأوروبا على السواء . كما تحوّلت روما إلى مركز تنصّت مهم لوظيفة الموساد الراهنة وهي تعقّب واغتيال رجال المقاومة الفلسطينية .

كان زامير قد اختار مارك هسنر، أحد أقدر عملائه، للإقامة في روما والتجسّس على الجالية العربية الكبرى في المدينة . أما لميلانو فقد انتدب رئيس الموساد شاي كولي وهو عميل مجرّب آخر . واصطحب زامير الرجلين إلى الفاتيكان بعدما أطلعهما على مهام الزيارة المرتقبة .

وفي العاشر من كانون الثاني (يناير) 1973 بينما كان الرجال الثلاثة يعبرون روما

بسيارة يقودها سائق في طريقهم إلى الفاتيكان ، عرفوا عن علاقة الحبر الأعظم بجهاز استخبارات آخر أكثر مما كان مضيفوهم يظنّون .

كان الفاتيكان عام 1945 قد استقبل مكتب الخدمات الإستراتيجية (أو .أس .أس .) - الذي أصبح بعد الحرب وكالة الاستخبارات المركزية "سي .آي .أي ."- بـ"ذراعين مفتوحتين" على حد تعبير مدير فرع المكتب في روما جيمس جيزاس أنجلتون . طلب البابا بيوس الثاني عشر والإدارة البابوية من أنجلتون دعم الحرب المقدّسة التي كانت الكنيسة تخوضها ضد الشيوعية بإيصال الحزب الديموقراطي المسيحي الإيطالي إلى الحكم . وقد استخدم أنجلتون ، وهو كاثوليكي ورع ، كل ما لديه من إمكانات ضخمة لرشوة الناخبين وابتزازهم وتهديدهم ليضمن الفوز للحزب الديموقراطي المسيحي . وحصل أنجلتون على إذن خاص بالاطلاع الكامل على جهاز جمع المعلومات الفذّ التابع للفاتيكان والعامل في أرجاء إيطاليا . وإذ كان كل راعي أبرشية وكل قسّ يرفع التقارير عن نشاطات الشيوعيين الإيطاليين في أبرشيّته كان الفاتيكان يجري تقييماً للمعلومات ثم يحيلها إلى أنجلتون الذي كان يرسلها بدوره إلى واشنطن . وفي واشنطن كانت تلك المعلومات تُستغل لإثارة المخاوف العميقة لدى وزارة الخارجية من الخطر الحقيقي والطويل الأمد الذي يمثله الاتحاد السوفياتي . فصدرت التعليمات إلى أنجلتون أن افعل كل ما تستطيع لمنع الشيوعيين الإيطاليين ، الذين نشطوا في المقاومة أثناء الحرب العالمية الثانية ، من الوصول إلى الحكم . وكان أنجلتون ، كالبابا ، يعيش هاجس الخطر الشيوعي العالمي الذي سيقسم الكون إلى نظامين رأسمالي واشتراكي لن يمكنهما أن يتعايشا سلمياً . وكان ستالين نفسه يطلق مثل هذه التهديدات .

وكان البابا على اقتناع بأن الشيوعيين الإيطاليين هم رأس حربة الحملة المجرّدة لتدمير الكنيسة كلما أتيحت الفرصة . وتحوّلت اللقاءات الدورية بين بيوس وأنجلتون إلى جلسات كان بعبع الشيوعية يتضخّم فيها بلا وازع . وكان البابا يحثّ أنجلتون على إبلاغ الولايات المتحدة بأن عليها أن تفعل كل ما بوسعها للقضاء على ذلك الخطر . وهكذا تحوّل البابا الذي يمثّل السلام على الأرض إلى مساند متحمّس للسياسة الخارجية الأميركية التي أوصلت إلى الحرب الباردة .

وبحلول عام 1952 كان يدير فرع روما لما بات يعرف بإسم "سي .آي .أي ." كاثوليكي ورع آخر يدعى وليام كولبي الذي أشرف في ما بعد على نشاطات الوكالة في فيتنام . وقد

أنشأ كولبي شبكة قوية من المخبرين داخل سكرتارية الدولة وكل أبرشية ومحكمة في الفاتيكان ، فاستخدم المخبرين لإعانة وكالة الاستخبارات الأميركية على محاربة التجسّس والتخريب السوفياتيين في أرجاء المعمورة . وكانت تقارير القسس تصل إلى الفاتيكان بانتظام وفيها روايات عما يجري . وتمكنت وكالة "سي .آي .أي ." من شن هجمات مضادة ناجحة في الفليبين حيث كان الشيوعيون يحاولون غزو بلد كاثوليكي متديّن . وقد اعتبر البابا العنف ضرورياً ، وكان يؤيّد وجهة النظر القائلة بأنه ما لم تقم الولايات المتحدة بما وصفه مرة بأنه "أعمال محزنة لكنها ضرورية" ، فستمرّ على العالم عقودٌ طويلة من المعاناة .

وعام 1960 حقّقت وكالة "سي .آي .أي ." نصراً آخر عندما قدّم لها الكاردينال مونتيني – الذي انتخب حبراً أعظم بعد ثلاث سنوات باسم بولس السادس ـ أسماء القسس المقيمين في الولايات المتحدة الذين يرى الفاتيكان أنهم لا يزالون رحماء على الشيوعية .

كانت الحرب الباردة في ذروتها ، وكان الذعر الأميركي المرضي ينتشر كالوباء في واشنطن . فطارد مكتب التحقيقات الفيدرالية (أف .بي .آي .) القسس فعمد عدد كبير منهم إلى مغادرة البلاد متوجهين إلى أميركا الوسطى والجنوبية . وكان لدى وكالة "سي .آي .أي ." صندوق رِشى ضخم يدعى "مال المشاريع" كان يستخدم لتقديم هدايا سخيّة إلى الجمعيات الخيرية والمدارس ودور الأيتام الكاثوليكية لدفع نفقات ترميم مباني الكنائس التي يملكها الفاتيكان . وكان القسس والراهبات المعروفون بميولهم الأميركية القوية يُرسَلون في رحلات استجمام مدفوعة التكاليف كافة . وكان الكرادلة والأساقفة الإيطاليون يتلقّون صناديق الشمبانيا وسلالاً من المآكل الشهيّة المترفة بينما البلد لا يزال يتعافى من آثار مجاعات الحرب العالمية الثانية . وقد اعتبر الفاتيكان رؤساء فرع وكالة "سي .آي .أي ." المتعاقبين في أهمية تفوق أهمية السفراء الأميركيين إلى إيطاليا .

وعندما انتُخب يوحنا الثالث والعشرون حبراً أعظم عام 1958 أصيبت الإدارة البابوية بالذهول إذ قال إن الحرب المقدسة ضد الشيوعية باءت بالفشل بصورة عامة . وأصدر أوامره إلى الأساقفة الإيطاليين بأن "يلزموا الحياد السياسي" . وقد انسعرت وكالة "سي .آي .أي ." عندما أمر البابا يوحنا بوقف منحها حق الاتصال الحرّ بالفاتيكان . وازداد ذعر الوكالة عندما علمت أن البابا قد بدأ يرعى بذور انفتاح جنيني على الشرق ودخل في حوار حذر مع

الزعيم السوفياتي نيكيتا خروتشوف . وكان رأي رئيس فرع وكالة "سي .آي .أي ." في روما "إن الفاتيكان لم يعد موالياً تماماً للنظام الأميركي . إنه معادٍ وينبغي علينا من الآن فصاعداً رؤية نشاطاته في ضوء هذا الموقف" .

أعدّ محللو وكالة "سي .آي .أي ." في واشنطن ورقات مسهبة تحمل عناوين ضخمة من نوع "العلاقات بين الفاتيكان والشيوعية" . وأواخر ربيع 1963 أفاد فرع روما بأن الفاتيكان يوشك على إقامة علاقة ديبلوماسية مع روسيا ، فسافر مدير الوكالة جون ماك ـ كون إلى روما واندفع مهتاجاً إلى اجتماع عقده مع البابا يوحنا قائلاً إنه جاء بناء على إلحاح من أوّل رئيس كاثوليكي لأميركا وهو جون ف . كندي . وقال ماك ـ كون للحبر الأعظم أن على الكنيسة "وقف هذا الانزلاق نحو الشيوعية ، إن المساومة مع الكرملين أمر خطير وغير مقبول . إن الشيوعية هي حصان طروادي كما دلّت على ذلك الانتصارات اليسارية الأخيرة في الانتخابات الإيطالية العامة . لقد انقلب الشيوعيون على جميع السياسات التي تؤيدها الأحزاب الكاثوليكية" .

استمر ماك ـ كون يتكلم بهذه الطريقة الفظّة لعشر دقائق كاملة بلا انقطاع . وأخيراً خيّم الصمت على قاعة الاجتماع في القصر الرسولي . وأطال البابا العجوز نظره المتفحّص إلى زائره الطويل القامة المتقشّف ، ثم تكلّم بصوت رقيق فأوضح أن أمام الكنيسة التي يتزعمها واجباً ملحّاً وهو إنهاء الفقر المدقع وخرق حقوق الإنسان والقضاء على مساكن الأحياء الفقيرة ومدن الأكواخ وعلى العنصرية والاضطهاد السياسي . وهو على استعداد للتحدّث إلى كل من يساعده في هذه المهمة بما في ذلك السوفيات . والطريقة الوحيدة للتصدي لخطر الشيوعية هي مقارعتها بالحجة الدامغة .

ولم يطق ماك ـ كون كظم غيظه فقال "لم آتِ لأجادلك" ، وقال أن لدى وكالة "سي .آي .أي ." أدلّة كافية على أن الشيوعية تضطهد القسس في أرجاء الكتلة السوفياتية وآسيا وأميركا الجنوبية بينما يتابع البابا سياسة الوفاق مع موسكو . وردّ البابا يوحنا بأن هذا يقدّم سبباً إضافياً للسعي لإقامة علاقات أفضل مع السوفيات . أُفحم ماك ـ كون ، وعندما عاد إلى واشنطن كان مقتنعاً بأن البابا يوحنا "أرحم من أيٍّ من أسلافه على الشيوعية" .

لم يكن موت يوحنا مفاجئاً ، إذ كان يعاني من إصابة سريعة التطوّر بالسرطان ، لكن وفاته أشعرت ماك ـ كون والرئيس كينيدي بالراحة .

واستراحت واشنطن عندما أصبح مونتيني الذي من ميلانو البابا بولس السادس في أواخر 1963 . وبعد يومين من تنصيبه استقبل البابا الرئيس كينيدي للقاء خاص . وفي الخارج كان ماك ـ كون يتمشّى في حدائق الفاتيكان كمالك الأرض الذي عاد إليها بعد غياب طويل .

أصاب ولاية البابا بولس الطويلة آفتان إحداهما شخصية وهي تدهور صحته والأخرى دولية هي حرب فيتنام . وقد تكوّنت لديه قناعة بأن التصعيد الذي أمر به الرئيس ليندون جونسون عام 1966 كان معيباً ، وأنه ينبغي أن يُمنح الحبر الأعظم دور صانع السلام . بعد ثلاثة أشهر من انتخاب ريتشارد نيكسون رئيساً للولايات المتحدة زار روما للقاء البابا وأبلغه أنه اقترح زيادة الدور الأميركي في فيتنام . ومرة أخرى وجدت وكالة "سي .آي .أي ." أنها ليست موضع ترحيب لدى الفاتيكان .

كل هذه المعلومات تلقّاها زفي زامير من عميله في واشنطن . الآن في صباح ذلك اليوم المشمس الجميل في العاشر من كانون الثاني (يناير) 1973 وبينما كان يتوجّه وزميله إلى الفاتيكان للإشراف على الترتيبات الأمنية الخاصة بزيارة غولدا مئير ، كان زامير يأمل أن تؤدي الزيارة إلى حلول الموساد محل "سي .آي .أي ." في مغازلات الفاتيكان في عالم الاستخبارات .

كان بانتظارهم خارج القصر الرسولي رئيس جهاز أمن الفاتيكان وهو رجل طويل القامة دقيق الوجه يرتدي بزّة كحلية اللون هي اللباس الرسمي لجهاز أمن الفاتيكان "فيجيلي" . وقد أصطحبهم في جولة استغرقت عدة ساعات في الدولة – المدينه الصغيرة ليستطلعوا الأمكنة التي يحتمل أن يختبئ بها أي مسلّح يعتزم اغتيال غولدا مئير . وبدون علم رئيس جهاز أمن الفاتيكان ، كان زفي زامير يستطلع بدوره الأمكنة التي تصلح مخابئ لأجهزة تنصّت يزرعها الموساد حال إنشائه علاقة عمل مع الفاتيكان . بعدها عاد زامير إلى تل ابيب وهو راض عن العروض الأمنية التي شاهدها في الفاتيكان . والأهم من ذلك كان اعتقاده بأنه لاحظ تلطّفاً في موقف الفاتيكان تجاه إسرائيل .

سبق وصول الطائرة التي عادت بزامير إلى إسرائيل وصول المعلومات المتعلّقة بزيارة غولدا مئير إلى منظمة "أيلول الأسود" التي رأت في زيارة مئير فرصة لا تفوّت . وقد وضعت المنظمة خطة لهجوم صاروخي على الطائرة أثناء هبوطها في مطار ليوناردو دافنشي في روما

آملة ليس في قتل مئير فقط بل ووزراء حكوميين بارزين برفقتها وكبار مسؤولي جهاز الموساد على الطائرة .

منذ عام 1968 عندما شن جيل وُلد بعد الحرب العالمية الثانية حرب هذا الجيل على المجتمع مستخدماً أسماء متباينة كالألوية الحمراء في إيطاليا وجناح الجيش الأحمر في ألمانيا وجيش التحرير الشعبي في تركيا ومنظمة "إيتا" الإسبانية ومنظمة التحرير الفلسطينية تحقّق الكرملين من أهمية دور هذه المنظمات في تدمير الإمبريالية وإسرائيل .

وكان المقاتلون العرب الأكثر قرباً إلى قلب وكالة "كي .جي .بي ." ، وذلك لأنهم كانوا أجرأ وأنجح من معظم مقاتلي المنظمات الأخرى . كما كانوا يواجهون عدواً فائق القوة هو الموساد الجهاز الذي كان "كي .جي .بي ." يكنّ له مشاعر الكره والإعجاب لاستخدامه القسوة الفظّة . واختار "كي .جي .بي ." عدداً من النشطاء العرب أعدّ لهم العدة لتلقي التدريب في جامعة باتريس لومومبا في موسكو . لم تكن هذه جامعة عادية بل معهد يتخرج منه الثوريون . فما كانوا يتلقّون فيه الإعداد السياسي فحسب بل تلقّوا التدريبات على أحدث طرق تعيين الأهداف وأساليب الإغتيال التي يعتمدها جهاز "كي .جي .بي ." .

كانت خطة "أيلول الأسود" جريئة وبسيطة . يجري تحميل الصواريخ على متن زورق في دوبروفنيك في يوغوسلافيا وتنقل عبر الأدرياتيكي إلى باري على الساحل الشرقي لإيطاليا . ومن هنا يجري نقل هذه الصواريخ براً إلى روما بعد وقت قصير من هبوط طائرة غولدا مئير .

ولم ينسَ مخطّطو المنظمة درس الإستراتيجيا الذي تلقّوه على أيدي مدربي "كي .جي .بي ." في جامعة باتريس لومومبا : دائماً حوّل نظر العدو إلى الناحية الأخرى .

وفي 28 كانون الأول (ديسمبر) 1972 هاجمت وحدة تابعة لـ"أيلول الأسود" السفارة الإسرائيلية في بانكوك ورفعت علم منظمة التحرير الفلسطينية على المبنى واحتجزت ستة إسرائيليين رهائن . وسرعان ما أحاط خمسمئة جندي وشرطي تايلندي بالمبنى . أما أبطال العملية فقد طالبوا إسرائيل بإطلاق سراح ستة وثلاثين سجيناً فلسطينياً تحتجزهم وإلا قتلوا الرهائن .

في تل أبيب تكشّفت تفاصيل سيناريو مألوف . فعقدت الحكومة جلسة طارئة . وجرى فيها الحديث المعتاد عن الصمود أو الاستسلام . واستعاد المجتمعون ذكرى حادثة مطار

عنتيبي . هل من الممكن شنُّ مثل تلك العملية مرّة أخرى؟ وكان زفي زامير وحده من قال إن ذلك غير ممكن . فالوصول إلى بانكوك يتطلّب دعماً لوجستياً مفقوداً على طول طريق معادية . وبخلاف مطار عنتيبي الذي كان هدفاً بعيداً ومنعزلاً ، فإن السفارة الإسرائيلية تقع في وسط مدينة بانكوك المزدحمة . ومن غير الممكن أن تسمح الحكومة التايلاندية ولا باحتمال حدوث اشتباك بالنيران . وبعد مفاوضات قصيرة وافق المسلّحون بصورة مفاجئة على عرض تايلاندي بتأمين طريق خروج آمن لهم مقابل إطلاق سراح الرهائن . وبعد ساعات قليلة كانت الوحدة التابعة لـ"أيلول الأسود" على متن رحلة جوية إلى القاهرة حيث تواروا عن الأنظار .

في تل أبيب تحوّل ارتياح زامير لعدم سقوط قتلى من الإسرائيليين إلى ارتياب . كان رجال "أيلول الأسود" مدربين تدريباً عالياً ومعبئين نفسياً ويتلقّون تمويلاً سخياً ، وقد أظهروا حنكة ومكراً استراتيجيين . كانوا يفهمون الطرق ويعرفون نقاط الضغط التي تجبر أي حكومة على الإذعان . فلمَ استسلموا بهذه السرعة هذه المرّة؟ كانت سفارة بانكوك هدفاً ممتازاً يكسبهم مزيداً من الدعاية ويجتذب الناس إلى قضيتهم . ومن المؤكد أنهم لم يختاروا هدفهم صدفةً . فهل كانت العملية كلها تكتيكاً لتحويل الأنظار؟ هل كان الإعداد جارياً لتنفيذ عملية أخرى ضد إسرائيل في مكان آخر من العالم؟ ولكن أين ومتى؟ كان زامير لا يزال يقلّب هذه الأسئلة في ذهنه عندما رافق غولدا مئير في رحلتها الجوية إلى مؤتمر باريس . ومن هناك تابع بحثه عن الأجوبة .

في الصباح الباكر من يوم 14 كانون الثاني (يناير) 1973 تنصّت متطوّع في الموساد يعمل في دائرة البريد والهاتف المركزية في روما على مكالمتين هاتفيتين أجريتا من هاتف عمومي في مبنى سكني يقيم فيه أحياناً مناضلون فلسطينيون . كانت المكالمة الأولى لباري والثانية لاوستيا المرفأ القريب من روما . وكانت المكالمتان باللغة العربية التي يتقنها المتطوّع الذي نقل عن المتحدّث قوله أن الوقت حان "لإيصال شموع حفلة عيد الميلاد" .

وأقنعت العبارات زامير بأن المكالمة أمر مشفّر ذو صلة بهجوم مسلّح مرتقب . "فشموع حفلة عيد الميلاد" قد تكون إشارة إلى الأسلحة وأقرب ما يكون إلى فكرة الشموع هو الصاروخ ، الوسيلة المثالية لتدمير طائرة غولدا مئير .

ورأى زامير أن من العبث تحذيرها لعنادها ، كذلك فإن تنبيه الفاتيكان إلى الخطر قد

يؤدي بالفعل إلى إلغاء الزيارة . فالفاتيكان لا يرغب أبداً في أن يتورّط في حادث من هذا النوع خصوصاً متى تعلّق بالصراع العربي - الإسرائيلي .

اتصل زامير هاتفياً بهسنر وكولي العميلين اللذين كانا قد رافقاه إلى الفاتيكان ، وأمر كولي بالانتقال من ميلانو إلى روما . وبعدئذ اصطحب زامير فريق الموساد الصغير الذي برفقة مئير وسافرا على أوّل رحلة جوية إلى المدينة . وقد عبّر زامير عن المزاج الذي كانوا به بقوله ساخراً أن روما قد تكون المدينة الأبدية لغولدا مئير .

وفي روما أبدى زامير مخاوفه إلى رئيس فرقة مكافحة الإرهاب الإيطالية "ديغوس" التي قام ضباطها باقتحام المبنى السكني الذي أجري منه الاتصالان الهاتفيان لباري وأوستيا . وعُثر أثناء التفتيش في إحدى الشقق على دليل روسي لطريقة إطلاق الصواريخ . وأمضى رجالُ "ديغوس" الليل بصحبة ضبّاط الموساد وهم ينفّذون سلسلة غارات على شقق أخرى لمنظمة التحرير الفلسطينية . لكنهم لم يعثروا على أي شيء يؤكّد صحة مخاوف زامير . كان الفجر يوشك على الطلوع ، ولم يبقَ على موعد وصول طائرة غولدا مئير سوى ساعات قليلة عندما قرّر زامير أن يركّز أعمال البحث على المطار وجواره .

وبعد وقت قصير على شروق الشمس لاحظ هسنر وجود شاحنة صغيرة من طراز "فيات" تُركن في حقل على مقربة من طريق الطائرات ، فأمر سائق الشاحنة بالنزول منها ، ففُتح الباب الخلفي للشاحنة وانطلق منه رشقٌ من الرصاص . لكن هسنر لم يصب بأذى بل رد على مصدر النيران فأصاب اثنين من المسلحين بجروح خطيرة . ولحق هسنر بالسائق جرياً على قدميه وتمكّن من الإمساك به بينما كان يحاول الاستيلاء على سيارة كان كولي يقودها . واعتقل عميلا الموساد السائق ونقلاه بالسيارة بأقصى سرعة إلى زامير الذي كان في شاحنة كبيرة يستخدمها كمقر قيادة متحرّك .

كان رئيس الموساد قد تلقّى رسالة لاسلكية تفيد أنه عُثر في شاحنة "الفيات" على ست صواريخ لكنه أصرّ على التأكّد مما إذا كانت هناك صواريخ منصوبة في أماكن أخرى . وقد تلقّى سائق شاحنة "الفيات" ضرباً مبرحاً وعنيفاً حتى اضطر إلى الكشف عن مكان الوجبة الأخرى من الصواريخ . وبالسرعة القصوى انطلقت السيارة نحو الشمال وهي تقلّ زامير وهسنر وكولي وقد حُشِر بينهم السائق الذي أُدْمِيَ من شدة الضرب .

عثر رجال الموساد الثلاثة على شاحنة مركونة إلى جانب الطريق وقد خرج من سقفها

ثلاثة رؤوس صواريخ . في تلك اللحظة كانت طائرة غولدا مئير 747 تلوح في الأفق وهي تلتمع تحت أشعة الشمس . وبدون إبطاء استخدم زامير الشاحنة الكبرى كمنجنيق للصدم ، فأصاب الشاحنة الصغرى في جنبها فانقلبت ، وانقلبت معها الصواريخ على مسلّحَيْن كانا داخلها فكادا يقضيان .

وبعد توقّف قصير أُلقي خلاله بالسائق المغمى عليه على الطريق إلى جانب الشاحنة المقلوبة ، تابع زامير سيره فاتصل بفرق "ديغوس" لينبهها إلى وقوع "حادث مثير للاهتمام ينبغي التحقيق فيه" . وفكّر زامير لبرهة بقتل المسلّحين لكنه شعر بأن مقتلهم سيتسبّب بحرج كبير يؤثر على لقاء غولدا مئير بالبابا .

كانت مئير تشعر بأن البابا يحمل على كتفيه الضعيفتين عبء العالم ، وأن العبء يكاد يسحق جسده الضئيل الملتفّ بالبياض . ولدى انتهاء الاجتماع رد البابا على سؤالها وقال إنه سيزور الأرض المقدّسة ، وقال إن منصبه البابوي هو عبارة عن حجّ . وعندما سألته عن احتمال إقامة إسرائيل علاقات رسمية مع الفاتيكان ، تنهّد وقال "إن الوقت لم يحن بعد" . وأهدته غولدا كتاباً مغلّفاً بالجلد يتحدّث عن الأرض المقدّسة ، أما هو فأهداها نسخة مهداة من "هوماني فيتاي" المنشور البابوي العام الذي حدّد فيه تكريس منصبه البابوي .

وفيما كانت في طريقها إلى خارج الفاتيكان قالت غولدا مئير لزامير إنه يبدو أن للفاتيكان ساعة تختلف عن ساعة بقية العالم .

استمرت علاقات الفاتيكان مع منظمة التحرير الفلسطينية في عهد البابا يوحنا بولس الثاني الذي انتخب عام 1978 . ومنذ ذلك التاريخ استقبل البابا ياسر عرفات وكبار مساعديه في لقاءات خاصة طويلة كان البابا يؤكّد خلال كل منها التزامه متابعة البحث الجاد عن سبل إقامة وطن للفلسطينيين . وأصبح لمنظمة التحرير الفلسطينية بعد انتقال مقرها إلى تونس ضابط اتصال دائم على صلة بسكرتارية الدولة ، كما أصبح للفاتيكان مندوبه الخاص الأب عيدي أياد الذي أنتدب لدى المنظمة .

اشتهر أياد بثوبه الكهنوتي البالي الذي يجرّ أذياله خلفه وبقلنسوته المثّبتة فوق وجهه النحيل . وقد أظهر إخلاصاً في خدمته البابا ومنظمة التحرير الفلسطينية معاً حتى أنه كان يزيّن غرفة نومه بصور عليها تواقيع ليوحنا بولس وياسر عرفات . وقد ساعد أياد عرفات عام 1980 في صياغة رسالة إلى البابا أبهجت قلبه جاء فيها "أرجو أن تسمح لي بأن أحلم .

إنني أراك ذاهباً إلى القدس يحيط بك اللاجئون الفلسطينيون العائدون وهم يحملون أغصان الزيتون ويفرشونها عند قدميك" .

واقترح أياد أن يتبادل البابا وعرفات المجاملات في أعيادهما الدينية ، فبدأ عرفات بإرسال بطاقات المعايدة بعيد الميلاد للبابا يوحنا بولس بينما أهدى البابا عرفات تهانيه لمناسبة عيد المولد النبوي الشريف . كما لعب الكاهن الذي لا يكلّ ولا يملّ دوراً في انعقاد اللقاء بين رئيس الدائرة السياسية في منظمة التحرير الفلسطينية فاروق القدّومي ووزير خارجية الفاتيكان الكاردينال كاسارولي . بعدها توسّعت دائرة الشرق الأوسط وتلقى الرسل البابويون (سفراء الفاتيكان) توجيهات بإقناع الحكومات التي يُنتدبون إليها بتأييد أماني منظمة التحرير الفلسطينية بإقامة دولة . وأصابت هذه النشاطات إسرائيل بالذعر ، فاتصالاتها الرسمية كانت لا تزال مقتصرة على الزيارات المتقطّعة التي يقوم بها مسؤول حكومي يمنح بضع دقائق في حضرة البابا .

ومنشأ هذه العلاقة الباردة بين الجانبين حادثة غريبة وقعت في أعقاب قيام دولة إسرائيل عام 1948 . فقد أرسل وزير خارجية الفاتيكان في ذلك الوقت مبعوثاً إلى وزير العدل الإسرائيلي حاييم كوهن نقل إليه طلباً بأن تعيد إسرائيل محاكمة السيد المسيح على أن ينتهي الأمر بنقض قرار المحكمة الأول . وحالما يتم ذلك يعترف الفاتيكان بإسرائيل بصورة رسمية . ولم تفت كوهن أهمية قيام مثل تلك العلاقة الديبلوماسية لكنّ ربط ذلك بالأسلوب المقترح أمرٌ وَجَدَه "ناشئاً عن نزوة تكاد لا تُصدّق . فمثل هذه المحاكمة لن تجدي شيئاً ، كما أنه كانت هناك قضايا أشد إلحاحاً ينبغي تسويتها – ومنها البقاء على قيد الحياة في مواجهة هجمات جيراننا العرب . أما هزّ عظام سيرة السيد المسيح فلم يكن على قائمة الأولويات عندي" .

بعد وداع كوهن الفظ للمونسنيور أدار الفاتيكان ظهره لإسرائيل .

بعدها لم تظهر بارقة أمل إلا عندما ألحّ سلف البابا يوحنا بولس ، ألبينو لوتشيانو الضعيف الجسد أنه سيدرس إمكان إقامة علاقات ديبلوماسية مع إسرائيل . لكنه بعد مضي ثلاثة وثلاثين يوماً على انتخابه توفي على أثر نوبة قلبية زعموا أنها أصابته من ثقل مسؤولية منصبه الرفيع . وأدّى موته إلى انتخاب كارول فويتيلا . في عهده بقي الباب البرونزي للقصر الرسولي مغلقاً في وجه إسرائيل بينما زاد اهتمام البابا بالسياسات الدولية ، تحثّه على ذلك إعادة روابط الفاتيكان مع وكالة الاستخبارات المركزية (سي .آي .أي .) .

عام 1981 أصبح وليام كيسي ، وهو كاثوليكي متديّن ، مديراً للـ"سي .آي .أي ." ، وكان أحد أوائل الأشخاص الذين استقبلهم البابا في لقاءات خاصة عقب انتخابه . وقتها ركع كيسي أمام البابا البولوني المولد القوي الشخصية وقبّل الخاتم الذي في إصبعه . وكان مدير الوكالة في كل كلمة وحركة صدرت عنه مثال الورع المتواضع ، وعلى عكس أسلافه ذوي الكلام الطنّان . لكن كيسي كان يشاركهم كما يشارك البابا مشاعر عدم الثقة والخوف العميقة من الشيوعية .

وطوال ما يزيد على الساعة ناقش الرجلان قضايا عزيزة على قلبيهما . كيف تتجه سياسة الانفتاح على الشرق الآن؟ ماذا سيكون عليه رد فعل النظام البولوني ، بل وجميع بلدان الكتلة السوفياتية إزاء التغيير الذي ستحدثه الكنيسة في سياساتها؟ وقد خرج كيسي من غرفة الاجتماع وهو متأكّد من أمر واحد وهو أن البابا يوحنا بولس ليس رجلاً يتحاشى الصعوبات ويأنس للتسويات . وهذا ما حبّب شخصيته إلى من عرفه . كانت معتقداته الواضحة أفضل جواب ممكن على ذلك السؤال القديم المستهلك الذي يقال أن ستالين طرحه ويتعلّق بعدد الفرق العسكرية التي تأتمر بأوامر البابا . وكان كيسي يعتقد أن يوحنا بولس الحبر الأعظم الذي سيتمكّن بمفرده من إقناع الناس بأن الإيمان أقوى من أي قوة أخرى .

عاد كيسي إلى واشنطن لتقديم تقريره إلى الرئيس ريغان الذي طلب إلى مدير "سي .آي .أي ." أن يعود إلى روما ويقول للبابا في إطار إتفاق سرّي صادق الرئيس عليه بأنه من الآن فصاعداً سوف يجري إطلاعه بصورة وافية على جميع جوانب السياسة الأميركية : العسكرية والسياسية والاقتصادية .

مساء كل جمعة كان مدير فرع "سي .آي .أي ." في روما يحمل إلى القصر الرسولي آخر الأسرار التي تحصّلت من أقمار التجسّس الفضائية وأجهزة التنصّت الإلكترونية التي يستخدمها عملاء وكالة الاستخبارات الأميركية ميدانياً . ولم يكن إي زعيم أجنبي أخر يطّلع على الأسرار التي كان البابا يتلقّاها . وقد مكّنت هذه الأسرار أكثر باباوات العصر الحديث اهتماماً بالسياسة من أن يتمغ بأسلوبه ونفوذه المتميّزين شؤون الكنيسة والعالم المدني على السواء . وأصبحت الديبلوماسية البابوية وهي النواة السياسية لبيروقراطية الفاتيكان الشديدة المركزية أكثر اهتماماً وانشغالاً بالأحداث الدولية من أي وقت مضى من تاريخها النشط جداً الذي دام خمسمئة سنة . هذا الدور ، دور الزعيم الدولي ، كاد يكلّف

البابا حياته عندما تعرّض لمحاولة اغتيال في ساحة القدّيس بطرس في الفاتيكان في 13 أيار (مايو) 1981 .

بعد سنتين من الحدث وبالضبط في 15 تشرين الثاني (نوفمبر) 1983 ، وكانت ليلة شتاء باردة في روما أُتيح ليوحنا بولس معرفة الجواب عن سؤال كان لا يزال يشغله : من الذي أمر بتنفيذ عملية الاغتيال؟ فقد ترسّخت داخل ذاكرته إلى الأبد كل لحظة مما حدث وبقيت طرية كآثار الجرح التي خلّفها الرصاص .

كان عدد المحتشدين في ساحة القدّيس بطرس حوالي مئة ألف شخص بعد ظهر يوم الأربعاء 13 أيار (مايو) 1981 . كانوا يصطفّون ضمن ثلاثة أرباع الدائرة التي تحيط بصفّ أعمدة برنيني المؤلف من 284 عموداً و88 عماداً يقوم عليها جميعاً 162 تمثالاً للقدّيسين .

وكان طريق مصوّن يعيّن الطريق الذي ستسير عليه سيارة البابا في رحلتها القصيرة إلى المنبر الذي سيلقي يوحنا بولس عليه خطبته الأسبوعية . كانت تخيّم على المكان أجواء مهرجانية ، وكان بعض المحتشدين يتكهّن في ما يفعله قداسة البابا داخل الشقق السكنية البابوية بينما كانوا بانتظاره .

لم يكن أحد يعرف ما يدور في خلد شاب تركي داكن البشرة يدعى محمد علي اقجا ، كان قد وصل إلى الساحة في فترة ما بعد الظهر واخترق الجموع حتى اقترب من طريق سير سيارة الحبر الأعظم . كان أقجا عضواً في مجموعة إرهابية مقرّها تركيا وتطلق على نفسها اسم "الذئاب الغبر" . لكنه انسحب من صفوف هذه المجموعة وقام بجولة في عدد من مخيمات التدريب في منطقة الشرق الأوسط لدى مجموعات إسلامية أشدّ تطرفاً . وها هي رحلته تشارف على النهاية . كان أقجا يزور ساحة القديس بطرس ليس للصلاة بل لقتل البابا .

عند الساعة الرابعة كان البابا قد بدّل ملابسه وارتدى ثوباً حريرياً أبيض اللون نظيفاً . وبناء على نصيحة تلقّاها من وكالة الـ"سي .آي .أي ." فقد خيط ثوبه بمهارة حتى يمكنه ارتداء سترة واقية تحت الثوب . كان مدير الوكالة كيسي قد زار القصر الرسولي أخيراً وحذّر يوحنا بولس من أنه "حتى البابا ليس في منجاة من الاعتداء في هذه الظروف المضطربة . وقلت له أننا لا نملك أدلّة دامغة على أن حياته في خطر . لكن يوحنا بولس شخصية مثيرة للجدل الشديد ، ومن الممكن أن يحاول شخص متعصّب دينياً أن يقتله" .

لكن يوحنا بولس رفض أن يضع الدرع الواقي . وقد أبلغ إلى سكرتيره للغة الإنكليزية الأسقف جون ماغي أن الفكرة بحد ذاتها على النقيض من كل ما يمثّله منصبه البابوي .

نزل يوحنا بولس إلى باحة سان داماسو داخل القصر الرسولي عند الساعة 4:50 بعد الظهر . سجّل مدير أمن الفاتيكان كاميلو تشيبين تحرّك البابا على نسخته من جدول نشاط الحبر الأعظم المقسّم إلى دقائق . كان تشيبين يحمل في سترة بذلته الرمادية الفاتحة جهاز هاتف خلوي صغيراً لكنه قوي يصله بمركز شرطة روما . لكن حماية البابا نفسه كانت مهمة قوة الأمن الصغيرة العالية التدريب في الفاتيكان وتسمى "الفيجيلي" ، وهي التي تراقب ما يجري في ساحة القديس بطرس بيقظة واستعداد ، بينما يقتصر دور الحرس السويسري على المشاركة في المناخ الاحتفالي .

كانت سيارة البابا "الكمبنيولا" مركونة في الباحة . مقاعدها وثيرة ذات جلد أبيض ودرابزونها ركّب خصيصاً ليمسك البابا به أثناء تجواله في الساحة الواسعة . وحول العربة تجمّع كبار الموظّفين في الفاتيكان . ويذكر ماغي أن يوحنا بولس كان في "مزاج رائق جداً" .

وعند الساعة الخامسة تماماً خرجت سيارة البابا من الباحة فبدأ التهليل يتصاعد من ساحة القديس بطرس . وحالما اقتربت السيارة من "قوس الأجراس" انضمت عناصر شرطة مدينة روما إلى قوة "الفيجيلي" فمشى بعضهم أمام السيارة وبعضهم خلفها . وما أن ظهرت العربة في الساحة حتى تصاعد الضجيج وتحوّل زئيراً . لوّح يوحنا بولس بيده والبسمة تعلو شفتيه . كان له حضور مسرحي مؤثّر اكتسبه من عمله كممثل أيام شبابه الأولى .

فيما البابا يدور من جانب إلى آخر ، سارت السيارة ببطء شديد متّجهة نحو المسلّة المصرية في وسط الساحة . وعند الساعة 5:15 تماماً بدأت السيارة دورة ثانية في الساحة ، وتشيبين يراقب باهتمام وهو يسير خلفها . واشتدّ ضجيج الجمهور . وبحركة طائشة لطالما أثارت حفيظة تشيبين ، مال البابا نحو الجمهور وتناول طفلة صغيرة احتملها بين ذراعيه واحتضنها وقبّلها ثم أعادها إلى أمها المنتشية . كان ذلك بعضاً من روتين اتبعه البابا . وكان سبب قلق تشيبين خوفه من أن يحاول الطفل الإفلات من قبضة البابا فيسقط فيتسبّب بحادث خطير جداً . لكن البابا كان يستبعد مثل هذه البلابل .

عند الساعة 5:17 مال البابا مرة أخرى ليلمس بيده رأس طفلة صغيرة أخرى كانت ترتدي ثوب العشاء الرباني الأبيض . ثم استقام ونظر حوله كما لو أنه يتساءل في نفسه من

يحيّي الآن . كانت هذه طريقته في منح البابوية طابعاً شخصياً حتى وسط أكبر الجموع الغفيرة .

في تلك اللحظة ، كان فكره أبعد ما يكون عن الأخطار التي واجهته وسط جموع أخرى . فقبل ثلاثة أشهر - في باكستان في 16 شباط (فبراير) 1983 - إنفجرت قنبلة في ملعب كراتشي البلدي بعد قليل من بدئه رحلة وسط جموع المؤمنين . وفي كانون الثاني (يناير) 1980 ، تلقّى تحذيراً من الاستخبارات الفرنسية من خطة شيوعية وضعت لقتله . لم يكن ذلك سوى واحد من عشرات التهديدات التي تستهدف شخص البابا والتي تصل إلى الفاتيكان . وكان يجري التحقيق في كل منها بقدر المستطاع . وقال ماغّي في ما بعد "في الواقع ما كان بإمكاننا سوى الانتظار . لم يكن لدينا ما نقوم به سوى وضع الحبر الأعظم في قفص لا يخرقه الرصاص لدى ظهوره إلى الناس ، وهو أمر يستحيل أن يحظى بموافقته" .

وعند الساعة 5:18 سمع دويّ الطلقة الأولى في ساحة القديس بطرس . بقي يوحنا بولس مستقيم القامة ويداه تمسكان بالدرابزون . ثم بدأ يتمايل . لقد اخترقت أول رصاصة أطلقها محمد علي أقجا معدته فتسبّبت بجراح متعدّدة في الأمعاء الدقيقة والقسم الأدنى من القولون والأمعاء الغليظة والمساريتا ، الغشاء الذي يغلّف الأمعاء ويربطها بالجدار البطني . وبحركة غريزية وضع يوحنا بولس يده على فوهة الجرح محاولاً وقف الدم المنبجس . وكان الألم يغطّي وجهه ، ورويداً رويداً بدأ ينهار . حدث ذلك بعد ثوان قليلة من إصابته .

انطلقت رصاصة أقجا الثانية فأصابت الحبر الأعظم في يده اليمنى التي ترنّحت بلا حراك إلى جانبه . وغطّى الدم الأحمر القاني ثوبه الكهنوتي الأبيض . وانطلقت رصاصة ثالثة من عيار 9 م فأصابت يوحنا بولس في ذراعه اليمني .

مال سائق "الكمبنيولا" في مقعده وقد فغر فاه وأصابته الصدمة بالذهول . كان تشيبين يصيح به أن امضِ . عمد أحد مساعدي البابا إلى حمايته بجسده . بدأت السيارة تثب إلى الأمام . وكانت الجموع تتمايل كأن إعصاراً يهبّ عليها . جملة واحدة مذهلة شقّت طريقها من مكان المجزرة ، وبعشرات اللغات المختلفة خرجت الكلمات غير مصدّقة : "لقد أطلقوا النار على البابا" .

شهر تشيبين ورجال الأمن في الفاتيكان ورجال شرطة مدينة روما مسدساتهم وراحوا يصيحون مصدّرين الأوامر والأوامر المضادة وهم يبحثون عن المسلّح . اندفع أقجا وسط الجموع

وهو يعدو مسرعاً ومسدسه بيده اليمنى . واستمرّت الجموع تنفلق أمام مسدسه المشرع . وفجأة ألقى مسدسه بعيداً وفي اللحظة عينها هوى إلى الأرض . اعتقله ضابط من شرطة روما . ولم يلبث رجال الشرطة الآخرون أن هووا فوق الرجلين في مشهد شبيه بعراك في مباراة للركبي . وعمد عدد من رجال الشرطة إلى لكم أقجا ورفسه قبل جرّه إلى شاحنة تابعة للشرطة .

تابعت سيارة البابا سيرها ببطء موجع نحو أقرب سيارة إسعاف كانت تقف قرب الباب البرونزي للفاتيكان . لكن لم تكن سيارة الإسعاف مزوّدة بمعدات الأوكسجين ، فنُقل البابا إلى سيارة إسعاف أخرى كانت على مقربة من المكان مما تسبّب بإضاعة بعض الوقت الثمين .

أطلقت سيارة الإسعاف صفاراتها وأشعلت أضواءها اللامعة وهي تسير بسرعة فائقة إلى مستشفى جيميلي في روما ، وهي أقرب المستشفيات إلى الفاتيكان ، فأتمّت الرحلة في وقت قياسي : ثماني دقائق . خلال الرحلة لم يصدر عن البابا أي صوت يعبّر عن اليأس أو الازدراء . فقط فاه بكلمات صلوات عميقة : "يا مريم ، يا أمي! يا مريم ، يا أمي!" .

وحال وصوله إلى المستشفى جرى نقله سريعاً إلى جناح العمليات الجراحية في الطبقة التاسعة وهو يضمّ غرفة للفحص وغرفة للعمليات ومنطقة إنعاش . هنا ، وسط الأزمة ، لم يكن ثمة ذعر ولا إضاعة وقت في الكلام أو الحركة . كان الجوّ السائد هو جو الإلحاح الهادئ والانضباط الشديد الإحكام . هنا كان في إمكان البابا الجريح أن يشعر ببداية انبثاق الأمل .

نزعوا عن جسده ثوبه وسترته وبنطاله الملطخة بالدم فاستخدموا مقصاً لتقطيعها ، كما نزعوا صليبه وسلساله الذهبي الثقيل . وغطّوا جسمه بمناشف خاصة بالجراحة . وامتدّت الأيدي تبحث وتحمل أولى المعدات اللازمة لمعركة كان الفريق الطبي يعرف دقائقها عن ظهر قلب .

عندما استعاد البابا وعيه بعد حوالي ست ساعات استغرقتها العملية الجراحية ، كان يؤمن بأن إنقاذه كان معجزة حققتها إحدى القديسات الفائقة الاحترام في العالم الكاثوليكي ، وهي عذراء فاتيما التي صادف عيدها يوم تعرّضه لمحاولة الاغتيال .

خلال الأشهر الطويلة التي استغرقها شفاؤه ازداد انشغال فكر يوحنا بولس بمن تكون الجهة التي أمرت باغتياله . حاول استقراء كل تفاصيل الأدلّة التي وردته من الشرطة

ووكالات الاستخبارات المتعدّدة، ومنها "سي .آي .أي" الأميركية و"بي .أن .دي" الألمانية الغربية والاستخبارات التركية والنمسوية . وكان من المستحيل عليه أن يقرأها جميعاً فهي تعدّ ملايين الكلمات الواردة في التقارير والبيانات والتقييمات .

ولم يجد يوحنا بولس في أي من الوثائق جواباً شافياً عن سؤاله : من الذي أمر بقتله؟ لم تزد معلوماته شيئاً يذكر عندما مثل أقجا أمام محكمة عليا في روما في الأسبوع الأخير من تموز (يوليو) 1981 . فلم تُلقِ الجلسة السريعة التي استمرت ثلاثة أيام أي ضوء على دوافع المسلّح . وحُكِمَ على أقجا بالسجن مدى الحياة، وإذا ثبت حسن سلوكه فقد يستفيد من حق طلب إطلاق سراحه بشروط عام 2009 .

بعد سنتين من الحكم على أقجا تلقّى يوحنا بولس وعداً بالإجابة عن السؤال الذي كان لا يزال يقضّ مضجعه . وسيأتي الجواب من قسٍّ كان يثق به أكثر من أي شخص آخر . كانت صفته "المبعوث البابوي الرسولي للمهمات الخاصة"، والكلمات لا تشي بالحقيقة وهي أن كبير الأساقفة لويجي بودجي كان الوريث الطبيعي لعالم السياسة البابوية السريّة . وهو المسؤول خصوصاً عن جمع المعلومات السرية من أوروبا الشيوعية . كان من في الفاتيكان يُطلق عليه ببساطة لقب "جاسوس البابا" .

كان بودجي قد انخرط طوال أشهر عدة ماضية باتصالات سريّة مع الموساد . ولم يبلغ البابا بما كان يقوم به إلاّ في الآونة الأخيرة عندما وصلت تلك الاتصالات إلى مرحلة متقدّمة . وأبلغه يوحنا بولس أن تابعْ اتصالاتك . ومنذ ذلك الحين عقد بودجي الاجتماعات مع ضابط من الموساد في فيينا وباريس ووارسو وصوفيا في بلغاريا . كان القسّ والعميل كلاهما يريدان أن يتأكّدا مما كان معروضاً وما كان متوقّعاً . وبعد كل اتصال كان كل منهما يرحل ليدرس ما ستكون عليه الخطوة التالية .

وقبل أيام قليلة عقد الرجلان اجتماعاً آخر في مدينة فيينا التي كان بودجي وعميل الموساد كلاهما يفضّلانها كمكان لاتصالاتهما السرية .

كان بودجي عائداً من هذا الاجتماع إلى الفاتيكان في تلك الليلة الثلجية من تشرين الثاني (نوفمبر) 1983 . كان يحمل معه الجواب عن سؤال البابا : من أصدر الأمر لأقجا لاغتياله؟

الفصل الثاني عشر

مباركة الجواسيس

كانت إحدى البوابات الضخمة لـ"قوس الأجراس" قد أغلقت ، تمهيداً للطقس الليلي بإغلاق جميع المداخل إلى الفاتيكان عند حلول منتصف الليل ، عندما عبرت سيارة "الفيات" الليموزين الزرقاء الغامقة الشارع المرصوف بالحصاة محدثة جلبة وصخباً . انهمرت أضواء السيارة على الحارسين السويسريين ، وكل يرتدي رداء للكتفين يتّقي به البرد ، وقد وقف خلفهما أحد عناصر شرطة "الفيجيلي" . تقدّم أحدهما نحو السيارة وقد رفع ذراعه محيّياً وآمراً بالتوقّف . كانت السيارة على موعد ، وكان يجلس خلف المقود سائق الفاتيكان . لكن بعد محاولة اغتيال البابا لم يبقَ أحدٌ مستعداً للمخاطرة .

كان السائق قد انتظر ساعة في مطار روما بانتظار الرحلة القادمة من فيينا التي تأخّرت بسبب سوء الأحوال الجوية . تراجع الحارس وهو يرفع ذراعه بتحية كاملة للراكب الجالس في الزاوية المعتمة من المقعد الخلفي . ولم يردّ الراكب التحية .

مرّت السيارة بجانب كاتدرائية القديس بطرس وقفزت فوق الحصاة المرصوفة في باحة داماسو قبل أن تتوقّف أمام المدخل الرئيسي للقصر الرسولي . قفز السائق من مقعده وفتح الباب للراكب معه فخرج كبير الأساقفة لويجي بودجي وهو يرتدي ثوباً أسود داكن اللون ويضع وشاحاً يغطّي التماع ياقته البيضاء . كانت بنيته الجسدية تشبه بنية رافي إيتان ، ذات الكتفين القويّتين والعضلات المفتولة ، وذات المشية المتمايلة ، وذات العينين الباردتين كتلك الليلة .

وكالعادة كان بودجي يتنقّل بحقيبة ملابس جلدية صغيرة جمع فيها أغراضه

الشخصية وحقيبة يد تقفل بالأرقام . وكان يمزح أحياناً كيف كان يغطّ في النوم في مقعد الطائرة لفترات تزيد عما ينفقه في سريره في شقته الواسعة في مؤخرة القصر الرسولي .

ونادراً ما قام بودجي برحلة بأهمية رحلته الأخيرة ، وما أُطلع عليه أخيراً في اجتماع عقد في الحيّ اليهودي القديم في فيينا . ففي مبنى ضيّق ذي سقف منحدر يقع على مقربة من مكاتب سيمون فيزنتال صائد النازيين المعروف ، استمع كبير الأساقفة باستغراق إلى رجل أتُّفق على مناداته باسمه الأول : إيلي .

كان بودجي قد اعتاد على مثل هذه التدابير الاحتياطية في اتصالاته مع الموساد . فلا أحد يضاهي عملاء هذا الجهاز في التحوّط الأمني . ولم يعرف عن شخصية إيلي سوى أنه يتحدّث لغات متعددة ، وأنه تمكن أخيراً من الإجابة عن السؤال عمّن رتّب محاولة اغتيال يوحنا بولس .

أما بالنسبة للويجي بودجي فقد أبقى عمله سراً إلى حدّ أن سجل الفاتيكان الذي يدرج أسماء ووظائف جميع الموظفين لم يتضمّن أي إشارة إلى أنه على مدى ما يزيد على عشرين عاماً ، أنشأ كبير الأساقفة اتصالاته السرية جداً والمجرّبة والمختبرة والتي وصلت حتى الكرملين وواشنطن وأروقة السلطة في أوروبا . وكان أحد أوائل من عرفوا أن الزعيم السوفياتي يوري أندروبوف كان يحتضر من مرض التهاب الكبد المزمن . وكان بودجي نفسه جالساً في مقر البعثة الروسية في جنيف ، وهو قصر فسيح يعود إلى القرن التاسع عشر ، مموّنٌ بأفخر أنواع الفودكا والكافيار التي يستمتع كبير الأساقفة بها ، ويستمع للمرة الأولى إلى إعلان موسكو استعدادها لسحب رؤوسها النووية الموجّهة نحو أوروبا إذا توقّفت واشنطن عن اتخاذ مواقف متصلّبة في المحادثات الخاصة بنزع السلاح . وقد نقل هذا الخبر إلى مدير فرع وكالة "سي .آي .أي ." أثناء لقائه الأسبوعي التالي ، مساء الجمعة ، مع البابا . وعلى مدى عقدين من السنين أمدّ بودجي من شغلوا منصب البابا بتفاصيل مكّنتهم من إجراء تقييم أفضل للمعلومات الواردة من مصادر أخرى . كان رئيس الأساقفة يمتلك المقدرة ، النادرة حتى لدى الديبلوماسيين ، على وضع تقييم متوازن وسريع لمادة وصلته من دزينة من المصادر وفي عدد مماثل من اللغات تقريباً وهي لغات يحسن التكلّم بمعظمها بطلاقة .

في لقائه التالي مع إيلي تحدّث بودجي بصوته الناعم الذي طالما اتّصف به ، وكانت عيناه البنّيتان متنبّهتين ، وشفتاه مزمومتين قبل أن يطرح سؤاله الجديد من دون أن يتغيّر مظهره الخارجي المتماسك .

لكنه في تلك الليلة الشتائية الباردة ، وقد أرهقت جسده الأسفار بلا شك ، كان معذوراً في تعثّر خطواته . دخل القصر الرسولي ماراً بعناصر "الفيجيلي" والحراس السويسريين المناوبين الذين هبّوا لأداء التحية العسكرية له لدى مروره ، ثم دخل المصعد في طريقه إلى الشقق البابوية .

رافق حاجب البابا بودجي إلى داخل مكتب يوحنا بولس . وكانت رفوف الكتب داخل الغرفة مؤشرات إلى اهتمامات البابا المتوسّعة . فإلى جانب الطبعات البولونية المجلّدة للأعمال الكلاسيكية والمؤلفات الدينية والفلسفية رصفت نُسخ من مجلة "انترناشونال ديفنس ريفيو" العسكرية وكتبٌ تحمل عناوين مفاجئة مثل "مشاكل الجاهزية العسكرية" و"الميزان العسكري والهجوم المباغت" . وتعكس هذه الاهتمامات اقتناع قداسة البابا الثابت بأن العدو الأكبر الذي لا يزال العالم عام 1983 يواجهه هو الشيوعية السوفياتية .

لم يفوّت يوحنا بولس فرصة واحدة من دون إبلاغ مساعديه الشخصيين بأن أمراً ما "حاسماً" سيجتاح العالم على عتبة الألف الثالث . وعندما كانوا يسألونه عمّا يمكن أن يكون ذلك الأمر ، كان يرفض الإفصاح ويهزّ رأسه الضخم ، ويقول أن عليهم جميعاً أن يصلّوا حتى لا تتراجع الكنيسة الكاثوليكية أمام زحف الشيوعية أو العلمانية التي تجتاح بلداناً كالولايات المتحدة وألمانيا وهولندا . وكان يصرّ على أن حياته أُنقذت في ساحة القديس بطرس حتى يتمكّن من قيادة معركة الدفاع .

كان بودجي يعرف أن هذا الاهتمام قد أثّر على يوحنا بولس عقلياً وجسدياً أكثر من أي اهتمام آخر . وبعد تبادل التحية ، لم تفت بودجي ملاحظة أن يوحنا بولس يصبح أكثر انكفاءً عندما يبتعد عن الأضواء . فلم تقتصر أضرار رصاصات أقجا على العظام والأنسجة بل خلّفت ندوباً عاطفية جعلت البابا استبطانياً وأحياناً منعزلاً .

جلس بودجي وقد وضع يديه على ركبتيه وهو الوضع الذي يتّخذه دائماً عندما يستعدّ لإبلاغ الأخبار الخطيرة ، ثم بدأ يكشف فصول رواية بدأت في تلك الأسابيع الأولى التي تلت إطلاق أقجا النار على يوحنا بولس .

عندما بلغت تل أبيب أخبار ما حدث في ساحة القديس بطرس بعد ظهر يوم 13 أيار (مايو) 1981 ، كان رد الفعل الفوري الصادر عن المدير العام للموساد اسحق هوفي أن إطلاق النار عملٌ قام به شخص مخبول . وعلى رغم طبيعة الحادث الصاعقة فليس لما حدث في روما أي تأثير مباشر على اهتمامات الموساد الراهنة .

كان عرب إسرائيل يتحوّلون نحو مزيد من الراديكالية في حين أن المتطرفين اليهود - وفي مقدمهم أعضاء حزب "كاخ" الذي يتزعّمه الحاخام كاهانا - يتحوّلون نحو مزيد من العنف . وقد جرى اكتشاف وإجهاض مؤامرة كانت على وشك التنفيذ وتهدف إلى تفجير أقدس الأماكن الإسلامية المقدّسة في القدس ، مسجد الصخرة . ولو نجحت الخطة لكانت نتائجها أشد وطأة من الكوابيس . واستمرّت الحرب في لبنان على رغم ديبلوماسية المكّوك الأميركية التي شهدتها دمشق وبيروت والقدس . وفي الحكومة ، كان رئيس الوزراء مناحيم بيغن يتزعّم حزباً يتوق إلى خوض منازلة شاملة و"نهائية" مع منظمة التحرير الفلسطينية . وكان قتل ياسر عرفات الأمر الدائم للموساد ، وخلال الشهر نفسه الذي أُطلق فيه الرصاص على البابا جرت محاولتان فاشلتان لاغتيال رئيس منظمة التحرير الفلسطينية .

وكان لحقيقة إجراء كل جهاز استخبارات غربي تقريباً تحقيقاً في إطلاق النار على البابا أثره أيضاً في قرار هوفي منع تورّط الموساد . ومهما يكن الأمر ، فقد كان متوقعاً أن يطلعه أحد هذه الأجهزة على خلفية الحادث .

كان هوفي لا يزال ينتظر سماع ذلك عندما استبدل بناحوم أدموني في أيلول (سبتمبر)1982 . كان والدا أدموني مهاجرين متوسطي الحال من بلدة تقع بالقرب من غدانسك ، وهذه النشأة البولونية أملت أن يكون لرئيس الموساد الجديد أكثر من اهتمام فضولي عابر بالكنيسة الكاثوليكية . وقد رأى أثناء عمله تحت غطاء سرّي في الولايات المتحدة وفرنسا مبلغ نفوذ الكنيسة . لقد ساعدت روما في انتخاب جون ف كندي ، وهو كاثوليكي ، لرئاسة الولايات المتحدة . وفي فرنسا استمرت الكنيسة الكاثوليكية في القيام بدور مهم في الشأن السياسي .

وحالما استقر في مكتبه ، أمر أدموني بإحضار ملفّ الموساد عن محاولة اغتيال البابا . وقد ضمّ الملف في معظمه مقتطفات صحافية وتقريراً أرسله عميل للموساد يقيم في روما ، ولكنه لا يضيف شيئاً ذا بال . وعلى غير ما هو مألوف لم تقم أجهزة الأمن الستة التي أجرت تحقيقاتها الخاصة - بما في ذلك استجواب أقجا في زنزانة سجن ريبيبيا الحصين في روما - بتقاسم ما توافر لديها من معلومات . فقرّر أدموني القيام بتحقيقه الخاص .

كان وليام كيسي يشغل منصب المدير في وكالة الاستخبارات الأميركية ، وقال في ما بعد أن السبب المرجّح وراء ذلك "شعور الموساد بأنه ربما قدّم له سبيلاً للدخول إلى الفاتيكان .

ولا بد أن أدموني فكّر باحتمال التوصّل إلى شيء يستطيع أن يقايضه مع الفاتيكان" .

في أعقاب فشل محاولة غولدا مئير إقامة علاقات ديبلوماسية مع الفاتيكان ، أنشأ زفي زامير كياناً دائماً للموساد في روما علّه يخترق الفاتيكان . ومن مبنى يقع بالقرب من السفارة الإسرائيلية انطلق عميل الموساد في محاولته الفاشلة لتجنيد مخبرين من القسس . وجلّ ما علم به كان من نوع القال والقيل الذي استرقّ إليه السمع في الحانات والمطاعم التي يرتادها موظّفو الفاتيكان . ولم يحقّق شيئاً عدا مراقبته بحسد رئيس فرع "سي .آي .أي ." في روما وهو يدخل بسيارته إلى الفاتيكان لعقد الاجتماعات ليلً الجمعة مع البابا ، وهي اجتماعات استؤنف عقدها حالما تعافى يوحنا بولس من آثار العملية الجراحية .

وخلال فترة النقاهة تولّى وزير الخارجية الكاردينال أغسطينو كاسارولي مسؤولية إدارة الفاتيكان . وقد سمع عميل الموساد أن كاسارولي أعرب عن بعض المشاعر الصريحة جداً تجاه حادث إطلاق النار ، إذ قال أنه كان يفترض بوكالة "سي .آي .أي ." أن تكون على علم بأقجا وبالمؤامرة برمّتها . وقد أرسل العميل وجهات نظر الوزير إلى تل أبيب .

كانت وجهة النظر التي تقول بأن أقجا كان ينفّذ خطة أوحى بها جهاز "كي .جي .بي ." لقتل البابا تسود أوساط أجهزة الاستخبارات الأميركية . ففي ورقة دمغت بعبارة "سري جداً" وجُعل عنوانها "محاولة أقجا قتل البابا : الحجة على التورّط السوفياتي" ، عُرضت وجهة نظر تفيد أن موسكو بدأت تخشى من مقدرة قداسة البابا على إلهاب المشاعر القومية البولونية .

كانت منظمة "تضامن" ، حركة الاتحاد العمالي في البلاد ، التي يقودها ليخ فاينسا قد بدأت عام 1981 تظهر قوتها الصناعية ، وكانت موسكو تضغط على السلطات البولونية لوقف نشاطات الاتحاد .

وحثّ البابا فاينسا على الإحجام عن القيام بما من شأنه التسبّب بتدخّل عسكري سوفياتي مباشر . وحثّ يوحنا بولس كاردينال بولونيا المحتضر ستيفان فيشنسكي ، على طمأنة زعماء البلاد الشيوعيين إلى أن قداسة البابا لن يسمح لمنظمة "تضامن" بتجاوز الخط الأحمر . وعندما قرّر الاتحاد إعلان الإضراب العام سجد الكاردينال فيشنسكي أمام فاينسا في مكتبه وأمسك بطرف سروال عامل الحوض الجوف ، وقال إنه سيظلّ متمسكاً به حتى يموت . فألغى فاينسا الإضراب .

وخلص محلّلو الموساد في تل أبيب إلى أن قداسة البابا يفهم تماماً أهمية ممالأة السوفيات في شأن بولونيا حتى يتجنّب إهدار المكاسب المهمّة التي حققتها منظمة "تضامن" . وشيئاً فشيئاً بدأت تزداد القناعة بأن من غير المحتمل أن تكون موسكو قد أرادت مقتل البابا . ولكن بقي احتمال أن يكون السوفيات قد كلّفوا القيام بالاغتيال إحدى الأجهزة البديلة . ففي الماضي نفّذ جهاز الاستخبارات البلغارية مهام مماثلة لمصلحة "كي .جي .بي ." عندما كان هذا الجهاز يضطر إلى إخفاء علاقته . لكن المحلّلين رأوا أن من غير المحتمل أن يكون جهاز "كي .جي .بي ." قد كلّف بديلاً للقيام بمثل هذه المهمّة العظمى . أما البلغاريون فيستبعد أن يكونوا قد قاموا بعملية الاغتيال من تلقاء أنفسهم .

بدأ ناحوم أدموني يدرس بدقّة علاقات "سي .آي .أي ." الراهنة بالبابا . في الفترات الفاصلة بين زيارات كيسي المنتظمة إلى الحبر الأعظم كان الكاردينال جون كرول من فيلادلفيا (وهو يقوم بدور مهم في العلاقة بين الفاتيكان و"سي .آي .أي .") يتنقّل بين البيت الأبيض والقصر الرسولي . ويقول المونسنيور جون ماغّي ، سكرتير البابا للغة الإنكليزية أن كرول كان "صديق الأب المقدّس الخاص جداً . فقد كانت لهما نشأة أولى واحدة وهما يعرفان الأغنيات والقصص البولونية عينها ويتبادلان النكات عبر طاولة الطعام لدى البابا في لهجة بولونية محلّية . أما نحن فكنّا نجلس في مقاعدنا ونبتسم من دون أن نفهم كلمة واحدة" .

وقد رافق كرول كيسي إلى أول اجتماع عقده مدير "سي .آي .أي ." مع البابا يوحنا بولس بعد خروجه من طور النقاهة . وفي ما بعد قدّم الكاردينال نائب كيسي ، فرنون والترز ، إلى الحبر الأعظم . ومنذ ذلك الحين صارت الموضوعات التي يناقشها مسؤول "سي .آي .أي ." والبابا تتراوح بين الإرهاب في الشرق الأوسط والسياسة الداخلية للكنيسة الكاثوليكية وصحة زعماء الكرملين . ويقول ريتشارد ألن ، الكاثوليكي الذي كان أول مستشار لشؤون الأمن القومي في عهد رونالد ريغان : "كانت العلاقة بين "سي .آي .أي ." والبابا إحدى أعظم المحالفات في التاريخ . كان ريغان على اقتناع تام بأن البابا سيساعده على تغيير العالم" .

والأمر الأكيد هو أن الطرفين عيّنا أهدافاً مشتركة . فقد أعلن الرئيس وقداسة البابا معارضتهما الموحّدة للإجهاض . وأوقفت الولايات المتحدة ضخّ مساعدات بملايين الدولارات

إلى البلدان التي تتبع برامج لتحديد النسل . وساند البابا عبر "صمته الهادف" سياسات الولايات المتحدة العسكرية بما في ذلك تزويد قوات حلف شمال الأطلسي (الناتو) بجيل جديد من صواريخ "كروز" . وتنصّتت وكالة "سي .آي .أي ." بانتظام على المكالمات الهاتفية للأساقفة والقسس في أميركا الوسطى الذين يناصرون الفكر الديني التحرري ويعارضون القوات التي تدعمها الولايات المتحدة في نيكاراغوا والسلفادور . وكانت نصوص المكالمات تشكّل جزءاً من التقرير الذي يعرضه مدير فرع "سي .آي .أي ." في روما أثناء لقائه الأسبوعي بالبابا . وأجاز الرئيس ريغان شخصياً للعقيد أوليفر نورث الذي كان يومئذ يعمل في مجلس الأمن القومي أن يقدّم مبالغ مالية ضخمة ومنتظمة للقسس الذين يعتبرهم الفاتيكان "مخلصين" في وسط وجنوب أميركا وأفريقيا وآسيا . وكان القسس يستخدمون هذه الأموال للإنفاق على أساليب حياتهم المترفة والترويج لمعارضة البابا لتحديد النسل والطلاق .

إحدى المهام التي أنيطت بسكرتير البابا الشخصي المونسنيور إيميري كابونغو مراجعة قائمة القسس المرضي عنهم باستمرار . ومن مهامه أيضاً حفظ الوثائق التي تقدّمها وكالة "سي .آي .أي ." وكتابة محاضر الاجتماعات السريّة مع البابا .

وأول لقاء عقده كابونغو مع مسؤولي الاستخبارات في واشنطن كان يوم 30 تشرين الأول (أكتوبر) 1981 عقب عودة يوحنا بولس إلى عمله بعد إصابته . وبعد تأدية كابونغو صلوات الصباح مع البابا ـ عند الساعة 5:15 صباحاً على توقيت ساعة الحائط في الممر خارج الكنيسة الخاصة في الشقق البابوية ـ ذهب الرجلان إلى المكتب المكسو بالألواح لاستقبال نائب مدير "سي .آي .أي" فرنون والترز . ويتذكر كابونغو ما جرى :

"جلست في مقعدي المعتاد في زاوية الغرفة ووضعت دفتراً للملاحظات على ركبتي . لم يكن أي مترجم حاضراً . سأل الجنرال والترز أي لغة يستخدم فقال قداسته أنه سيرتاح للحديث بالإيطالية . فبدأ والترز بالقول أنه يحمل تحيّات الرئيس ريغان . فردّ البابا التهاني . ثم انكبا على العمل ، فعرض والترز صوراً التقطتها الأقمار الفضائية ، فافتتن قداسته لدى مرأى مبلغ وضوحها . وتحدّث والترز لما يزيد على الساعة عن وجهة نظر "سي .آي .أي" بالمقاصد السوفياتية المستجدّة وشكَرَه قداستُه . وفي نهاية اللقاء عرض والترز عدداً من السبحات وطلب من البابا مباركتها موضحاً أنها تخص بعض أقربائه وأصدقائه ، ففعل قداسته ما طُلب إليه" .

أُخذ أدموني بقدرة قداسة البابا على التنقّل بين القضايا الدنيوية والقضايا الروحية ، فاستخدم صداقته الشخصية لوزير الخارجية الأميركي ألكسندر هيغ ، الذي كان قد تعرّف إليه أثناء عمله في السفارة الإسرائيلية في واشنطن ، للحصول على نسخة من الصورة الشخصية النفسية التي رسمتها وكالة "سي .آي .أي" عن يوحنا بولس .

كانت الصورة المرسومة عن البابا صورة رجل يصل عنف اتقاده الديني حداً يجعله يصرخ أثناء الصلاة ، وكثيراً ما شوهد منبطحاً على الأرض الرخامية في كنيسته الخاصة وقد مدّ ذراعيه على شكل الصليب وهو في سكون الأموات . وكان يمضي الساعات أحياناً وهو على ذلك الوضع . لكنه متى غضب اهتاج وأثار الفزع في نفوس ناظريه ، وبعدئذ يهبّ كالعاصفة ويعلو صوته بالصياح . كان إلمامه بالجغرافيا السياسية رائعاً ، وعناده يشبه عناد الطغاة . وما كان يوحنا بولس يتهيب مجابهة الإدارة المدنية في الفاتيكان أو وزير خارجيته القديم العهد أغسطينو كاسارولي . وخلص واضع الصورة الشخصية إلى أن يوحنا بولس "أصبح شديد التسيّس بفضل تجاربه في بولونيا ، وإنه يتلذّذ بأن يكون له دور يؤديه على المسرح الدولي" .

وتوصّل ناحوم أدموني إلى استنتاج هو أن العلاقات الوثيقة والأنانية بين وكالة "سي .آي .أي" والبابا لعبت دوراً حاسماً في إقناع يوحنا بولس بوجهة النظر الأميركية القائلة بأن الكرملين هو من رتّب محاولة اغتياله .

ولكن ماذا لو أمكن البرهنة على خطأ وجهة النظر تلك؟ ماذا سيكون موقف البابا؟ هل يقضي ذلك على ثقته بوكالة الاستخبارات الأميركية؟ هل سيجعله ذلك حذراً من جميع أجهزة الاستخبارات؟ وهل سيتيح ذلك للموساد ـ إذا أمكنه أن يدلّ على أن وراء الاغتيال جهةً أخرى ـ أن يجد طريقه أخيراً وراء الباب البرونزي للفاتيكان؟ وإذا لم يكن قبول الموساد كمستشار علماني سرّي بمعنى الكلمة للبابا فليُمنح على الأقل فرصة إسماع ما لديه من معلومات على أمل مقايضة ذلك بتسهيل إعادة النظر بموقف الفاتيكان من إسرائيل .

بعد ستة أشهر تلقّى أدموني الجواب المرضي عن سؤاله الأول في شأن ما إذا كان طرف آخر رتّب محاولة الاغتيال .

لقد جرى إعداد المؤامرة في طهران بتأييد كامل من آية الله روح الله الخميني . وكان قتل البابا الخطوة الافتتاحية لحرب مقدّسة ضد الغرب وضدّ ما يعتبره الخميني قِيَمَ الغرب المنحطّة التي تؤيدها أكبر الكنائس المسيحية .

وورد في تقرير أُعدّ بناء على طلب أدموني : "لا يزال الخميني النموذج الكلاسيكي للتعصّب الديني . لقد اختار لنفسه دور هادي شعبه . وحتى يصون هذه البدعة تراه بحاجة إلى اتخاذ خطوات تهدّد بالخطر إسرائيل والغرب والعالم كله" .

ولم يُسقط موجّهو أقجا الإيرانيون احتمال الفشل فضمنوا له الظهور كشاب مستوحد متعصّب عن طريق تسريب التفاصيل عن نشأته . ولد محمد علي أقجا في قرية يزيلتيبي النائية في شرق تركيا وترعرع في بيئة يرتع فيها التطرّف الإسلامي . وعندما بلغ سن التاسعة عشرة انضم إلى منظمة "الذئاب الغبر" وهي مجموعة إرهابية موالية لإيران كانت وراء معظم أعمال العنف في تركيا . وفي شباط (فبراير) 1969 ، اغتال أقجا رئيس تحرير صحيفة تصدر في اسطنبول معروفة بميولها الغربية . وقد اعتقل ، لكنه فرّ من السجن بمساعدة "الذئاب الغبر" . وفي اليوم التالي تلقّت الصحيفة رسالة مخيفة عن زيارة البابا إلى تركيا التي كان موعدها بعد ثلاثة أيام " وقد جاء فيها : أن الإمبرياليين الغربيين الذين يخشون من أن تصبح تركيا والبلدان الإسلامية الشقيقة قوة سياسية ـ عسكرية ـ اقتصادية ـ في الشرق الأوسط سترسل إلى تركيا في هذه الظروف الدقيقة قائد الصليبيين ، يوحنا بولس ، بصفته زعيماً دينياً" .

وبات أدموني على قناعة بأن الرسالة صيغت في طهران ، فأسلوبها ومادتها ترقى كثيراً عن مستوى المواهب الكتابية لشخص شبه أُمّي كأقجا . وأظهرت عملية بحث حاسوبية أجراها الموساد في خطب الخميني أنه أشار من قبل إلى "قائد الصليبيين" و"القومندور البابا" عند وصف يوحنا بولس .

ومرّت زيارة البابا إلى تركيا بسلام . وأُرسل اسم أقجا وصورته إلى حواسيب عدد من أجهزة الاستخبارات باستثناء الموساد . ويقول أوتو كورميك وهو ضابط يعمل لدى جهاز الأمن النمسوي كُلّف القيام بالتحقيقات في حادثة إطلاق النار على البابا أنه " ليس من الضروري إبلاغ الموساد . فإسرائيل آخر مكان يمكن أن يقصده أقجا" .

وأظهرت تحقيقات الموساد أن أقجا هُرِّب إلى إيران بعد فراره من السجن ، وأمضى هناك عدة أشهر لُقّن خلالها في معسكرات التدريب . وتمكّن الموساد من تجميع خيوط قصة حياة أقجا في ذلك الحين بالاستناد إلى مصادرها المعتمدة في تلك المعسكرات .

استيقظ قبل طلوع الفجر ، وكانت عيناه الصغيرتان الحمراوان غائصتين في وجهه

الطويل ، وكان متنبهاً بينما كان زملاؤه الآخرون يصحون من النوم . وأضاء نور الصباح الباكر على ملصقات عُلِّقت على جدران الكوخ ، وكانت الصور لآية الله الخميني والشعارات الثورية تستهدف إلهاب مخيّلاتهم . وزاد في تأثير ذلك الغناءُ الذي كان يصل إلى الكوخ عبر مكبّرات الصوت .

كان أقجا يرتدي صدرة وسروالاً قصيراً ، شكله غير جذّاب على ضخامة في يديه وقدميه لا تتناسب حجماً مع جسده المتكهّف الصدر وعظام كتفيه البارزة ونحول ذراعيه وقدميه . وكان أوّل ما يقوم كل صباح هو بسط سجّادة الصلاة وتأدية ثلاث ركعات كما كان يفعل زملاؤه . بعدئذ كان يبدأ في تلاوة القائمة الطويلة من الأعداء المكروهين التي حثّه مدرّبوه على وضعها . وقد ازدادت القائمة طولاً وتنوّعاً ، واشتملت على جميع الإمبرياليين ، وحلف "الناتو" وبعض البلدان العربية . ودعا الله أن يدمّر خصوصاً الولايات المتحدة وشعبها راجياً أن يُحرموا من طريقة عيشهم وقيمهم وعاداتهم .

وأخيراً لم تبقَ إلا أحقاده الدينية ، وكانت الأكثر قسوةً وخبثاً . فهو يرى أن جميع الأديان الأخرى تشكّل خطراً يتهدّد دينه هو . وقد علّمه مدرّبوه أن يحيل ذلك الحقد إلى شخص لا تخفى هويته : رجل في لباس أبيض يعيش في قصر منيف وراء الجبال البعيدة . ومن قصره يمارس الحكم كالخلفاء القدامى ، فيصدر المراسيم والأوامر التي تطيعها الملايين العديدة . وينشر هذا الرجل رسالة الكره كما فعل أسلافه على مدى تسعة عشر قرناً . وهو يرفل بالمجد والأبهة وينعم بألقاب يزيد عددها على عدد أسماء الله الحسنى ، فيسمّى حيناً خادم خدم الله ، وحيناً بطريرك الغرب ، وحيناً وكيل السيد المسيح على الأرض ، وحيناً أسقف روما ، وحيناً رئيس دولة مدينة الفاتيكان ، وحيناً الحبر الأعظم ، وحيناً قداسة البابا يوحنا بولس الثاني .

كان محمد علي أقجا قد تلقّى وعداً بأنه متى أزف الموعد فسيمنح فرصة قتل البابا . وقد زرع مدرّبوه فيه فكرة مفادها أنه ليس من قبيل المصادفة أن يُنتخب البابا لمنصبه في الوقت نفسه تقريباً عندما خلّص الخميني إيران من نظام الشاه . إن "الكافر المقيم في روما" ، كما تعلّم أقجا أن يصف يوحنا بولس ، جاء ليدمّر الثورة التي أعلنها آية الله باسم القرآن الكريم .

كانت هناك ذرّة من الحقيقة في الاتهام . فقد تزايد كلام يوحنا بولس حدّةً عن الإسلام والمخاطر التي قال أن شكل الإسلام يمثّلها . فلدى زيارته مصنع شركة "أوليفيتي"

في إيفريا في إيطاليا أثار يوحنا بولس دهشة العمّال عندما أقحم في خطابه فقرةً ارتجلها جاء فيها :

"القرآن يعلّم الناس العدوان ، أما نحن فنعلّم شعبنا السلام . وبالطبع فإن الطبيعة الإنسانية هي ما يشوّه رسالة الدين على الدوام . ولكن على رغم أن الشرور والخطايا والعادات السيئة تقود الناس إلى الضلال فإن المسيحية تنهد إلى السلام والحب . أما الإسلام فدين هجومي . وإذا بدأت بتعليم المجتمع العدوان انتهى بك الأمر إلى رعاية العناصر السلبية في كل فرد من أفراده . وأنتم تعرفون ما يؤدي إليه هذا السلوك . إن مثل هؤلاء الناس سيعتدون علينا" .

في كانون الثاني 1981 كان أقجا في ليبيا . وقد احتار الموساد في البداية ، في مغزى ذلك الجزء من رحلته حتى اكتشف مخبر يقيم في طرابلس أن موظفاً سابقاً في وكالة "سي .آي .أي ." يدعى فرانك تيربيل كان يزور البلاد في الفترة نفسها .

كانت هيئة محلّفين كبرى في واشنطن قد دانت تيربيل بتهم إمداد ليبيا بالأسلحة والتآمر لاغتيال أحد خصوم القذّافي في القاهرة ، وتجنيد طيارين عسكريين أميركيين سابقين لقيادة الطائرات الليبية وتجنيد "القبعات الخضر" لإدارة مخيمات التدريب الليبية التي تستضيف الإرهابيين . وكان تيربيل يدرّب الإرهابيين في ليبيا على تحاشي تعرّف وكالات الأمن الغربية عليهم . ويعتقد الموساد أن تيربيل قُتل بعدما لم تعد منه فائدة .

وكان الموساد يعلم أن اتصال أقجا بتيربيل أعدّه موجّهو أقجا في طهران ، وقد سُرّب إلى جهاز "كي .جي .بي ." بعد محاولة اغتيال يوحنا بولس ، مما أتاح للروس فرصة الزعم بأن وكالة "سي .آي .أي ." هي من أعدّ خطة الاغتيال . وكحال الموساد كان في جهاز "كي .جي .بي ." دائرة مقتدرة للحرب النفسية ، فملأت القصة الخيالية عن علاقة وكالة الاستخبارات الأميركية بمحاولة الاغتيال مساحات واسعة من الإعلام المكتوب وساعات طويلة من الإعلام المسموع والمرئي . وإمعاناً في التضليل أعدّ المسؤولون في طهران العدّة لأقجا عقب مغادرته ليبيا في شباط (فبراير) 1981 للسفر إلى صوفيا للقاء أشخاص قيل له أنهم عناصر من الاستخبارات البلغارية . وليس هناك دليل قاطع على أنهم كانوا كذلك . واستبدّ الغضب بوكالة "سي .آي .أي ." إزاء محاولات "كي .جي .بي ." تشويه سمعتها ، فردّت بالزعم بأن البلغار وجّهوا أقجا لاغتيال البابا خدمةً للكرملين .

رأى الموساد أن الموقف ناضج تماماً للعمل بالقول المأثور "فرّق تسد" . فلن يتمكّن الموساد فقط من إسقاط وكالة "سي .آي .أي ." من عين الفاتيكان بل سيتمكّن بعد طول انتظار من إيجاد السبيل لجذب انتباه البابا بعد إظهار الرواية الإسرائيلية على أنها الرواية الصحيحة . وستنشأ عن ذلك أمور كثيرة منها أن ضبّاط الموساد سيتمكّنون من الاطلاع على عمل شبكة جمع المعلومات الرائعة التي يديرها سكرتير الدولة ، ومنها أن يتمكّن عملاء الموساد من العمل مع القسس والراهبات واستغلالهم إذا أمكن ، ومنها أنه متى سنحت الفرصة سيجري أخيراً زرع أجهزة التنصّت الإلكترونية في كل تلك الأماكن المقدّسة في الفاتيكان التي عيّنها زفي زامير .

عندما اكتملت فصول رواية الموساد عن سلسلة أسفار محمد علي أقجا ، تفرّغ ناحوم أدموني للإجابة عن السؤال الوحيد الذي سيحقّق كل الفوائد . ومرة أخرى قدّمت عملية بحث حاسوبية الحلّ . كان أحد "الجواسيس الناجين" العاملين بإدارة رافي إيتان ، وهو كاثوليكي يقيم في ميونيخ ، قد وصف الدور المتميّز الذي يلعبه لويجي بودجي في الفاتيكان ، فأرسل ناحوم أدموني في طلب إيلي وأوعز إليه بالاتصال ببودجي .

والآن بعد مرور سنتين بالضبط على إطلاق أقجا النار على البابا ، جلس كبير الأساقفة في وقت متأخّر جداً من الليل وراح يشرح ليوحنا بولس تفاصيل ما أطلعه إيلي عليه .

بعد مرور شهر ، وفي 23 كانون الأول (ديسمبر) 1983 ، وعند الساعة الرابعة والنصف صباحاً ، أي قبل حوالي ثلاث ساعات تقريباً من موعد إطفاء الأنوار عن شجرة الميلاد المنصوبة في ساحة القديس بطرس ، أيقظ أحد الخدم قداسة البابا .

كانت غرفة النوم صغيرة جداً وجدرانها لا تزال مغطاة بالكتان الفاتح اللون الذي كان يحبّه سلفُه . كان جزءٌ من الأرضية الخشبية الملمّعة مغطّى بسجادة حاكتها راهبات بولونيات . وعلى الحائط خلف السرير الذي مات عليه أربعة من أسلاف يوحنا بولس كان الصليب معلّقاً ، وعلى حائط آخر علّقت لوحة جميلة للسيّدة . وقد جاءت هاتان الهديتان من بولونيا . وإضافة إلى خادم البابا ، كان من رأى يوحنا بولس في تلك الساعة – وهو عادة أحد القسس الإداريين الذي يحمل إليه نبأ لا يمكن تأخير الإبلاغ عنه – مرتاحاً لمرأى البابا وقد استعاد بعضاً مما عرف عنه من بأس وحيوية .

وكالمعتاد ، بدأ البابا يومه بالتوجّه إلى مركعه حيث يتلو صلاته . بعدئذٍ حلق ذقنه

واستحمّ ، ثم ارتدى الملابس التي أعدّها له خادمه : ثوباً صوفياً أبيضَ سميكاً يوضع على الكتفين ، وقميصاً أكليركياً أبيضَ ، وجاربين أبيضين يصلان إلى الركبة ، وحذاء بنيّ اللون وقلنسوة ضيّقة بيضاء . ها قد استعدّ للذهاب لرؤية أقجا في سجن ريبيبيا في روما .

أُعدّ اللقاء بناء على طلب البابا الذي أراد منه أن يكون "فعل غفران" . والواقع أن يوحنا بولس أراد أن يتأكّد من صحة ما قاله الموساد . قاد السيارة السائق نفسه الذي كان وراء المقود في ساحة القديس بطرس عندما أطلق أقجا على البابا النار . كانت سيارة تابعة لشرطة روما ترافق سيارة الليموزين وهي تجدّ السير نحو الشمال الشرقي عابرة المدينة نحو السجن . وفي سيارة أخرى كانت مجموعة صغيرة من الصحافيين بينهم مؤلف هذا الكتاب . وقد دُعي هؤلاء الصحافيّون ليشهدوا لحظة اللقاء التاريخي بين البابا وقاتله .

بعد ساعتين سمح ليوحنا بولس بالدخول إلى سجن ريبيبيا الحصين فسار وحيداً في الممر المؤدي إلى الباب المفتوح للزنزانة "تي 4" حيث وقف أقجا منتظراً . انتظر الصحافيون في أعلى الممر ومعهم حرّاس السجن وهم على أهبّة الاستعداد للركض إلى زنزانة أقجا إذا هو حاول القيام بأي خطوة تهدّد حياة زائره .

وإذ مدّ البابا يده اليمنى تقدّم أقجا لمصافحته ، ثم ظهر عليه التردّد قبل أن ينحني ليقبّل خاتم البابا . ثم أخذ يد البابا ووضعها برهةً على جبينه .

سأل البابا بالايطالية بلطف : "هل أنت محمد علي أقجا؟" . كانوا قد أخبروه أن أقجا تعلّم الإيطالية في السجن .

وأجاب أقجا بالإيطالية : "نعم" . وأرفق ذلك بابتسامة خجولة كما لو أن اعترافه بهويته يسبّب له الحرج .

وتفحّص يوحنا بولس أنحاء الزنزانة وهو يظهر اهتماماً صادقاً بالمكان الذي يمضي فيه من حاول قتله ما تبقّى من حياته ، وسأله : "آه . أتقطن هنا؟" . فردّ أقجا : "نعم" .

جلس يوحنا بولس على كرسي وُضع قرب الباب . أما أقجا فغرق في سريره وراح يفرك يديه .

وسأله كأب يسأل ابنه "كيف تشعر؟" .

فأجابه أقجا : "بخير ، بخير" .

وفجأة راح أقجا يتكلّم بلسان ذرب وبإلحاح ، وكانت كلماته تتدفّق بنبرة خافتةً كان البابا وحده يسمعها .

وظهر الحزن على ملامح يوحنا بولس واقترب وجهه من وجه أقجا ، فكان يخفي جانباً منه عن الحرس والصحافيين .

وهمس أقجا في أذن البابا اليسرى ، فهزّ رأسه في حركة غامضة . وسكن أقجا برهة والشكُّ بادٍ على وجهه . فأشار يوحنا بولس بحركة سريعة من يده اليمنى لأقجا أن أكمل . كان الرجلاَن قريبين أحدهما من الآخر حتى كاد رأسهما يتلامسان . وبالكاد كانت شفتا أقجا تتحرّكان . أما يوحنا بولس فظهر الألم على وجهه ، فأغلق عينيه كما لو أن ذلك سيساعده على التركيز .

وفجأة توقّف أقجا في منتصف الكلام . لكن يوحنا بولس لم يفتح عينيه . كانت شفتاه تتحرّكان فقط ، وكان أقجا وحده يسمع كلماته .

ومرة أخرى عاود أقجا الكلام . وبعد بضع دقائق أومأ البابا بيده مرة أخرى ، فتوقّف أقجا عن الكلام . ووضع يوحنا بولس يده اليسرى على جبينه كما لو أنه أراد أن يحمي عينيه من أقجا .

ثم شدّ يوحنا بولس على ذراع الشاب ، كما لو أنه يشكره على ما قاله . ودام اللقاء إحدى وعشرين دقيقة ثم نهض البابا بهدوء . مدّ يده مشجّعاً أقجا على أن يحذو حذوه . وحدّق كل منهما في عيني الآخر حتى وضع البابا حداً لهذه اللحظة الدراماتيكية حين مدّ يده إلى جيب ثوبه وأخرج علبة كرتونية بيضاء صغيرة تحمل الشارة البابوية سلّمها إلى أقجا . قلّب هذا العلبةَ بيده وهو في حيرة .

انتظر البابا وقد ارتسمت على شفتيه ألطف الابتسامات ، بينما فتح أقجا العلبة وفيها وجد سبحة مصنوعة من الفضة والصدف .

وشكر أقجا البابا "إنني أشكرك . إنني أشكرك" ، فردّ البابا "عفواً . عفواً" . ثم انحنى إلى أمام وقال كلمات لم يسمعها أحد سوى أقجا .

ثم صمت البابا وخرج من الزنزانة .

وقال ناطق بلسان الفاتيكان في ما بعد : "ما يعرفه علي أقجا يصل إلى مستوى معيّن .

أما فوق ذلك فأمر لا يعرف عنه شيئاً . ولو أن هناك مؤامرة لكان منفّذوها محترفين ، والمحترفون لا يخلّفون آثاراً تدلّ عليهم . ومن غير الممكن الوصول إلى معرفة شيء" .

ليست هذه المرّة الأولى التي يقتصد فيها الفاتيكان في قول الحقيقة . لقد أكّد أقجا ما قاله الموساد للويجي بودجي . فخطة قتل البابا وضعت في طهران ، وهذه المعرفة ستحدّد موقف يوحنا بولس من الإسلام وإسرائيل . وعلى نحو متزايد صار البابا يقول لمساعديه أن الصراع الحقيقي المقبل في العالم لن ينشب بين الشرق والغرب ، بين الولايات المتحدة وروسيا ، بل بين التطرّف الإسلامي والمسيحية . واهتم في تصريحاته العلنية بالتفريق بين الإسلام والإيمان من جهة والتطرّف الإسلامي من جهة أخرى .

ورأى محلّلو الموساد في إسرائيل في موقف البابا الجديد إشارة أولى إلى قبول الدليل الذي قدّموه إلى بودجي . ولكن في حين لم تُتّخذ أي خطوة فورية لدعوة الموساد إلى المساهمة في إفهام يوحنا بولس أحوال العالم ، أصبح البابا مقتنعاً بقيمة حوار بودجي مع إيلي . وفي تل أبيب ، وجّه أدموني إيلي للبقاء على اتصال ببودجي ، فاستمرّ الرجلان يتلاقيان في المدن الأوروبية المختلفة ، تارة في إحدى السفارات الإسرائيلية وطوراً في مقر إحدى البعثات البابوية . وكانت مناقشاتهما واسعة النطاق لكنها تتركّز دائماً على قضيتين : "الموقف في الشرق الأوسط ورغبة البابا في زيارة الأراضي المقدّسة" . وربط يوحنا بولس ذلك بجهده المتّصل لإيجاد وطن دائم لمنظمة التحرير الفلسطينية .

أوضح بودجي أن البابا يكنّ لياسر عرفات محبة وإعجاباً . فلم يشاطر يوحنا بولس أشخاصاً مثل رافي إيتان ودايفيد كيمحي وأوري ساغي وجهة نظرهم بأن زعيم منظمة التحرير الفلسطينية هو على حد تعبير إيتان ، قاتل غليظ القلب و"سفّاح قتل نساءنا وأطفالنا وأودّ لو قتلته بيديّ هاتين" .

كان البابا الذي نشأ في مناخ المقاومة البولونية البطولية للنازيين يعتبر عرفات ضحيةً للظلم والاضطهاد يثير الإعجاب ، وشخصية كاريزماتية تمكّن باستمرار من الإفلات من محاولات الموساد المتعدّدة لاغتياله . وقصّ بودجي لإيلي كيف أبلغ عرفات يوحنا بولس مرّة أنه صار يتمتّع بحاسة سادسة "وبعضاً من حاسة سابعة" عندما يواجه الخطر . وقال بودجي لإيلي "أن مثله يستحقّ أن يعيش" .

من خلال هذه اللفتات تجمّعت لدى إيلي صورة عمّا عقد البابا العزم عليه . لكنّ يوحنا

بولس تجاوز حدود التأييد اللفظي للحقيقة التاريخية التي لا تهمل الجذور اليهودية للمسيحية ولضرورة القضاء على معاداة اليهود التي ظهرت بقوّة في وطنه بولونيا .

وفي أيار (مايو) 1984 ، دعا بودجي إيلي إلى الفاتيكان . تحدّث الرجلان معاً لساعات في مكتب كبير الأساقفة في القصر الرسولي . وحتى اليوم لا يعلم أحد عن ماذا تحدّثا .

وفي إسرائيل صادف ذلك اشتهار أمر فضيحة تناولت أجهزة الاستخبارات في البلاد . فقبل شهر ، وفي 12 نيسان (أبريل) ، اختطف أربعة عناصر مسلّحة من منظمة التحرير الفلسطينية باصاً يحمل خمسة وثلاثين راكباً كان يتّجه نحو بلدة عسقلان الجنوبية . ووفقاً للرواية الرسمية اقتحم عملاء لجهاز "شين بيت" الباص ونشب عقب ذلك اشتباك مسلّح قُتل بنهايته اثنان من الخاطفين في حين جُرح الاثنان الآخران لكنهما توفيا أثناء نقلهما إلى المستشفى .

وأشارت التقارير الصحافية إلى أن الجريحين كانا يسيران من الباص ولا تظهر عليهما إصابات خطيرة . وتبيّن أنهما تعرّضا للضرب المبرّح في سيارة الإسعاف على يد ضباط "شين بيت" فقضيا . وعلى رغم عدم وجود علاقة مباشرة للموساد فقد تلطّخت سمعة الجهاز في أعقاب الإدانة الدولية للحادث .

كان هذا الحادث في خلفية لقاء أوضح بودجي فيه لإيلي أن من غير الوارد أن يقيم يوحنا بولس علاقات ديبلوماسية مع إسرائيل . فأكد إيلي من جانبه أنه ما لم يتم ذلك فإن السماح للبابا بزيارة "الأرض المقدّسة" أمر غير وارد أيضاً .

لكن الرجلين اتفقا على أن القضية لم تنتهِ ، وذلك في إطار مساعيهما المشتركة لإقامة الجسور .

وفي 13 نيسان 1986 أقدم يوحنا بولس على خطوة لم يسبقه إليها أيٌّ من أسلافه . فقد دخل إلى معبد روما اليهودي حيث عانقه كبير حاخامي المدينة . ومشى الرجلان وهما يرتديان ملابسهما الكهنوتية الخاصة جنباً إلى جنب وسط جموع المصلّين الصامتين نحو المنبر الذي تُتلى عليه التوراة .

في مؤخرة المصلّين جلس إيلي الذي كان له الفضل في صنع هذه اللحظة التاريخية . بيد أن هذه اللحظة لم تحقّق ما أرادته إسرائيل ، وهو اعتراف البابا الديبلوماسي بها .

لم يحدث هذا الاعتراف إلا في كانون الأول (ديسمبر) 1993 عندما أُقيمت العلاقات الديبلوماسية على رغم الاعتراضات المستمرة للمتشدّدين في سكرتارية الدولة في الفاتيكان .

في ذلك الوقت كان ناحوم أدموني قد ترك منصبه كرئيس للموساد . وتابع خَلَفُه شبطاي شافيت المحاولة الدقيقة للتقريب بين الموساد والفاتيكان . ويتطلّب الأمر إقناع البابا بأن كلا إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية قد أصبحتا أخيراً مهتمّتين بصدق في التوصّل إلى تسوية .

في هذه الأثناء كان الموساد منشغلاً في قارّة علّق الفاتيكان عليها كثيراً من الآمال للمستقبل – أفريقيا . كان البابا يتوقّع أن يخرج من تلك القارة يوماً أول بابا أسود يحكم الكنيسة الكاثوليكية . أما الموساد فقد أظهر هناك ضلوعه في فن الشعوذة والإيقاع بين أجهزة الاستخبارات من أجل حماية موقعه .

الفصل الثالث عشر

الزبائن الأفارقة

على مقربة من فندق "نورفولك" الراقي في نيروبي يقع نادي "أُويْسس" (الواحة) الذي أصبح المربع المفضّل لرجال الأعمال في كينيا منذ وقت طويل . فهناك في أجوائه المعتّمة يمكن واحدهم تناول المشروبات طوال الليل ، ثم إصطحاب إحدى فتيات المقصف إلى إحدى الغرف الخلفية بعدما يدقّق في بطاقتها الصحّية للتأكدّ من خلوّها من الأمراض التناسلية المعدية .

ومنذ عام 1964 والنادي يستقبل زواراً أجانب : صينيين ببدلات "سفاري" ، وروساً قساة الملامح ، وأشخاصاً يمكن أن يكونوا من أي واحدة من جنسيات دول حوض البحر المتوسط . لم يأتِ هؤلاء طلباً للجعة المبرّدة ولا لـ"أكثر فتيات أفريقيا إثارة" ، كما تقول دعاية النادي ، بل كانوا في خدمة أجهزة استخبارات تتنافس للحصول على موطئ قدم لها في أفريقيا الوسطى حيث كانت الاستخبارات البريطانية وحدها من قبل تعمل سراً . كان اللاعبون الجدد عملاء لجهاز الاستخبارات الصينية "سي .أس .آي .أس ." وجهاز "كي .جي .بي ." السوفياتي والموساد . ولكل جهاز برنامجه وهو التغلّب على الجهاز الآخر ، لكن الموساد كان مجلّياً في هذا المضمار .

ووفقاً للمعلومات المتوافرة فإن دزّينة من عملاء الموساد ينتشرون على طول خط الاستواء من دار السلام على المحيط الهندي إلى فريتاون على شاطئ الأطلسي . كان هؤلاء العملاء الشبّان من ذوي اللياقة البدنية العالية ، وقد زُوّدوا عدداً ضخماً من جوازات السفر المزوّرة . وبالإضافة إلى مهاراتهم المعتادة تعلّم هؤلاء مبادئ الطب والجراحة الميدانيين لتمكينهم من

البقاء على قيد الحياة في الأدغال حيث يواجهون الأسود والفهود المفترسة ورجال القبائل المعادين .

بدأت مغامرة الموساد في أفريقيا عقب استيلاء فيديل كاسترو على الحكم في كوبا عام 1959 وشروعه في تصدير ثورته . كان أول نجاح أصابه عندما جنّد أحد أتباعه وكيله جون أوكيلو فنقله من الأدغال إلى هافانا حيث أُخضع لدورة تدريبية قصيرة في حرب العصابات ثم طُلب إليه أن يذهب ويستولي على جزيرة زنجيبار الصغيرة قرب ساحل أفريقيا الشرقي . كان أوكيلو يزن 300 رطل فأرعبت ضخامته وطول قامته قوة شرطة الجزيرة الصغيرة فسهل عليه إخضاعها . وتمكّن جيش أوكيلو من الرعاع من فرض سيطرته القاسية على جمهور الناس الذين لم يتوافروا على سلاح سوى الأدوات البدائية التي يستخدمونها لحصاد التوابل التي اشتهرت بها زنجيبار عالمياً . وأصبحت الجزيرة نقطة انطلاق كاسترو لغزو البر الإفريقي . كانت جالية من أصول صينية تقيم في ميناء دار السلام ، وقد تنبّهت حكومة بيجين إلى ما يجري هناك مما جاء في التقارير التي كانوا يرسلونها إلى بلادهم . ورأت الصين في الثورة الجديدة فرصة ثمينة تمكّنها من تمتين نفوذها في القارة الأفريقية فأمرت جهاز استخباراتها بإنشاء فرع له في المنطقة وتقديم كل الدعم الممكن لرجال الثورة .

في هذه الأثناء شرع كاسترو بتنفيذ عملية واسعة النطاق لإعطاء حركة التحرير السوداء المبرعمة طابعاً كوبياً . وكانت البؤرة ميناء الدار البيضاء على الساحل الغربي لأفريقيا . في هذا المرفأ كانت السفن تفرّغ الأسلحة الكوبية وتنقل في طريق عودتها إلى هافانا طلاب التدريب على حرب العصابات الذين كانوا يتجمّعون من أنحاء أفريقيا الوسطى . وسرعان ما صارت الاستخبارات الصينية تشارك في اختيار هؤلاء المتطوّعين .

كانت إمكانية وجود آلاف الثوريين المسلّحين المدرّبين على مسافة ساعات قليلة من إسرائيل تقضّ مضاجع السياسيين وأجهزة الاستخبارات فيها . لكن إسرائيل لم تشأ أن تستثير جيش المقاتلين هذا طالما لم يتعرّض أمنها مباشرة للخطر حتى لا تدخل في مواجهة معهم . ولانشغالها التام في المواجهة مع أعدائها العرب ، قرّرت إسرائيل تجنّب التورّط في نزاع مكشوف مع الثوريين السود . فأمر مئير عميت عملاء الموساد في أفريقيا أن يتنبّهوا جيداً لما يجري على ألا يقحموا أنفسهم فعلياً .

غير أن الصورة تبدّلت مع وصول الـ"كي .جي .بي ." . جاء الروس يحملون عرضاً

يصعب على الثوريين رفضه ، وهو فرصة التدرّب في جامعة باتريس لومومبا في موسكو . هناك سيتدرّبون على أيدي أبرع المدرّبين في فنون حرب العصابات وكيفية استخدامها لمساعدة المحرومين والمستضعفين . وعلى سبيل الدعاية قدّم جهاز "كي .جي .بي ." بعض أبرز الخرّيجين من جامعة باتريس لومومبا :الثوريين العرب .

عزّز مئير عميت قوّته من العملاء الأفارقة بفرق اغتيال . وصدرت أوامره الجديدة القاضية باستخدام كل وسيلة ممكنة لتخريب العلاقات بين الروس ومضيفيهم الأفارقة ، وبين "كي .جي .بي ." والمخابرات الصينية ، وبقتل الثوريين العرب كلما سنحت الفرصة ، وبتعزيز العلاقات مع الثوريين الأفارقة السود بقطع الوعود لهم بمساعدة إسرائيلية لحركاتهم تتجاوز فنون حرب العصابات ، ومساعدة منظماتهم على تأمين الاعتراف لشرعيّتها السياسية . وفي المقابل طلب الإسرائيليون ضمانة بألا تتعرّض إسرائيل ومصالحها لأي هجمات تشنّها تلك المنظمات .

تحوّل نادي "أُويْسس" إلى موقعة من مواقع الحرب لكسب تأييد الثوريين الأفارقة . وكان الليل يمضي في مناقشات طويلة مؤداها أن الإرهاب غير المدعّم بالدعاية سلاح فاسد الذخيرة ، وأن هناك حاجة للتمسّك بالغاية الأساسية وهي تحقيق الحرية وإقامة الاستقلال . وداخل جو النادي الخانق كانت المؤامرات تُحاك ، والصفقات تُعقد ، والأهداف تعيَّن لعمليات إعدام أو تدمير . فكان بعض الضحايا يتعرّضون للقتل بينما كانوا يقودون سياراتهم على إحدى الطرق الترابية ، ويُقتل آخرون في أسرّتهم . ومرة يكون الضحية عميلاً لـ"كي .جي .بي ." ومرة أخرى جاسوساً للاستخبارات الصينية . وكان كل فريق يتّهم الفريق الآخر بجرائم ارتكبها الموساد .

وفي نادي "أُويْسس" كانت الليالي تمضي كالمعتاد ، فتوضع الخطط الجديدة في اجتماعات تُعقد حول طاولات الخيزران ، بينما المطر ينهمر عن التلال ويتساقط على سقف الصفيح . ولم تكن هناك حاجة للهمس ، ومع ذلك فالعادات القديمة لا تموت بسهولة .

كان عميت قد أطلع عملاءه على ما عرفه عن الاستخبارات الصينية . من ذلك أن خبرة الجهاز في التجسّس تمتد إلى ما يزيد على 2500 سنة مضت . وقد بقيت قروناً عدة جهازاً يعمل في خدمة الإمبراطور ويتجسّس على الرعايا . ولكن في عهد ماو ثم دنغ هسياوبنغ اتجه جهاز جمع المعلومات السرية في الصين وجهة جديدة كحال مؤسسات أخرى

في البلاد . وبدأ جهاز الاستخبارات الصينية يوسّع شبكته عبر المحيط الهادئ إلى الولايات المتحدة وأوروبا والشرق الأوسط وأخيراً أفريقيا .

كانت هذه الشبكات تُستخدم لأغراض تتجاوز التجسّس ، فهي أيضاً قنوات رئيسية لتهريب المخدرات وتبييض الأموال . وإذ أن نصف إنتاج العالم من الأفيون يزرع على عتبة جمهورية الصين الشعبية ، في "المثلّث الذهبي" الذي أضلاعه تايلاند ولاوس وميانمار ، تعاون جهاز الاستخبارات الصينية مع عصابات المثلث لتهريب المخدرات إلى الغرب . ولما كانت هونغ كونغ أحد أبرز مراكز العالم لتبييض الأموال فقد وجدت الاستخبارات الصينية فيها الغطاء المرجو لإخفاء أرباحها من تهريب المخدرات . وكانت هذه الأموال تُستخدم في تمويل عمليات ذلك الجهاز في أفريقيا . ومنذ عام 1964 جرت تلك العمليات بإشراف المدير العام للاستخبارات الصينية كياو شي وهو رجل طويل القامة محني الظهر يعشق الكونياك الفرنسي والسيكار الكوبي ، وكان يتزعّم شبكة تضم مئات الجواسيس وبتصرّفه موازنة خاصة بالرِّشى والابتزاز لا تضاهيها إلا موازنة الـ"كي .جي .بي ." . وتمتلئ معسكرات العمل الإلزامي في وسط الصين بمن تجرّأوا على معارضة كياو . وفي الملف الذي أعدّه الموساد عن كياو وصفٌ لرجل تتكوّن حياته المهنية بمجملها من مناورات تتصف بالدهاء والكبح .

وُضعت نشاطات جهاز الاستخبارات الصينية في أفريقيا بإشراف الكولونيل كاولينغ الذي كانَ قد حقّق شهرة واسعة في الجهاز أثناء عمله في نيبال والهند . جُعل مقر كاولينغ في زنجيبار وهناك عاش حياة ترفل بالبذخ ، وقد اتخذ لنفسه سلسلة من النساء الأفريقيات الشابات عشيقات . وكان يتحرّك في افريقيا الوسطى كوحش كاسر ، ويختفي أسابيع عدة كل مرة . وكلما زار نيروبي أُحييت له الحفلات الصاخبة في نادي "أُويْسس" فيمتلئ المكان بالدخان الطيّب الرائحة المنبعث من حزمات عيدان الجسّ الصيني ، وتتوزّع المآكل اللذيذة المستوردة من الصين ، وتظهر القحاب الأفريقيات بثوب "تشونغ سام" الضيّق المشقوق من جانب ، وتنطلق الألعاب النارية وبرامج الرقص والغناء المستقدمة من هونغ كونغ .

ويجري الاحتفاء برجال العصابات العائدين من كوبا قبل أن يتواروا في الأدغال الأفريقية لشن حروبهم . ويُروى أن أحدهم كان يتباهى في الحفلات التي يؤمّها بشرب كوب من دم بشري جمعه من أعدائه الذين أعدمهم .

في هذه الأثناء ، كان كاولينغ يوسّع عملياته ليس فقط في عرض أفريقيا بل وشمالاً

نحو الحبشة وجنوب اليمن ومصر . فكان يمد الثوار في هذه البلدان بمبالغ ضخمة من المال لشن الهجمات على إسرائيل . فالاستخبارات الصينية تعتبر إسرائيل بيدقاً تحرّكه واشنطن وبالتالي فهي هدف مشروع لمن يسميهم كاولينغ "مقاتلي الحرية عندي" .

قرّر مئير عميت أن على الموساد أن ينازل الاستخبارات الصينية . فعَمَدَ أولاً إلى تخريب مؤامرة صينية لقلب نظام هيستنغ باندا الموالي للغرب في ملاوي . وأتبع ذلك بإخطار السلطات الكينية بحقيقة حجم الشبكة الصينية العاملة لديها . وقد أظهرت حكومة نيروبي في ما بعد عرفانها بالجميل فمنحت القوة الجوية الإسرائيلية حق عبور أجواء كينيا لتنفيذ مهمتها في مطار عنتيبي في أوغندا . وجرى إغلاق نادي "أُويْسس" وترحيل أصحابه الصينيين الذين زعموا بإصرار أنهم ليسوا سوى رجال أعمال . وكان ترحيلهم من حسن الحظ ، فقد بقي عدد من عملاء الاستخبارات الصينية إلى الأبد في أفريقيا ، إذ قتلهم عملاء الموساد بوحشية وخُلّفت جثثهم في الأدغال لتكون طعاماً للوحوش الكاسرة .

وكلما جدّ الصينيون في محاولتهم الانتقام في بلدان أفريقية أخرى ازدادت قسوة الموساد في مواجهتهم . فكانت فرق الاغتيال الإسرائيلية تهاجم عملاء الاستخبارات الصينية أينما أنشأوا فرعاً لهم . ففي غانا صُرع عميل صيني بينما كان يخرج من أحد الملاهي الليلية برفقة صديقته . وفي مالي قُتل عميل آخر في انفجار سيارة مفخخة . وفي زنجيبار ، التي بقيت الاستخبارات الصينية تعتبرها جوهرة التاج ، أتى حريق على شقة سكنية يقيم فيها عناصر من الجهاز الصيني . وفي إحدى رحلاته الميدانية نجا كاولينغ نفسه بأعجوبة من الموت عندما دفعته غريزته إلى تبديل سيارته في برازافيل في الكونغو . وقد انفجرت السيارة الأخرى بعد دقائق فقُتل سائقها . وفي زامبيا أوثق عميل صيني إلى شجرة وتُرِك طعاماً للأسود .

وبينما كان كوامي نكروما حاكم غانا الموالي للصين في زيارة رسمية إلى بيجين أشرف الموساد على تنظيم الانتفاضة التي حقّقت هدفين فأطاحت نكروما ودمّرت البنية التحتية للاستخبارات الصينية في البلاد .

استمرت حرب الموساد الاستنزافية المميتة ضد الاستخبارات الصينية ثلاث سنوات وامتدت في أفريقيا طولاً وعرضاً . ولم يظهر أي من الجانبين رحمة . فعندما صرع فريق اغتيال صيني ضابطاً للموساد في الكونغو ألقموه للتماسيح وصوّروا لحظاته الأخيرة في الماء على

شريط ، وأرسلوه إلى رئيس فرع الموساد هناك . وكان الرد قيام رئيس الفرع شخصياً بإطلاق صاروخ على المبنى الذي تشغله الاستخبارات الصينية ما أدى إلى مقتل ثلاثة صينيين .

وأخيراً أبلغت الاستخبارات الصينية الموساد ، عبر وسيط هو رئيس زائير موبوتو ، أنها لا ترغب في استمرار القتال ، بل أن للجانبين مصلحة مشتركة في اجتثاث النفوذ الروسي في القارة . وتطابق هذا النهج مع سياسة الموساد إزاء القوى العظمى جميعاً ، والتي عبّر عنها مئير عميت أفضل تعبير بقوله الشهير "إن التفريق بينها يساعد إسرائيل على البقاء" .

وفيما كانت الاستخبارات الصينية والموساد يتقاتلان كانت الاستخبارات الروسية قد تقدّمت أشواطاً في تبنّي خطط كاسترو لتثوير أفريقيا على الطريقة الكوبية . فاجتمع قادة "كي .جي .بي ." والمكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفياتي في الكرملين واتفقوا على أن تتعهّد روسيا تقديم العون المالي للاقتصاد الكوبي بجمله . وأدّت الشروط إلى ارتهان بلد يبلغ تعداد سكانه سبعة ملايين نسمة للاتحاد السوفياتي . وبالمقابل وافق كاسترو على أن طريق موسكو الشيوعي ، وليس طريق بكين ، هو ما يوافق أفريقيا ويلائم ظروفها . كما وافق على استقبال خمسة آلاف مستشار يتولّون "تدريب" جهاز الأمن الكوبي "دي .جي .آي ." على طرق العمل في أفريقيا .

وبدأت الاستخبارات الروسية تتعاون مع الكوبيين في أفريقيا كلها . وفي غضون ستة أشهر كان الروس يضبطون كل عمل من أعمال العنف في القارة . واستقدم الروس من معسكرات التدريب التي أنشأوها في الشرق الأوسط أفضل إنتاجها إلى أفريقيا لشن حرب ضد نظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا . ولم يلبث خبراء في حرب العصابات من أوروبا وأميركا اللاتينية وآسيا أن بدأوا تقديم خبراتهم في أنغولا وموزامبيق والبلدان المحاذية لجنوب أفريقيا .

"كانت الأمور تسخن فعلاً تحت خط الاستواء" على حد قول مئير عميت . وقد تنبّه إلى أن هؤلاء "المرتزقة" المجربين بفنون الحرب لن يلبثوا أن يحوّلوا اهتمامهم نحو إسرائيل . ولذلك أظهر رئيس الموساد امتنانه لعرض الاستخبارات الصينية التعاون في مواجهة العدو المشترك : الاستخبارات الروسية وإرهابييها . وبدأ الصينيون يمدّون الموساد بما لديهم من معلومات مفصّلة عن المنظمات العربية العاملة في أفريقيا وخارجها .

وقد قتلت الموساد بعضهم بطرقها المعهودة كالسيارات المفخّخة والمتفجرات المزروعة في

غرف الفنادق . في إحدى الحوادث ، أخفى الموساد قنبلة في مرحاض يستخدمه أحد المستهدفين ، وكان يعاني من إسهال مَعدي حاد يصيب بعض زوّار الكونغو ، فتطاير نصف جسمه الأسفل قطعاً عند شدّ حبل السيفون في أحد فنادق الخرطوم .

وفّى الموساد بالجزء المتعلّق به في إطار الاتفاق ، فأطلع الاستخبارات الصينية على أن موسكو تعتزم تقديم صفقة مساعدات مالية ضخمة لإحدى أفقر دول العالم : الصومال . وسارعت بيجين إلى تقديم عرض بضعفي الصفقة . كذلك ساعد الموساد الصين في السودان حيث أقامت موسكو رأس جسر لها بالتعاون مع حكومة الرئيس نميري العسكرية . وعندما رفض الديكتاتور السوداني رهن نفسه كلياً للروس أعدّ هؤلاء له انقلاباً ، فأبلغ الموساد الاستخبارات الصينية بالأمر ، فأطلع هؤلاء نميري الذي طرد جميع الديبلوماسيين الروس وأوقف برامج المساعدات من الكتلة السوفياتية .

بعدما أوقع الموساد بين عملاقي الشيوعية بينما "شققنا طريقنا إلى قلب أفريقيا" ، على حد تعبير عميت ، حوّل الإسرائيليون اهتمامهم إلى جهاز الاستخبارات الأفريقي الوحيد الذي اعتبروه صديقاً : مكتب أمن الدولة "بوس" ، ذراع جهاز الأمن المرعب في جنوب أفريقيا . كان "بوس" صنو الموساد في اعتماده الابتزاز والتخريب والتزوير والخطف واستجواب السجناء والحرب النفسية وأعمال القتل . وكحال الموساد كان لـ"بوس" كامل الحرية في طرق معاملته لخصومه . وسرعان ما أصبح الجهازان حليفَين حميمَين غالباً ما عملا بالتناغم والتوافق . وقد نشطا في أنحاء القارة الأفريقية نبراسهما "تفاهم" سرّي عقد بين رئيسة وزراء إسرائيل غولدا مئير ونظام بريتوريا .

كانت النتيجة الأولى تصدير معدن اليورانيوم الخام إلى ديمونا . وقد نُقلت الشحنات على رحلات طائرات "العال" الإسرائيلية من جوهانسبورغ إلى تل أبيب ، وسجّلت على بيانات الرحلة على أنها معدّات زراعية . وسافر علماء جنوب أفريقيون إلى ديمونا ، وكانوا الأجانب الوحيدين الذين أُطلعوا على الغرض الحقيقي من المنشأة . وعندما أجرت جنوب أفريقيا اختباراً لقنبلة نووية بسيطة على جزيرة نائية في المحيط الهندي كان العلماء الإسرائيليون حاضرين لمراقبة الانفجار . وعام 1972 اجتمع عيزر وايزمان وكان أحد كبار المسؤولين في وزارة الدفاع الإسرائيلية مع رئيس الوزراء بي . دبليو . بوثا في بريتوريا للمصادقة على "تفاهم" جديد . ووفق هذا التفاهم تُهرَع كل من الدولتين إلى نصرة الدولة الأخرى في

حال تعرّض هذه لهجوم وحاجتها إلى المساعدة العسكرية . وأمدّت إسرائيل جيش جنوب أفريقيا بكميات كبرى من الأسلحة الأميركية الصنع ، وحصلت بالمقابل على إذن باختبار القنابل النووية الأولى التي أنتجها مفاعل ديمونا في موقعٍ ما في المحيط الهندي .

في هذا الوقت تعمّقت العلاقة بين الموساد و"بوس" . وبالإضافة إلى اتباع الأساليب الوحشية في استجواب الموقوفين وهي أساليب لم ينفطم عنها عملاء "بوس" ، جاء مدرّبو الموساد بسلسلة من الأساليب الأخرى التي اختبروها في لبنان وأماكن أخرى : الحرمان من النوم ، التقنيع ، إرغام الموقوف على الوقوف على حائط لفترات طويلة ، عصر الأعضاء الجنسية ، وتشكيلة من صنوف التعذيب النفسي من التهديد بالقتل إلى الإعدامات المصطنعة . ورافق ضباط الموساد وحدات "بوس" في رحلاتهم إلى بلدان أفريقية سوداء مجاورة في مهام تخريبية . وعلّم قتلة الموساد الجنوب أفريقيين كيف ينفّذون الاغتيالات من دون أن يخلّفوا آثاراً مربكة . وعندما عرض الموساد العثور على قادة المؤتمر الوطني الأفريقي (أي . أن . سي .) ، المقيمين في المنفى في بريطانيا أو أوروبا حتى يتمكن "بوس" من قتلهم ، لاقى العرض ترحيباً . لكن حكومة بريتوريا نقضت الاقتراح لخشيتها من فَقْد ما تتلقاه من دعم من أوساط سياسية محافظة في لندن .

كان الموساد و"بوس" مهجوسَين باعتقاد بأن أفريقيا تتمايل يساراً نحو ثورة لن تلبث أن تجتاح بلديهما . ولاتقاء حدوث ذلك أباح الجهازان لأنفسهما استخدام كل وسيلة . كان كل منهما يتغذّى من خوف الآخر ، ولذا لم يظهرا هوادة وكانا على قناعة راسخة بأنهما وحدهما يعرفان كيف يتعاملان مع الأعداء . وهكذا أصبح "بوس" والموساد أشرس جهازي استخبارات خارجية في أفريقيا .

لم تطمئن واشنطن إلى مثل هذا التحالف ، وخشيت وكالة "سي .آي . أي ." من أن يؤذي ذلك الجهودَ التي تبذلها لتعزيز سيطرتها على القارة السوداء . فتحرّر أفريقيا من الاستعمار في أوائل الستينات ولّد اهتماماً جديداً بأفريقيا في داخل الوكال ،ة وتولّدت معه زيادة هائلة بالنشاطات السريّة التي ترعاها . وأنشئ قسم خاص بأفريقيا ، وبحلول عام 1963 كانت فروع للوكالة قد أقيمت في كل بلد أفريقي .

ومن أوائل من عملوا في أفريقيا بيل بكلي الذي قضى نحبه في لبنان بعد اختطافه على أيدي جماعات مسلّحة . وقبيل اختطافه ذكر بكلي أن تلك الفترة التي أمضاها في

أفريقيا "كانت بالفعل أوقاتاً عصيبة ، فكان الجميع يتنافسون على النفوذ ، وقد وصلنا متأخّرين واعتبرَنا الموسادُ دخلاء" .

وفي واشنطن بذلت وزارة الخارجية جهوداً سرية لا تنقصها الجديّة لتحجيم النفوذ الإسرائيلي في أفريقيا . فسرّبت معلومات مفصّلة عن نقل عدة مئات من اليهود من جنوب أفريقيا إلى الشمال لمساعدة إسرائيل خلال حرب السويس . وقطعت عشرون دولة أفريقية سوداء علاقاتها الديبلوماسية مع إسرائيل . وكان بين هذه الدول نيجيريا ، وقطع العلاقات يهدّد بتوجيه ضربة قوية إلى إسرائيل التي تتلقى 60 في المئة من احتياجاتها للنفط من ذلك البلد مقابل أسلحة أمدّتها بها الولايات المتحدة . ولكن على رغم قطع هذه العلاقات الديبلوماسية فقد وافق رئيس الوزراء اسحق شامير على الاستمرار في تسليح نيجيريا سراً مقابل استمرار تدفّق النفط النيجيري إلى إسرائيل . ويصف بكلي ذلك بأنه "مثال نموذجي للسياسة الواقعية" . وكان المثال الآخر يتعلّق بتدعيم الموساد موقف شريكها المخلص "بوس" . في أعقاب الغزو الإسرائيلي للبنان عام 1982 عثر الموساد على كميات ضخمة من الوثائق التي تشي بالعلاقات القائمة بين منظمة التحرير الفلسطينية و"المؤتمر الوطني الأفريقي" ، بعبع "بوس" الدائم . وقد أحيلت المواد الجرمية إلى "بوس" الذي عمد عملاؤه إلى اعتقال وتعذيب المئات من عناصر "المؤتمر" .

كانت الثمانينات فترة سعيدة من عمر المغامرة الأفريقية الكبرى التي عاشها الموساد . وبالإضافة إلى الإيقاع بين الصينيين والروس ، سبّب الموساد مضايقات كثيرة لـ"سي .آي .أي ." وجهاز "أم .آي .6" البريطاني ، ووكالات استخبارات أوروبية أخرى تعمل في القارة الأفريقية . فكلما هدّد أحد هذه الأجهزة سلطان الموساد عَمَدَ هذا إلى فضح نشاطاته . في كينيا فجّر عميلاً بريطانياً ، وفي زائير دمّر شبكة فرنسية ، وفي تنزانيا تسبب تسريب الموساد معلومات سرية إلى صحافي محلّي بإجهاض عملية كانت تعدّها الاستخبارات الألمانية .

وعندما حاول الفلسطيني أبو نضال الذي دبّر محاولة اغتيال سفير إسرائيل في بريطانيا شلومو أرغوف في 3 حزيران (يونيو) 1982 ، أمام فندق "دورشستر" في لندن ، اللجوء إلى السودان ، وَعَدَ الموساد النظام بمليون دولار مقابل القبض عليه حياً أو ميتاً . وفي النهاية انتقل أبو نضال إلى بغداد .

واستغل الموساد القومية الأفريقية الناشئة في عدد كبير من البلدان . ويذكر ياكوف كوهن وهو أحد العملاء الذين عملوا في عدد من هذه البلدان "أننا أمديناهم بقدرة استخبارية ساعدتهم على التفوّق على المعارضة . وفي بلدان مثل نيجيريا ، أدى الصراع القبلي إلى اشتعال الحرب الأهلية . وكانت سياستنا التعاون مع كل من يرغب بالتعاون معنا . ومكّننا ذلك من معرفة كل ما يحدث في البلد . وكنا نرفع التقارير إلى مسؤولينا كلما لحظنا أي تبدّل في المواقف ، مهما يكن ضئيلاً ، من شأنه أن يمسّ إسرائيل" .

قبل انتقاله إلى أفريقيا ، أظهر كوهن تفوقاً في المهام السرية التي أُوكلت إليه في مصر وبلدان أخرى . وللتمويه على شخصيته أخضع الموساد كوهن لعملية جراحية لتغيير شكل وجهه وبصورة خاصة أنفه . وعندما خرج من المستشفى لم تتمكّن زوجته من التعرّف إليه وإلى أنفه الجديد إلا بصعوبة .

في رأس سنة 1984 وَرَدَ في التقرير الاستخباراتي اليومي الذي يتلقاه ناحوم أدموني نبأ عن وقوع انقلاب عسكري في نيجيريا دبّرته جمعية سرية عسكرية يتزعمها لواء يدعى محمد بهاري . كان أول سؤال طرحه رئيس الوزراء شامير هو ما مصير إمدادات النفط الإسرائيلية بعد الانقلاب . لم يكن أحد يعلم . وطوال اليوم بُذلت جهود ملحّة للاتصال بالنظام الجديد ولكن بدون جدوى .

ثاني يوم تسلّمه السلطة أذاع بهاري قائمة بأسماء أعضاء الحكومة السابقة المتهمين بأنواع مختلفة من الجرائم . وكان على رأس القائمة عمرو ديكو وزير النقل المقال الذي أتهم باختلاس عدة ملايين من الدولارات من أرباح مبيعات النفط من خزانة الدولة . كان ديكو قد فرّ إلى خارج البلاد ولم تنجح الجهود المضنية التي بذلت للعثور عليه .

رأى أدموني أن الفرصة سانحة ، فسافر إلى العاصمة النيجيرية ، لاغوس ، بجواز السفر المفضّل لدى الموساد للمهمات السرية ، جواز السفر الكندي . واستقبله بهاري في وقت متأخر من الليل واستمع منه إلى عرض كان قد حظي بموافقة رابين . في مقابل ضمانة بعدم قطع إمدادات النفط يعمل الموساد على العثور على ديكو وإعادته إلى نيجيريا . وسأل بهاري : هل يتمكّن الموساد من تعيين المكان الذي خبأ فيه ديكو ما سرقه من أموال؟ فقال أدموني إن المال لا بد أن يكون قد أُودع في حسابات مصرفية سويسرية مرقّمة ، وسيكون من المستحيل التعرّف إليها إلا إذا وافق ديكو نفسه على الكشف عن تفاصيلها . وابتسم بهاري لأول مرة

خلال اللقاء . فمتى أعيد ديكو إلى نيجيريا فلن تُعدم الحكومة العسكرية وسيلة لجعله يكشف عن التفاصيل المطلوبة . وسأل بهاري أخيراً : هل يُرضي الموساد أن تتعاون مع أجهزة الأمن النيجيرية ولا تدّعي الفضل في القبض على ديكو إذا تمكنت من العثور عليه . ووافق أدموني ، فلن يجني الموساد مجداً من عملية ستكون غاية في السهولة .

أُعلنت تعبئة "جواسيس شظف العيش" بقيادة رافي إيتان في أنحاء أوروبا . وأُرسل عملاء للموساد ألقوا شباكهم في الحيّز الممتد من أسبانيا إلى السويد . واستُنفر المتطوعون لخدمة الموساد في دزينة من البلدان . فطُلب من الأطباء التنبّه في حال احتياج ديكو إلى العناية الطبية أو استشارة جراح تجميل لتغيير ملامحه . وراح بوّابو الفنادق في المرابع التي كان ديكو يرتادها في سانت موريتز ومونتي كارلو يحدّون النظر علّهم يعثرون عليه . وصدرت التعليمات إلى موظفي وكالات تأجير السيارات من مدريد إلى ميونيخ لإبلاغ من يلزم إذا استأجر سيارة . وطُلب من المتطوعين العاملين لدى جميع شركات بطاقات الائتمان التدقيق في ما إذا كان استخدم أياً من بطاقاته . وحفظ النادلون أوصاف ديكو عن ظهر قلب ، وحفظ الخياطون مقاسات ثيابه ، وصانعو القمصان مقاس ياقته . ووُزّعت على صانعي الأحذية من روما إلى باريس تفاصيل مقاس رِجْل ديكو للأحذية المصنوعة بناء على الطلب التي كان ينتعلها . وفي لندن ، طُلب من روبرت ماكسويل أن يصيخ السمع أثناء اتصاله بالديبلوماسيين الأفارقة الواسعي الإطلاع لما يتهامسونه في شأن مكان ديكو . وكغيره من المتطوعين عيّن ماكسويل نقطة الهدف المركزية .

ثم بعد سبعة أشهر بالضبط من فرار ديكو من لاغوس عاد إلى الظهور . في 30 حزيران (يونيو) 1984 ، كان عميل للموساد يقيم في لندن يقود سيارته في شارع "كوينزواي" ، وهو زقاق مزدحم متفرّع من شارع "بييزووتر" ، حين لمح شخصاً تنطبق عليه أوصاف عمرو ديكو . كان يبدو أكبر سناً وأكثر نحولاً مما وُصف به ، لكن كان هو بوجهه العريض وعينيه السوداوين اللتين لم تعاودا النظر إلى سيارة العميل .

وإذ عثر العميل على مكان لركن سيارته ترجّل منها وسار على قدميه ليتعقّب ديكو إلى منزل قريب من شارع "دورتشيستر تيراس" . وأخطر أدموني على الفور فأمر بأن يقتصر العمل في ذلك الوقت على إخضاع المنزل إلى مراقبة على مدار الساعة . وهكذا طوال الأيام الثلاثة الأولى من تموز (يوليو) 1984 داوم عميلان على مراقبة ديكو باستمرار . وفي الوقت

نفسه حوّل النيجيريون سفارتهم قاعدةً للتحضير لعملية اختطاف ذات شَبَه عظيم بالعملية التي دبّرها رافي إيتان لاختطاف أدولف آيخمان .

وفي خروج على المألوف أُسند دور رئيسي إلى شخص من خارج الموساد ، وهو طبيب يتمتّع بسمعة جيّدة يدعى ليفي-آري شابيرو وهو طبيب بنج ومدير وحدة العناية الفائقة في مستشفى حشرون في تل أبيب . كان شابيرو قد جنّد على يد ألكسندر باراك ، وهو عميل للموساد استصرخ وطنية الطبيب فوافق على السفر إلى لندن ، وإنفاق الألف دولار التي كان باراك قد قدمها له ليدفعها ثمناً لمعدات طبية بينها مخدّر طبي وأنبوب يدخل في القصبة الهوائية . أما التعليمات الأخرى فسوف تُعطى له في لندن . ورفض شابيرو تقاضي المال عن الخدمات التي سيقدمها قائلاً أنه فخور بأن يخدم إسرائيل . وكان عميل موساد آخر هو فليكس أبيثول قد وصل إلى لندن في رحلة قادمة من أمستردام في 2 تموز (يوليو) ، ونزل في فندق "راسل سكوير" . وكان أول أمر أصدره إلى رئيس الفريق النيجيري يوسفو هو استئجار شاحنة نقل صغيرة ، فاختار أحد رجاله واحدة بلون أصفر فاتح لمّاع . ولعله عند هذا الحد بدأت تفاصيل الخطة تتكشّف .

في وقت متأخر من ليل 3 تموز (يوليو) حطّت طائرة شحن من طراز "707" تابعة للخطوط الجوية النيجيرية في مطار ستانستد على بعد 30 ميلاً شمال شرقي لندن . كانت قد أقلعت من لاغوس وهي فارغة ، وأبلغ قبطانها سلطات المطار إنه جاء لينقل حقيبة ديبلوماسية من سفارة لندن . وإلى جانب الطاقم ، كان على الطائرة عدد من رجال الأمن النيجيريين الذين عرّفوا بأنفسهم صراحة وقالوا أنهم مكلّفون حراسة الحقيبة . وقد أُخطرت الشعبة الخاصة في شرطة "سكوتلانديارد" بوجودهم . كان الشهر المنصرم قد شهد صدور مزاعم عدة عن تهديدات يطلقها نظام لاغوس العسكري ضد المنفيين في لندن . فطُلب من رجال الأمن النيجيريين عدم مغادرة المطار . وبخلاف عدة زيارات قاموا بها إلى مقهى المطار فقد بقوا طوال الوقت على متن الطائرة .

وفي اليوم التالي وعند منتصف الفترة الصباحية ، خرجت الشاحنة الصفراء اللون من مرأب في "نوتنغ هيل غيت" كان أحد النيجيريين قد استأجره . كان يوسفو يقود الشاحنة ، وكان يقرفص في المؤخرة الدكتور شابيرو وإلى جانبه صندوق .

وكان يقرفص إلى جانب شابيرو باراك وأبيثول . وعند الظهر حدّد قبطان الطائرة

النيجيرية في مطار ستانستد موعداً للمغادرة إلى لاغوس الساعة الثالثة من بعد الظهر . وذكر بيان الرحلة أن الشحنة مؤلفة من صندوقين من "الوثائق" مرسلَين إلى وزارة الشؤون الخارجية في لاغوس . وأشار البيان إلى أن المستوعَبين مشمولان بالحصانة الديبلوماسية .

وقبيل الظهر سارت الشاحنة الصفراء على الطريق العام ورُكنت خارج المنزل في "دورتشستر تيراس" . وبعد قليل ظهر عمرو ديكو الذي كان في طريقه لتناول الغداء مع أحد الأصدقاء في مطعم قريب . ومن النافذة أطلّت سكرتيرته الخاصة اليزابيث هاينر لتراقبه . وحالما ابتعدت انفتح الباب الخلفي للشاحنة و"أمسك رجلان داكنا البشرة السيد ديكو وحشراه داخل مؤخرة الشاحنة . وقد تمكّن بالكاد من إطلاق صيحة قبل أن يقفزا خلفه وتنطلق الشاحنة بأقصى سرعة" .

وحين استعادت السكرتيرة وعيها اتصلت برقم الطوارئ . وخلال دقائق حضر رجال الشرطة وفي أعقابهم القومندور وليام هاكلسبي من فرقة مكافحة الإرهاب التابعة لشرطة "سكوتلانديارد" . ارتاب في ما حدث فأبلغ كل ميناء بحري وجوي . ورأى هاكلسبي أن للموقف صعوباته الخاصة . فإذا كان النظام النيجيري قد خطف ديكو فإن الحادث سيثير قضايا سياسية شائكة . جرى إبلاغ وزارة الخارجية وكذلك مقر مجلس الوزراء ، فصدرت الأوامر لهاكلسبي باتخاذ ما يراه مناسباً من إجراءات .

بُعيد الساعة الثالثة بعد الظهر وصلت الشاحنة الصفراء إلى ميناء الشحن في ستانستد . أبرز يوسفو جواز سفره الديبلوماسي النيجيري لمأموري الجمارك في المطار فراحوا يراقبون تحميل الصندوقين على متن الطائرة . يذكر أحد المأمورين ويدعى تشارلز مورو أنه "كان في أحد المستوعبين ما أثار ارتيابي . ثم سمعت صوتاً يصدر من أحدهما . فقلت لنفسي : ليذهبوا إلى الجحيم . إن الحصانة الديبلوماسية لن تمنعني من معرفة ما في الداخل" .

جرى إنزال الصندوقين من الطائرة ونُقلا إلى حظيرة طائرات من دون اكتراث باحتجاج يوسفو الغاضب وتذرّعه بالحصانة الديبلوماسية . في الصندوق الأول عُثر على عمرو ديكو موثقاً وغائباً عن الوعي من تأثير المخدّر . وكان يجلس إلى جانبه الدكتور شابيرو وفي يده حقنة أعدّها ليزيد من جرعة التخدير لديكو . وكان في بلعوم ديكو أنبوب حُشر في القصبة الهوائية لتجنيب ديكو الاختناق من تقيّؤه . أما في الصندوق الثاني فعُثِر على باراك وأبيثول .

قُدِّم العميلان للمحاكمة فتمسّكا بشجاعة بالزعم القائل بأنهما من المرتزقة ويقومان بمهمة بتكليف من مجموعة من رجال الأعمال النيجيريين الذين يريدون إعادة ديكو إلى بلاده لمحاكمته . وجرى استئجار أحد أشهر وأغلى المحامين البريطانيين ، جورج كارمن ، للدفاع عنهما . وفي ختام مرافعته أبلغ كارمن إلى المحكمة أنه "من الجائز أن يكون التفسير الأكثر منطقية هو أن الاستخبارات الإسرائيلية لم تكن بعيدة عن العملية بأكملها" .

لم يقدّم الادعاء إي دليل يشير إلى تورّط الموساد . وتُرِك ذلك الأمر للقاضي ليقوله في حكمه فأبلغ هيئة المحلّفين "إن إصبع التورّط يتّجه بصورة مؤكدة إلى الموساد" .

حُكم على باراك بالسجن لمدة أربعة عشر عاماً ، وعلى كل من الدكتور شابيرو وأبيثول بعشر سنوات . وحكم على يوسفو بالسجن لمدة اثني عشر عاماً . وقد أُفرج عن الجميع في ما بعد لحسن السلوك ، وجرى ترحيلهم بهدوء إلى إسرائيل . وكما هو الحال بالنسبة لآخرين سبقوهم في خدمة الموساد اتخذ الجهاز تدابيرَ تقضي ببقائهم في الظلّ فلا يردّون على الأسئلة المزعجة من نوع هل لا يزال الدكتور شابيرو الذي حنث بقسم أبيقراط بهذه الصورة الفاضحة يمارس مهنة الطب ولمصلحة من؟

وأبلغ جهاز "أم .آي .5" البريطاني ناحوم أدموني أنه إذا حدثت هفوة أخرى فسيُعتبر الموساد جهازاً غير وديّ . في هذا الوقت كان رئيس الموساد يضع الخطط لعملية أخرى تهدف إلى تذكير بريطانيا بمن هم الأعداء الحقيقيون ، وفي الوقت نفسه تُكسِب إسرائيل بعض العطف .

الفصل الرابع عشر

قنبلة خادمة الفندق

في صباح يوم صاف من أيام شباط (فبراير) 1986 انقضّت طائرتان حربيتان إسرائيليتان على طائرة خاصةٍ من طراز "ليرجيت" مسجلة في ليبيا كانت تطير من طرابلس الغرب إلى دمشق . كانت الطائرة المدنية في المجال الجوي الدولي على ارتفاع ثلاثين ألف قدم فوق البحر المتوسط وتهمّ بالدخول إلى المجال الجوي السوري . وكانت على متنها وفود عائدة من مؤتمر يضم منظمات فلسطينية وعربية أخرى كان العقيد معمر القذّافي قد عقده لمناقشة سبل التصدي لإسرائيل .

أثار منظر المقاتلتين الإسرائيليتين وهما تطيران على جانبي طائرة "ليرجيت" حالة قلق شديدة وسط المسافرين الأربعة عشر . فقبل أربعة أشهر ، دمّرت الطائرات الأميركية القاذفة المقاتلة من طراز "أف . 15" التي يملكها سلاح الجو الإسرائيلي في أول تشرين الأول (أكتوبر) 1985 مقر منظمة التحرير الفلسطينية جنوب شرقي تونس ، قاطعةً رحلة مداها ثلاثة آلاف ميل استخدمت خلالها أسلوب إعادة التزوّد بالوقود أثناء الطيران وكذلك الاستخبارات الدقيقة .

كانت تلك الغارة رداً مباشراً ، بزعم إسرائيل ، على اغتيال مسلحين فلسطينيين لثلاثة سياح إسرائيليين كانوا يستلقون على متن يختهم في ميناء لارنكا قبل أيام قليلة . وقعت عملية الاغتيال في يوم الغفران اليهودي ، فأثارت في نفوس العديد من الإسرائيليين ذكريات عن نشوب الحرب في مثل ذلك اليوم عام 1973 مباغتةً الإسرائيليين جميعاً .

أثارت عملية الاغتيال الذعر والخوف في صفوف الإسرائيليين على رغم توقعهم لمثل

هذه الأعمال العنفية لمدة أربعة عقود . وذكرت أنباء أن المسلحين احتجزوا الإسرائيليين الثلاثة لبعض الوقت على متن اليخت ، وسمحوا لهم بكتابة آخر خواطرهم قبل القضاء عليهم ، بادئين بالمرأة التي أُطلق الرصاص على معدتها ، والتي أُجبر مرافقاها على رميها في البحر قبل إردائهما قتيلين برصاصة في رأس كل منهما أطلقت من مسافة قريبة .

في إطار حرب الدعاية البغيضة التي اتّصف بها صراع الاستخبارات بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل ، ادعى الفلسطينيون أن القتلى الثلاثة هم عملاء للموساد كانوا في مهمة . وقد أحسنت منظمة التحرير الترويج لروايتها إلى حد أن عدداً من الصحف الأوروبية عرّفت المرأة بأنها إحدى عميلات الموساد التي اعتُقلت إثر عملية ليليهامر الفاشلة عام 1973 . لكن مصادر الموساد تزعم أن المرأة المذكورة لا تزال على قيد الحياة ، وأنها أقلعت عن نشاطاتها التجسّسية منذ زمن بعيد .

ومنذ حادث لارنكا والتحذيرات الملحّة من رد انتقامي إسرائيلي تملأ الصحف العربية . وكان الموساد هو من زرع العديد من هذه الروايات عبر قسم الحرب السيكولوجية وذلك لإنهاك أعصاب ملايين العرب .

شاهد ركاب الطائرة المدنية ، الذين عادوا قبل قليل من مؤتمر كانوا فيه ينادون بتدمير إسرائيل ، أعداءهم بوجوههم الكالحة يحدّقون بهم . وهزّت إحدى المقاتلات جناحيها في إشارة إلى الطيار باللحاق بها . وأرفق أحد الإسرائيليين ذلك بالإشارة بيده إلى الأمام ثم إلى أسفل باتجاه الجليل . ارتفعت أصوات بعض النسوة من الركاب بالعويل ، في حين أسلم بعض الرجال أمرهم لله . كانوا كلهم يعرفون أن مثل هذا العمل القرصاني وارد ، وأن أعداءهم الملعونين قادرون على مدّ أيديهم واختطافهم من الجوّ .

أطلقت إحدى الطائرتين رشقة صغيرة من مدفعها لتحذير قبطان طائرة "اليرجيت" من التفكير بطلب النجدة من القوة الجوية السورية التي كانت على مسافة دقائق طيران قليلة . وزاد قلق المسافرين وتساءلوا عما إذا كانوا سيلاقون المصير نفسه الذي لقيه أحد الأبطال الحقيقيين في العالم العربي .

فقبل شهر واحد من الغارة الجوية الإسرائيلية على تونس ، أوقف زورق دورية بحرية إسرائيلية على متنه عملاء للموساد سفينةً صغيرة تحمل اسم "أوبورتيونيتي" بينما كانت تقوم برحلة مكوكية منتظمة بين بيروت ولارنكا . ومن جوف المركب انتزع العملاء فيصل

أبو شراع المتهم بالقيام بعمليات مسلّحة ، وجرى نقله بسرعة إلى زورق الدورية تمهيداً لإخضاعه لاستجواب قاسٍ في إسرائيل أعقبته محاكمة سريعة وحكم بالسجن لمدة طويلة . وعزّزت سرعة العملية وجرأتها صورة إسرائيل التي لا تقهر التي تريد أن تبثها في العالم العربي .

لم تكن مثل هذه الحوادث نادرة الوقوع . فمثلاً تعاون الموساد منذ ذلك الحين تعاوناً وثيقاً مع سلاح البحرية الإسرائيلي الصغير على اعتراض عدد من الزوارق واختطاف مسافرين يُشتبَه بضلوعهم في أعمال عنف ضد إسرائيل . ولم يكن ساحل إسرائيل الطويل على المتوسط وحده يدعو إلى اليقظة بل كان البحر الأحمر أيضاً يمثل نقطة ضعف دائمة . وكان عميل للموساد في اليمن مصدر عملية أجهضت مؤامرة حاكتها منظمة التحرير الفلسطينية تبحر بزورق صيد في البحر الأحمر صعوداً إلى منتجع إيلات الإسرائيلي ، ثم يجري تفجير حمولة الزورق من المتفجرات على مقربة من الشاطئ المزنّر بالفنادق . وقام زورق حربي إسرائيلي باعتراض زورق الصيد ، وتغلّب من فيه على انتحاريَين كانا على متنه قبل تمكّنهما من تفجير الحمولة .

وفيما كانت الطائرة المدنية تهبط باتجاه شمال إسرائيل ، كان المسافرون يخشون التعرّض للرد الانتقامي الجديد على ما حدث عندما تمكّنت جماعة فلسطينية بقيادة أبو العباس قبل أشهر قليلة في 2 تشرين الأول (أكتوبر) 1985 من الاستيلاء على سفينة "أكيلي لاورو" الإيطالية في ما يعتبر أحد أكثر أعمال القرصنة البحرية إثارة في التاريخ . وقد قُتل أثناء العملية أحد المسافرين ويدعى ليون كلينغهوفر وهو يهودي أميركي مقعد .

مقتل كلينغهوفر تحوّل حادثة ديبلوماسية عائمة تورّطت فيها إسرائيل المهتاجة والولايات المتحدة ومصر وإيطاليا وسورية وقبرص وتونس ومنظمة التحرير الفلسطينية . واستمرت الأزمة تتنقل في المتوسط لاكتساب الدعاية للخاطفين والكشف عن المصالح الخاصة التي تتحكّم بمواقف الأطراف في الشرق الأوسط من الإرهاب . طغت موجة من التردّد نتيجة لخطف سفينة كانت تأتي بالسياح الأجانب والعملة الصعبة التي تحتاج إليها إسرائيل حاجة ماسة ونتيجة لمقتل أحد المسافرين عليها . ومن الوجهة الفنية وقعت الجريمة على أرض إيطالية هي سفينة "أكيلي لاورو" المسجلة في جنوى . لكن إيطاليا كانت تشعر بضعفها الشديد أمام الإرهاب وكانت ترغب في إنهاء الحادث بهدوء . أما الولايات المتحدة فكانت

تطلب النيل من قاتلي أحد مواطنيها . وارتفعت في أنحاء الولايات المتحدة يافطات تقول "لا تغضب ، انتقم" . وأخيراً وبعدما شدّوا اهتمام العالم إليهم لعدة أيام استسلم الخاطفون للسلطات المصرية التي أذنت لهم بمغادرة البلاد مثيرةً بذلك غضب إسرائيل .

كان غير مسافر على متن طائرة "اليرجيت" يتساءلون عما إذا كانوا سينزلون في أحد السجون الإسرائيلية كرد فعل انتقامي إسرائيلي . وفيما استمرت المقاتلتان الإسرائيليتان في التحليق شبه متلاصقتين حطّت الطائرة المدنية المخطوفة في مطار عسكري في شمال الجليل . كان بانتظارها فريق من المحققين من "أمان" ، وقد قال لهم الموساد أن على متن الطائرة اثنين من أعتى الإرهابيين في العالم ، أبو نضال الشهير ومُعادلُه في الشهرة المخيفة أحمد جبريل . ولكن بدلاً من هذين وجد المحقّقون أنفسهم يستجوبون شلّة من العرب المذعورين ممن لا ذكر لأي منهم في حاسوبات إسرائيل . فسُمِحَ للطائرة الخاصة بالمغادرة وعليها ركابها .

واستمرت إسرائيل بالزعم بأن وراء اعتراضها واختطافها الطائرة المدنية احتمال القبض على "إرهابيين" ، أما في صفوف الموساد فقد ساد جوٌ بوجوب استغلال أي فرصة تتاح لخلق الرعب والذعر في أفئدة العرب . وشعر محقّقو "أمان" ببعض الرضى إذ عرفوا أن المسافرين سيعززون صورة إسرائيل "التي لا تُقهر" .

اعتبر أيهود باراك رئيس "أمان" العملية مثالاً جديداً على تسرّع الموساد ، وقد أوضح شعوره هذا لناحوم أدموني .

ولما كان رئيس الموساد رجلاً لا يحتمل الخطأ أو التوبيخ ، فقد مضى يعدّ لعملية لا تقتصر نتائجها على وضع حدّ لاستخفاف محطات الإذاعة العربية بالموساد التي نزل مستواها إلى حد إجبار طائرة مدنية عزلاء على الهبوط ، بل وتضع حداً أيضاً لانتقادات أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية نفسها للجهاز الذي يرأسه ، وطَلَبِها إليه أن يكون على بيّنة من أمره في المرات المقبلة حتى لا يُضحك العالم عليهم .

وهكذا بدأت عملية كانت لها نتائج مهمة عديدة بينها تدمير حياة خادمة فندق ايرلندية حامل ، وسجن عشيقها الفلسطيني إحدى أطول مدد السجن التي حكمت بها المحاكم البريطانية ، والتسبّب بإحراج كبير للمستشار الألماني هلموت كول ورئيس الوزراء الفرنسي جاك شيراك ، وإظهار روبرت ماكسويل مرة أخرى في حالة غضب مؤثر شامل ، والتسبّب بإقصاء سورية عن الطاولة الديبلوماسية العالمية .

مثل هذه المؤامرة هي جوهر حياة شخص مثل ناحوم أدموني ، كان يطرح ويعيد طرح الأسئلة عينها على نفسه . هل ستنجح الخطة؟ هل سيعتقد الناس الآخرون أن العملية حدثت على هذا الشكل؟ وبالطبع ، هل ستبقى الحقيقة دفينة إلى الأبد؟

جنّد الموساد للعملية المهارات المختلفة اختلافاً كبيراً لرجلين أحدهما ضابط موساد خدم في بريطانيا باسم مستعار هو توف ليفي والثاني مخبر فلسطيني يعرف باسم رمزي هو "أبو" . كان هذا قد جُنّد بعدما ضبطه الموساد وهو يسرق أموال منظمة التحرير الفلسطينية التي كانت بإدارته في إحدى القرى على الحدود الإسرائيلية ـ الأردنية . واستغل الموساد خوف "أبو" من انكشاف أمر سرقته إلى زعيم القرية الأمر الذي سيؤدي إلى موته ، فشنّ حملة اضطهاد ضده اضطرته إلى الرحيل إلى لندن بعد تزويده بوثائق مزوّرة تزعم أنه رجل أعمال ، وكذلك بنفقات معيشة تتناسب مع دوره كرجل مسرف كبير ومن طراز رفيع . كان رئيسه المباشر توف ليفي .

كان "أبو" يحمل المواصفات الكلاسيكية التي يطلبها عوزي ماهنايمي ، وهو عضو سابق في أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية ، في العميل . "يجب أن تمضي معه الساعات وربما الأيام ، وأن تعلّمه كل ما يحتاج إلى معرفته ، وتراجع معه تمارينه وتساعده وتبني معه علاقة اجتماعية ، وتتفرّج على صور عائلته وتعرف أسماء أولاده وأعمارهم . لكن العميل ليس إنساناً ويجب ألا تفكّر به هكذا . إن العميل مجرد سلاح ، ووسيلة لتحقيق غاية مثل بندقية الكلاشنيكوف – هذا كل ما في الأمر . إذا كان عليك أن ترسله إلى المشنقة فلا تفكّر بالأمر . إن العميل دائماً رمز وليس شخصاً" .

لعب "أبو" دوره بإتقان كامل وأصبح شخصية مألوفة في كازينوات القمار في منطقة "مايفير" في لندن . ونظراً لنجاحه ، فقد جرى غضّ الطرف عن شهيته الجنسية وحفلات السكر . وإذ كان يرتاد مشاوي تجار الأسلحة والأثرياء من أنصار منظمة التحرير الفلسطينية فقد تمكّن من جمع المعلومات التي سهّلت للموساد توجيه الضربات لأعدائه . ونتيجة لمعلومات أمدّه بها "أبو" تمكّن الموساد من قتل خمسة عشر رجلاً من رجال منظمة التحرير في غضون أسابيع قليلة .

جرت بعض اللقاءات بينه وبين توف ليفي في حانات ومطاعم فندق هيلتون على شارع "بارك لين" . كانت تعمل هناك امرأة ايرلندية من دبلن تدعى آن ـ ماري ميرفي .

ومثل كثيرين قطعت آن ـ ماري بحر ايرلندا إلى لندن تحت إغراء جمع الثروة . وكل ما استطاعت أن تحصل عليه هو وظيفة خادمة . كان راتبها صغيراً وساعات العمل طويلة . وكانت تمضي أوقات فراغها القصيرة في الحانات القائمة في منطقة "شبردس بوش" التي تحوّلت منذ زمن بعيد إلى مأوى للمهاجرين الايرلنديين . كانت تنضم إلى المنشدين أغاني الثوار وتطيل الاحتساء من الجعة السوداء . ثم تعود من بعد إلى غرفتها الموحشة وتستعد لليوم طويل آخر تغيّر فيه أغطية الأسرّة وتنظّف المغاسل ، وتجعل كل غرفة في الفندق تلمع كما ينبغي أن تكون غرف "الهيلتون" . لم يكن لعملها أي مستقبل .

قبيل فترة الميلاد عام 1985 كانت آن ـ ماري حزينة جداً وهي تفكّر بتمضية العطلة وحيدة في مدينة تختلف تماماً عن دبلن المرحة التي تشتاق إليها . وقتها التقت بشاب عربي أسمر اللون جميل العينين . كان يرتدي بذلة من الحرير ويضع ربطة عنق لافتة ويوحي الوفرة والثراء . عندما ابتسم لها ابتسمت له . كان اسمه نزار هنداوي وكان من أقرباء "أبو" الأبعدين . كان نزار في الخامسة والثلاثين من العمر ، لكنه كذب عليها فحذف ثلاث سنوات من عمره ليجعله مساوياً لعمرها : 32 سنة . واستمر بكذبه وهو يتحدّث إلى المرأة الساذجة الواثقة .

كان لقاؤهما في حانة قريبة من مسرح تلفزيون هيئة الإذاعة البريطانية "بي . بي . سي ." في ساحة "شبردس بوش غرين" . وكانت تلك أول مرة تجيء إلى هذه الحانة . وقد أدهشها أن تجد هنداوي وسط العمال غير المهرة ذوي الوجوه المتوردة الذين يتكلمون بكل لهجات المقاطعات الايرلندية . لكن هنداوي كان يعرف العديد من الشاربين ويتجاوب مع مزاحهم الفظّ ويدفع ثمن الشراب عندما يحين دوره .

كان الهنداوي يتردّد منذ أسابيع على الحانة آملاً بإقامة اتصال مع "الجيش الجمهوري الايرلندي" . كان "أبو" قد طلب إليه ذلك من دون أن يشرح له السبب كما هي عادته .

وقد حبطت المحاولات التي بذلها هنداوي لمناقشة الوضع السياسي في ايرلندا لأن الشباب يفضّل تجرّع الجعة . وكائناً ما يكون مخطط "أبو" ، فهو سيبقى سراً محجوباً عن هنداوي . ومع تعرّفه على آن ـ ماري بات تفكيره منصباً على أمور أخرى .

أسر نزار آن ـ ماري بحسن تصرّفه ولياقته ، ولم تلبث أن راحت تضحك لقصصه عن حياته في الشرق الأوسط . لم تكن آن ـ ماري قد سافرت سوى إلى لندن ، ولذا فقد بدا ما

يقوله شبيهاً برواية خيالية من ألف ليلة وليلة . تلك الليلة أوصلها هنداوي بسيارته إلى بيتها وقبّل وجنتيها ورحل . وتساءلت آن ـ ماري عما إذا كان الشعور بالدّوار الذي انتابها هو العلامة الأولى على الوقوع في الحب . في اليوم التالي اصطحبها لتناول الغداء في مطعم سوري وعرّفها على مباهج الطبخ العربي . كانت ثملة من تناول النبيذ اللبناني الفاخر فلم تبدِ سوى مقاومة رمزية عندما أخذها إلى شقته .

بعد ظهر ذلك اليوم عاشرها معاشرة الأزواج . كانت عذراء ، ولأنها نشأت في بيئة كاثوليكية ايرلندية معارضة لوسائل منع الحمل ، لم تتخذ أي تدابير احتياطية .

في شباط (فبراير) 1986 اكتشفت أنها حامل ، فأطلعت هنداوي الذي ابتسم مطمئناً إياها قائلاً إنه سيتدبّر أمر كل شيء .

ذعرت آن ـ ماري وقالت إنها لن توافق على الإجهاض ، فقال إن الفكرة لم تخطر بباله . والواقع أنه أصيب بالذعر إزاء احتمال اضطراره للزواج من امرأة اعتبرها دونه اجتماعياً . كما كان يخشى أن تذهب إلى السلطات وتقدّم شكوى . لم يكن هنداوي يعلم أن السلطات الرسمية لا تأبه لمثل هذه الأمور ، فظنّ أنه سيفقد حقّه بالإقامة في بريطانيا ، ويُرحّل كأجنبي غير مرغوب فيه . عندئذٍ لجأ هنداوي إلى السند الوحيد الذي يعرفه : قريبه "أبو" .

كان "أبو" غارقاً في همومه الخاصة ، فقد خسر مبلغاً كبيراً من المال في لعب الميسر ، فقال لهنداوي صراحة إنه لن يقرضه المال الذي كان يعتزم أن يقدّمه لآن ـ ماري لتعود إلى دبلن وتضع الطفل وتعرضه للتبنّي . كانت قد قالت له أن هذا أمر شائع في ايرلندا .

في اليوم التالي التقى "أبو" بتوف ليفي . وأثناء تناولهما العشاء أبلغ عميل الموساد "أبو" أنه بحاجة لعمل ما يتسبب بإغلاق الحكومة البريطانية للسفارة السورية في لندن وطرد موظفيها الذين تشتبه منذ زمن بعيد بأنهم ضالعون في نشاطات إرهابية . قال ليفي أنه بحاجة إلى "صنارة" ليحقّق هذا الغرض . هل بإمكان "أبو" أن يخبره عن أحد ، عن شيء يمكن الإفادة منه . ذكر "أبو" أن قريباً له في لندن له صديقة ايرلندية حامل .

بدأت صورة المؤامرة تتبلور بعد الهزات التي أصابت أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية من الأسرار التي كشف عنها في واشنطن والمتعلقة بصفقة مقايضة الأسلحة بالرهائن مع إيران . فتعرّضت صورة إسرائيل المتشددة بالتعامل مع الإرهاب لضربة قوية ، وأثار حفيظة

الموساد سماحُ إدارة ريغان بتدهور الأمور إلى حد السماح بإبراز دور إسرائيل في فضيحة "إيران غيت" .

وأدى الكشف عن هذه الأسرار إلى جعل الحفاظ على الحد الأدنى من دعم الجيران المعتدلين مثل مصر والأردن أمراً صعباً في وقت كان هؤلاء قد ضاقوا ذرعاً بمنظمة التحرير الفلسطينية وتكلّف ياسر عرفات في السلوك والكلام . وشيئاً فشيئاً أصبح رئيس منظمة التحرير الفلسطينية أسيراً سياسياً للمتطرفين حوله ، يدعو إلى "تصفية الكيان الصهيوني سياسياً وثقافياً وعسكرياً" .

ولم يفلح التوبيخ القاسي في تحسين موقعه وسط الأجنحة المختلفة في منظمة التحرير الفلسطينية . فعندهم أن عرفات هو الرجل الذي اضطر إلى انسحاب مذلّ ومهين من بيروت تحت حماية الأمم المتحدة وأمام عين الإسرائيليين الساهرة . كان حوالي خمسة عشر ألف مقاتل فلسطيني قد صعدوا إلى متون الزوارق المتجهة إلى تونس . وتخلّى آخرون عن عرفات بناء على وعد بالدعم من سورية وأصبحوا أكثر تشدّداً تجاهه وتجاه إسرائيل بعدما اتخذوا قواعد جديدة لهم بالقرب من دمشق .

ومع ذلك بقي الموساد يعتبر عرفات العقبة الرئيسية أمام السلام ، وقتله من الأولويات . ففي حقل الرماية الذي يستخدمه الموساد كانت كل الصور الظلّية هي صور عرفات . وسيبقى ، بنظر الموساد ، حتى موته مسؤولاً عن كل أعمال القتل التي ارتكبتها المجموعات الفلسطينية المتباينة في سورية .

ثم وقعت حادثتان حولّتا التركيز ، موقتاً على الأقل ، عن عرفات وحدّدتا صورة المؤامرة التي سيكون لـ"أبو" دور رئيسي فيها .

واجهت سورية مع الفصائل الفلسطينية التي ترعاها مشكلة متعاظمة هي ضرورة تلبية طلباتهم الدائمة لممارسة نشاطهم . ولما كانت سورية ترفع لواء دعم القضية الفلسطينية فقد كانت على استعداد دائم لتمويل أي عملية لا يؤدي انكشاف دورها فيها إلى تشويه سمعتها . وقد رفضت الاستخبارات السورية عدداً كبيراً من الخطط التي قدمتها الفصائل الفلسطينية لأنها رأت فيها مخاطرة لا تحتمل .

ثم طلع الفلسطينيون بخطة متهوّرة رأت الاستخبارات السورية أنها لن تصيب نجاحاً فحسب بل ستوجّه ضربة قوية إلى قلب التفوّق العسكري الإسرائيلي بالذات . كانت

الخطوة الأولى شراء سفينة ، وبعد عدة أسابيع من البحث في موانئ المتوسط تمّ شراء سفينة تجارية مسجلة في بنما باسم "اتافاريوس" وجرى الانتقال بها إلى ميناء الجزائر .

بعد أسبوع من وصولها ، وصلت فرقة من الكوماندوس الفلسطيني من دمشق على متن طائرة نقل تابعة للقوة الجوية السورية . وقد حمل المقاتلون معهم ترسانة صغيرة من الأسلحة تضم مدافع رشاشة وأسلحة مضادة للدبابات وصناديق مليئة ببنادق "كلاشنيكوف" المفضلة لديهم . في تلك الليلة انتقل رجال الكوماندوس وأسلحتهم تحت جنح الظلام إلى "اتافاريوس" .

عند بزوغ الضوء أبحرت السفينة ، وأبلغ قبطانها سلطات الميناء أنهم متجهون إلى اليونان لإجراء فحص شامل للمحرّك . كان رجال الكوماندوس داخلها . لكن وجودهم لم يخفَ عن مخبر للموساد يعمل في مكتب رئيس المرفأ . وبعدما ساوره الشك اتصل المخبر بضابط الموساد في مدينة الجزائر الذي أرسل بدوره يبلغ تل أبيب بما يجري .

أدى وصول الرسالة إلى إعلان حالة إنذار عادية أرسلت إلى عموم شبكة الموساد المتمركزة حول المتوسط . كانت المحاولة الفاشلة لتفجير ساحل إيلات لا تزال طرية في الذاكرة وقد افتُرض أن الهجوم الجديد سيكون مماثلاً ولكنه سيستهدف حيفا . كان الميناء المزدحم على ساحل المتوسط هدفاً بديهياً . وُضع زورقان حربيان تابعان للبحرية الإسرائيلية على مقربة من الشاطئ وعلى أهبة الاستعداد للتصدي لأي محاولة تقوم بها "اتافاريوس" لدخول الميناء ، صلة إسرائيل التجارية البحرية الأولى مع العالم .

كانت وجهة "اتافاريوس" هي شواطئ شمال تل أبيب ، ووفقاً للخطة التي تشبه خطط الأفلام الأميركية فإن قوة الكوماندوس ستهبط من السفينة إلى زوارق مطاط تجذّفها إلى الشاطئ . ومن هناك يشقّ الكوماندوس طريقهم داخل تل أبيب إلى هدفهم وهي "القرية" المقر الحصين للجيش الإسرائيلي الذي يعتليه برج يحتل القسم الأكبر من الأفق ، ويشكل منارة يستدل بها الكوماندوس على هدفهم . اعتمدت الخطة أسلوب المباغتة والشجاعة القاسية .

وُقّت الهجوم مع احتفالات إسرائيل بقيام الدولة وهو يوم تطغى فيه أجواء الابتهاج الجماعي . ووفقاً لما توافر للاستخبارات السورية فإن الحراسة على "القرية" في ذلك اليوم تكون أدنى من المعتاد . لم يكن رجال الكوماندوس يتوقّعون أن ينجوا بأرواحهم فقد اختيروا للمهمة لتمتعهم بصلابة الإرادة نفسها التي تحلّى بها انتحاريو بيروت .

وبانتظار بدء العملية أمكن للفدائيين أن يسترخوا ويتمتّعوا بالنزهة البحرية القصيرة التي مرّوا خلالها بتونس في طريقهم إلى اليابسة التالية ، جزيرة صقلية . ومن المحتمل ألاّ يكون أحد على متن السفينة قد أولى اهتماماً لجرافة للصيد تندفع في الأمواج الطويلة لدى مرور "اتافاريوس" . كان زورق الصيد ينقل معدات إلكترونية حساسة تستطيع رصد المحادثات اللاسلكية على متن السفينة التجارية . وأعلنت رسالة قصيرة بُثّت بالعربية أن السفينة ملتزمة ببرنامج الرحلة . كان على متن زورق الصيد متطوعان لخدمة الموساد وأرسل أحدهما رسالة لاسلكية إلى تل أبيب عما سمعه . وخلال الأربع والعشرين ساعة التالية كانت "اتافاريوس" تخضع لرقابة عن قرب نظمتها سفن أخرى يديرها الموساد أثناء مرورها بجزيرة كريت ثم بجزيرة قبرص .

وعَبَر يخت سريع أمامها وكان مزوّداً بمعدات تفحّص بينها آلة تصوير قوية خُبّئت في جانب حجرة مدير الدفة . وعلى سطح اليخت كانت شابتان تتشمّسان ، وكانتا قريبتين للمتطوّع القبرصي الذي يملك اليخت ، وقد استخدمهما كطعم لاجتذاب اهتمام من على متن "اتافاريوس" . وحينما مرّ اليخت ببطء إلى جانب السفينة ظهر عدد من رجال الكومندوس على درابزون السطح وهم يصيحون ويبتسمون للمرأتين . في حجرة مدير الدفة ، شغّل المتطوع الكاميرا ، وصوّر الشبان وهم يلوكون الكلام . وإذ انتهى بذلك دوره في المراقبة عاد مسرعاً إلى قبرص وفي منزله جرى تظهير الفيلم ، وأرسلت الصور باللاسلكي إلى تل أبيب . وهناك تعرّفت حاسوبات الموساد على ثلاثة كانوا يصنفونهم "إرهابيين" . فرُفعت حالة الإنذار إلى الحد الأقصى .

أمر رئيس الوزراء شمعون بيريز بمهاجمة "اتافاريوس" ، وجرى بحث خطة لقصفها بالقنابل لكنها رُفضت . أما الهجوم الجوي فقد تظنّ مصر خطأً أنه جزء من ضربة إجهاضية . وعلى رغم أن العلاقات الديبلوماسية بين إسرائيل وجارتها تمكّنت من تجاوز نتائج عدد من الحوادث ، فقد كان هناك مقدار كبير من التوتر والشك في القاهرة إزاء نشاطات تل أبيب . ووافق بيريز على أن يكون الهجوم بحرياً .

جرى تزويد ستة زوارق حربية بحرية إسرائيلية بالوقود وتسليحها بالصواريخ . كانت على متن هذه الزوارق وحدات من القوات الخاصة في الجيش الإسرائيلي وعملاء الموساد الذين كُلّفوا استجواب من يبقى من الكومندوس حياً . أبحرت الزوارق الحربية في الساعات

الأولى من ميناء حيفا متّجهة غرباً إلى البحر المتوسط . كانت تبحر مسرعة عبر الماء في تشكيل متسلسل حتى تقلّص احتمال اكتشافها برادار "اتافاريوس" . وقد وقّت الإسرائيليون هجومهم مع شروق الشمس خلفهم تماماً .

بعد قليل من الساعة 6:30 صباحاً ظهرت سفينة "اتافاريوس" . انتشرت الزوارق البحرية على شكل مروحة ، وفي مناورة كلاسيكية هاجمت السفينة التجارية من الجانبين مطلقة الصواريخ على بدن السفينة ومتونها . ومن على ظهر السفينة بادل الكومندوس النار بالنار ، لكن أسلحتهم الثقيلة كانت لا تزال في صناديقها في قاع السفينة ولم تكن لبنادقهم الأوتوماتيكية القوة النارية المتفوّقة التي للإسرائيليين . وخلال دقائق اشتعلت النار بـ"اتافاريوس" وبدأ بحارتها والكومندوس عليها يخلونها . وقد أصيب بعضهم بينما كانوا يقفزون إلى البحر .

وبلغ عدد القتلى الإجمالي عشرين بحاراً وفدائياً . وقد انتشلت جثثهم جميعاً . وتم أسر ثمانية من الناجين . وقبل أن تعود الزوارق مسرعة إلى إسرائيل أُغرقت "اتافاريوس" بصواريخها التي كانت تحمل رؤوساً شديدة التفجّر .

ودفنت الجثث على عجل في صحراء النقب . وقدّم الأسرى إلى محاكمة سريّة حكمت عليهم مدداً طويلة من السجن . وخلال استجوابهم أقحم هؤلاء سورية باعتبارها القوة الموجّهة للحادث . لكن الحكومة الإسرائيلية أخذت بنصيحة الموساد فأحجمت عن شن هجوم على جارتها ، وأبقت الأمر سراً .

كان علماء النفس في الموساد يعتقدون أن اختفاء السفينة وطاقمها وركابها ستكون موضوع تكهنات شديدة في أوساط المنظمات الفلسطينية المقيمة في سورية . وحذّر الموساد رئيس الوزراء بيريز أيضاً إنه يمكنه أن يطمئن إلى أن الزعماء الفلسطينيين في دمشق متى عرفوا أن عمليتهم فشلت فسيعملون جاهدين لاستعادة معنوياتهم أمام أصدقائهم السوريين .

في هذه الأثناء ، استمر الفلسطينيون في شجب عرفات وإبداء استحسانهم للحرب المميتة التي يشنها عليه معاونه السابق أبو نضال . كان هذا يعتبر منذ زمن بعيد "أستاذ المفاجآت" قبل أن يدبّ الخلاف بينه وبين عرفات حول الشؤون التكتيكية .

بدأ عرفات يقتنع بأن الحركة التي لا سلاح لها سوى الإرهاب لن تلبث أن تفشل ، وأنها بحاجة إلى برنامج سياسي وحسّ ديبلوماسي . وحاول عرفات تقديم أمثلة تعزّز هذا

الاعتقاد في بياناته الأخيرة التي جعلت واشنطن تشجّعه على المضي في هذا السبيل الجديد . أما في إسرائيل ، فقد أعتُبرت بيانات عرفات رياءً . أما أبو نضال فلم يرَ في هذه البيانات سوى خيانة لكل ما كان يمثله شخصياً – الكفاح المسلح العلني الصريح .

وبقي أبو نضال أشهراً ينتظر الفرصة الملائمة . ولما سمع بفشل عملية "اتافاريوس" وكيف اختفت السفينة عقب ذلك عن وجه الأرض ، رأى أن الوقت قد حان لتذكير إسرائيل بوجوده ، فوجّه ضربات رهيبة . في كانون الأول (ديسمبر) 1985 هاجم مسلّحوه مطاري روما وفيينا وأطلقوا النار على المسافرين ، فقتل في هذا الهجوم الخاطف أمام مكاتب تسجيل المسافرين التابعة لشركة "العال" الإسرائيلية في المطارين تسعة عشر مسافراً بينهم خمسة أميركيين . كيف تمكن هؤلاء المسلحون من مغافلة الشرطة الإيطالية والوصول بسهولة إلى أهدافهم؟ وأين كان رجال الأمن الإسرائيليون العاملون في شركة "العال"؟

وبانتظار العثور على أجوبة عن هذه الأسئلة الملحّة كان استراتيجيو الموساد يناقشون جوانب أخرى من المسألة . فلئن كانت بريطانيا قد انضمت إلى الدول المندّدة بشدة بالهجمات فهي لا تزال تحتفظ بعلاقات ديبلوماسية كاملة مع سوريا وذلك على رغم تزويد الموساد لجهاز الأمن الداخلي البريطاني "أم .آي .5" بـ"أدلة وافية" عن دور دمشق في "الإرهاب الذي ترعاه الدولة" .

لم تكن الأدلة كافية لتوجّه رئيسة الوزراء مارغريت ثاتشر تنديداتها القوية في البرلمان للإرهاب . كان الأمر يتطلب عملاً مباشراً مختلفاً . وسبق لجهاز "أم .آي .5" أن ذكّر الموساد بأن إسرائيل نفسها عملت في ضوء مصلحتها الخاصة أحياناً وارتضت بالتعامل مع أعدائها الألداء . ومن ذلك قرارها بالإفراج عن أكثر من ألف معتقل فلسطيني ، كان عدد كبير منهم قد دين بتهم القيام بالأعمال الإرهابية ، وذلك قبل أشهر قليلة من الهجوم بالقنابل في مطاري روما وفيينا . وقد أقدمت إسرائيل على ذلك لمبادلة ثلاثة جنود إسرائيليين أسرتهم المقاومة في لبنان .

لكن الموساد كان مصمّماً هذه المرة على توجيه ضربة قوية لإجبار بريطانيا على قطع علاقاتها الديبلوماسية مع دمشق بإقفال سفارتها في لندن التي طالما اعتبرها الموساد إحدى البعثات الأساسية في أوروبا التي تتآمر على إسرائيل . كانت المؤامرة الإسرائيلية تخصّ "أبو" ، قريب نزار هنداوي ، بالدور الرئيسي .

بعد حديثه على مائدة العشاء مع توف ليفي بحث "أبو" عن هنداوي واعتذر منه عن

إظهاره اللامبالاة إزاء مشكلة آن ـ ماري . فهو مستعد لتقديم المساعدة ولكنه بحاجة إلى بعض الأجوبة .

هل ستحتفظ بالطفل؟ هل لا تزال تضغط عليه للاقتران بها؟ هل يحب نزار الفتاة؟ إنهما ينتميان إلى ثقافتين مختلفتين والزواج المختلط نادراً ما أفلح .

وردّ هنداوي بأنه لا يعرف إن كان يحب آن ـ ماري . لقد أصبحت سيئة الطبع كثيرة البكاء ودائمة السؤال عما سيحدث لها . وهو متأكّد من أنه لا يريد الزواج بها .

قدّم "أبو" إلى قريبه عشرة آلاف دولار وهو مبلغ يكفي ليتخلّص من آن ـ ماري ويعود إلى حياة العزوبية في لندن . كان الموساد هو من قدّم المال . وفي مقابل هذا المال يترتّب على هنداوي أن يفعل شيئاً من أجل القضية التي آمن كلاهما بها وهي تدمير إسرائيل .

ومساء 12 نيسان (أبريل) 1986 زار هنداوي آن ـ ماري في المنزل الذي تقيم فيه في حي كيلبورن في لندن . جاءها بالزهور وبزجاجة شمبانيا اشتراها من المال الذي أمدّه به "أبو" . وقال لآن ـ ماري إنه يحبها ويريد أن تحتفظ بالطفل فانهمرت الدموع من عينيها ، وفجأة أشرقت شمس الأمل في دنياها .

قال هنداوي أن هناك عقبة وحيدة هي مباركة والديه لزواجهما وينبغي أن نقنعهما بذلك . ولذا ينبغي أن تسافر إلى قريتهما في فلسطين . ورسم لها صورة عن نظام حياتهما فبدا وكأنه لم يتغيّر منذ أيام السيد المسيح . كانت الأيقونة ، لفتاة تعلّمت على الراهبات وتعتبر القدّاس جزءاً مهماً من حياتها ، برهاناً أخيراً على صحة قرارها بالزواج من حبيبها . فلئن لم يكن مسيحياً فلا بأس ، فهو وعائلته من بلاد الرب ، ولذلك فهم خائفو الله . ومع ذلك فقد ترددت آن ـ ماري ، فهي لا تستطيع أن تترك عملها . ومن أين لها المال لتدفع ثمن تذكرة السفر؟ كما أنها بحاجة إلى ملابس جديدة تليق بالزيارة المهمة . فهدأ هنداوي مخاوفها مخرجاً من جيبه رزمة من المال ، وقال أنها تكفي لشراء كل ما تحتاج إليه من ملابس وتزيد . وبحركة تباه أخرى ، أخرج هنداوي تذكرة سفر على متن طائرة تابعة لشركة "العال" لرحلة تقوم في 17 نيسان (إبريل) أي بعد خمسة أيام . كان قد اشترى تذكرة السفر بعد ظهر ذلك اليوم .

وضحكت آن ـ ماري : "أكنت واثقاً من أنني سأسافر؟" .

فرد هنداوي : "كما إني واثق من حبي لك" .

ووعدها هنداوي بأنه حالما ترجع إلى لندن فسيتزوجان . أمضت خادمة الفندق الحامل الأيام الخمسة التالية في دوّامة . استقالت من عملها وذهبت إلى السفارة الايرلندية في لندن لتتسلم جواز سفر جديداً ، واشترت ملابس للحوامل . كان هنداوي يبيت عندها كل ليلة وفي الصباح يتناولان معاً طعام الفطور فترسم هي مستقبلهما معاً . إنهما سيعيشان في ايرلندا في كوخ صغير قرب البحر . وسيسميان طفلهما "شون" إذا كان ذكراً و"شينيد" إذا كان أنثى .

يوم الرحيل أبلغ هنداوي آن ـ ماري إنه أعدّ لها "هدية" لوالديه ستتسلّمها من "صديق" له يعمل عامل تنظيفات داخل المطار .

يقول بنمناشي الذي زعم في ما بعد إنه كان على اطلاع دقيق على المؤامرة أن "هنداوي لم يشأ المخاطرة بتوقيفها بحجة أنها تحمل عدداً من الحقائب غير مسموح به إلى داخل الطائرة فأعدّ ترتيباً مع صديقه لإعطائها الحقيبة عندما تدخل قاعة المغادرة التابع لطائرة العال" .

دلّت سذاجتها الظاهرة في عدم طرح أسئلة عن "الهدية" عن حال امرأة غارقة إلى أذنيها بالحب وتثق بحبيبها ثقة عمياء . كانت المغفّلة المثالية في المؤامرة المتسارعة .

في سيارة الأجرة التي أقلّتها إلى المطار كان هنداوي الأب المحب الحنون . أكد عليها أن تقوم بتمارين التنفّس أثناء الرحلة الطويلة ، وأن تتناول الكثير من الماء وتجلس في مقعد عند الممر لتجنّب التعرّض لآلام الطمث التي كانت قد بدأت تشكو منها . وأسكتته آن ـ ماري ضاحكة : "يتقدّس اسم الله ، وهل تظن إنني مسافرة إلى القمر؟" .

توقفت قليلاً عند مدخل منطقة مغادرة المسافرين ، فلم تكن ترغب بالانفصال عنه ، ووعدت أن تكلمه على الهاتف من تل أبيب ، وقالت إنها ستحبّ والديه كأنها ابنتهما . فقبّلها لآخر مرة ثم دفعها برفق إلى الطابور المتقدّم نحو موظفي مراقبة الجوازات .

بقي هنداوي مكانه يراقب آن ـ ماري حتى غابت عن ناظريه ، فتابع تنفيذ تعليمات "أبو" ، فركب باصاً تابعاً لشركة الخطوط السورية عائداً إلى لندن . في هذه الأثناء كانت آن ـ ماري الغافلة تعبر ممرات مراقبة الجوازات والتدقيق الأمني البريطاني . ثم اتجهت نحو المنطقة المحصّنة المخصصة لرحلات شركة "العال" . وهناك استجوبها موظفون درّبهم جهاز "شين بيت" وفتّشوا حقيبة يدها بدقة . وبعدما عُيّن لها مقعد على الطائرة طُلب إليها التوجه إلى قاعة المغادرة الأخيرة لتنضم إلى 355 مسافراً آخر .

ويقـول آري بنمناشي إنهـا تسلمت "الهـدية" المعـدّة لوالدَي هنداوي من رجل يلبس ثياب عامل تنظيفات في المطار . وبعدها اختفى الرجل بصورة غامضة كما ظهر . وعن هذا كتب بنمناشي يقول "خلال ثوان أُخضعت آن ـ ماري للتفتيش وعثر مسؤولو الأمن في شركة "العال" على متفجرات بلاستيكية في قاع خفي في الحقيبة" .

كانت المتفجرات تزن أكثر من ثلاثة أرطال من مادة "سمتكس" الشديدة الانفجار . وأمام موظفي "الشعبة الخاصة" وضباط جهاز الأمن الداخلي "أم . آي . 5" روت آن ـ ماري قصتها وهي تنتحب . كانت قصة امرأة سيئة الطالع أفسدها الحب وخَدَعَها شريكها . وبعدما تبيّن لمسؤول الأمن أن آن ـ ماري مغفّلة راحوا يركّزون على التأكد من وجود علاقات لهنداوي بسورية .

عندما دخل باص شركة الطيران إلى لندن طلب هنداوي من سائقه أن يحوّل سيره نحو السفارة السورية . وعندما احتج السائق قال له هنداوي أن هذا من "صلاحياته" . وفي السفارة طلب هنداوي من مسؤولي القنصلية منحه اللجوء السياسي قائلاً إنه يخشى أن تعتقله الشرطة لأنه حاول تفجير طائرة لشركة "العال" من أجل "القضية" . ودهش المسؤولون لكلامه وأحالوه إلى موظّفَين في جهاز أمن السفارة ، استجوباه وطلبا منه المكوث في شقة لموظفي السفارة . ولعلهما ارتابا بأن الأمر ليس سوى فخ نُصب للإيقاع بسورية وإحراجها . وإذا صح ذلك فقد تعزّزت هذه المخاوف عندما لم يلبث هنداوي أن غادر الشقة .

ذهب هنداوي يبحث عن "أبو" ، ولما لم يجده استأجر غرفة في فندق "لندن فيزيترز" في منطقة "نوتنغ هيل" حيث سرعان ما اعتقل .

أذاعت هيئة الإذاعة البريطانية "بي . بي . سي ." نبأً عن إحباط الشرطة البريطانية المؤامرة . وكانت التفاصيل دقيقة بصورة غير مألوفة : فمادة "سيمتكس" التشيكية الصنع كانت مخبأة في قاع خفي في حقيبة آن ـ ماري ، وقد وقّتت لتنفجر على ارتفاع 39 ألف قدم .

ويرى بنمناشي أن العملية حقّقت الغرض منها بسرعة ، "فأغلقت مارغريت ثاتشر السفارة السورية . وحُكم على هنداوي بالسجن لمدة خمسة وأربعين عاماً . وذهبت آن ـ ماري إلى ايرلندا حيث أنجبت طفلة" . وعاد "أبو" إلى إسرائيل بعدما انتهى دوره .

إثر محاكمة هنداوي أطلق روبرت ماكسويل حملة في صحيفة "ديلي ميرور" . وأعلنت

إحدى الافتتاحيات : "نال اللعين ما يستحقّه" . ويوم إبعاد السفير السوري إلى لندن كتبت الصحيفة في عناوينها الرئيسية : "سفير الموت" . وجاء في عنوان رئيسي آخر : "اخرج أيها الخنزير السوري" .

وكان آري بنمناشي أول من زعم أن الموساد سجّل "ضربة موفقة رائعة أبعدت سورية عن الحلبة السياسية الدولية" .

لكن هذه العاطفة الصريحة لا تستطيع التعمية على الأسئلة الآسرة . هل تلقّت آن ـ ماري ميرفي حقاً قنبلة حقيقية أم كان ما تلقته جزءاً من عملية احتيال متقنة؟ هل كان عامل التنظيفات - المفترض أنه "صديق" هنداوي - ضابط أمن؟ ما مقدار ما كان جهاز "أم .آي .5" يعرفه عن العملية قبل وقوعها؟ أوَليس مستنكراً أن يسمح الموساد وأجهزة الأمن البريطانية بنقل مادة "سيمتكس" على متن الطائرة عندما يكون هناك احتمال ولو ضئيل جداً بانفجار القنبلة في أثناء ذلك؟ ومن المؤكد أن مثل هذا الانفجار سيدمّر مساحة شاسعة من أكثر مطارات العالم ازدحاماً ، ويعرّض حياة آلاف الناس للخطر . هل تكمن البراعة الحقيقية للضربة الموفّقة في كون الموساد تسبّب بعزل سورية السياسي من دون تعريض شركة "العال" ومطار هيثرو للخطر ، وذلك باستخدام مادة آمنة تشبه "سمتكس"؟ لم يكن لدى رئيس الوزراء شمعون بيريز ما يقوله رداً على كل هذه الأسئلة سوى : "ما حدث يعرفه عادةً من يجب أن يعرفوا ، أما من لا يعرفون فيجب أن يبقوا على جهلهم" .

أُنزل هنداوي في سجن "ويتمور" البريطاني الشديد التحصين ، ومن هناك تابع يقول إنه ضحية عملية خداع كلاسيكية دبّرها الموساد . ويقول هنداوي الذي ابيضّ شعره وزاد وزنه أنه يتوقع أن يمضي باقي سنوات عمره في السجن . وعندما يذكر آن ـ ماري يصفها بأنها "تلك المرأة" . عام 1998 كانت تعيش في دبلن حيث تعتني بابنتها التي تشكر الله أنها لا تشبه عشيقها . وهي لا تتحدث عن هنداوي .

هناك هامش محيّر للقصة . بعد أسبوعين من الحكم على هنداوي بالسجن مدة ستبقيه فيه لعدة عقود ، وضع أرنو دوبورشغريف رئيس تحرير صحيفة "واشنطن تايمز" المعروف آلة تسجيل على مكتب رئيس وزراء فرنسا جاك شيراك في باريس . كان دوبورشغريف في أوروبا لحضور اجتماع وزراء خارجية دول المجموعة الأوروبية في لندن ، وقد أراد من مقابلته مع شيراك الاطلاع على الموقف الفرنسي . سارت المقابلة وفق ما كان متوقعاً ، فأوضح شيراك أن

فرنسا وألمانيا تتعرضان للاضطهاد لإظهار ولائهما للحكومة البريطانية التي تظهر تعنتاً متزايداً إزاء سياسات السوق المشتركة . وأثار دوبورشغريف مسألة علاقة فرنسا في مجال آخر . كان الصحافي يريد أن يعرف إلى أي مرحلة بلغت مفاوضات شيراك مع سورية لوقف موجة الانفجارات الإرهابية في باريس ، وكذلك جهود فرنسا لإطلاق ثمانية رهائن أجانب محتجزين في لبنان . وجم رئيس الوزراء قليلاً ونظر عبر مكتبه وبدا غافلاً عن وجود آلة التسجيل ، ثم قال أن المستشار الألماني هيلموت كول ووزير خارجيته هانس-ديتريتش غنشر أبلغاه أن لا علاقة للحكومة السورية بخطة هنداوي لتفجير طائرة "العال" ، وأن الخطة "من تدبير جهاز الاستخبارات الإسرائيلي الموساد" .

كاد الغضب الديبلوماسي الذي أثارته هذه التصريحات يقضي على مستقبل شيراك . فقد وجد نفسه عرضة لهجوم شنّه رئيسه فرنسوا ميتران بينما اضطر إلى اتّقاء اتصالات هاتفية غاضبة من هلموت كول تطالبه بالتراجع عن التصريح . وفعل شيراك ما يفعله السياسيون في أحيان كثيرة . قال أن تصريحاته لم تنقل بدقّة . وفي لندن قالت شرطة "سكوتلانديارد" أن القضاء قال كلمته النهائية بالقضية ، وليس من داعٍ لمزيد من التعليقات . وفي باريس قال مكتب جاك شيراك – الذي أصبح رئيساً لفرنسا عام 1997 – أنه لا يذكر أنه أعطى مقابلة لصحيفة "واشنطن تايمز" .

بعد ذلك بوقت قصير حدثت عملية خداع جديدة تركت لطخة سوداء أخرى على سمعة الموساد .

الفصل الخامس عشر

التضحية برسّام الكاريكاتور

بدأت نهاية ناحوم أدموني كمدير عام للموساد بعد ظهر يوم من أيام تموز (يوليو) 1986 نتيجة لحادث وقع على شارع من شوارع بون شُقّ أثناء فورة التعمير التي أعقبت الحرب العالمية الثانية في ألمانيا . بعد أربعين سنة أصبح هذا الشارع جادة متكاملة تقوم عليها حدائق أمامية جميلة على رغم صغرها ومرابع للخادمات في الخلف . كانت أنظمة الأمن مخفيه وراء بوابات من الحديد المجدول ، والنوافذ الدنيا معومدة لتثبيت الزجاج الملوّن .

لم يرَ أحدٌ مَنْ ترك كيس البلاستيك في كشك الهاتف القائم عند طرف الشارع . رأت الكيس سيارة دورية للشرطة ووقفت لتحقّق في الأمر . كانت في الكيس ثماني جوازات سفر بريطانية جديدة لا تحمل أسماء . كان رد الفعل الفوري للفرع المحلي لمكتب التحقيقات الجنائية الفيدرالي "بي . كا . آ ." هو أن جوازات السفر تعود إلى إحدى المجموعات الإرهابية التي جاءت بالإرهاب إلى شوارع أوروبا متسبّبة بسلسلة من عمليات التفجير والخطف الوحشية العنيفة .

كانت هذه المجموعات التي تمثل قضايا وأقليات من مختلف أنحاء العالم قد عقدت العزم على أن تنتزع لنفسها دوراً في وضع أسس السياسة الدولية . وقد وجدت سنداً لها في المناورات السياسية الطالبية الراديكالية التي اكتسحت بريطانيا وباقي أجزاء أوروبا . فمنذ 1968 عندما خطفت الفتاة الفلسطينية الثورية ليلى خالد طائرة ركاب إلى لندن وأُطلق سراحها على الفور لخشية الحكومة البريطانية من ازدياد الهجمات ، والطلبة الوطنيون يهتفون بشعارات منظمة التحرير الفلسطينية التحريضية . كان أولئك الشبان الراديكاليون الذين

ينتمون إلى الطبقة المتوسطة ينظرون نظرة رومنطيقية إلى منظمة التحرير الفلسطينية معتبرين أعضاءها "مقاتلين من أجل الحرية" استعاضوا عن تعاطي المخدرات بتعاطي قتل أبناء الطبقة البورجوازية ، وعن الاعتصامات باحتجاز الرهائن .

وافترض مكتب "بي . كا . آ ." إن من ترك جوازات السفر طالبٌ يقوم بمهمة ساعٍ لإحدى المجموعات النضالية المسلحة . وقائمة أسماء هذه المجموعات طويلة تضم إلى "الجيش الجمهوري الأيرلندي" جناح الجيش الأحمر الألماني وفصائل أجنبية كالجبهة الوطنية الإسلامية السودانية وجيش التحرير الوطني الكولومبي وحركة التحرير الأنغولية ونمور التاميل . كانت لهذه الفصائل وغيرها خلايا وكوادر في أنحاء الجمهورية الاتحادية . وربما كان واحداً منها يعتزم استخدام جوازات السفر هذه لمهاجمة إحدى القواعد العسكرية البريطانية في ألمانيا أو للسفر إلى بريطانيا لشن هجوم هناك .

ولئن كانت بريطانيا كبرى الدول الأوروبية الغربية الإمبريالية السابقة فهي لم تتعرض لأعمال الإرهاب المستمرة خلا على أيدي رجال "الجيش الجمهوري الأيرلندي" . لكن أجهزة استخباراتها حذّرتها من أن مجموعات أجنبية أخرى مُنحت الإذن بالعمل ضد بلدانها انطلاقاً من لندن ، لن تعتّم أن تجرّ بريطانيا إلى مكائدها . وكان أول الغيث عندما استولت جماعة معارضة للنظام الإيراني على السفارة الإيرانية في لندن عام 1980 . وعندما فشلت المفاوضات أرسلت حكومة ثاتشر رجال جهاز "أس . أي . أس ." فقتلوا محتجزي الرهائن . أدى هذا العمل الذي أُحسن استغلاله إعلامياً إلى التراجع المفاجئ في حجم المؤامرات الشرق أوسطية المحاكة في لندن . وأصبحت باريس ميدان الصراعات الدموية الداخلية بين المنظمات الأجنبية المختلفة خصوصاً منظمة التحرير الفلسطينية التي يتزعمها ياسر عرفات و"جماعة أبي نضال" المنشقة . وكانت للموساد حصته من قتل أعدائه العرب في شوارع العاصمة الفرنسية .

اعتقد مكتب "بي .كا .آ ." إن جوازات السفر التي عُثر عليها في كشك الهاتف في بون هي مقدمة لمزيد من أعمال القتل . فاتّصل بجهاز الاستخبارات الفيدرالي "بي .أن .دي ." الذي أخطرَ ضابط الاتصال في جهاز "أم .آي .6" البريطاني التابع للمقر الرئيسي لـ"بي .أن .دي ." في بولاخ في جنوب ألمانيا . وفي لندن تبيّن لجهاز "أم .آي .6" أن تزوير جوازات السفر كان عملاً دقيقاً فاستبعد "الجيش الجمهوري الأيرلندي" ومعظم المنظمات

الإرهابية الأخرى ، فهي لا تملك القدرة على إنتاج مثل هذه الوثائق العالية الجودة . وتحوّل الشك إلى جهاز "كي .جي .بي ." السوفياتي الذي يشتهر بمزوّريه المتفوّقين عالمياً . لكن المعروف أن لدى الروس أكواماً من جوازات السفر ، وليس من أساليبهم استخدام كشك هاتف كنقطة استلام . كما استبعد جهاز الأمن في جنوب أفريقيا "بوس" الذي أوقف أو كاد جميع عملياته في أوروبا ، وما كان ليحتاج إلى استخدام جوازات السفر البريطانية في البلدان الأفريقية البائسة حيث بات يركّز نشاطاته . ولجأ جهاز "أم . آي . 6" إلى جهاز الاستخبارات الوحيد الباقي الذي يمكنه استغلال جوازات السفر : الموساد .

استدعى الجهاز آري ريغيف الملحق في السفارة الإسرائيلية في لندن ، وهو أيضاً ضابط الاستخبارات المقيم ، للاجتماع بضابط كبير لمناقشة القضية . فقال ريغيف أن لا علم له بجوازات السفر ، لكنه قال إنه سيثير الموضوع مع تل أبيب . وبسرعة جاء رد ناحوم أدموني بأن لا علاقة للموساد بجوازات السفر . وقال أن ألمانيا الشرقية قد تكون الضالة المنشودة . اكتشف الموساد أخيراً أن جهاز الاستخبارات في ألمانيا الشرقية "ستاسي" لا يتورّع عن بيع جوازات السفر المزوّرة لليهود الراغبين في السفر إلى إسرائيل مقابل العملة الصعبة . كان أدموني يعلم أن مزوّري الموساد هم من صنَع جوازات السفر وأنها كانت برسم ضباط الموساد السريين في أوروبا لتمكينهم من سرعة الدخول والخروج من بريطانيا .

وعلى رغم "تفاهم" ، كان رافي إيتان قد أسهم في إنجازه مع جهاز "أم . آي . 5" ، تعهّد الموساد بموجبه بإطلاع جهاز الأمن الداخلي البريطاني على جميع عملياته داخل بريطانيا ، فقد كان الإسرائيليون يحضّرون سراً أحد عملائهم في إنكلترا لعملية تؤدي إلى تحقيق انتصارين للموساد ، الأول قتل قائد وحدة القوات الخاصة من القوة 17 ، والثاني تعطيل مسعى ياسر عرفات لإقامة علاقة مع حكومة ثاتشر .

لم تعد لندن تعتبر اسم عرفات مرادفاً للإرهاب . فقد بدأت السيدة ثاتشر تقتنع شيئاً فشيئاً بأن بإمكانها أن تحقق سلاماً عادلاً ودائماً في الشرق الأوسط يعترف للفلسطينيين بحقوقهم المشروعة ويضمن لإسرائيل أمنها . وكان الزعماء اليهود أكثر تشكّكاً ، وحجتهم أن الإرهاب هو ما أوصل منظمة التحرير الفلسطينية إلى الوضع الذي هي عليه الآن ، وإنها ستستمر في التهديد بمزيد من أعمال العنف ما لم تُجب إلى مطالبها . لم تهتم لندن باعتراضات تل أبيب ، فظلّ الموساد يعتبر بريطانيا بلداً ذا قابلية لدعم القضية الفلسطينية .

كذلك بدأ القلق ينتاب الموساد من نجاح منظمة التحرير الفلسطينية في بناء علاقة ودية مع وكالة الاستخبارات الأميركية "سي .آي .أي ." .

كان وزير الخارجية الأميركي السابق هنري كيسنجر هو من عيّن بالضبط ، في ما بعد ، تاريخ بدء الاتصالات بين الولايات المتحدة ومنظمة التحرير الفلسطينية . فقد كشف في مذكراته "سنوات الجيشان" عن أنه بعد ستة أسابيع من مقتل السفير الأميركي في السودان في الخرطوم على يد مسلحي "أيلول الأسود" عُقد اجتماع سرّي في 3 تشرين الثاني(نوفمبر) 1973 بين نائب مدير وكالة الاستخبارات الأميركية فرنون ولترز وياسر عرفات . وتوصّل الرجلان إلى عقد "اتفاق عدم اعتداء" بين الولايات المتحدة ومنظمة التحرير الفلسطينية . وكتب كيسنجر على أثر ذلك "إن الهجمات على الأميركيين توقّفت على الأقل من جانب عرفات في منظمة التحرير" .

استشاط إسحق هوفي غيظاً عندما علم بأمر الاتفاق قائلاً إنه لم يسبق أن عرف في تاريخ النفعية مثالاً أسوأ من هذا .

وعبر القناة الخاصة التي تربطه بوكالة "سي . آي . أي ." حاول هوفي أن يحمل ولترز على إلغاء الاتفاق . فقال نائب رئيس الوكالة الأميركية إن هذا غير ممكن ، وحذّر هوفي من أن واشنطن ستعتبر إذاعة أخبار الاتفاق "عملاً غير ودي" . كانت تلك طلقة تحذيرية من إرخاء الحبل لقسم الحرب السيكولوجية في الموساد لاستخدام خدمات الصحافيين الموالين .

وصل غضب هوفي إلى ذروته عندما عرف من هو الشخص الذي كلّفه عرفات متابعة الاتفاق مع الأميركيين : علي حسن سلامة : "الأمير الأحمر" ، أحد قادة منظمة "أيلول الأسود" .

عام 1973 كان سلامة شخصية تحظى بالاحترام داخل منظمة التحرير الفلسطينية ، ولم يتردّد عرفات في تعيينه كصلة وصل مع وكالة الاستخبارات الأميركية . ما أصاب الموساد بالصدمة هو قبول "سي .آي .أي ." بـ"الأمير الأحمر" بعد سنة على عملية ميونيخ ومقتل السفير الأميركي في الخرطوم .

وسرعان ما صار سلامة من زوّار "سي .آي .أي ." المتردّدين على مقرها في لانغلي . كان "الأمير الأحمر" يصل عادةً برفقة فرنون ولترز فيخطو معه عبر مدخل الوكالة الرخاميّ الأرضية ، ويتجاوزان الحرس ويصعدان المصعد إلى الطابق السابع حيث مكتب ولترز

الفسيح . وكان الرجلان يقطعان اجتماعهما لتناول طعام العشاء مع كبار ضباط "سي .آي .أي ." ، ويدفع ولترز دائماً ثمن وجبة "الأمير الأحمر" ، فلم يكن تناول الطعام مجانياً في لانغلي .

بقي ما دار بين سلامة و"سي .آي .أي ." سراً . ويقول بيل باكلي الذي قتله خاطفوه في بيروت في ما بعد عندما كان مديراً لفرع "سي .آي .أي ." هناك "أن سلامة لعب دوراً مهماً في كسب مودة الولايات المتحدة وعقلها لمصلحة منظمة التحرير الفلسطينية . كان ذا شخصية كاريزماتيكية ويجيد الإقناع ، وكان يعرف متى يجادل ومتى يصغي . وبلغة الاستخبارات كان مخبراً من النوع الممتاز" .

أحد الأمثلة الأولى كان تحذير سلامة لوكالة الاستخبارات الأميركية من مؤامرة لإسقاط طائرة كيسنجر عندما كانت ستطير إلى بيروت خلال جولة مكوكية كان الوزير الأميركي يقوم بها في إطار جهود السلام . بعدها ، قام سلامة بدور الوسيط لعقد صفقة تولّت في إطارها منظمة التحرير الفلسطينية نقل 263 من الرعايا الغربيين من غرب بيروت إلى برّ الأمان في ذروة الحرب الأهلية اللبنانية . وبعد ذلك بوقت قصير حذّر "الأمير الأحمر" الوكالة الأميركية من محاولة لاغتيال السفير الأميركي في لبنان . ثم في لقاء آخر مع وكالة "سي .آي .أي ." كتب "الأمير الأحمر" "تعهداً بعدم الاغتيال" يشمل جميع الديبلوماسيين الأميركيين في لبنان ووقّعه بنفسه . وبعدها انتشرت نكتة في بيروت تقول "هنيئاً لمن يسكن في المبنى الذي يقيم فيه ديبلوماسيون أميركيون ، لأن حماية الفلسطينيين ممتازة" .

طالب إسحق هوفي ، مدير الموساد يومئذ ، بأن تقطع "سي .آي .أي ." كل اتصالاتها بـ"الأمير الأحمر" . فأُهمل طلبه . وفي دوائر مقر "سي .آي .أي ." في لانغلي كانوا يتحدّثون عن سلامة على أنه "الشرير الذي يُحسن خدمتنا" . استمر في تقديم المعلومات السرية والعملانية التي جعلت "سي .آي .أي ." على اطلاع كامل على أحوال الشرق الأوسط فأصبح أهم ممتلكاتها في المنطقة . عندما قُتل ثار غضب الوكالة الأميركية وأصيبت علاقتها بالموساد بالبرودة لفترة طويلة .

أحد سفراء الولايات المتحدة إلى لبنان هيرمان إيلتس قال في ما بعد ، عقب اغتيال سلامة : "إنني أعرف أنه في مناسبات عديدة وبصورة خفية أظهر تعاوناً غير عادي وساعد في حماية المواطنين والمسؤولين الأميركيين . وأعتبر مقتله خسارة" .

الآن وبعد ست سنوات على اغتيال سلامة كانت منظمة التحرير تعاود بذل الجهود لإغواء حكومة مارغريت ثاتشر، في حين استمرت "القوة 17" بقيادة قائدها الجديد في قتل الإسرائيليين. وقرّر ناحوم أدموني أن ينجح بما أعجز أسلافه فيقطع علاقة منظمة التحرير الفلسطينية ببريطانيا، وفي الوقت نفسه يقتل قائد "القوة 17". وتبيّن لاحقاً أن نجاح العملية متوقّف على شاب فلسطيني كان في صغره يصلّي في جامع قريته ليمنحه الله القوة لقتل أكبر عدد ممكن من اليهود.

كانت إمكانية إسماعيل صوّان قد استرعت الانتباه قبل عشر سنوات. فعام 1977 عندما كان لا يزال مراهقاً يقيم في قريته في الضفة الغربية، استجوبه ضابط في استخبارات الجيش في إطار عملية روتينية لاستكمال المعلومات المتوافرة لدى الجيش عن المنطقة.

كانت عائلة صوّان قد استقرت في تلك القرية في الثلاثينات في الوقت الذي ألهبت الثورة على الانتداب البريطاني وعلى اليهود حماسة جميع العرب. وكان العنف منتشراً في كل مكان، وسفك الدماء يولّد مزيداً من سفك الدماء. انضم والد إسماعيل إلى الحزب العربي الفلسطيني لتنظيم أعمال الاحتجاج واستنهاض الشعور الوطني في الجوار. وجّه غضبه في البداية ضد البريطانيين، ولكن عندما انسحبوا من فلسطين عام 1948 أصبح العدو الرئيسي الدولة اليهودية الوليدة. وكانت أولى الكلمات التي تفوّه بها إسماعيل تلك التي تتغنّى بكره اليهود.

وخلال طفولته كانت الكلمة التي طالما تردّدت على مسمعه هي "الظلم". كان يلوّنها في المدرسة ويسمعها حول طاولة المائدة العائلية: الظلم الرهيب لشعبه وعائلته وله.

وبعد وقت قصير من عيد ميلاده الخامس عشر شهد إسماعيل هجوماً عنيفاً على باص امتلأ بحجاج يهود كانوا في طريقهم إلى القدس. كان بين القتلى نساء وأطفال. تلك الليلة سأل إسماعيل نفسه سؤالاً سيغيّر تفكيره إلى الأبد: ماذا لو كان يحق لليهود أن يدافعوا عما لديهم؟ ومن هذا السؤال انبثقت أمور أخرى: اغترابه المستمر عن العنف الذي آمن به زملاؤه، إيمانه بأن بالإمكان أن يعيش اليهود والعرب معاً، وانهم يجب أن يعيشوا معاً. وتكوّنت لديه قناعة بأن يفعل كل ما أمكنه لتحقيق هذا الغرض.

بعد سنتين، وكان لما يتمّ السابعة عشرة من عمره، جلس إسماعيل وأبلغ ضابط

استخبارات الجيش الإسرائيلي بما كان لا يزال يحسّ به . أصغى الضابط إليه باهتمام ثم راح يستجوبه استجواباً دقيقاً . سأله كيف أدار ظهره لكل معتقدات شعبه والتي كانت ناقوس خطر لا يصدر إلا نغمة واحدة : العرب مظلومون وعليهم أن يقاتلوا حتى الموت دفاعاً عما يعتبرونه حقّهم . كانت أسئلة الضابط كثيرة وأجوبة إسماعيل طويلة .

ولاحظ الضابط أن صوّان يخالف غيره من الشبان العرب الذين يعيشون في ظل الاحتلال الإسرائيلي فلا يعترض على إجراءات الأمن المشدّدة التي يفرضها الجيش . وعلى غير العادة ، بدا الشاب الضئيل البنية ذو الابتسامة الجذابة متفهّماً أغراض الإسرائيليين . وكل ما كان يقلقه حقاً كان أن أعمال القمع التي يقوم بها الجيش تمنعه من الذهاب إلى المدرسة في القدس الشرقية ودراسة موضوعه المفضّل : العلوم .

مرّ ملفّ صوّان عبر أجهزة استخبارات الجيش ، وإذ جرى التأشير بأنه يستحق متابعة التحقيق معه ، أحيل الملف أخيراً إلى مكتب ضابط الموساد الذي أرسله إلى قسم التجنيد .

دُعيَ إسماعيل صوّان إلى السفر إلى تل أبيب بحجة بحث خطط تعليمه ، بعدما تقدّم بطلب للذهاب إلى القدس للدرس . وجرى استجواب إسماعيل طوال فترة بعد الظهر ، فاختبر مستجوبُه معرفته بالعلوم وتلقّى أجوبة مرضية . ثم جرى بحث تفصيلي في تاريخ عائلة صوّان ، وقورنت أجوبة إسماعيل بما كان قد أبلغه إلى ضابط استخبارات الجيش . وأخيراً أُطلع إسماعيل على العرض وبموجبه يقوم الموساد بدفع نفقات تعليمه بشرط أن ينجح في برنامج التدريب . ويجب أن يفهم أنه إذا باح بكلمة واحدة عن الأمر لأي كان أصبحت حياته في خطر .

كان هذا إنذاراً نموذجياً يوجّه لكل العرب الذين يجنّدهم الموساد . أما إسماعيل صوّان المثالي فبدت له فرصة كان ينتظرها وهي التقريب بين اليهود والعرب .

خاض صوّان جميع عمليات المقابلة في بيوت سرية قبل أن يرسلوه إلى مدرسة تدريب تقوم في ضواحي تل أبيب . وأظهر تفوّقاً في عدد من الموضوعات وميلاً طبيعياً للمهارات الحاسوبية والتخلّص من المتعقبين . ولم يُفاجَأ من هم حوله بارتفاع معدّل علاماته في موضوعات تتعلّق بالإسلام . أما الورقة التي أعدّها عن دور منظمة التحرير الفلسطينية في صراع الشرق الأوسط فكانت من الأهمية بمكان أنها عُرِضَت على رئيس الموساد يومئذ إسحق هوفي .

عند إنجاز فترة التدريب أصبح صوّان ساعياً بين المقر الرئيسي وسفارات إسرائيل التي يعمل فيها ضباط الموساد تحت غطاء ديبلوماسي . وبدأ يقوم بزيارات مكوكية في منطقة المتوسط ، فيزور أثينا ومدريد وروما بانتظام حاملاً وثائق في حقائب ديبلوماسية . وبين الحين والآخر كان يسافر إلى بون وباريس ولندن .

ولّدت هذه الفرصة للسفر حول العالم وتقاضي الأجر عن ذلك - كان أجره خمسمائة دولار شهرياً - شعوراً مثيراً في نفس الشاب الذي لم يتجاوز العشرين من عمره .

ما لم ينتبه إليه صوّان هو أن الوثائق التي عُهد بها إليه كانت لا قيمة لها . كان ذلك جزءاً من اختبار جديد ، الغاية منه مراقبة ما إذا كان سيحاول إطلاع أي مصدر اتصال عربي في اي من المدن التي يزورها . وخلال كل رحلة كان صوّان موضع مراقبة شديدة من ضباط موساد يهود تأهّلوا حديثاً وكانوا يمارسون مهاراتهم في المراقبة . ولم يكن الشخص الذي يسلّمه إسماعيل الوثائق في مكان لقاء متفق عليه ، في مقهى أو بهو فندق ، ديبلوماسياً إسرائيلياً كما كان يتوهّم ، بل ضابط موساد .

بعد أسابيع من تمضية إجازته في الخارج وهو يتمشى في جوار "البانتيون" في روما ويزور كنيسة "سيستين" ويتعرّف إلى شارع أكسفورد في لندن ، تلقى إسماعيل أمراً بالذهاب إلى بيروت والانضمام إلى منظمة التحرير الفلسطينية .

كان الانضمام سهلاً ، فقد دخل إلى مكتب تجنيد تابع لمنظمة التحرير الفلسطينية في غرب بيروت ، واستقبله مسؤول تجنيد ذكي وواسع الاطلاع في شؤون السياسة . أمضى المسؤول بعض الوقت في التعرّف على موقف إسماعيل من الكفاح المسلّح ومعرفة ما إذا كان صوّان مستعداً للتخلي عن جميع روابطه السابقة ، بما فيها العائلة والأصدقاء ، والاستعاضة عنهم بمنظمة التحرير . وقيل له أنه إذا قُبل طلبُه فستشهد حياته انقلاباً عظيماً ، إذ ستكون المنظمة الدرع الواقي الوحيد في مواجهة عالم قاسٍ . وفي المقابل سوف تطلب منه منظمة التحرير الفلسطينية أن يمنحها ولاءه التام .

كان رئيس إسماعيل في الموساد قد أعدّه لإعطاء الإجابات الصحيحة ، وإذ اجتاز الامتحان أرسلوه إلى معسكر تدريب في ليبيا ، حيث استمرت عملية التثقيف العقائدي . هناك علّموه بطرق مختلفة متعدّدة أن إسرائيل تعمل على تدمير منظمة التحرير الفلسطينية ، وأن عليهم هم العمل على تدميرها . وحاضر مدرّبوه بضرورة اعتماد العدوانية الصارخة تجاه

كل ما ومن هو خارج منظمة التحرير الفلسطينية . وتذكّر إسماعيل الدروس التي تلقّاها في مدرسة التدريب التابعة للموساد عن تمثيل الأدوار . هناك كان صوّان قد أمضى ساعات عدة وهو يتشرّب من مدرّبيه الإسرائيليين فَهْمَ القوى المحركة للجماعات الإرهابية وما يمكن أن يصدر عنها من سلوك وفنون . وفي ليبيا استمع إلى خطباء يقولون إن القتل ليس سوى وسيلة للتحرير ، وإن السيارة المفخّخة تمثّل خطوة جديدة نحو الحرية ، وإن الخطف سبيل لإقامة العدل . واستمرّ إسماعيل في إظهار المهارات التي تعلّمها على الموساد . وقد قبل كل ما تلقّاه من تدريب على أيدي منظمة التحرير الفلسطينية لكن إيمانه الأساسي لم يتأثّر . كما أظهر مثابرة وحنكة وصلابة جسدية جعلتهم يميّزونه عن الجنود العاديين . عندما غادر معسكر التدريب كانوا قد عيّنوا له مكاناً في الدوائر العليا لعمليات منظمة التحرير الفلسطينية . وخطوة بعد خطوة ارتقى في معارج القيادة .

التقى بقادة المنظمة بما فيهم ياسر عرفات ، وسافر إلى معسكرات تدريب منظمة التحرير في مختلف أرجاء الشرق الأوسط . وعندما عاد إلى بيروت تعلّم العيش في ظل الغارات الجوية الإسرائيلية متجنباً الاختباء تحت الأرض خوفاً من قصف المبنى وانهياره عليه . ولكنه لم يعدم وسيلة للحضور إلى مواعيد الاجتماع برئيسه في الموساد الذي كان يتسلّل بانتظام إلى لبنان لتسلّم ما يتجمّع لدى صوّان من أخبار .

وقد كتم هويته دائماً . عندما قُتل علي حسن سلامة قاد إسماعيل صوّان جوقة المندّدين بإسرائيل . وكلما قتل قنّاص فلسطيني جندياً إسرائيلياً كان بين المبتهجين الصاخبين . كان في كل ما يقوله ويفعله مثال المناضل الملتزم .

عام 1984 بعد إخراج عرفات من لبنان وإعادة منظمة التحرير الفلسطينية تنظيم قواتها في تونس ، أُرسل صوّان إلى باريس لتعلّم الفرنسية . كان ناحوم أدموني قد حلّ مكان هوفي ، وقد رأى في انتقال صوّان الفرصة الذهبية لأن يكون لإسرائيل عميل قريب من نشاطات منظمة التحرير الفلسطينية المتبرعمة في أوروبا .

تحوّلت أماكن انتشار الجاليات العربية في الدائرتين الثامنة عشرة والعشرين في باريس إلى ملاذ للمنظمات المسلّحة . كانت الشوارع الضيقة حيث يعيش الناس على حافة القانون تقدّم المأوى بسرعة للمسلحين وخبراء المتفجّرات . من هذين الحيين انطلقت الهجمات على المطاعم والمحال والمعابد اليهودية . ومن باريس صدر البيان المشترك الأول عن مختلف

المنظمات السريّة المسلّحة معلناً التزام تقديم الدعم لمهاجمة الأهداف الإسرائيلية في أنحاء أوروبا .

واجه الموساد هذا العداء بقسوة اشتُهر بها . فأُرسلت فرق الاغتيال إلى الجيوب العربية وقتلت المشتبه بهم في أسرّتهم . ذُبح أحدهم من الوريد إلى الوريد وكسر عنق آخر ، لكن هذه الانتصارات كانت ضئيلة ، وكان الموساد يعرف أن للمناضلين الغلبة لأسباب أهمها أن منظمة التحرير الفلسطينية تُحسن توجيههم . كانت فكرة أن يكون لأدموني عميل داخل المقرّ العملاني لمنظمة التحرير في باريس أمراً مثيراً للغاية .

وفي غضون أيام تلت وصوله إلى العاصمة الفرنسية أجرى صوّان اتصالاً بمسؤوله في الموساد الذي يعمل من السفارة الإسرائيلية في "3 شارع رابليه" . لم يكن يعرف سوى أن اسمه آدم . واتفقا على أماكن لقاء في المقاهي ومحطات المترو . واتُّفق أن يحمل صوّان صحيفة من صحف ذلك اليوم وقد وضع بداخلها ما لديه من معلومات . ويحمل آدم نسخة مماثلة عن الصحيفة وقد خبأ بداخلها التعليمات الموجّهة لصوّان وراتبه الشهري الذي رُفِعَ إلى ألف دولار . وكانا يستخدمان حيلة أتقناها أثناء التدريب لدى الموساد وفيها يصطدم الواحد بالآخر ، ووسط سيل الاعتذارات يجري تبادل الصحيفتين ويمضي كلٌّ في سبيله .

بهذه الطريقة البسيطة حاولت الموساد أن تستعيد زمام المبادرة في مدينة لطالما استذوقت شهرتها في تقديم المأوى إلى المتطرّفين السياسيين شرطَ أن يحيّدوا فرنسا . وحده الموساد اختار خرق هذا التفاهم بتنظيم عملية أهانت كبرياء فرنسا إلى حد أنها لا تزال ترفض أن تغفر أو تنسى حتى بعد مرور عشرين سنة على الحادث . بدأت القصة على بعد ثلاثة آلاف ميل عند لقاء المتوسط بقناة السويس تلك التي صمّمها الفرنسي فرديناند دو لسبس .

اكتشفت إسرائيل قابليتها للأذى في الحرب الحديثة خلال دقائق قليلة رهيبة من بعد ظهر يوم 21 تشرين الأول (أكتوبر) 1967 . فقد أصيبت إحدى سفنها الكبرى ، وهي مدمّرة بريطانية من أيام الحرب العالمية الثانية أعيدت تسميتها "إيلات" ، بينما كانت تقوم بأعمال الدورية قرب الساحل المصري . أصيبت المدمّرة بثلاثة صواريخ "ستيكس" الروسية الصنع أطلقت من ميناء بور سعيد فقتل 47 بحاراً إسرائيلياً وجُرح 41 آخرين من طاقم يبلغ عدد ضباطه وأنفاره 197 . غرقت "إيلات" في أكبر كارثة بحرية لحقت بإسرائيل ، وكانت تلك المرة الأولى في تاريخ الحرب البحرية تُدمّر فيها سفينة بهجوم صاروخي طويل المدى .

عندما تجاوزت إسرائيل آثار الكارثة المباشرة ، أمرت حكومة ليفي أشكول باستخدام كل الوسائل المتاحة لتنفيذ برنامج لتزويد البحرية بنوع جديد من السفن يحلّ محل "إيلات" القديمة . وخلال أسابيع أنجز المصمّمون سفينة حربية سريعة وذات قدرة عالية على المناورة ومجهّزة بأجهزة إلكترونية مضادة تتيح لها خلال ثوان ثمينة فرصة تجنّب أي هجوم صاروخي يقع عليها . وتقدمت إسرائيل بطلب لصنع سبع سفنٍ من هذا النوع من حوض "شانتير دو كونستروكسيون ميكانيك دو نورمندي" (سي .سي .أم .) في شربورغ في فرنسا . وفيما كانت السفن تُبنى كان العملاء في ديمونا يصنعون الصواريخ التي ستحملها وكذلك المعدات المتطورة التي ستزوّد بها حال وصولها .

وسارت الأمور بهدوء في شربورغ حتى أمر الرئيس ديغول بفرض حظر شامل على بيع الأسلحة لإسرائيل بعد غارة الكوماندوس على مطار بيروت في 26 كانون الأول (ديسمبر) 1968 والتي دمّرت إسرائيل فيها ثلاث عشرة طائرة مدنية لبنانية رابضة ، بحجة الانتقام لهجوم فلسطيني على طائرة "بوينغ 707" تابعة لشركة "العال" في مطار أثينا قبل يومين . وشمل الحظر السفن الحربية التي تقرّر ألاّ تسلّم إلى إسرائيل .

أدى رد الفعل الفرنسي إلى إنهاء تحالف مع إسرائيل استمر عقداً من السنوات . كان التحالف قد نشأ خلال الثورة الجزائرية التي أدّت أخيراً إلى حصول المستعمرة العربية السابقة على استقلالها من فرنسا عام 1962 . وكان من أسباب التحالف وجود عداء مشترك لدى الجانبين تجاه الرئيس المصري جمال عبد الناصر . أمدّ الموساد خلال تلك الفترة فرنسا بالمعلومات السرية عن جبهة التحرير الوطني الجزائرية المناهضة لفرنسا ، وباعت فرنسا إسرائيل الأسلحة وطائرات "ميراج" المقاتلة .

بعد استقلال الجزائر ، أسرع ديغول إلى إعادة علاقات فرنسا التقليدية مع الدول العربية الأخرى ، وسمح لمنظمة التحرير الفلسطينية بفتح مكتب لها في باريس . وقد اعتبر ديغول أن الغارة على مطار بيروت تمثّل تجاهلاً علنياً صارخاً لمطلبه عدم شن إسرائيل ما أسماه الرئيس "هجمات انتقامية" على جيرانها العرب .

وكان الحظر الفرنسي على السلاح يعني عملياً أن إسرائيل لن تحصل بعده على ما يكفي من قطع غيار لطائرات "ميراج" للهيمنة على فضاء الشرق الأوسط ، ولن تتمكن من الدفاع عن نفسها كما يجب في حال تعرّضها لهجوم بحري . وعلى عكس ما تمّنت ، جاء

الحظر في حين كانت إسرائيل تتشبّث بما عاد عليها به نصرها الساحق في حرب حزيران (يونيو) 1967 . فقد استولت على الضفة الغربية والقدس الشرقية وقطاع غزة ، وصار تحت حكمها مليون عربي غالبيتهم العظمى تكنّ لها العداء .

يقول مئير عميت أن المشكلة التي واجهتها إسرائيل "كانت بالغة الخطورة . اصبح داخل حدودنا آلاف الإرهابيين الذين يساندهم السكان العرب عموماً ، على الأقل بتسهيل هربهم وتوفير المخابئ لهم . وكان أول عمل قمت به هو زيادة تركيز الموساد على المنظمات الفلسطينية واختراقها جميعاً" .

طلبت رئيسة الوزراء الجديدة غولدا مئير من مئير عميت أن يضع خطة لإخراج السفن الحربية التي أنهى الفرنسيون صنعها من فرنسا . ويتذكّر عميت تلك الفترة فيقول : "كان الاقتراح الأول أن نبحر إلى شربورغ مع عدد كاف من البحارة المسلّحين ونستولي على السفن ونعود إلى إسرائيل . وزير الدفاع الإسرائيلي يومئذ موشي دايان عارض ذلك بشدة ، مشيراً بحق إلى أنه "سيكون لرد الفعل الدولي عواقب هائلة وستتمغ إسرائيل بتمغة اللصوصية . فإذا كنا نريد أن نفعل شيئاً فليكن قانونياً . ينبغي أن ندّعي لأنفسنا حقاً لا لُبْس فيه بالإبحار إلى خارج المياه الإقليمية الفرنسية ، ومتى صرنا في أعالي البحار ، اختلف الأمر" .

وتختلف الآراء بصدد قانونية ما حدث في ما بعد . فعلى رغم إلحاح موشي دايان على احترام منطوق القانون فإن ما جرى تدارسه كان تحايلاً صريحاً وأكيداً .

في تشرين الثاني (نوفمبر) 1969 وضع مئير عميت المرحلة الأولى من عملية "سفينة نوح" قيد التنفيذ . طلبت كبرى شركات الشحن الإسرائيلية "ماريتايم فروت" ، التي تشحن منتجاتها من الفاكهة إلى جميع أنحاء العالم من مكتب محاماة مقرّه لندن ، تسجيل شركة جديدة باسم "ستاربوت" (زوارق النجمة ، نسبة إلى نجمة داود) . كان كبير حملة الأسهم ميلا برينر مدير "ماريتايم فروت" ، أما حملة الأسهم الآخرون فكانوا وكلاء عن مئير عميت نفسه . وسارت المرحلة الثانية من الخطة بالسهولة نفسها . كان الاميرلاي موردخاي ليمون هو ضابط الارتباط بين البحرية الإسرائيلية وحوض بناء السفن في شربورغ في صفقة بناء السفن الحربية لإسرائيل . وكان قد صرف أشهراً في بحث سبل التعويض المترتّب لإسرائيل بسبب إخلال الشركة الفرنسية بشروط العقد . وفي كل مرة يقترب الفرنسيون من الاتفاق على التعويض كان ليمون يثير نقطة جديدة لإثارة الجدل . وفي 10 تشرين الثاني (نوفمبر)

أبلغ ليمون الشركة الفرنسية بأن إسرائيل باتت مستعدة لمناقشة القضية . اتصل ميلا برينر من تل أبيب بأحد أشهر الشخصيات في عالم الشحن وهو أولي مارتين سيام المقيم في أوسلو ، وأقنعه بالانضمام إلى مجلس إدارة شركة "ستاربوت" لإنجاز عملية شراء السفن الحربية .

وبخفة يد لاعب ورق محترف قام ليمون بخطوته ، فاجتمع في 11 تشرين الثاني (نوفمبر) بالمسؤولين عن حوض بناء السفن ، وأصغى إلى عرض التعويض المحسّن وقال إنه لا يزال غير راض . فدُهش المسؤولون الذين اعتبروا العرض سخيّاً . وفيما كانوا يتدارسون الخطوة التالية سافر ليمون بسرعة إلى باريس حيث كان أولي سيام ينتظره . وبعد لقائهما اتصل ليمون هاتفياً بمسؤولي حوض السفن ليقول أنه سيعاود الاتصال "في غضون أيام قليلة" . وبعد قليل كان سيام يجلس في مكتب الجنرال لويس بونتي مسؤول مبيعات الأسلحة في الحكومة الفرنسية ، ويقول إنه بلغه أن هناك "بعض السفن الحربية المعروضة للبيع ويمكن تحويلها للتنقيب عن النفط" .

وفي توقيت مدروس بدقة اتّصل ليمون في تلك اللحظة ببونتي ليقول إنه في باريس وإنه مستعد لقبول عرض أخير للتعويض . واقترح ليمون رقماً هو نفسه ما كان مسؤولو حوض السفن في شربورغ قد عرضوه . فأبلغه بونتي أنه في "خضم مفاوضات" وأنه سيعاود الاتصال به متى انتهى ، ثم عاد إلى سيام ليكشف له العرض الذي وافق عليه ليمون ، لكنه قال أن المبلغ كبير جداً ولن توافق الحكومة على دفعه . وعلى الفور زاد سيام مبلغ خمسة في المائة على عرض ليمون ، فاتصل بونتي بليمون وأبلغه الموافقة على عرضه . ظنّ بونتي أنه عقد صفقة موفّقة بتخليص فرنسا من مشكلة شائكة . أما إسرائيل فستحصل على التعويض ، وأما فرنسا فستحقق ربحاً بمقدار خمسة في المائة .

لكن بونتي سأل أولي سيام سؤالين : هل الزوارق للنرويج ، وهل يضمن سيام أنها لن تصدر إلى طرف ثالث بعد انجاز عملها في التنقيب عن النفط؟ وقدّم سيام تعهداً قاطعاً في إجابته ، ووافق بونتي على طلب إخراج الزوارق من شربورغ بصورة سريّة وذلك لتجنب تساؤلات الصحافة عن موقع حقول النفط ، وهذا شأن تجاري دقيق في صناعة تشتهر بسريّة نشاطاتها . وحدّدت عشية يوم الميلاد لعام 1969 موعداً لرحيل الزوارق مع بدء عطلة الميلاد ورأس السنة في شربورغ .

كانت مدة شهر تفصل الاتفاق عن تنفيذه، وكان مئير عميت يخشى أن تفسد الخطة خلال هذا الوقت الطويل. فيحتاج الأمر إلى انتداب 120 بحاراً إسرائيلياً كطواقم للزوارق في الرحلة من شربورغ إلى حيفا البالغة ثلاثة آلاف ميل. ومن المؤكد أن يسترعي انتباه الاستخبارات الفرنسية وصول مثل هذا العدد الكبير من الرجال. ومرة أخرى وجد مئير عميت الحل، إذ قرّر أن يكون سفر البحارة على دفعات، كل منها مؤلفة من بحارين يسافران معاً إلى مدينة أوروبية مختلفة قبل متابعة الرحلة إلى شربورغ. وكانت التعليمات تقضي بألاّ يقيم البحارة لأكثر من ليلة واحدة في أي من فنادق الميناء. وقد استخدم البحارة جميعاً جوازات سفر إسرائيلية حتى إذا انكشف أمر مهمتهم لم توجّه لهم تهمة حيازة وثائق سفر مزوّرة. ومع ذلك كان مئير عميت يعرف أن المخاطر لا تزال كبيرة "فلا يحتاج الأمر إلى أكثر من شرطي فرنسي واحد تساوره الشكوك بشأن كثرة عدد اليهود الذين وصلوا إلى شربورغ في عطلة الميلاد فتُحبط الخطة كلها".

في 23 كانون الأول (ديسمبر) اكتمل عدد البحارة الواصلين إلى شربورغ. وانتشروا في أنحاء المدينة يستمعون إلى أغاني الميلاد التي لا تتوقف، وشارك بعضهم ممن ولد في القدس وعاش فيها في الغناء.

في تل أبيب راقب مئير عميت الموقف وأبدى ارتياحه لدى حل كل مشكلة طارئة. إحدى هذه المشاكل تأمين التموين الكافي طوال الأيام الثمانية التي تستغرقها الرحلة، وقد تولّى هذا الأمر مسؤول التموين في العملية الذي زار كل متاجر المدينة. ولكن كلما عرض أصحاب المتاجر عليه "الجانبون" الخاص بالميلاد، والمصنوع من لحم الخنزير، كان يعتذر بتهذيب. وقد اشترى ربع مليون ليتر من الوقود جرى نقلها خلسةً إلى السفن. أما ما استحال التحسّب له فكان الطقس. ستبحر السفن عبر خليج بيسكاي في طقس شتوي قد يؤدي إلى غرقها. ويتذكّر مئير عميت ذلك في تل أبيب فيقول "كنا نتطلع بشوق إلى طقس ملائم. أرسلنا عالماً بالأرصاد الجوية إلى شربورغ فرَصَدَ كل نشرة عن الطقس صدرت في إنكلترا وفرنسا وفي شربورغ وإسبانيا".

وأخيراً حلّت ليلة عيد الميلاد بعد انتظار مملّ. كانت تنبؤات الطقس تتوقّع انهمار الأمطار من الجنوب الغربي. وعلى رغم ذلك صدرت الأوامر بالإبحار في الساعة 8:30 من تلك الليلة. وعند الساعة 7:30 صعد جميع البحارة إلى متن السفن، لكن أحوال الطقس

ازدادت سوءاً ، فتأجّل الإقلاع إلى 10:30 ليلاً . ومرة أخرى أوقفت أحوال الطقس الالتزام ، فجاءت من تل أبيب إشارات مرمّزة عاجلة : أبحروا مهما تكن أحوال الطقس .

تجاهل ضابط البحرية الإسرائيلي الرفيع في شربورغ الضغط الذي يتعرّض له ، فعنده أن حياة رجاله أهمّ . وجلس صامتاً في سفينة القيادة وهو يراقب العالم بالأرصدة الجوية بينما كان يدرس باهتمام خرائط الطقس . وعند منتصف الليل أعلن خبير الأحوال الجوية "أن الرياح ستنخفض وتميل شمالاً خلال ساعتين . ولن تكون قوية وستكون وراءنا . فيمكننا أن نقلع" .

وعند تمام الساعة 2:30 صباح يوم الميلاد شُغّلت محركات السفن وانطلقت ببطء نحو البحر . وبعد سبعة أيام ، في يوم رأس السنة الجديدة دخلت ميناء حيفا .

كان مئير عميت يقف وسط الحشد المنتظر على رصيف الميناء . كان سعيداً بهذه البداية للسنة الجديدة ، لكنه كان يعلم أن الرئيس شارل ديغول لن يسامح إسرائيل على ما اقترفت يداها .

وهكذا صار . عندما جاء الموساد لملاحقة أعداء إسرائيل المسلحين العرب في باريس ومدن فرنسا الأخرى ، كانت أجهزة الأمن الفرنسية تخضع ضباطه للمراقبة الشديدة التي تخصّها الإرهابيين . والأخطر من ذلك أن بعض ضباط الأمن الداخلي "سديس" كانوا أحياناً كثيرة ينبّهون رجال منظمة التحرير الفلسطينية إلى أن الموساد توشك أن تشنّ هجوماً مضاداً . وكثيراً ما أنقذ ذلك المناضلين المستهدفين .

كان أشهر هؤلاء المناضلين إيليتش راميريز سانشيز الذي أكسبته نشاطاته لقب "كارلوس إبن آوى" . وكان مضرب المثل في باريس في خدمة إحدى المنظمات الفلسطينية . وقد جعلته نشاطاته محط إعجاب الصحافة السريّة الماركسية التي ازدهرت في أوروبا . وأثارت إعجاب النساء عاداته الخليعة خصوصاً عندما كان يدخل ويخرج سالماً من أفخاخ الموساد المنصوبة لقتله . فيوماً يكون على شاطئ الريفييرا يتشمّس برفقة إحدى الفتيات ، ثم لا يلبث أن يظهر في لندن مع مجموعة من المناضلين العرب يعينهم على وضع خطط معادية لمجموعات أخرى ، ولإسرائيل بالطبع . كانوا يمارسون نشاطهم بعيداً عن تدخّل الشرطة وأجهزة الاستخبارات البريطانية بناء على تفاهم يقضي بألاّ يتعرضوا بالأذى لأي مواطن بريطاني . وعندما يصبح الموساد على استعداد لقتل كارلوس كان يعود إلى أوروبا أو يسافر إلى إحدى الدول العربية .

كانت إحدى المهام التي أسندت إلى إسماعيل صوّان خلال إقامته في باريس تعقّب حركة كارلوس وقتاً يكفي ليتولّى الموساد قتله . كانت مساهمته العامة لحرب الموساد في فرنسا كبيرة وساعدت ضباط الموساد وفرق الاغتيال على تحقيق نجاحات بارزة . من ذلك إحراق وتفجير مصنع للتزوير تنتج فيه منظمة التحرير الفلسطينية وثائق مزوّرة ، وتدمير مخازن أسلحة واعتراض سعاة يعملون لخدمة منظمة التحرير واغتيالهم ، وتفجير متفجرات مهرّبة من أوروبا الشرقية . وفي طرق شتى ، واجهت الموساد النار بالنار بالاعتماد على ما قدمه صوّان من معلومات سريّة .

في كانون الثاني (يناير) 1984 أخطرَ آدم عميله صوّان إنه سيرسل إلى إنكلترا حيث سيقدّم نفسه كطالب ناضج يدرس للحصول على درجة جامعية في العلوم . كانت مهمته الجديدة اختراق منظمة التحرير الفلسطينية في لندن واكتشاف ما أمكن عن وحدتها الناشطة "القوة 17" التي كان يرأسها عبد الرشيد مصطفى ويستخدم بريطانيا قاعدة له . كان مصطفى على قائمة الاغتيال لدى الموساد .

ابلغ إسماعيل صوّان مدير مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في باريس إنه قد أنهى دراساته الفرنسية ، وإنه يرغب في السفر إلى إنكلترا لمتابعة سعيه للحصول على درجة جامعية في الهندسة . كان متطوّع للموساد فرنسي قد زوّر له دبلوماً لتأييد زعمه إنه أنهى دراساته إذا طلب منه الدليل ، لكن أحداً لم يطلب ذلك . واشار إسماعيل في حديثه مع مدير مكتب منظمة التحرير إلى أن حصوله على درجة علمية من إنكلترا سيجعله "ذا فائدة أكبر في مجال صنع المتفجرّات" .

كانت فكرة زيادة عدد أعضاء فريق صانعي المتفجرّات في منظمة التحرير الفلسطينية محلّ ترحيب دائم خصوصاً عام 1984 . كانت قيادة المنظمة بحاجة إلى أن تُظهر لفلسطينيي الضفة الغربية وقطاع غزة أنهم في البال . فعشرات ألوف الفلسطينيين يعانون من مصاعب متزايدة في ظل الاحتلال الإسرائيلي وهم غير راضين عن قعود ياسر عرفات عن مساعدتهم بطريقة عملية ، فالكلام شيء والفعل شيء آخر .

عرف الموساد أن عرفات يتعرّض لضغط متزايد لدعم مبادرات السلام التي بدأ الرئيس المصري حسني مبارك يتّخذها نحو إسرائيل . أما في سورية فقد قرّرت الحكومة بصورة مفاجئة أن تهدئ علاقتها مع مختلف الفصائل الفلسطينية وسجنت مئات المقاتلين . كان الرئيس الأسد يريد أن يُفهم الأميركيين أنه راغب في السلام .

وأدى هذا إلى تعاظم في الإحساس في الصفوف الدنيا في منظمة التحرير الفلسطينية في المخيمات أن العالم العربي سيتخلّى عنهم وأنهم سيُنقلون من مكان إلى آخر ولن يكون لهم من يحميهم . وتردّد كلام مشاكس عن خيانة قيادتهم لهم . وظل الإسرائيليون يستغلون هذا ويذيعون في أرجاء الأراضي المحتلة أن قيمة ممتلكات منظمة التحرير الفلسطينية تبلغ خمسة بلايين دولار ، تستثمرها في مختلف أنحاء العالم . كما جُعل عرفات ضحية حملة تشهير أخرى نظّمها خبراء الموساد في الحرب السيكولوجية التي ادّعت إنه استخدم بعض تلك الأموال ليشبع شهوته إلى الغلمان . بُثت هذه الإشاعة في مخيمات اللاجئين ، وعلى رغم عدم تصديقها على نطاق واسع فقد كان لها بعض الأثر . وفي خطوة ذكية ، أمر عرفات مكاتب منظمة التحرير السبعة عشر بتسريب قصة عن أن شهيته للنساء كبيرة – وهو أمر صحيح .

راقت لمدير مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في باريس فكرة استخدام صوّان لدرجته العلمية المؤمّلة في صنع المتفجرّات ، وكانت وراء قراره تقديم ثمن تذكرة سفر إسماعيل بالقطار إلى إنكلترا ، وكذلك نفقات الإقامة هناك لمدة أسبوع . كذلك أعطى آدم صوّان خمسمائة جنيه وقال له أن عليه أن يحصل على عمل حتى يتمكّن من دفع نفقات دراسته في بريطانيا حتى لا يثير الشبهات .

وصل إسماعيل إلى لندن في يوم عاصف من أيام شباط (فبراير) 1984 وهو يحمل جواز سفر أردنياً زوّده به الموساد . كان ينقل جواز سفر كندياً خبأه في قعر خفي في حقيبة ملابسه . وقيل له ألاّ يستخدمه إلاّ إذا اضطر للرحيل عن بريطانيا على وجه السرعة . وقد خبّأ إلى جانب جواز السفر المعلومات التي زوّده بها الموساد عن عبد الرشيد مصطفى و"القوة 17" التي بأمرته .

كانت "القوة 17" قد أنشئت لتكون قوة الأمن الشخصي لياسر عرفات . وقد أشتقّ اسمها من رقم مقسّم هاتف عرفات في مقرّ منظمة التحرير الفلسطينية القديم في بيروت . في إحدى مراحل حياتها أصبحت "القوة 17" جيشاً من الرُّعاع يزيد عدد أفراده على الألف مقاتل ، ومن وحداتها منظمة "أيلول الأسود" الشهيرة . وقبيل اضطرار منظمة التحرير الفلسطينية إلى الرحيل عن لبنان والإقامة في تونس قُتل القائد الأول للوحدة وهو علي حسن سلامة ، في انفجار سيارة مفخّخة أعدّها رافي إيتان . وفي تونس واجه عرفات حقائق

صعبة . فلم يكن الموساد وحده يتعقّبه ليقتله بل ازداد خطر الفصائل الفلسطينية المتطرّفة على حياته . كان أبو نضال الذي يزعم أنه الصوت الحقيقي للكفاح المسلح يقول أن دون النصر القضاء على عرفات . وكان رد عرفات إعادة تنظيم "القوة 17" لتصبح وحدة متماسكة لها غرض مزدوج : حمايته كما كانت تفعل ، وشنّ هجمات مدروسة على أعدائه ، وفي مقدمهم إسرائيل . وأُسندت مهمة قيادة القوة إلى مصطفى . كان رجاله يتدرّبون في تونس على أيدي "القوات الخاصة" الصينية والروسية في حرب العصابات .

كانت لندن تعجّ بالأعضاء السابقين في قوة الأمن الخاصة "أس .أي .أس ." والجنود السابقين في الجيش النظامي ممن خدموا في أيرلندا الشمالية ، وكانوا يبحثون عن متنفّس لمهاراتهم بالقتل . كانت الرواتب التي تقدّمها منظمة التحرير الفلسطينية لهؤلاء المدرّبين مغرية ، وكان لدى عدد كبير من المرتزقة مواقف معادية لليهود . وقد وقّع عدد من هؤلاء عقود توظيف وانتقلوا إلى تونس للعمل في معسكرات التدريب الفلسطينية . وجيء بمدربين آخرين من الفرقة الأجنبية الفرنسية ، وفي إحدى المراحل كان أحدهم الضابط السابق في "سي .آي .أي ." فرانك تيربيل الذي كان على علاقة قصيرة في ما بعد مع محمد علي أقجا ، الشاب المتعصّب الذي أطلق النار على البابا يوحنا بولس الثاني .

استمر مصطفى سنة كاملة يزور بريطانيا وغادرها من دون أن يعرف جهاز "أم .آي .5" أو "الشعبة الخاصة" هويتّه . وعندما أطلعهم الموساد عليها اكتفوا بإرسال ضابط من "أم .آي .5" إلى مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في لندن ليذكّر مسؤوليه بأن المكتب سيقفل ويُطرَد موظفوه لدى أول إلماع إلى تورّطه في أي نشاط إرهابي ضد بريطانيا . لكن بإمكانهم الاستمرار بتوعّد إسرائيل .

ورشحت معلومات عرضية مثيرة عن الحرب الدعائية عندما تلقى بسّام أبو شريف ، وكان حينها الناطق الإعلامي الرئيسي لعرفات ، دعوة للقاء الروائي جفري آرتشر . ويتذكّر مساعد عرفات في ما بعد أن آرتشر شرح "كيف ينبغي أن نطوّر وندير علاقاتنا الإعلامية ، وننظّم نشاطنا السياسي ، وكيف نتدبّر إقامة اتصالات بالسياسيين البريطانيين وتعبئة الرأي العام . تأثّرت أشدّ التأثّر" .

وثار غضب الموساد عندما تبيّن أن مصطفى يتمتّع بحماية السلطات البريطانية وأن أي محاولة للتعرّض له في بريطانيا قد تكون لها عواقب تعود على الموساد .

كانت مهمة إسماعيل صوّان محاولة الإيقاع بمصطفى خارج البلاد ، ويفضّل أن يكون ذلك في الشرق الأوسط حيث يتمكّن قتلة الموساد من القضاء عليه . وكان آدم قد أبلغ صوّان في باريس أنه سيعمل بتوجيه من مديريه في الموساد المقيمين في السفارة الإسرائيلية في لندن . كان أوّل هؤلاء آري ريغيف ، والثاني جاكوب باراد الذي يرعى المصالح الاقتصادية لإسرائيل . وكان الثالث لا يعمل تحت غطاء ديبلوماسي ويدعى بشّار سماره وسيكون ضابط الاتصال الرئيسي لصوّان ، وقد كلّف متطوعاً للموساد يعمل في وكالة سمسرة عقارية في لندن العثور لصوّان على شقة للإيجار في حي "مايدا فيل" في العاصمة .

بعد أيام قليلة من وصوله إلى لندن أجرى صوّان اتصاله الأول مع سماره ، ومن ثمّ التقى الرجلان تحت تمثال إله الحب "إيروس" في ساحة "بيكاديلي سيركس" . كان كل منهما يحمل نسخة من صحيفة "ديلي ميرور" التي كان روبرت ماكسويل قد اشتراها حديثاً . وباستخدام اسلوب تبادل الصحف الذي أوفى بالغرض منه في باريس ، حصل صوّان على راتبه الشهري الأول وهو ستمائة جنيه استرليني ومعه توجيهات تتعلق بكيفية العثور على عمل في مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في لندن .

أراد عدد كبير من العاملين في المكتب أن يكونوا في قلب النشاط العملي كنقل الرسائل إلى خلايا منظمة التحرير الفلسطينية المختلفة في أنحاء أوروبا والسفر إلى مقر المنظمة في تونس لنقل معلومات بالغة الأهمية ، ومن ثم الانتظار ساعات على أمل إلقاء نظرة على عرفات . لم يُلقِ هؤلاء الشوريون الشبان المتقدون حماسةً بالاً لعمل المكتب الروتيني ككتابة الرسائل وضبط الملفات وقراءة الصحف والردّ على الاتصالات الهاتفية . ولذا فعندما تطوّع صوّان للقيام بهذا العمل قُبِل عرضه على الفور في مكتب لندن .

وفي غضون أيام تمكّن من التعرّف إلى مصطفى . وسرعان ما تعزّزت الإلفة بينهما بعد لقاءات قصيرة كانا يحتسيان خلالها شاياً بالنعناع محلّي . جَمَعَ بينهما أنهما عاشا كلاهما خلال القصف الإسرائيلي لبيروت . وقد مشيا في الشوارع نفسها ولاحظا تفاصيلها ومرّا بالمباني المدمّرة نفسها التي تبدو كشعرية من كثرة الثقوب . وكلٌ منهما اضطر إلى المبيت في سرير مختلف كل ليلة ، وانتظر الفجر وصلاة الآذان على مكبرات الصوت . وكل منهما قام بالمناوبة على الحواجز الفلسطينية في بيروت مسهّلاً مرور سيارات الإسعاف ومدقّقاً بهويات الآخرين . ضحكا وهم يتذكران بيروت القديمة ويقولان "إذا سمعت انفجار القنبلة تكون ما

زلت حياً" . كانت هناك ذكريات كثيرة كصراع الموتى والمحتضرين وعويل النساء ونظرات الحقد اليائسة التي يوجهنها إلى السماء .

أمضى صوّان ومصطفى يوماً كاملاً في صلة حميمة مع ماضيهما . وأخيراً سأل مصطفى صوّان ما يفعل في لندن ، فردّ إسماعيل إنه يعمل على زيادة تحصيله العلمي لتجويد خدمته لمنظمة التحرير الفلسطينية . وبدوره سأل إسماعيل مصطفى ما الذي جاء به إلى إنكلترا .

وأطلق السؤال فيضاً من المعلومات المثيرة . فتحدّث مصطفى عن أعمال "القوة 17" البطولية ، وكيف أن فدائييها كانوا على وشك اختطاف طائرة إسرائيلية مملوءة بالسياح الألمان قبل أن يلغي عرفات المهمة خوفاً من استعداء الرأي العام الألماني . لكن مصطفى نقل الحربَ ضد إسرائيل إلى قبرص وإسبانيا . وكان إسماعيل يعرف أن كل ما يفاخر به جليسه سيعزّز تصميم الموساد على قتله .

واتفقا على اللقاء خلال أيام في "هايد بارك" ، البقعة اللندنية المعروفة حيث تجد جميع الآراء متنفّسها . اتّصل صوّان بالرقم الخاص الذي زُوّد به لنقل الأخبار المستعجلة . رد بشّار سماره فاتفقا على اللقاء في شارع "ريجنت ستريت" .

وهناك تمشى الرجلان بين موظفي المكاتب الخارجين لتناول طعام الغداء ، وروى صوّان ما سمعه من مصطفى . فقال سماره إنه سيكون في "هايد بارك" لالتقاط صورة لمصطفى ثم سيتعقّبه حيثما اتّجه .

ولم يأتِ مصطفى إلى الموعد . ومضت أسابيع قبل أن يلتقي صوّان به مرة أخرى . كان إسماعيل قد قُبِل كطالب في معهد في مدينة باث ، المنتجع الصحي ، وصار يأتي مرتين كل أسبوع إلى لندن لزيارة مكتب منظمة التحرير الفلسطينية للقيام بالأعمال المكتبية . وأثناء إحدى الزيارات رأى مصطفى .

ومرة أخرى تحدّث الرجلان معاً وهما يحتسيان الشاي بالنعناع . وأخرج مصطفى من حقيبة يده كتاباً مصوّراً يروي قصة "القوة 17" . وقال مفاخراً أن أكثر من مائة ألف نسخة ستوزّع على الفلسطينيين . وراح إسماعيل يتصفّحه فرأى صورة لمصطفى التقطت له في لبنان . وبتأنّق وقّع مصطفى الصورة وقدّم الكتاب إلى إسماعيل . واتفقا على اللقاء مرة أخرى ، لكن مصطفى تخلّف عن المجيء مرة أخرى .

في هذه الأثناء ، سلّم صوّان الكتاب إلى سماره في مكان اجتماع ثابت لهما وهو

محطة القطار في باث . كان ضابط الموساد يأتي في أحد القطارات ويسلّم إسماعيل راتبه الشهري وهو ستمائة جنيه استرليني ، ويعود إلى لندن على القطار التالي حاملاً كل ما عرفه صوّان من أخبار في مكتب منظمة التحرير .

واستمرت علاقتهما على هذا المنوال لما يقرب من سنة . خلال هذه المدة تعرّف صوّان على فتاة إنكليزية تدعى كرمل غرينسميث التي قبلت عرضه للزواج . ولكن حتى عشية يوم الزواج لم يكن رأي صوّان قد قرّ على من يكون الإشبين .

قام صوّان بزيارة أخرى إلى مكتب منظمة التحرير فالتقى بمصطفى مرة أخرى ، وكالمعتاد ، لم يهتم مصطفى بتبرير غيابه . كان مصطفى يحمل رزمة من قصاصات الورق منتزعة من صحيفة "القبس الدولي" التي تصدر في لندن وتتلقّى الدعم من العائلة الحاكمة في الكويت . وتحمل كل قصاصة رسماً كاريكاتورياً ساخراً يهزأ من ياسر عرفات . صاحب هذه الرسوم ناجي العلي أشهر فنان سياسي في العالم العربي . من لندن شنّ ناجي حرباً بمفرده ضد عرفات مصوّراً إياه كمرتش أناني ولا يتمتع بالكفاءة السياسية . وقد كرّست الرسوم صحيفة "القبس الدولي" كمنبر للمعارضة الفلسطينية .

ألقى مصطفى القصاصات على الطاولة وقال إن ناجي العلي يستحقّ الموت ، وأسياده الكويتيين يجب تأديبهم .

ابتسم صوّان ابتسامة غامضة . كان الموساد يرحّب بكل ما يقوّض موقف عرفات . ثم أثار قضية ذات طابع شخصي ملحّ وهي العثور على إشبين لحفلة زواجه . وعلى الفور اقترح مصطفى نفسه لهذا الدور ، فتعانق الرجلان تعبيراً عن المودة التي باتت تجمعهما . ولعل تلك كانت اللحظة التي تمنّى فيها إسماعيل صوّان لو أنه يفلت من براثن الموساد .

في تل أبيب بدأ ناحوم أدموني يتساءل متى سيكتشف جهاز "أم .آي .5" البريطاني ما وراء جوازات السفر البريطانية الثمانية المزوّرة التي عثر عليها في كشك الهاتف في ألمانيا في تموز (يوليو) 1986 . كان شمعون بيريز الذي لا يرضى عن الموساد يقترب من نهاية حكومته الائتلافية ، وكان يطرح أسئلة موجّهة ضد سلوك الموساد . وكان يقول أن الكارثة المفاجئة ستدمّر علاقة إسرائيل بحكومة تاتشر ، وأن من الأفضل قول الحقيقة كاملةً عن الموضوع وفاقاً لرأي بيريز المعروف : "كلما استعجلنا القول استعجلنا رأب الصدع" .

عارض أدموني الفكرة ، لأنها ستؤدي برأيه إلى بدء جهاز "أم .آي .5" و"الشعبة

الخاصة" التحقيق في كل نشاطات الموساد في بريطانيا . وسيؤدي ذلك إلى إبعاد إسماعيل صوّان بعدما أثبت إنه معين من المعلومات المفيدة . وفضلاً عن ذلك فإن الاعتراف بالحقيقة في موضوع جوازات السفر يعني الكشف عن نموذج من الأعمال الخرقاء الدّالة على عدم كفاءة الموساد .

كانت جوازات السفر مرسلة إلى السفارة الإسرائيلية في بون ، وقد عُهد بمهمة نقلها من تل أبيب الى ساعٍ حديث العهد بمثل هذه الأعمال . وكانت تلك المرة الأولى التي يزور فيها بون . تجوّل الساعي في سيارته في شوارع المدينة لفترة من الوقت ، ولم يشأ أن يستدلّ على عنوان السفارة من المارة حتى لا يلفت الانتباه . وأخيراً لجأ إلى كشك الهاتف للاتصال بالسفارة . فوبّخه أحد المسؤولين على بطئه . وربما لذعره أو لإهماله ، ترك الساعي الكيس في كشك الهاتف ، ولما وصل إلى السفارة تنبّه إلى خطئه ، ولكن استبدّ به الذعر فلم يستطع أن يتذكّر بالضبط موقع الشارع الذي أجرى منه المكالمة . فرافقه رئيس أمن السفارة المتّقد غضباً حتى عثروا أخيراً على كشك الهاتف ، ولكن الكيس كان قد اختفى . وجرى نقل الساعي تأديباً إلى صحراء النقب ، لكن مشكلة جوازات السفر ظلّت تقضّ مضجع أدموني . كانت وزارة الخارجية البريطانية قد كلّفت السفير البريطاني في تل أبيب إثارة المسألة مع الحكومة الإسرائيلية .

أحد جوازات السفر الثمانية كان سيسلّم إلى صوّان لتسهيل سفره بين لندن وتل أبيب . فجواز السفر البريطاني يزيح عن كاهله بعض هموم التدقيق التي يتعرّض لها حاملو جوازات السفر الكندية على مطار هيثرو .

في الفترة التي أمضاها صوّان في لندن سافر إلى إسرائيل بين الحين والآخر لزيارة عائلته . كان ذلك جزءاً من تستّره . فهو أمام عائلته لا يزال ناشطاً في صفوف منظمة التحرير الفلسطينية . وقد أتقن لعب الدور حتى حذّره أخوه الأكبر إبراهيم من احتمال اعتقال الإسرائيليين له . وعلى سبيل المزاح اقترح إبراهيم أن يستبق الأمور بعرض العمل لصالح الموساد ، فتظاهر إسماعيل بأن الفكرة راعته وعاد إلى لندن لمتابعة عمله .

ولم تلبث الأمور أن تطوّرت بصورة غير متوقعة . حثّت زوجة صوّان زوجها على قبول وظيفة باحث في معهد "همبر سايد" في "هل" كمصدر دخل إضافي إلى ما يحصّله من عمله المكتبي لدى منظمة التحرير الفلسطينية . كانت تجهل علاقة زوجها بالموساد أو

الستمائة جنيه التي كان يدفعها له شهرياً . ورأى إسماعيل في الانتقال إلى "هل" فرصة للتخلّص من المطالب المتزايدة التي يطلبها رئيسه في الموساد .

وككل مخبر مأجور للموساد بدأت تساور إسماعيل صوّان مخاوف رهيبة من الأخطار التي يواجهها . بعد قيامه بدور الإشبين صار مصطفى أكثر وداً فصار يتردّد على إسماعيل وزوجته حاملاً لهما الهدايا من الشرق الأوسط . وحول طاولة عشاء روى مصطفى روايات عن قضائه على أحد أعداء منظمة التحرير الفلسطينية . ومرات عدة تباهى بقتل عدد كبير "من خونة القضية" ، بينما جلس صوّان مسمّراً إلى مكانه وهو يتمنّى "ألا يسمع دقّات قلبي المرتعش" . وكان الذعر ينتابه أيضاً بعد اجتماعاته مع سماره الذي كان يطلب منه الدخول إلى حاسوب مكتب المنظمة وتصوير مستندات مهمة . كما طلب منه أن يتدبّر مرافقة مصطفى في "إجازة" إلى قبرص حيث ينتظره فريق من القتلة . وكان صوّان يردّ بتقديم الأعذار التي منها إنه لا يخلّى وحده في غرفة الحاسوب ، وأن ضغط الدراسة لا يتيح له أخذ الإجازات . لكنه استشعر تهديداً مبطناً متزايداً في مطالب سماره . وكان يأمل أن تخفف إقامته في "هل" من فرص احتكاكه بمصطفى وسماره ، فيتاح له متابعة حياته الأكاديمية بعيداً عن الضغوط . لكن الموساد أعدّت له خططاً مختلفة جداً .

يوم الجمعة في 13 آذار (مارس) 1987 انتشرت إشاعة في مقر الموساد على جادة الملك شاوول بأن ضيفاً مهماً سيزور أدموني . وقبيل الظهر كان ضابط الاتصال في جهاز "أم .آي .6" البريطاني يسير برفقة دليل إلى مكتب المدير العام في الطابق التاسع . كان اجتماعهما قصيراً . قال الزائر لأدموني أن جهاز "أم .آي .6" متأكّد من أن جوازات السفر المزوّرة التي عثر عليها في ألمانيا من صنع الموساد . أحد ضباط "الشعبة الخاصة" ممن كانوا على علاقة بالعملية تذكّر في حزيران (يونيو) 1997 كيف أن "مبعوث" "أم .آي .6" دخل وقال "صباح الخير" ورفض عرضاً بتقديم فنجان قهوة أو شاي ، وقال ما قاله . ثم هزّ رأسه ورحل . وربما لم يستغرق إيصاله الرسالة أكثر من دقيقة واحدة .

وفي لندن استدعت وزارة الخارجية السفير الإسرائيلي ووجّهت إليه احتجاجاً قوياً أرفقته بطلب بألاّ يتكررّ مثل هذا السلوك مرة أخرى . ظلّ العزاء القليل الذي تعزّى به أدموني هو أن ذكر إسماعيل صوّان لم يَرِدْ أبداً .

في المساء الباكر من 22 تموز (يوليو) 1987 أدار إسماعيل صوّان في شقته في "هل"

جهاز التلفزيون للاستماع إلى أخبار محطة هيئة الإذاعة البريطانية (بي .بي .سي .) . لم يكن الموساد قد اتصل به منذ نيسان (أبريل) عندما جاء بشّار سماره إلى "هل" للقائه في محطة القطار ، وأمره بالتخفيف من نشاطه حتى إشعار آخر - ما لم يُجرِ مصطفى اتصالاً به .

وفجأة أطلّ وجه الرجل الذي قال مصطفى إنه يستحق الموت على الشاشة . لقد أُطلقت النار على رسام الكاريكاتور ناجي العلي لدى خروجه من مكاتب "القبس" في لندن . أطلق مسلح طلقة واحدة وتوارى عن الأنظار . اخترقت الرصاصة خد رسام الكاريكاتور واستقرت في دماغه . وكان رد فعل صوّان أن المهاجم ليس من الموساد ولا "القوة 17" ، فكلا المنظمتان تستخدمان ذات الطريقة الاحترافية للقتل ، وهي إطلاق عدة رصاصات على الرأس وأعلى الجسم . أما هذا الهجوم فبدا عمل هواة . وقال تقرير التلفزيون أن الشرطة نظّمت حملة واسعة للعثور على الجاني ، وأن زملاء رسام الكاريكاتور يلمحون إلى أن الهجوم وقع بسبب "الأعداء النافذين" الذين لم يسمّوهم .

استعاد صوّان بذاكرته حديثاً كان قد دار بينه وبين مصطفى . فازداد يقينه بأن ياسر عرفات هو من أمر بالقتل . وفجأةً تساءل عما إذا كان هو الشخص الوحيد الذي باح إليه بأن ناجي العلي يستحقّ الموت . وقرّر صوّان أن الأفضل له ولزوجته أن يسافرا إلى تل أبيب ، وبينما هما يحزمان حقائبهما إذا بهما يسمعان قرعاً على الباب . ويتذكّر صوّان : "كان الرجل يحمل حقيبتي سفر . قال أن مصطفى يريد أن يخبئهما بسرعة . وعندما قلت إنني أريد أن أعرف ما بداخلهما ابتسم وطلب ألا أقلق . وكلّ ما قاله بعدها : "لا تلقِ أسئلة حتى لا أكذب عليك" . عندما خرج فتحتُ الحقيبتين فوجدتهما مليئتين بالأسلحة والمتفجرات : كان فيهما ما يكفي من مادة "سمتكس" لتفجير برج لندن ، وبنادق كلاشنيكوف ومسدسات وصواعق والأجزاء المتحركة" .

اتصل إسماعيل برقم الهاتف الخاص بالاتصال بالموساد في لندن ، فوجده مقطوعاً . فاتصل هاتفياً بالسفارة الإسرائيلية ، فقيل له أن آري ريغيف وجاكوب باراد ليسا موجودَين . طلب التحدّث مع بشّار سماره ، فطلب منه المتحدث على الجهة الأخرى أن ينتظر ثم جاء شخص آخر ليتحدث إليه ، وعندما ذكر إسماعيل اسمه قال الصوت "هذا الوقت مناسب لتمضية إجازة في الشمس" . كانت هذه الكلمات إشارة ليسافر صوّان إلى تل أبيب .

وفي تل أبيب في فندق "شيراتون" اجتمع مع جاكوب باراد وبشّار سماره وأطلعهما

على ما فعل بعدما اكتشف محتويات الحقيبتين ، فطلبا منه أن ينتظر ريثما يتّصلان برؤسائهما . وفي وقت لاحق من تلك الليلة عاد سماره وأمر صوّان بأن يسافر إلى لندن في أول رحلة ، وعندما يصل إلى هناك سيجد المسالة قد سوّيت .

وسافر صوّان إلى لندن في 4 آب (أغسطس) 1987 وهو لا يدري ما ينتظره . وفي مطار هيثرو اعتقله ضباط "الشعبة الخاصة" المسلحون واتهموه بقتل ناجي العلي ، وعندما ردّ بأنه عميل للموساد سخر الضبّاط منه . أصبح صوّان شخصاً يمكن التضحية به تماماً كرسام الكاريكاتور الذي فارق الحياة بعدما أمضى أسبوعين متشبثاً بها في المستشفى . لقد جرت التضحية بصوّان في محاولة لاستعادة ودّ حكومة ثاتشر . قضى وجود الأسلحة في شقة صوّان على كل جهوده للزعم بأنه موظف لدى الموساد . كان أحد المتطوعين لخدمة الموساد هو من جاء بالأسلحة إلى شقته .

كـان آري ريغـيف قـد أحـال في لندن إلى جـهـاز "أم .آي .5" ومنه إلى شـرطة "سكوتلانديارد" كل "الأدلّة" التي "تجمّعت" لدى الموساد عن "تورّط" صوّان بالإرهاب . وقدّم الملف تفاصيل عن تعقّب الموساد لصوّان أثناء إقامته في الشرق الأوسط وأوروبا وبريطانيا ، لكنه لم يحصل على براهين كافية حتى حينه . وحالما جرى اكتشاف الأسلحة المخبّأة قرّر الموساد أن يشي بصوّان "باسم الأمن المشترك" .

كان هذا القرار تذكرة مثيرة للإشمئزاز بقانون النفعية اللاأخلاقية غير المكتوب الذي يتبناه الموساد . أنفق الجهاز مقداراً عظيماً من الوقت والمال على تدريب صوّان وإعالته أثناء عمله ، ولكن عند الحساب فَقَدَ كل هذا قيمته في ضوء الحاجة الأهم للفلفة الموساد فضائحه في بريطانيا . كان صوّان الضحية – الفدية الذي قُدّم للبريطانيين على أنه نموذج من نماذج الإرهابيين الذين طالما حذّر الموساد منهم . ولا بد من الخسارة ، فصوّان أحسَنَ صنيعاً وإن يكن قصّر عن الإيفاء بكل ما طلب منه ، لكن حقيبة السلاح المخبّأة كانت فرصة لا بد من استغلالها ، فهي ستحطّم علاقة منظمة التحرير الفلسطينية بحكومة ثاتشر وستتيح لإسرائيل تصوير عرفات على أنه الإرهابي المخادع الذي لا يزال الموساد يصوّره بهذه الصورة . وستبقى إسرائيل تجد أمثال صوّان الذين يقعون ضحية إغواء رجالها الذين لا يحفظون عهداً .

اطمأن الموساد أسبوعاً كاملاً وقد اقتنع أن كل ما سيقوله صوّان لمستجوبيه البريطانيين سيُلقى وراء ظهورهم .

لكن أدموني لم يحسب حساب جهود صوّان اليائسة للنجاة من عقوبة السجن . فهو قدّم للمحقّقين في "الشعبة الخاصة" أوصافاً تفصيلية عن مديريه ، وكذلك عن كل ما تعلّمه على الموساد . وشيئاً فشيئاً تنبّهت الشرطة إلى احتمال أن يكون إسماعيل صادقاً ، فاستُدعِي ضابط اتصال جهاز "أم .آي .6" من تل أبيب لاستجواب صوّان ، فتبيّن أن كل ما قاله صوّان عن مقر الموساد وأساليبه تتطابق مع ما يعرفه الضابط . وبدأ دور الموساد الفعلي يظهر على حقيقته .

طردت بريطانيا ريغيف وباراد وسماره من أراضيها . وأصدرت السفارة الإسرائيلية في لندن بياناً جريئاً قالت فيه : "أننا نأسف إذ نرى أن حكومة جلالتها استحسنت اتخاذ إجراءات من هذا النوع . إن إسرائيل لم تتعرّض للمصالح البريطانية . لقد كان دافعها الوحيد مكافحة الإرهاب" .

لم يُنجِّ إسماعيل صوّان صدقُه . وفي حزيران (يونيو) 1988 حُكِمَ عليه بالسجن لمدة أحد عشر عاماً لحيازة أسلحة تخصّ منظمة إرهابية .

بعد خمس سنوات على طرد ضباط الموساد الثلاثة ، والذي أدى عملياً إلى إغلاق فرع الموساد في بريطانيا ، عاد الجهاز إلى العمل من جديد . وعام 1998 كان خمسة ضباط يعملون من مقر السفارة الإسرائيلية في حي كنزينغتون في لندن بالتنسيق مع جهاز "أم .آي .5" و"الشعبة الخاصة" لمحاربة الفصائل الإيرانية في بريطانيا .

قبل ذلك بثلاث سنوات ، في كانون الأول (ديسمبر) 1994 أُطلق سراح إسماعيل صوّان من سجنه "فول ساتون" وأُعيد إليه جواز سفره الأردني وجرى ترحيله على طائرة إلى عمّان . وشوهد لآخر مرة وهو يخرج من المطار حاملاً حقيبة اليد التي أعطاه إياها الموساد قبل سنوات عدة عندما سافر إلى لندن . لكن قعرها الخفيّ نُزع منها .

ومن الأردن أتيحت له عن كثب مراقبة تلبّد الأجواء في الخليج ، والذي سبقه تغيّر في القيادة فِي جهاز الموساد . انتهت ولاية ناحوم أدموني التي استمرت ثماني سنوات عشية رأس السنة اليهودية ، وحلّ مكانه شبطاي شافيت الذي ورث سلسلة من الأفشال كقضية بولارد و"إيران – غيت" وبالطبع جوازات السفر البريطانية المزوّرة التي عُثر عليها في كشك هاتف في بون والتي آذنت بقرب نهاية عهد أدموني . لكن خلف الأردن كانت أكثر من عاصفة رملية تهبّ . فقد قرّر صدام حسين أن قد حان الوقت لمنازلة العالم .

الفصل السادس عشر

جواسيس في الصحراء

في الثاني من كانون الأول (ديسمبر) 1990 في عمق جنوب بغداد، كان شخص في أثواب وسخة يُعرَف بها سكان الصحراء يرقد بسكون عند حافة أحد الوديان. كان الوقت فجراً والرمال ثلجية، فالحرارة تنخفض إلى ما دون درجة الصفر أثناء الليل. كان الرجل يعتمر "حطّة" من صوف الغنم يتميّز بها رجال قبيلة الصارمي (إحدى أقدم الفرق الصوفية الإسلامية) الذين يجوبون الصحراء العراقية الشاسعة الأرجاء، والذين يتّصفون بالتعصّب وبميثاق شرف صارم لا يضاهيه أي ميثاق شرف قبلي آخر. لكن ولاء الرجل كان لمكان يقع على مسافة ستمائة ميل إلى الغرب - في إسرائيل، فهو ضابط موساد.

كان قد جاء بملابسه من مخزن للموساد يحتوي على مجموعة ثياب من مختلف أنحاء العالم يجري إعادة تأهيلها بصورة دورية. كان معظم هذه الثياب يأتي عن طريق متطوّعين لخدمة الموساد فتُرسل إلى السفارات الإسرائيلية المحلية ومنها إلى تل أبيب في الحقيبة الدبلوماسية. وكان بعض هذه الملابس يؤتى به من البلدان العربية المعادية لإسرائيل عن طريق سيّاح موالين للدولة اليهودية. وكان عدد قليل منها من صنع رئيسة خزانة الملابس التي اكتسبت هي وفريق الخياطين العاملين معها على مر السنين شهرة في التقليد الدقيق، فكانت تستخدم حتى قطن الخياطة المناسب لإجراء التعديلات.

كان اسم ضابط الموساد - شالوم - قد اختير من قائمة بالأسماء المستعارة محفوظة في ملف في قسم العمليات. كان رافي إيتان هو من تبنّى فكرة وضع قائمة بعد عملية اختطاف آيخمان. كان شالوم فايس أحد أمهر المزيّفين في الموساد قبل أن ينضم إلى الفريق الذي

اعتقل أدولف آيخمان . ومات شالوم فايس بمرض السرطان عام 1963 لكن أسمه ظل حياً ، وقد استخدمه مراراً ضبّاط الموساد . لكن حفنة قليلة من كبار ضباط الجيش الإسرائيلي وشبطاي شافيت ورئيس القسم الذي يعمل شالوم فيه كانوا يعرفون ماذا جاء به إلى الصحراء .

في آب (أغسطس) 1990 غزا صدام حسين الكويت في خطوة مهّدت لاندلاع حرب الخليج . كان اجتياح العراق للكويت يمثّل فشلاً استخبارياً ذريعاً لجميع أجهزة الغرب . فلم يتوقع أيٌّ منها حدوث ما يحدث . وحاول الموساد أن يتحقّق من صحة تقارير أفادت بأن العراق يخزّن بالفعل أسلحة كيماوية في مواقع سريّة تقع إلى الجنوب من بغداد مما يجعل في مدى هذه الأسلحة ليس فقط مدينة الكويت بل وبعض المدن الإسرائيلية .

بقي هناك شكٌّ في صفوف الموساد إزاء ما إذا كان العراق يمتلك الصواريخ اللازمة لإطلاق الرؤوس الحربية . كان جيرالد بول قد أزيح من الطريق ، والمدفع العملاق الذي بناه أصبح بعد اختبار أوّلي له ووفقاً لصور الأقمار الفضائية الأميركية ، مقطّعاً . وكان محللو شافيت يقولون أنه حتى لو امتلك العراق الرؤوس النووية فليس من المؤكد أنها ممتلئة فعلاً بالمواد الكيماوية . فقد سبق له أن اتخذ مثل هذا التموضع .

كان شبطاي شافيت قد أظهر حذره كمسؤول جديد ، فقال أن دقّ ناقوس الخطر على أساس ما بلغه من أخبار لن يؤدي إلاّ إلى إشاعة الذعر . فأُسندت إلى شالوم مهمة اكتشاف الحقيقة . كان قد قام بعدة عمليات سابقة في العراق ، ومرةً دخل إلى بغداد زاعماً أنه رجل أعمال أردني ، وكان متطوّعون لخدمة الموساد يساعدونه وقت الحاجة . أما هنا في هذه الصحراء الخالية الواسعة فقد كان لزاماً عليه الاعتماد على مواهبه والكفاءات التي اختبرها مدرّبوه فيها مرة أخرى .

كان شالوم قد أُخضع لتدريب صمود في صحراء النقب ، فأتقن "تدريب الذاكرة" أي كيف يتعرّف إلى الهدف حتى في قلب عاصفة رملية ، وكذلك "حماية الهوية" أي كيف يتداخل مع ما حوله ، ويتلاشى فيه . كان يرتدي ملابسه ليلَ نهار حتى تبلى . وقد أمضى يوما كاملا في حقل الرماية ليظهر كفاءته في الرماية التلقائية والسريعة في الالتحام . وصرف شالوم ساعةً وهو يتعلّم على يد أحد الصيادلة متى يستخدم دواءه الطارئ في الصحراء . وخصّص صباح يوم كامل ليحفظ عن ظهر قلب الخرائط التي ستعينه على دخول الصحراء .

كان جميع مدربيه يعرفونه برقم فقط ، فلم يحطّوا من شأنه ولم يمتدحوه . ولم يلمّحوا أمامه إلى رأيهم في ما فعله . كانوا مثل الرجال الآليين . وخُصّص جزء من تمرينه اليومي لاختبار قدرته الجسدية على الصمود بإجباره على المشي في حرّ الظهيرة القائظ وهو يحمل حقيبة على ظهره مليئة بالحجارة . ودائما كان يصل على الموعد ، لكن أحداً لم يخبره عن دقّة مواعيده . وكان أحد الاختبارات يقضي بمقاطعته أثناء التمرين وأخذ أجوبته على أسئلة من نوع : "إذا تعرّفت إليك طفلة بدوية فهل تقتلها حماية لمهمتك" ، و"إنك على وشك أن تقع أسيراً ، فهل تستسلم أم تنتحر؟" ، و"التقيت صدفةً بجندي إسرائيلي جريح كان في مهمة أخرى ، فهل تتوقّف لتعينه أم تتركه وأنت على يقين من أنه سيموت؟" . لم يكن مقصوداً أن تكون أجوبة شالوم دقيقة بل كان القصد منها أن تكون وسيلة أخرى لامتحان قدرته على اتخاذ قرار في الظروف الضاغطة . كم استغرق من الوقت حتى ردّ؟ هل كان مرتبكاً أم واثقاً حين أجاب؟

كان يتناول الطعام الذي سيقتات به في الصحراء فقط : مكثّفات يخلطها بالماء المالح الذي يتوقع أن يجده في المناهل الصحراوية . وكان الطالب الوحيد في صف علّمه فيه أحد علماء النفس في الموساد كيف يعالج الإجهاد وكيف يسترخي . وحرص الطبيب على أن يجعل شالوم يفكر باستقلال حتى يمكنه الاستناد إلى المقدار المطلوب من اتساع الحيلة والقسوة في الأوضاع المفاجئة التي تواجهه في الميدان . وبناء على اختبارات الجدارة تقرّرت حالة استقراره العاطفي الحالي وثقته بنفسه . وجرى تقييم وضعه في ضوء احتمال ظهور علائم التحوّل إلى شخص يحب العيش وحده والعمل بمفرده ، وهي صفه مثيرة للقلق أنهت الحياة المهنية لعدد من ضبّاط الموساد .

وأمضى مدرّب اللهجات معه ساعات وهو يصغي إليه إذ يكرّر اللغة الخاصة المميّزة للصوفيين . كان شالوم يتكلّم الفارسية والعربية بطلاقة ، وسرعان ما أتقن لهجة رجال القبائل . وفي كل ليلة كانوا يأخذونه إلى جزء مختلف من صحراء النقب للمبيت . كان يحفر جحراً في الأرض ويرتاح فيه برهةً ولا ينام إلا نوماً خفيفاً وقصيراً ، ثم يمضي إلى مكان آخر حتى لا يدركه مدرّبوه الذين يتعقبونه . فعثورهم عليه يعني تأجيل مهمته لإخضاعه لمزيد من التدريب أو تكليف ضابط موساد آخر بها .

وتمكّن شالوم من اتقاء العثور عليه . ومساء 25 تشرين الثاني (نوفمبر) 1990 صعد إلى

متن طائرة مروحية من طراز "سي أيتش - 536 سيكورسكي" أميركية الصنع تابعة للقيادة الإقليمية الوسطى في الجيش الإسرائيلي .

كان أفراد طاقم الطائرة قد تدرّبوا على حدَة للمهمة . ففي منطقة أخرى من قاعدة النقب زاول هؤلاء شقّ طريقهم على نحو متعرّج وعلى علو منخفض في مسار من العوائق الجوية وفي قلب الظلام . كانت العنفاتُ (التربينات) تقذف الرمل بقوة على المروحية لتدريب طاقمها على تحسين فنون طيرانهم في مجاري الهواء المضطربة في الصحراء العراقية . واستمرّ الطيار يسير على علو قريب من الأرض من دون أن يرتطم بها . وفي تمرين آخر ، كان المدرّبون يمتطون دعائم الهبوط ويطلقون نيران أسلحتهم على الأهداف المظلّلة ، بينما عمل الطيار على إبقاء طائرته مستقرّة . وفي ما بين التمرينين كان أفراد الطاقم يدرسون خط طيرانهم .

وحده قائدهم الميجور داني ياتوم كان يعرف الطريق التي سيسلكونها ليصلوا إلى الحدود مع العراق . كان ياتوم عضواً في وحدة الكومندوس الممتازة "سياريت متقال" التي اقتحمت طائرة مدنية بلجيكية مختطفة في تل أبيب . وكان من أفراد الكوماندوس في هذه العملية بنيامين نتنياهو . وقد أدّت الصداقة بين رئيس وزراء إسرائيل العتيد وياتوم إلى تعيين الأخير المدير العام للموساد في عهد نتنياهو ، وهو منصب أنهى أيضاً علاقته به . ولكن كل هذا له علاقة بما سيأتي .

في صباح ذلك اليوم من كانون الأول (ديسمبر) بينما تابع شالوم إمعان النظر من فوق حافة الوادي ، لم يخطر له ببال أن الرحلة الطويلة والخطيرة التي أوصلته إلى عمق أراضٍ معادية تقرّرت في قاعة للمؤتمرات في "القرية" ، مقر الجيش الإسرائيلي في تل أبيب .

في تلك القاعة كان هناك بالإضافة إلى ياتوم أمنون شاحاك رئيس الاستخبارات العسكرية "أمان" وشبطاي شافيت ، وقد اجتمعوا لمناقشة آخر المعلومات التي وصلتهم من مخبر شديد التخفّي من داخل شبكة الإرهاب الإيرانية العاملة في أوروبا . كان شافيت وحده يعرف ما إذا كان المخبر امرأة أو رجلاً ، وقد كان يعرف باسم "آي" . وكل ما استنتجه شاحاك وياتوم هو أن المخبر لا بد أن يكون مصرّحاً له بدخول المجمّع المحصّن القائم في الطابق الثالث من مبنى السفارة الإيرانية في بون في ألمانيا . كان المجمّع يضم ستة مكاتب وغرفة اتصالات . عزّز الإيرانيون المنطقة بأكملها حتى صار بإمكانها أن تتحمّل القصف بالقنابل ،

وكان يتولّى إدارتها بصفة دائمة عشرون من "الحرس الثوري" الذين يقومون بتنسيق النشاطات المسلّحة الإيرانية في أوروبا الغربية . وقد حاولوا في الآونة الأخيرة أن يشحنوا من لبنان إلى إسبانيا طناً من مادة "سمتكس" وصواعق إلكترونية ، وذلك لتعويض المتفجرات التي استهلكها عدد من المجموعات الموالية لإيران في البلدان الأوروبية . وقد وشى الموساد بالعملية لدائرة الجمارك الإسبانية التي صعدت إلى السفينة بينما كانت تدخل مياه إسبانيا الإقليمية .

في صيف 1990 كانت إيران لا تزال تستخدم سفارتها في بون لتقديم أموال ضخمة لزيادة تأثير المد الإسلامي النضالي في أوروبا . ويزداد استغراب حجم الأموال المقدمة في ضوء كون إيران قد شُلّت اقتصادياً نتيجة حربها مع العراق التي استمرت ثماني سنوات وانتهت بوقف النار عام 1988 .

ولكن في ذلك اليوم من تشرين الثاني (نوفمبر) في قاعة المؤتمرات المحصّنة في "القرية" لم يكن ما أفشى به العميل المزدوج خطراً جديداً مصدره إيران . بل كان العراق هو مصدر الخطر . فقد حصل "آي" على نسخة من خطة حربية عراقية مفصّلة سرقها جهاز الاستخبارات السرّي الإيراني من المقر العسكري في بغداد ، وفيها تفصيلات عن كيفية إطلاق صواريخ "سكود" التي تحمل أسلحة كيماوية وبيولوجية على إيران والكويت وإسرائيل .

كان الهم الأول لدى كل من الحضور في قاعة المؤتمرات هو هل يمكن الوثوق بهذه المعلومات؟ لقد أثبت "آي" صوابية معلوماته في كل ما زوّدهم به من قبل . ولكن على رغم أهمية تلك المعلومات فهي لا تساوي شيئاً بالقياس إلى ما أرسله الآن . فهل أن الخطة الحربية جزء من مؤامرة حاكتها الاستخبارات الإيرانية لجرّ إسرائيل إلى شن هجوم وقائي ضد العراق؟ هل انكشف أمر "آي" وأصبح أداة بيد إيران؟

كانت الإجابة عن هذا السؤال مشوبة بالمخاطرة . أن تكليف أحد ضباط الموساد الاتصال بـ "آي" أمر يحتاج إلى الوقت ، وقد يستغرق أسابيع . ثم أن تنشيط مخبر متخف عملية تحتاج إلى بطء وعناية . وإذا ثُبت أن "آي" لا يزال على ولائه للموساد فان العملية قدً تهدّد سلامته . ومن جهة أخرى ، فإن اتخاذ التدابير العملية بالاستناد إلى الوثيقة العراقية من دون التحقّق من صحتها أمرٌ يتسبّب لإسرائيل بكارثة . أن توجيه ضربة وقائية سيدفع

العراق حتماً إلى الردّ الانتقامي ويقضي على التحالف الذي تحافظ عليه واشنطن بجهد جهيد لإخراج القوات العراقية من الكويت . فمن المحتمل أن يقف عدد من أعضاء هذا التحالف إلى جانب العراق في مواجهة إسرائيل .

ولمعرفة الحقيقة عن الخطة الحربية المسروقة كان لا بد من إرسال شالوم إلى العراق . طارت مروحيته على علو منخفض فوق الصحراء عابرةً أرض الأردن في ظلام الليل الدامس . كانت طائرة "سيكورسكي" قد دُهنت بدهان مموّه وخُنق صوت محركها فلم تتمكن أجهزة الرادار الأردنية الأشد تطوراً من اكتشافها . واعتمدت الطائرة الطيران الصامت الذي خفض صوت مراوحها الدوّارة إلى الحد الأدنى حتى وصلت إلى نقطة الهبوط المقررة على الحدود العراقية .

اختفى شالوم في عتمة الليل . وعلى رغم التدريب الذي تلقّاه فقد هزّه دخول التجربة . كان بلا معين ، وكان عليه حتى يبقى حياً أن يحترم بيئته الجديدة . فالصحراء فيها من المفاجآت ما يميّزها عن أي شيء آخر على الأرض . وقد تهبّ عاصفة رملية ما في لحظات ، فتغيّر معالم المكان وتدفنه حياً . وكان لكل شكل للسماء معنى يختلف عن معنى غيره . وكان عليه أن يتنبأ لنفسه بأحوال الجو ، وان يقوم بكل ما يلزم بنفس » ويعوّد أذنيه على السكون ، ويتذكّر دائماً أن أي خطأ يرتكبه قد يضع حداً لحياته .

بعد ثلاثة أيام من هبوطه من الطائرة المروحية في فجر ذلك اليوم من أيام كانون الأول (ديسمبر) ، كان شالوم مستلقياً على ظهره في الوادي العراقي . كان يخفي تحت غرّته منظاراً كانت عدسته تضفي على الفضاء المظلم لون الغسق . لم يكن يحمل أي سلاح سوى ما اعتاد حمله أبناء القبيلة ، أي سكين صيد . وقد علّموه أن يستخدم هذه السكين للقتل بطرق متعدّدة . ولم يكن يعلم ما إذا كان سيستخدم هذه السكين في مواجهة قوة أعظم منه ، أم لينتحر بها ، أم ينتحر بابتلاع الحبة القاتلة التي بحوزته . فمنذ حادثة أيلي كوهين وما تعرّض له من تعذيب أعقبه إعدامه ، أجاز الموساد لعملائه في إيران أو العراق أو اليمن أو سورية أن يقتلوا أنفسهم لئلا يقعوا في قبضة المحقّقين الذين لن يرحموهم . في هذه الأثناء ، تابع شالوم المراقبة والانتظار .

كان البدو الرحّل القابعون في خيامهم على بعد نصف ميل من الوادي قد بدأوا بتأدية صلاة الفجر . وكان نباح كلابهم يصل ضعيفاً مع هبوب الريح ، لكن الكلاب نفسها لن

تخرج من المخيم إلاّ بعد مدة من شروق الشمس . كان سلوك الحيوانات أحد موضوعات الدروس الأولى التي تلقاها شالوم أثناء تدريبه على شظف العيش في الصحراء .

وقد أُبلغ أثناء اطلاعه على مهمته أن القافلة ستظهر بين المخيم والتلال الواقعة إلى يساره . كان الممرّ الذي ستسير عليه خفيّاً على العين غير المدرّبة ، أما لشالوم فقد كان الممر واضحاً وضوح الطريق ذي المعالم . كانت أخاديد الرمل الدقيقة من صنع مناجذ الصحراء التي تقيم جحورها بين آثار عجلات المركبات .

عند الظهر وصلت القافلة بعد طول انتظار . كانت مؤلّفة من منصّة لإطلاق صواريخ "سكود" ومركبة الدعم الخاصة بها . وقفت على مسافة نصف ميل فبدأ شالوم يلتقط الصور ويسجّل مواقيت ما يشاهده .

استغرق إطلاق الطاقم العراقي صاروخ "سكود" خمس عشرة دقيقة . انطلق في شكل قوس واختفى وراء الأفق ولم تمضِ دقائق قليلة حتى كانت القافلة تسير مسرعةً باتجاه التلال . ولولا أن إطلاق الصاروخ لم يكن إلاّ لغرض التدريب لكان خلال دقائق قد أصاب تل أبيب أو أي مدينة إسرائيلية أخرى . بعد ذلك ، بدأ شالوم رحلة العودة الطويلة إلى تل أبيب .

بعد ستة أسابيع ، في 12 كانون الثاني (يناير) 1991 ، انضم شالوم إلى فريق مشترك من ضباط الموساد و"أمان" تحلّقوا حول طاولة في مقر قيادة العمليات الخاصة المشتركة في الولايات المتحدة (جايسوك) في قاعدة "بوب" الجوية في جورجيا . وتتولى "جايسوك" قيادة منظمة "القبعات الخضراء" وفريق الكومندوس البحري "سيل" ، وهي تقيم علاقة تعاون وثيقة مع الموساد .

بعد عودة شالوم من العراق أبلغ شافيت الجنرال إيرل ستاينر قائد العمليات في "جايسوك" أن صدّام حسين لا يكتفي بالتموضع . كان للجنرال المقحام أسلوب شعبي ولسان لاذع مما حببّه إلى الإسرائيليين ، لكنه عندما يناقش شؤوناً عسكرية تفسح لهجته "التنسيّة" المتشدّقة الطريق بسرعة أمام القرارات الحكيمة . وإذ كان قائداً لقوات الكومندوس فقد كان يقدّر أهمية الاستخبارات الجيّدة ، وقد أقنعته خبرته في الشرق الأوسط بجودة خدمات الموساد .

منذ اجتياح القوات العراقية الكويت وستاينر يجري اتصالات منتظمة مع مصادر معلوماته الخاصة في إسرائيل . وتعود علاقته ببعض هذه المصادر إلى عام 1983 وكان قد

رُقّي حديثاً لرتبة عميد وأرسلته وزارة الدفاع الأميركية سرّاً إلى بيروت ليعدّ تقريراً يُرفع مباشرةً إلى رئيس الأركان المشتركة يتناول مقدار ما يجب أن يكون عليه التدخّل الأميركي في حرب لبنان .

وفي ما بعد ، تعاون ستاينر مع الموساد خلال اختطاف سفينة "أكيلي لاورو" فأنقضّ مع فريق الكومندوس التابع لفرقة "دلتا فورس" على قاعدة جوية إيطالية في صقلية حيث توقفت الطائرة التي تقلّ الخاطفين ، بعد خروجهم من القاهرة . وقد منع الجنود الإيطاليون ستاينر من القبض على الخاطفين وكاد يحدث صدام مسلّح بين الجانبين . وإذ أحبطت جهوده لحق ستاينر بطائرة الخاطفين مستخدماً طائرته العسكرية الخاصة ، ولم يوقف تعقّبه إلاّ عندما دخلت الطائرتان المجال الجوي لروما وهدّد برج المراقبة فيها بإسقاط طائرة "دلتا فورس" بحجة "القرصنة الجوية" . وعام 1989 كان ستاينر قائد القوات البرية التي اجتاحت بنما وكلفت مهمة اختطاف الرئيس مانويل نورييغا .

لم يكن أحد سوى رئيس الأركان المشتركة الجنرال كولن باول والجنرال نورمان شوارتزكوف ، آمر التحالف ، على علم بعلاقة ستاينر بالموساد . وفيما ناضل شوارتزكوف لإنشاء خط دفاعي على طول الحدود السعودية لمواجهة هجوم ما تشنّه القوات العراقية من الكويت ، كان ضباط الاستخبارات بإمرة ستاينر يتعاونون مع الموساد على تشكيل حركات مقاومة داخل العراق لإطاحة الحكم .

عندما دعا الميجور جنرال واين داوننغ ، قائد "جايسوك" إلى عقد الاجتماع في قاعة المؤتمرات ، كان الكل يعلم أنه بينما تقترب عقارب الساعة من الموعد النهائي لنشوب الحرب الذي حدّدته الأمم المتحدة بيوم الثلاثاء الواقع في 15 كانون الثاني (يناير) 1991 ، كان العالم يجري حوار طرشان مع الحكم في بغداد . فقد استمر صدّام حسين يرحّب بما توقّع أن يكون "أم المعارك" .

بدأ داوننغ حديثه بتذكير الحضور بأن واشنطن لا تزال تقول بإبقاء إسرائيل خارج الحرب . وفي المقابل فان لإذعانها فوائد سياسية واقتصادية طويلة الأجل ستعود عليها .

كان ردّ الفعل الفوري من الجانب الإسرائيلي عرض مجموعة الصور المكبّرة التي التقطها شالوم لعملية إطلاق صاروخ "سكود" . بعدها طرحوا أسئلتهم : ماذا لو سلّح العراق "سكود" برأس نووي؟ كان الموساد مقتنعاً بأن العراق قد أنشأ المصانع التي يحتاجها لصنع

قنبلة بدائية . كما كان بمقدوره تسليح صواريخ "سكود" برؤوس كيماوية وبيولوجية . هل يُفترض أن تنتظر إسرائيل حتى يقع الهجوم؟ ما هي خطة قوة التحالف تجاه صواريخ "سكود" قبل إطلاقها؟ هل يعرف الأميركيون عدد صواريخ "سكود" التي لدى العراق؟

ردّ أحد ضباط الاستخبارات الأميركيين بالقول أن "التقدير الأقصى" هو حوالي خمسين . فأجابه شبطاي شافيت "أننا نعتقد أن لدى صدّام خمسة أضعاف هذا الرقم وربما يبلغ العدد الإجمالي خمسمائة" .

خيّم على القاعة سكون ذاهل لم يعكّره إلاّ سؤال داوننغ : هل تستطيعون تحديد مواقعها؟ ولم يتمكّن شافيت من إعطاء إجابة محدّدة ، بل اكتفى بالقول بأن الصواريخ منصوبة في الصحراء الغربية العراقية وشرق البلاد . وأيّد الأميركيون قول داوننغ بأن ذلك "يشمل مساحة شاسعة من الصحراء مليئة بالمخابئ" .

فقال شافيت الذي لم يحاول إخفاء إحباطه "إذاً فمن الأفضل الإسراع في البدء" .

ووعد شافيت بمتابعة الأمر باهتمام شديد ، واختُتم الاجتماع بالتذكير من جديد بأن على إسرائيل أن تبقى خارج النزاع المرتقب ، لكن المعلومات السريّة التي يمكن للموساد و"أمان" جمعها هي محل ترحيب . وفي الوقت نفسه ليطمئن الإسرائيليون إلى أن الولايات المتحدة وشركاءها سيعالجون مسألة صواريخ "سكود" . وعاد أعضاء الفريق الإسرائيلي من حيث أتوا ينتابهم شعور بالغبن .

بعد ساعات من بدء "عاصفة الصحراء" وبعد دقائق من الثالثة من صباح 17 كانون الثاني (يناير) 1991 ضربت سبع صواريخ "سكود" تل أبيب وحيفا فأدى ذلك إلى تدمير 1587 مبنى وإصابة سبعة وأربعين مدنياً .

في وقت لاحق من صباح ذلك اليوم كان رئيس وزراء إسرائيل اسحق شامير يسأل ببرود شديد في اتصال على الخط الأحمر مع واشنطن كم إسرائيلياً يجب أن يموتوا قبل أن يفعل الرئيس بوش شيئاً . انتهت المكالمة القصيرة بمناشدة بوش بضبط النفس وتحذير شامير من أن إسرائيل لن تطيل المكوث على الحياد .

كان شامير قد أصدر قبل ذلك أوامره للطائرات الحربية الإسرائيلية بمراقبة المجال الجوي الشمالي مع العراق . وعلى الفور وعد بوش بأنه إذا سُحبت الطائرات ، فسيرسل "بسرعة مضاعفة مرتين" بطاريتين من الصواريخ المضادة للصواريخ من طراز "باتريوت" ، وذلك من

أجل "تحسين الدفاع عن مدنكم" ، ومن جهتها ستدمّر قوات التحالف "ما تبقى من صواريخ سكود خلال أيام" .

واستمر سقوط الصواريخ على إسرائيل . وفي 22 كانون الثاني (يناير) سقط أحدها على ضاحية "رامات غان" ، فجُرح ستة وتسعون مدنياً بعضهم بحالة خطرة ، ومات ثلاثة من نوبات قلبية . وبلغ صوت دويّ الانفجارات مسامع العاملين في مقر الموساد . وفي "القرية" أجرى أمنون شاحاك اتصالاً هاتفياً مباشراً مع مركز القيادة العسكرية القومية "في الطابق الثاني من مبنى البنتاغون" ، وكانت مكالمته أقصر من مكالمة شامير وفحواها أن افْعلوا شيئاً وإلاّ فعلت إسرائيل .

وبعد ساعات كان داوننغ وفريق الكومندوس الذي يرأسه في طريقهم إلى المملكة العربية السعودية . كان شالوم بانتظارهم في قرية عرعر الصغيرة على الحدود العراقية ، وهو بلباس ضابط بريطاني لم يوضح ولم يسأله أحد كيف حصل عليه . كان ما يحمله من أخبار مثيراً جداً . لقد تأكّد له أن هناك أربع منصّات لإطلاق صواريخ "سكود" على بعد ثلاثين دقيقة طيران .

فقال داوننغ "النذهب إذن ، ونلقنهم درساً" . انتقل الفريق على متن مروحية من طراز "تشينوك" إلى داخل الصحراء العراقية ، وقد اصطحبوا معهم سيارة "لاندروفر" معدّلة خصيصاً للعمل في سطح من الأرض أشبه ما يكون بأرض في القمر . وخلال ساعة عثروا على موقع منصات الصواريخ . واستخدم قائد فريق الكومندوس جهازاً لاسلكياً سرّياً لاستدعاء قاذفات أميركية مسلحة بذخيرة عنقودية وقنابل زنة الواحدة منها ألف رطل . وقامت مروحية من طراز "بلاك هوك" بالتحويم فوق الميدان لالتقاط فيلم فيديو لعملية القضاء على المنصّات .

وبعد ساعات كان شامير يشاهد نسخة من الشريط على شاشة في مكتبه في تل أبيب . وفي اتصال هاتفي آخر أجراه بوش ، أقرّ رئيس وزراء إسرائيل بأنه رأى ما يكفي لإبقاء إسرائيل على الحياد . ولم يشر أيّ منهما إلى دور الموساد في العملية .

في الأيام الباقية من حرب الخليج قتلت صواريخ "سكود" أو أصابت بجروح حوالي 500 شخص بما في ذلك 128 أميركياً قتلوا أو جرحوا في سقوط صاروخ على المملكة العربية السعودية . وتشرّد ما يزيد على أربعة آلاف إسرائيلي .

بعد انتهاء حرب الخليج تعرّض الموساد و"أمان" لهجوم شرس خلال الجلسات السريّة التي عقدتها اللجنة الفرعية لمراقبة استخبارات الدفاع والشؤون الخارجية في الكنيست . وقد دين الجهازان بقوة لإخفاقهما في التكهّن بغزو الكويت أو بتقديم "تحذير كاف" عن التهديد العراقي . ويفيد ما تسرّب من أنباء من قاعة الاجتماع وقوع مشادات وتبادل اتّهامات شارك فيها أمنون شاحاك رئيس "أمان" وشبطاي شافيت وأعضاء اللجنة . وبعد واحدة من هذه المشادات كاد رئيس الموساد يستقيل ، إلاّ أن شافيت المحاصر لم ينسَ ولم يغفر .

كانت دائرة الحرب السيكولوجية في الموساد (لاب) تتولّى عادةً بثّ الأضاليل وتحطيم صورة أعداء إسرائيل بالتعاون مع الصحافيين الأجانب . لكنها هذه المرة حوّلت اهتمامها إلى الصحافة المحلية ، فدعت الصحافيين ذوي الحظوة وأبلغتهم أن الأمر لا يتعلّق بندرة المعلومات السريّة وتقصيرها ، بل يتعلّق بالرأي العام الإسرائيلي الذي أصبح معتاداً على كثرة الخيارات حتى يحتار ماذا يختار .

ودحرجت دائرة "لاب" حقائق مألوفة : ليس من بلد بحجم إسرائيل الجغرافي والسكاني حلّل أو استخدم المعلومات السريّة بمقدار ما فعلت إسرائيل . ولا يضاهي الموساد أي جهاز استخبارات في فهم عقلية ومقاصد أعداء البلاد وفي تعطيل خططهم خلال حوالي خمسين سنة . كانت هذه مادة مدهشة ووجدت صدراً رحباً في وسائل الأعلام التي كانت ممتنّة جداً لإطلاعها على معلومات سريّة .

وظهرت في الصحف سلسلة مقالات تذكّر القراء بأن الموساد لم يكترث للخفض الذي أُجريَ على ميزانية الدفاع قبيل حرب الخليج ، فاستمرّ بالتصدّي بمقدرة في لبنان والأردن وسورية والعراق . وكان بإمكان الناس قراءة ما بين السطور : أن ما يعوّق عمل الموساد هم السياسيون الذين لا يحسنون الاهتمام بميزانية الدفاع . تلك فكرة مألوفة وكانت تلاقي قبولاً على الدوام . كان الناس لا يزالون مذعورين أشدّ الذعر من آثار الهجمات الصاروخية ، ولذلك فان إطلاق المزاعم بأن نقص المال وراء معاناتهم حوّل النقد عن الموساد إلى رجال السياسة . وفجأة جيء بالمال . وبعدما اعتمدت زمناً طويلاً على المعلومات الفضائية الأميركية ، بدأت إسرائيل تسرّع برنامج التجسّس الفضائي الخاص بها . وأعطيت الأولوية لإطلاق قمر فضائي عسكري مكلّف مراقبة العراق تحديداً . وبدأ الإنتاج الكثيف لصاروخ جديد مضاد للصواريخ هو "هتز" ، وطلبت إسرائيل ، شراء عدة بطاريات من صواريخ "باتريوت" من الولايات المتحدة .

وتضاءلت اللجنة الفرعية للاستخبارات أمام هجوم الدعاية الموالية للموساد . وخرج شافيت منتصراً وراح يعيد تثبيت موقع الموساد . وصدرت الأوامر إلى ضباط الموساد في عمق العراق للعمل على اكتشاف عدد الأسلحة الكيماوية والبيولوجية في الترسانة العراقية التي نجت من قصف القوات المتحالفة . وقد وجد هؤلاء أنه لا تزال بحوزة العراق كميات من فيروسات الحمرة والجدري و"ايبولا" وغازات أعصاب كيماوية قادرة ليس فقط على قتل كل حياة في إسرائيل بل وجزء كبير من سكان الأرض .

وكان على شبطاي ورؤساء أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية الأخرى وسياسيي إسرائيل أن يقرّروا ما إذا كان من الجدي نشر هذه المعلومات ، وهو أمر من شأنه أن يشيع الخوف والذعر في إسرائيل وقد يؤدي إلى نتائج سلبية واسعة .

فالسياحة في إسرائيل كادت تضمحل تماماً بفضل حرب الخليج ، واقتصاد إسرائيل يقترب من أدنى مستوى له والاستثمارات الأجنبية الجديدة تصل ببطء . والكشف عن أن إسرائيل لا تزال في مدى أسلحة فتّاكة لن يجتذب السيّاح ولا المال إليها .

وفضلاً عن ذلك فإن تفكّك تحالف حرب الخليج ، الذي لم يكن أعضاؤه العرب متحمسين جداً لشن حرب على دولة عربية شقيقة ، أدّى إلى ازدياد العطف تجاه نكبة العراقيين العظيمة . أن أدلة الدمار الشامل الذي ألحقه قصف القوة المتحالفة واستمرار معاناة المدنيين الأبرياء أذكَيَا العواطف المشبوبة في كل أنحاء المنطقة العربية ، فتعمّق العداء العربي لإسرائيل . وإذا نشرت إسرائيل تفصيلات الأسلحة الكيماوية والبيولوجية العراقية السليمة فستعتبر الدول الغربية المؤيدة للعرب ذلك محاولة إسرائيلية لجرّ الولايات المتحدة وبريطانيا لشنّ هجمات جديدة على العراق .

ومن العوامل التي أثّرت على قضية كشف المعلومات عن ترسانة الأسلحة العراقية المفاوضات السرّية الدقيقة التي كانت تجري لإنهاء النزاع بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل . عام 1992 ، انتقلت هذه المحادثات إلى النرويج وكانت تتقدّم بنجاح ، برغم أن التوصّل إلى اتفاق والمصادقة عليه علناً تأخر عاماً حتى أيلول (سبتمبر) 1993 عندما صافح ياسر عرفات رئيس وزراء إسرائيل إسحق رابين في حديقة البيت الأبيض برعاية الرئيس كلينتون . كان كل منهم يعتبر ما حدث نصراً ديبلوماسياً . ولم يكن كل من في الموساد متفائلاً بأن معادلة "الأرض مقابل السلام" – أي قيام وطن فلسطيني في مقابل وقف

الحرب على إسرائيل - ستفلح . كان نفوذ المتطرفين الإسلاميين يتزايد ، والقوات المتطرفة الموالية لإيران تزدحم في البلدان المحيطة بإسرائيل التي تعتبرها طهران دولة منبوذة . وساد في أوساط الموساد وقطاع كبير من الإسرائيليين رأيٌ بأن الأمل بقيام سلام دائم مع منظمة التحرير الفلسطينية حلم غير واقعي . فإسرائيل الصهيونية لا ترغب في استيعاب العرب ضمن حدودها ، والصهيونيون يتعالون على دين العرب وثقافتهم ويرون أنهما أدنى من معتقداتهم وتاريخهم . ولم يقتنعوا بأن اتفاق أوسلو ضَمن مستقبل دولتهم وان بإمكان الشعبين العيش معاً ، فإن لم يكن بهناء دائماً فباحترام متبادَل على الأقل .

كل هذا كان في اعتبار شبطاي شافيت بينما كان يبحث مسألة إذاعة المعلومات عن الترسانة العراقية . وأخيراً قرّر أن يبقي المعلومات سراً حتى لا يهزّ الصورة المتفائلة خارج إسرائيل التي أعقبت التوقيع على اتفاق واشنطن . يضاف إلى ذلك أنه إذا حدث سوء يبقى ممكناً إذاعة المعلومات عن مخزون السمّ المهلك في العراق .

من بين السيناريوهات التي تناسب تماماً خبراء الموساد في الحرب السيكولوجية إظهار صدّام حسين وهو يوشك بأن يجعل أحد عملائه يضع أنبوباً من غاز الحِمرة في قطار الأنفاق في نيويورك ، أو أن ينشر أحد الإرهابيين فيروس "ايبولا" في نظام التبريد والتدفئة لطائرة "بوينغ - 747" مليئة بالركاب ، الأمر الذي يجعل كل واحد من الركاب قنبلة بيولوجية موقوتة تستطيع نشر الفيروسات إلى آلاف الناس قبل اكتشاف الحقيقة . وكان بإمكان خبراء الموساد استغلال مثل هذه السيناريوهات كلما احتاجوا إلى إثارة الرأي العام ضد العراق .

وقعت حادثتان أخريان أخفى الموساد حقائقهما ، ومن شأنهما أن يلحقا ضرراً جسيماً ويسبّبان حرجاً عظيماً للولايات المتحدة . مساء أحد أيام كانون الأول (ديسمبر) 1988 انفجرت طائرة شركة "بان أميركان" للرحلة 103 من لندن إلى نيويورك أثناء مرورها فوق لوكربي في اسكتلندا . ولم تمضِ ساعات قليلة حتى كان موظفو دائرة الحرب السيكولوجية (لاب) منهمكين بإجراء اتصالات هاتفية بمصادر اتصالاتهم الإعلامية يحثّونهم على أن هناك "برهاناً غير قابل للنقض" بأن وراء الحادث جهاز الاستخبارات الليبي "جماهيرية" (تلقّى مؤلف هذا الكتاب اتصالاً بهذا المعنى من مصدر في "لاب" بعد ساعات من وقوع الحادث) . وسرعان ما فُرضت العقوبات الغربية على نظام العقيد معمر القذافي . ودانت الولايات المتحدة وبريطانيا ليبيَين اتهمتهما بتدمير طائرة "بان أميركان" ، ولكن العقيد القذّافي رفض تسليمهما للمحاكمة .

وعادت دائرة "لاب" إلى اتهام سورية وإيران بالمشاركة في التخطيط لكارثة لوكربي . ولم يستند اتهام دمشق سوى على تأييدها المعروف للنضال المسلح الذي يسمّيه الغرب "الإرهاب الذي ترعاه الدولة" . أمّا في حالة إيران فكان الاتهام أكثر تحديداً ، فزعمت "لاب" أن تدمير طائرة "بان أميركان" فعل انتقامي لإسقاط الغواصة الأميركية "يواس اس فنسان" طائرة الركاب الإيرانية في الخليج العربي في 3 تموز (يوليو) 1988 ، ومقتل 290 شخصاً كانوا على متنها . كان الحادث مأسوياً اعتذرت عنه الولايات المتحدة .

ثم اتهمت دائرة "لاب" الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بالتآمر لتدمير الطائرة الأميركية . ولم يتوقّف الصحافيون الذين أذاعوا هذه الرواية على نطاق واسع برهةً ليسألوا أنفسهم لماذا تحتاج ليبيا التي اعتبرت مرتكب الجريمة الأساسي إلى سورية وإيران فضلاً عن إحدى الفصائل الفلسطينية .

ووفقاً لأحد مصادر الاستخبارات البريطانية "كانت "لاب" مندفعة بحماسة . كانت حادثة لوكربي الفرصة المثالية لتذكير العالم بأن هناك شبكة إرهاب طالما اهتمت "لاب" في التحذير منها . لم يكن هذا مفيداً في قضية لوكربي . وعلى العكس فان إدراج أسماء تزيد عن الحاجة على اللائحة يؤدي بالفعل إلى نتائج عكسية . كنا نعرف أن الليبيين وحدهم مسؤولون" . لكن كانت هناك حقائق جعلت حادثة لوكربي أشدّ تعقيداً مما يبدو .

وقع حادث سقوط الطائرة بينما كان الرئيس المنتخب جورج بوش وفريقه الانتقالي في واشنطن يطّلعون على آخر تطوّرات الموقف في الشرق الأوسط حتى يتمكّن بوش من مباشرة العمل فور تسلّمه مهام منصبه .

كان بوش مديراً لوكالة "سي .آي .أي ." في الفترة 1976 - 1977 التي كان فيها وزير الخارجية الأميركي هنري كيسنجر يملي سياسة واشنطن المؤيدة لإسرائيل . وصحيح أن بوش حافظ على سياسة التعاون والودّ تجاه إسرائيل ، لكن الفترة التي أمضاها في قيادة وكالة "سي .آي .أي ." أقنعته بأن ريغان كان "في منتهى السذاجة تجاه إسرائيل" . وفيما كان بوش ينتظر تسلّم مهام منصبه ، لم يكن يحتاج إلى من يذكّره كيف اضطرت الولايات المتحدة عام 1986 إلى إلغاء صفقة بيع أسلحة إلى الأردن بقيمة 1.9 بليون دولار إثر تدخّل اللوبي اليهودي في الكونغرس . وقد أبلغ بوش فريقه الانتقالي انه بصفته الرئيس لن يسمح بالتدخّل في حق "الأميركيين الأتقياء بالتعامل مع من وحيث يرغبون" . هذا الاتجاه لعب دوراً في تدمير طائرة "بان أميركان" .

عندما أقلعت الطائرة من لندن في تلك الليلة كان على متنها ثمانية أعضاء في أجهزة الاستخبارات الأميركية عائدين من الخدمة في الشرق الأوسط . كان أربعة منهم ضباطاً ميدانيين في وكالة "سي .آي .أي ." وفي مقدمهم ماثيو غانون . وكان على متن الطائرة أيضاً الرائد في الجيش الأميركي تشارلز ماك-كي ومعه فريق صغير من الخبراء في إنقاذ الرهائن . كانوا قد زاروا الشرق الأوسط لدرس إمكانية تحرير الرهائن الغربيين المحتجزين وقتها في بيروت . وعلى رغم تولي فريق اسكتلندي التحقيق في كارثة لوكربي فقد كان عملاء "سي .آي .أي ." في موقع الحادث عندما عُثر على حقيبة يد ماك-كي التي نجت من الأذى بأعجوبة . فنقلها من الموقع لمدة قصيرة رجل يعتقد انه ضابط في "سي .آي .أي ." لكن لم تعرف هويته بالضبط . وقد أعيدت إلى فريق التحقيق الاسكتلندي الذي كتب تحت خانة "المحتويات" أنها كانت "فارغة" .

لم يسأل أحد عما حدث لأمتعة ماك ـ كي ، ناهيك عن السبب الذي يجعله يسافر وهو يحمل حقيبة يد فارغة . لكن لم يشك أحد في ذلك الوقت بأن الضابط من وكالة "سي .آي .أي ." ربما انتزع من حقيبة اليد المعلومات التي توضح أسباب تدمير الطائرة المدنية الأميركية . ولم يُعثر على أمتعة غانون ، وهو ما حمل على الاعتقاد بأن القنبلة وضعت في حقيبة يده . ولم يتوافر أي إيضاح مُرضٍ للأسباب التي تجعل ضابطاً في وكالة "سي .آي .أي ." ينقل قنبلة في حقيبة يده .

وقد زعم البرنامج التلفزيوني الأميركي "فرونتلاين" في ما بعد انه حَلّ لغز الكارثة . بدأت رحلة طائرة "بان أميركان" الرقم 103 في فرانكفورت حيث انتقل إليها مسافرون يقصدون الولايات المتحدة وصلوا من الشرق الأوسط . وكان بين هؤلاء المسافرين غانون وفريقه من وكالة "سي .آي .أي ." الذين سافروا على طائرة تابعة لشركة الخطوط الجوية المالطية للوصول إلى فرانكفورت . كانت حقائبهم شبيهة بآلاف حقائب اليد التي ينقلها عمّال مطار فرانكفورت كل يوم . كان أحد هؤلاء العمال مأجوراً للإرهابيين ، وكان يخفي في أحد مخازن الأمتعة في المطار حقيبة يد كانت تحتوي على قنبلة . وكانت التعليمات التي تلقّاها تقضي بالعثور على حقيبة يد مشابهة تصل على رحلة الركاب ترانزيت ، واستبدالها ثم تركها تتابع طريقها إلى مخزن طائرة "بان أميركان" . كانت تلك نظرية قابلة للتصديق لكنها إحدى النظريات العديدة التي قدّمت لتفسير الانفجار .

كانت شركة التأمين المطالبة بالتعويض عن سقوط الطائرة مستقتلة ، كما يتوقع ، لكي تظهر أن تحطّم الطائرة كان عملاً إرهابياً فتحلّ نفسها من المسؤولية . وكذلك فقد استعانت بشركة للتحقيقات الخاصة مقرّها نيويورك تدعى "إنترفور" ، كان قد أسّسها عام 1979 شخص إسرائيلي يدعى يوفال أبيب كان قد هاجر إلى الولايات المتحدة في العام السابق . وقد زعم أنه موظف مكتبي سابق في الموساد لكن الجهاز الإسرائيلي أنكر ذلك . ومع هذا فقد أقنع أبيب شركة التأمين بأن لديه الاتصالات المناسبة لكشف الحقيقة .

أصيبت شركة التأمين بالذهول لدى تلقّيها تقرير أبيب الذي خلص إلى أن الهجوم من تدبير وتنفيذ "مجموعة شاذة من عملاء "سي .آي .أي ." مقرّها ألمانيا تتولّى حماية عملية سريّة يجري فيها نقل المخدرات من الشرق الأوسط إلى الولايات المتحدة عبر فرانكفورت . ولم تحرّك وكالة "سي .آي .أي ." ساكناً لإفشال العملية لأن المهرّبين كانوا يساعدونها أيضاً في إرسال أسلحة إلى إيران في إطار مفاوضات مقايضة الأسلحة بالرهائن . وكان أسلوب تهريب المخدّرات في غاية البساطة ، إذ يقوم أحد الأشخاص بتسجيل إحدى الحقائب على الرحلة ويتولّى أحد المتعاونين العاملين في قسم الحقائب بتبديلها مع حقيبة مماثلة تحتوي على المخدرات . وفي الليلة المشؤومة ، قام إرهابي سوري على علم بمصير عملية المخدرات باستبدال حقيبة اليد بحقيبة مماثلة تحتوي على القنبلة . ودافعه من وراء ذلك قتل عملاء الاستخبارات الأميركية الذين كانت سورية على علم بأنهم سيسافرون على الرحلة ."

وزعم تقرير أبيب أن ماك-كي علم بأمر "فريق الـ"سي .آي .أي ." الشاذ" الذي كان يعمل تحت اسم رمزي هو "كوريا" ، وعلم أن أعضاء الفريق كانوا على علاقات وثيقة مع بعض الشخصيات الغامضة التي تثبّت أقدامها على أطراف عالم الاستخبارات ، والذين أمدّوا الكولونيل أوليفر نورث بالأسلحة التي حوّلها إلى عصابات "الكونترا" النيكاراغوية المعارضة للنظام في عامي 1985 - 1986 . وكانت لبعض هذه الشخصيات صلات بمنظمة أبي نضال ، وزعم تقرير أبيب أن هذه الشخصيات لاقت ترحيباً من فريق "كوريا" للمشاركة في عملية تهريب المخدرات ، وقد استمر التعاون لأشهر عدة سبقت حادث انفجار طائرة "بان أميركان" . وزعم التقرير أيضاً أن ماك-كي اكتشف العمل الإحتيالي بينما كان يتابع العمل مع مصادر اتصالاته في العالم السري في الشرق الأوسط في إطار محاولته العثور على سبيل لإنقاذ الرهائن المحتجزين في بيروت . وقال أبيب في تقريره أن ماك-كي "كان يعتزم أن يحمل إلى الولايات المتحدة البرهان على علاقة فريق الاستخبارات الشاذ بتلك الشخصيّات" .

جول باينرمان ناشر تقرير استخبارات إسرائيلي وله تحليلات نشرها في صحيفة "وول ستريت جورنال" و"كريستشن ساينس مونيتور" وصحيفة "فاينننشال تايمز" البريطانية . وقد كتب عام 1994 " قبل 24 ساعة من موعد إقلاع الرحلة" ، أخطر الموساد جهاز "بي .كي .آ ." الألماني بشكّه بوجود خطة بنقل قنبلة إلى الرحلة 103 . وقد نقل جهاز "بي .كي .آ ." الخبر إلى فريق وكالة "سي .آي .أي ." (كوريا) الذي يتخذ قاعدة له في فرانكفورت فقال انه سيتدبّر الأمر" .

وقد أرسل محامي شركة "بان أميركان" مذكّرات إحضار للمثول أمام المحكمة إلى مكتب "أف .بي .آي ." و "سي .آي .أي ." و "أن .أس .أي ." للكشف عن المعلومات التي لديهم ، لكنه زعم في ما بعد "أن الحكومة أبطلت مذكّرات الجلب متذرّعةً بالأمن القومي" .

ولم يتمكن لا معدوّ برنامج "فرونتلاين" ولا يوفال أبيب ولا جول باينرمان من تقديم إجابات شافية عن الأسئلة المحيّرة . إذا كانت هناك لفلفة لنشاطات "كوريا" فإلى أي مستوى بلغ ذلك داخل "سي .آي .أي"؟ ومن صادق على ذلك؟ هل أَمَر هذا الشخص ، أو هؤلاء الأشخاص ، بانتزاع المعلومات المحرجة من حقيبة ماك-كي؟ لماذا أخطرت وكالة "بي .كي .آ ." الأمنية الألمانية فريق "كوريا"؟ هل كان ذلك محض صدفة؟ أم كان وراء ذلك ضيقها بأن نشاطات "كوريا" باتت تشكّل خطورة على باقي أجهزة "سي .آي .أي ."؟ وماذا كانت "الدواعي الأمنية القومية" التي أدّت إلى تلقي محامي شركة "بان أميركان" رفضاً شاملاً لمذكرات الإحضار للمثول أمام المحكمة؟

وعلى مرّ السنين كانت هذه الأسئلة تطلّ برأسها داخل المستويات المقفلة لوكالات الاستخبارات المختلفة ، وكانت الإجابات تبقى طيّ الكتمان ومنها الحقيقة عن لغز أخير . لماذا أرسل الموساد عميلاً يقيم في لندن إلى بلدة لوكربي في الشمال بعد ساعات من سقوط طائرة "بان أميركان"؟

حتى الآن يحتفظ الموساد بكل ما يعرفه عن تحطّم الطائرة . وهناك مصادر تطلب عدم تسميتها خشيةً على أرواحها تزعم أن الموساد يخفي معلوماته ليستخدمها كورقة رابحة إذا ضاعفت واشنطن ضغوطها على الموساد لوقف نشاطاته الاستخبارية على أراضي الولايات المتحدة .

في كل حال ، فمن المؤكّد تماماً أن هناك قصة أخرى قد تتسبّب بحرج مماثل لأجهزة

الاستخبارات الأميركية ، وهي تتعلق بموت أميرام نير الرجل المغرم بروايات جيمس بوند والذي حلّ على ديفيد كيمحي كممثل لإسرائيل في فضيحة "إيران – غيت" .

كان أميرام نير الرجل المثالي لوظيفة مستشار رئيس الوزراء شمعون بيريز لشؤون مكافحة الإرهاب . كان استغلالياً مولعاً بالكسب وفضولياً ومناوراً وقاسياً ، كان يتمتع بجاذبية خليعة ويفتقر إلى ضبط النفس ، وكانت له مقدرة على الهزء والاستخفاف وعلى القفز الخيالي وخرق القواعد لتأسيس عمله على مزيج من الحقائق والخيال . وكان صحافياً .

وكانت معرفته السابقة بالاستخبارات منشؤها عمله كمراسل للتلفزيون الإسرائيلي ، ثم عمله لكبرى صحف إسرائيل اليومية "يديعوت أحرونوت" التي تملكها عائلة موسى التي صاهرها . كانت إمبراطورية النشر هذه مختلفة تمام الاختلاف عن إمبراطورية روبرت ماكسويل ، فكانت رمزاً للاحترام قاعدتها المالية صلبة وتعامل موظفيها وفقاً للقول المأثور : اجتهد وخذ نصيبك العادل . ولم يؤدِّ زواج نير إلى جعله زوج إحدى أغنى نساء إسرائيل فحسب ، بل وإلى تمكينه من الاتصال السهل بالدوائر العليا للهرمية السياسية في البلاد .

ومع ذلك فقد قوبل بالدهشة قرار جَعله أحد أهم أعضاء أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية عام 1984 عندما أسند إليه بيريز منَصب مستشاره لمكافحة الإرهاب ، وهو أكثر المناصب حساسيّة على الإطلاق .

كان نير في الرابعة والثلاثين من عمره ، وكانت التجربة العملية الوحيدة التي له في حقل الاستخبارات الدورة الدراسية القصيرة التي انضم إليها في الجيش . وكان الرأي الغالب حتى بين أصدقائه هو إن وظيفته الجديدة تتطلّب أكثر من ملامحه الوسيمة القاسية .

أول رد فعل على تعيين نير جاء من رئيس الموساد ناحوم أدموني الذي غيّر هيكلية لجنة رؤساء الأجهزة لاستبعاد نير عن مناقشاتها . ولم يثبّط ذلك من عزيمة نير الذي أمضى الأسابيع الأولى بعد تعيينه وهو يقرأ بسرعة كل ما تقع يداه عليه . وسرعان ما بدأ التركيز على عملية بيع الأسلحة إلى إيران التي كانت لا تزال جارية . وإذ أستشعر أن فيها فرصة تمكّنه من إثبات كفاءته ، أقنع نير بيريز بأن يتولّى بنفسه الدور الذي تخلّى عنه ديفيد كيمحي . ووجد نير نفسه يعمل إلى جانب أوليفر نورث .

ولم يلبث الرجلان أن وجدا نفسيهما متعاونَين في شؤون التجارة والسمسرة في أرجاء العالم . وأثناء أسفارهما وضع الرجلان خطة للوصول بصفقة مقايضة الأسلحة بالرهائن إلى نهايتها الناجحة المذهلة . ووفقاً للخطة سيسافر الرجلان إلى طهران ويجتمعان بالقيادة الإيرانية ويتفاوضان معها على إطلاق سراح الرهائن .

وفي 25 أيار (مايو) 1986 تنكّر نير ونورث بملابس موظفَين فنييَن في شركة الطيران الأيرلندية "آير لينغوس" ، فسافرا جواً من تل أبيب إلى طهران على متن طائرة إسرائيلية صبغت بألوان الشركة وشعارها المميّز . كانا ينقلان على الطائرة سبعة وتسعين صاروخاً موجهاً من طراز "تاو" ومنصة نقالة مُلِئت بقطع غيار صواريخ "هوك" . كان نير يحمل جواز سفر أميركياً مزيّفاً جاءه به نورث .

وقد تمكّن نورث المسيحي المعمداني بطريقة ما من إقناع الرئيس ريغان بكتابة إهداء على نسخة من "الكتاب المقدس" إلى حجة الإسلام رفسنجاني المسلم الورع . كذلك فقد نقل معه قالباً من الكاتو بالشوكولا ومجموعات من مسدسات "كولت" لتقدّم إلى المسؤولين . كان ذلك يذكّر بالأيام الخوالي عندما كان التجار يتقايضون مع الهنود على الأرض في مانهاتن .

لم يعرف الموساد بأمر المهمة إلاّ عندما دخلت الطائرة الفضاء الإيراني . وقد وصف رد فعل ناحوم أدموني بأنه "غضب متّقد" .

ولحسن الحظ اكتفى الإيرانيون بطرد الزائرَين واستغلوا المهمة لتسجيل انتصار دعائي هائل على الولايات المتحدة . اهتاج ريغان . وفي تل أبيب شتم أدموني نير ووصفه بأنه "راعي بقر" . ومع ذلك فقد تمكّن نير من الحفاظ على منصبه الحكومي لعشرة أشهر أخرى عندما تحوّل النقد الصادر عن أجهزة الاستخبارات والدّاعي إلى إعفائه من منصبه إلى سيل لا ينقطع . في هذه الأشهر اطّلع نير على قضايا هنداوي وفعنونو وصوّان ، ولكن الموساد رفضت ببرود كل مساهمة قدّمها حول كيفية معالجة هذه الأمور .

وإذ لم يعد محلّ ترحيب في واشنطن وصار منعزلاً في تل أبيب ، استقال أميرام نير من منصبه كمستشار لرئيس الوزراء لشؤون مكافحة الإرهاب في آذار (مارس) 1987 . كان زواجه يواجه المتاعب ودائرة أصدقائه تتقلّص . بقي آري بنمناشي أحد صلاته القليلة الباقية مع الماضي . وفي أوائل 1988 غادر نير إسرائيل ليقيم في لندن .

في لندن أقام نير مع امرأة كندية جميلة ذات شعر أسحم تدعى أدريانا ستانتون. كانت في الخامسة والعشرين من عمرها، وتقول أنها سكرتيرة من تورنتو التقاها نير أثناء أسفاره. لكن عدداً من ضباط الموساد يعتقد أنها على صلة بوكالة "سي .آي .أي ."، وأنها إحدى النساء اللواتي تستخدمهن الوكالة في عمليات الإيقاع بالرجال. عمل نير في لندن كالمندوب الأوروبي لشركة مكسيكية لشراء الأفوكادو تدعى "نوكال دي مكسيكو" وهي تملك ثلث سوق تصدير الأفوكادو في البلاد.

لم تكن تجارة الأفوكادو ما جاء بآري بنمناشي إلى عتبة باب نير في ليلة ممطرة من ليالي تشرين الثاني (نوفمبر) 1988، بل جاء ليعرف بالضبط ما يعتزم نير الكشف عنه عندما سيمثل كشاهد رئيسي في محاكمة أوليفر نورث لدوره في فضيحة "إيران - كونترا". وأوضح نير أن شهادته ستسبب حرجاً كبيراً ليس لإدارة ريغان فحسب بل ولإسرائيل أيضاً، فهو يعتزم أن يظهر مبلغ سهولة تجنّب كل عمليات التفتيش والتدقيق والقيام بعمليات غير قانونية تتورّط فيها بلدان عدة بينها جنوب أفريقيا وتشيلي. وأضاف أنه يفكّر بوضع كتاب يعتقد أنه سيجعله أعظم من دقّ ناقوس الخطر في تاريخ إسرائيل. كان بنمناشي قد طلب لقاء نير بعدما قام بزيارة أخرى إلى نوكال في المكسيك. في الوقت نفسه، نبّه الزائر نير إلى ضرورة "أخذ الحذر من تلك المرأة" مشيراً إلى أدريانا ستانتون التي كانت قد تركتهما في خلوة. ورفض بنمناشي أن يكشف عمّا دعاه إلى توجيه التحذير مكتفياً بالقول بطريقته الغامضة المعتادة "إنني أعرفها من قبل، ونير لا يعرف الحقيقة وهي أن اسمها الحقيقي ليس أدريانا ستانتون".

في 27 تشرين الثاني (نوفمبر) 1988 سافر نير وستانتون معاً إلى مدريد تحت اسمَين مستعارَين. كان اسمه المستعار "باتريك ويبر" وهي الهوية التي استخدمها آخر مرة في رحلته المشؤومة إلى طهران. أما ستانتون فقد ظهر اسمها في بيان الركاب لدى شركة طيران "إيبيريا" كـ " أستير أرّيا". والسؤال الذي لم يلقَ جواباً هو: لماذا اختارا اسمَين مستعارَين لشراء تذاكر السفر بينما سافر كلاهما بجوازَي سفرهما الحقيقيين، واحد إسرائيلي والآخر كندي؟ واللغز الآخر هو لماذا سافرا إلى مدريد بينما كانت هناك رحلات مقرّرة مباشرة إلى مدينة مكسيكو؟ هل كان نير يحاول أن يبهر عشيقته بمدى سهولة خداع معظم الناس معظم الوقت؟ أم كان هناك خوف مزعج قد وُلِد في خلفية عقله بعد زيارة آري بنمناشي؟ وكحال كثير من الأسئلة التي طرحت في ما بعد بقيت هذه الأسئلة بلا جواب.

وصل نير وستانتون إلى مدينة مكسيكو في 28 تشرين الثاني (نوفمبر) وكان بانتظارهما على المطار رجلٌ لم تُعرَف هويته . وتابع الثلاثة سفرهم إلى أوراوبان حيث مقر الشركة المكسيكية فوصلوها بعد الظهر . بعدها استأجر نير طائرة "سيسنا تي 210" من شركة "ايروتاكسيس دي اوراوبان" الصغيرة .

وعاد نير إلى سلوكه المترجرج الغريب ، فاستأجر طائرة باسم "باتريك ويبر" مستخدماً بطاقة ائتمان بهذا الاسم للدفع ، واتّفق مع طيّار على نقله وعشيقته جواً إلى مصنع المعالجة التابع للشركة بعد يومين . وفي الفندق المحلي الذي نزلا فيه في غرفة واحدة سجّل نير اسمه الحقيقي . أمّا الرجل الذي رافقهما من مدينة مكسيكو فاختفى بغموض مثلما ظهر .

وفي 30 تشرين الثاني (نوفمبر) ظهر نير وستانتون في مطار أوروابان الصغير ، وكان برفقتهما رجل آخر كان اسمه على بيان المسافرين بدرو اسبيونوزا هونتادو . ولا تزال سراً مطلقاً هوية من يعمل لهم ، وكذلك لماذا اختار نير وستانتون ذكر اسميهما الحقيقيين لإدخالهما على بيان المسافرين . وربما لاحظ الطيار الخلاف بين اسم نير واسم من استأجر طائرة "سيسنا" ، لكنه لم يعلّق .

أقلعت الطائرة في أحوال طيران جيدة ، وكان على متنها طيار ومساعد طيّار وركابها الثلاثة . وبعدما قطعت مائة ميل من الرحلة تعطّل محرّكها فجأةً ، وبعد لحظات تحطّمت فقتل نير والطيّار . وأصيبت ستانتون بجروح خطيرة أقل منها جروح مساعد الطيار وهونتادو . كان بين من تولّوا أعمال الإغاثة بيدرو كروتشيت ، وكان أول من وصل إلى مسرح حادث التحطّم ، ولدى وصوله كان هونتادو قد اختفى وكغيره من الشخصيات الغريبة لم يظهر مرة أخرى . كيف صادف بالضبط أن كروتشيت كان أول الواصلين إلى مسرح الحادث أمر محيّر . فقد زعم أنه يعمل في شركة "نوكال" ، لكن مصنع الشركة كان على مسافة بعيدة جداً من مكان الحادث . ولم يستطع أن يوضح لماذا صادف وجوده على مقربة من مكان تحطّم الطائرة . وحين سألته الشرطة عمّا يثبت هويته ، ادّعى أنه فقد أوراق هويته في ميدان لصراع الثيران . وتبيّن أن كروتشيت أرجنتيني يقيم في المكسيك بصورة غير شرعية . وفي الوقت الذي تأكّد ذلك كان هو أيضاً قد اختفى . في مكان تحطّم الطائرة تمكّن كروتشيت من العثور على جثة نير والتعرف ، إليها وبعدها رافق ستانتون إلى المستشفى وكان معها عندما جاء صحافي محلي طالباً مزيداً من التفصيلات .

ويزعم جول باينرمان ناشر التقرير الاستخباراتي الإسرائيلي : "أن امرأةً شابة أشارت إلى أن كروتشيت كان حاضراً . وعندما ذهبت لتأتي به أطلّت امرأة أخرى من الباب ، وقالت للصحافي أن كروتشيت غير موجود ، وأنها لم تسمع به أبداً . وأكدّت المرأة الثانية أن وجود ستانتون على طائرة "سيسنا" كان محض مصادفة ولا علاقة تربطها بـ"الإسرائيلي" . وقد رفضت أن تعرّف عن نفسها سوى بالقول أنها من الأرجنتين وتزور المكسيك كسائحة" .

وزادت ستانتون الأمر غموضاً ، فأبلغت المحققين في حادث التحطم ، كما نقل ذلك الصحافي الإسرائيلي ران أيديليست عام 1997 قولها : "كانت مصابة ومذهولة ورأت أميرام نير على بعد أمتار منها ، وهو يلوّح بيده مهدئاً من روعها بصوت طبيعي قائلاً "كل شيء سيكون على ما يرام . النجدة في الطريق إلينا!" . وقد أكدّوا لها مرتين في الأيام التالية بأن نير حيّ" .

نُقلت جثّة نير جواً إلى إسرائيل للدفن . وحضر الجنازة ما يزيد على ألف شخص ، وفي كلمة الرثاء تحدّث وزير الدفاع إسحق رابين عن نير و" مهمته إلى أماكن لم يكشف النقاب عنها بعد في مهمات سرية وأسرار بقيت محفوظة في قلبه" .

هل قُتل أميرام نير لضمان عدم البوح بتلك الأسرار؟ هل كانت جثة نير فعلاً في التابوت؟ أم هل قُتل قبل تحطّم الطائرة؟ وإذا صحّ ذلك فمن قتله؟ ولا يزال ستارٌ من الصمت يواجه مثل هذه الأسئلة في تل أبيب وواشنطن .

بعد يومين من تحطّم الطائرة كان آري بنمناشي خارجاً من مكتب للبريد في وسط سانتياغو في تشيلي ، وبرفقته حارسان شخصيّان أصبح يشعر أنهما ضروريان لحمايته . وفجأة : " تحطّم الزجاج الذي كنت أسير بمحاذاته . ثم ارتطم شيءٌ ما بحقيبة اليد المعدنية الخاصة التي أحملها . فانبطحت وانبطح معي الحارسان إذ تحقّقنا أن أحداً يطلق علينا النار" .

وبعده ، صارت ستانتون تشعر أن حياتها في خطر . ويقول أيديليست أن مصادر اتصالاته الاستخبارية أبلغته أنها "صارت منعزلة عن العالم وخضعت لعمليات جراحية وغيّرت مظهرها" . وشيئاً فشيئاً زادت قناعة الموساد بأن وكالة "سي .آي .أي ." قتلت نير . ويقول آري بنمناشي : "لطالما آمنت الاستخبارات الإسرائيلية بأنها عملية دقيقة التنفيذ قامت بها "سي .آي .أي ." . لقد ضمن موت نير ألاّ يواجه ريغان وبوش أي إحراج أثناء محاكمة أوليفر نورث" .

هذه النظرية لقيت الدعم من قائد البحرية الأميركي الذي رافق نير إلى طهران في مهمة الفاكهاني لتحرير الرهائن المحتجزين في بيروت . دارت قصة القائد حول زعمه أن نير اجتمع مع جورج بوش الذي كان نائباً للرئيس في ذلك الوقت ، في 29 تموز (يوليو) 1986 في فندق الملك داوود في القدس ، لإطلاعه على سير عملية بيع الأسلحة الأميركية عبر إسرائيل إلى إيران . ويقول الكابتن جول باينرمان " كان نير يقوم سراً بتسجيل الحادثة كلها على شريط ، فكان في ذلك الدليل على علاقة بوش بصفقة مقايضة السلاح بالرهائن . وكان في الاجتماع ماك-كي وغانون اللذان قتلاً لاحقاً في حادث انفجار طائرة "بان أميركان" فوق لوكربي" . ويصف باينرمان زيارة قام بها القائد إلى مقر "سي .أي .أي ." في لانغلي حيث اجتمع بأوليفر نورث قبل شهر من مثوله أمام المحكمة . ويقول الكاتب أن القائد سأل نورث : "ماذا حلّ بنير ، فأبلغه نورث أن نير قُتل لأنه هدّد بإذاعة التسجيل عن اجتماع القدس" .

حاول بعض الصحافيين استجواب نورث حول المسألة لكنهم نحوّا جانباً . واتخذ مساعدو بوش على مر السنوات موقفاً مماثلاً : كل ما عند الرئيس السابق للولايات المتحدة حول قضية "إيران – غيت" قد قاله .

وفي أواخر تموز (يوليو) 1991 اقتحم مجهولون منزل أرملة نير ، جودي ، بقصد السرقة . ولم يُسرق منه إلاّ تسجيلاته ووثائقه . وتقول الشركة أن الاقتحام "من عمل محترفين مهرة" . وقالت جودي نير أنها على يقين بأن المادة المسروقة تحتوي "معلومات تتعرّض لبعض الأشخاص" . ورفضت الإدلاء بأي تصريح آخر . ولم تُستَعَد المسروقات . وبقيت هوية اللصوص خافية .

استمر شبطاي شافيت أربع سنوات أخرى في رئاسة الموساد ، وبذل كل ما بوسعه لئلا يثير نشاطها في جمع المعلومات اهتماماً عظيماً وان يبقى بعيداً عن مفبركي القصص الخرافية .

وبعيداً عن رقابة الجمهور استمر الصراع على السلطة داخل أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية بكل قوته . وتذكّر السياسيون الذين ظلّوا أعضاء في اللجنة الفرعية لمراقبة أعمال الاستخبارات كيف برّهم شافيت بعد حرب الخليج . وذاكرة الناس في إسرائيل لا تختلف عن ذاكرة غيرهم ، فلم تلبث حملة التهامس على شافيت أن استؤنفت ، فقيل أنه ضيّق

الأفق وأن باب اتصالاته الخاصة مع "سي .آي .أي ." بالكاد موارب ، وانه لا يحسن تفويض صلاحياته ، وأنه متعالٍ على المستوى القاعدي الذي تتراجع في صفوفه المعنويات .

واختار شبطاي شافيت تجاهل هذه التحذيرات . وفجأة في صباح يوم ربيعي عام 1996 جرى استدعاؤه إلى مكتب رئيس الوزراء بنيامين نتنياهو حيث أُبلغ أمر استبداله . لم يحاول شافيت المجادلة فما رآه من نتنياهو أقنعه بأن لا فائدة من ذلك . ولم يسأل إلاّ سؤالاً واحداً : من هو خليفته؟

فأجاب نتنياهو : داني ياتوم .

بدأ عهد الموساد مع البروسي .

الفصل السابع عشر

مسلسل العثرات والفضائح

مع انبثاق فجر يوم الخميس 16 كانون الثاني (يناير) 1998 ، خرجت سيارة حكومية من منزل ذي طلاء أبيض يقع في ضاحية راقية قريبة من السياج المكهرب القائم على الحدود بين إسرائيل والأردن . في إحدى تطوّرات التاريخ غير المتوقعة كان المنزل يقوم على أرض استُخدمت من قبل مقراً يعدّ فيه جواسيس إسرائيل مهامهم لجمع المعلومات السرية لتمكين الإسرائيليين من تحقيق الغلبة على أعدائهم . أما الآن فها داني ياتوم ينطلق منه لوضع اللمسات الأخيرة على عملية تحمي منصبه .

كان ياتوم خلال السبعة أشهر الأخيرة التي ابتدأت بالهزيمة الكاملة في شوارع عمان في تموز (يوليو) 1997 ، عندما أخفق فريق من قتلة الموساد في اغتيال زعيم "حماس" خالد المشعل ، "كالمنتظر قطع رأسه" ، كما وصف حاله لبعض أصدقائه .

كان السيّاف هو رئيس الوزراء بنيامين نتنياهو . كانت تربطهما صداقة وثيقة لكنها تأزمت في الآونة الأخيرة ، حتى لم يعد يمر يوم من دون أن يهمس المنتقدون في مكتب رئيس الوزراء قائلين بأن طرد رئيس الموساد لن يتأخر كثيراً . غيره كان سيستقيل ، أما ياتوم الأبيّ المهيب فكان حاضراً للاحتكام إلى سجل أعماله . لقد أُمر بالقيام بعمليات ناجحة عدة لم يعرف عنها أحد . وقد أبلغ أصدقاءه قوله بمرارة " أنهم لا يحاسبونني علناً إلاّ على الأخطاء" .

لاحظ أصدقاؤه وكذلك أفراد عائلته أنه في شدّة . فهو يمضي بعض الليالي ساهراً ، ويصاب بنوبات غضب مفاجئة لكنه سرعان ما يهدأ . وهو يذرع المكان بلا توقف ويطيل الصمت ، وكل هذه علامات الإجهاد الهائل الذي يعانيه .

مضى على تسلّمه منصبه عامان ، ولكنه لا يزال يواجه ضغوطاً لم يعرفها غيره من رؤساء الموساد . وأدّى ذلك إلى تراجع مستمر في معنويات موظفيه فلم يعد ممكناً التعويل على ولائهم . وكانت وسائل الإعلام تحوم حوله وقد أحسّت بأنّه جريح ، لكنها كانت تحجم بانتظار أن ترى كيف سيستخدم الشخص الوحيد الذي وثق به ياتوم مرةً ، الفأس الذي يحمله .

وحتى حينه ، كان موقف بنيامين نتنياهو يتّسم بالبرودة .

في صباح هذا اليوم البارد من أيام شباط (فبراير) كان ياتوم يعرف أن أجله يقترب . ولذا كان يعوّل على نجاح هذه العملية التي رعاها كل هذه الأسابيع الماضية . فهي سوف تُري رئيس الوزراء أن رئيس جواسيسه لا يزال بارعاً . لكن كل هذه المشاعر بقيت حبيسةً داخله على رغم كل ما تحمّله ، فلم تظهر على وجهه . كان منظره وهو يجلس برباطة جأش في زاوية على المقعد الخلفي لسيارة "البيجو" مخيفاً حقاً ، وهو يرتدي سترة جلدية سوداء اللون على قميص مفتوح القبة وبنطلون رمادي . هكذا كان ياتوم يلبس عندما يذهب إلى العمل ، فلم يكن يهتم بالملابس أبداً .

كان شعره المتراجع ونظارته ذات الإطار الفولاذي وشفتاه الرقيقتان تتناسب مع لقبه – البروسي . وكان يعرف أن مصدر قوّته في القيادة هو الرعب . إلى جانبه على المقعد كانت صحف الصباح ، وللمرة الأولى لم يكن فيها أيّ تكهّن حول مستقبله .

شقّت السيارة طريقها بسرعة عبر التلال القائمة على الطريق إلى تل أبيب ، وكانت أشعة الشمس تتلألأ على هيكل السيارة الذي كان سائقه يعتني ليلَ نهار بتلميعه حتى يصبح كالمرآة . كان زجاج السيارة مضاداً للرصاص وهيكلها مصفحاً وأرضها محصّنة ضد الألغام . وحدها السيارة الرسمية لرئيس الوزراء تتمتّع بمثل هذه التحصينات .

عيّن بنيامين نتنياهو ياتوم في منصب المدير العام للموساد بعد دقائق من رحيل شبطاي شافيت . وكان ياتوم في الأسابيع الأولى عقب تسلّمه منصبه يسهر ليلة واحدة على الأقل كل أسبوع مع رئيس الوزراء . كانوا يتناولون الجعة الباردة وحبات الزيتون ويحلّلون المشاكل التي تعترضهم ، ويتذكّرون الفترة التي كان ياتوم يصدر الأوامر لـ"بيبي" في وحدة كوماندوس تابعة للجيش . بعدها عُيّن نتنياهو سفيراً لإسرائيل في الأمم المتحدة ، ثم أصبح خلال حرب الخليج خبيراً من نوع خاص بما يسمّى "الإرهاب العالمي" ، فيظهر على شاشات

التلفزيون وهو يضع قناعاً مضاداً للغاز اتقاءً لوقوع صاروخ "سكود" بالقرب منه . أما ياتوم فقد عبّر عن مبلغ استساغته دور الغريب الذي أعطي أهم منصب في أجهزة الاستخبارات في البلاد . كان ياتوم الجندي المحترف النموذجي ، وقد عيّن ملحقاً عسكرياً لرئيس الوزراء إسحق رابين .

بقي ياتوم ونتنياهو لا يفترقان حتى وقعت حادثتان محرجتان فأنشأتا بينهما بوناً واسعاً . كانت الأولى العملية الخرقاء في عمّان التي أمر بها نتنياهو . وعند فشل الهجوم وافتضاح دور الموساد أمام وسائل الإعلام العالمية ألقى رئيس الوزراء اللّوم في الهزيمة الكاملة على ياتوم ، فتحمّل هذا اللومَ من دون أن يرفّ له جفن ، لكنّه كان يقول لأصدقائه الخلّص أن شجاعة نتنياهو "ناشئة عن إدانات الآخرين" .

ثم وقعت حادثة ثانية أكثر إحراجاً وأشدّ خطورة من الأولى . ففي تشرين الأول (أكتوبر) 1997 انكشف أمر أحد كبار ضبّاط الموساد ويدعى يهودا غيل الذي لفّق على مدى العشرين عاماً السابقة تقاريرَ غايةً في السرية مصدرها "عميل" لا وجود له في دمشق .

كان غيل قد صرف مبالغ طائلة من صندوق الرِّشى التابع للموساد للإنفاق على العميل المزعوم واحتفظ بالمال لنفسه . وقد كُشف أمر الخديعة عندما انتاب الشك أحد محلّلي الموساد الذي كان يدرس آخر تقارير "العميل" ، وفيه أن سورية توشك أن تهاجم إسرائيل . فواجه ياتوم غيل بالموقف فاعترف هذا بالحقيقة كاملةً .

انقضّ نتنياهو على ياتوم واستجوبه بقسوة خلال اجتماع عاصف في مكتب رئيس الوزراء حول كيفية إدارته لجهاز الموساد . ولم يكترث نتنياهو للقول بأن غيل أخفى خديعته بنجاح عن أربعة مديرين عامين سابقين للموساد . وكان ردّه بصوت عال أنّه كان على ياتوم أن يعرف . وقع تشابك آخر بين الرجلين ، وقال موظفو مكتب رئيس الوزراء أنهم لم يشهدوا تأنيباً شديداً مثله من قبل . وقد تسرّبت التفاصيل إلى أجهزة الإعلام ممّا زاد في إحراج ياتوم .

لَكَم أصبح الوضع مختلفاً عمّا كان عليه عندما تسلّم ياتوم منصبه وراج اسمه في وسائل الإعلام العالمية . وصفه الصحافيون بأنه اليد الأمينة ، وروّجوا لتكهنات بأنه سيستعيد المجد القديم الذي صنعه أسلافه السابقون عميت وهوفي وأدموني ، والذي تعمّد شبطاي شافيت الحطّ من شأنه .

ولم يلبث أن جاءهم البرهان . فبرغم اتفاق أوسلو الذي يعترف لمنظمة التحرير الفلسطينية بوطن يقام في غزة والضفة الغربية ، زاد ياتوم عدد العملاء الفلسطينيين الذين كُلّفوا التجسّس على ياسر عرفات ، وأمَرَ مبرمجي الحاسوب في الموساد بتطوير برامج جديدة لاقتحام حواسيب منظمة التحرير ونشر "الميكروبات" الإلكترونية لتدمير أنظمة الاتصال لديها عندما تدعو الحاجة .

وطلب ياتوم من العلماء في أقسام الأبحاث والتطوير التركيز على أسلحة الحرب المعلوماتية التي بإمكانها نشر الدعاوة السوداء في أنظمة البثّ العدوّة . فقد أراد أن يكون الموساد جزءاً من العالم المستقبلي الجديد حيث تخزّن الأسلحة في لوحة المفاتيح التي تعطّل قدرة العدو على تعبئة قواته العسكرية .

عاد ياتوم إلى ميدان الموساد القديم ، أفريقيا . في أيار (مايو) 1997 زوّد الجهاز الاستخباري القوات المتمردة بمعلومات سرية مهمّة ساعدتها على إطاحة الرئيس الزائيري موبوتو الذي حكم إفريقيا الوسطى عهداً طويلاً . وعزّز الموساد علاقاته مع جهاز الأمن في جنوب إفريقيا وساعَدَه على تعقّب المتطرّفين البيض الذين كان عدد كبير منهم يتعاونون مع الموساد من قبل . وزاد ياتوم ميزانية وقوة وحدة الموساد الخاصة "أل" المكلّفة سرقة آخر الأبحاث العلمية الأميركية .

كان داني ياتوم في الحادية والخمسين من عمره ، لكنه كان لا يكلّ ولا يتعب ولا يرحم . كان يتمتعّ بشراسة مقاتل الشوارع ، والمثال على ذلك ردّه على اكتشاف مكتب "أف .بي .آي ." الأميركي في كانون الثاني (يناير) 1997 "ميغا" ، عميل الموساد الرفيع المستوى المستتر في أعماق إدارة كلينتون . فقد أبلغ لجنة رؤساء الأجهزة ، التي كان من مهامها اتخاذ وضعية وقائية في حال فشل إحدى العمليات ، إن المطلوب هو أن يتصدّى اللوبي اليهودي القوي في الولايات المتحدة لمطالب المنظمات العربية بتعقّب "ميغا" بالشراسة نفسها التي يظهرها مكتب "أف .بي .آي ." تجاه جواسيس الدول الأخرى . لم يفوّت الضيوف اليهود في حفلات العشاء التي يقيمها البيت الأبيض فرصةً دون تذكير الرئيس بالضّرر الذي سينجم عن عملية بحث غير مسؤولة . وكان هؤلاء الذين بينهم نجوم سينمائيون ومحامون ورؤساء تحرير صحف يشيرون إلى أن الضرر سيكون أعظم إذا قُبض على أحد موظفي البيت الأبيض . ولما كانت رئاسة كلينتون محاصرة بالفضائح ، فإن مثل هذا

التطور سيمهّد لانهيارها . بعد ستة أشهر ، وفي 4 تموز (يوليو) 1997 وهو عيد الاستقلال في الولايات المتحدة ، عَلِمَ ياتوم أن مكتب "أف .بي .آي ." قلّل بهدوء من حماسته في البحث عن "ميغا" .

وبعد شهرين من ذلك وقعت الكارثة في شوارع عمّان ، وسرعان ما أعقبتها فضيحة العميل الموهوم . فبدأ داني ياتوم يبحث عن عملية جديدة تعزّز سلطته من جديد . وها هو في طريقه إلى وضع اللمسات الأخيرة .

بدأ التخطيط للعملية قبل شهر ، عندما التقى مخبر لبناني في جنوب لبنان مسؤوله المباشر في الموساد وأبلغه أن عبد الله الزين قام بزيارة قصيرة إلى بيروت حيث اجتمع مع زعماء حزب الله ، وبعدها اتجه بسيارته جنوباً ليرى والدَيه بعد غياب طال عاماً كاملاً في بلدة كفررمان ، فأقيمت له الأفراح .

وهناك أطلع الزين أقاربه على صور زوجته الإيطالية الشابة وشقتهما في أوروبا .

لم يستعجل عميل الموساد مخبره لتجاوز التفاصيل الصغيرة التي تتعلق بما حمّله والدا عبد الله الزين ابنَهما من حلوى وهدايا لزوجته ، وبمرافقة عناصر من حزب الله له طوال رحلته إلى مطار بيروت حيث ركب الطائرة عائداً إلى سويسرا .

وسأل عميل الموساد مخبره عما إذا كانت سويسرا وجهة عبد الله الزين الأخيرة ، فأجاب بالإيجاب : نعم ، برن في سويسرا .

وسأل عمّا إذا كان الزين يعيش هناك ، فردّ المخبر بأنه يعتقد ذلك ، لكنه لا يقطع به .

ومع ذلك فقد كان هذا أول خبر مؤكّد تلقّاه الموساد عن الزين منذ غادر لبنان لتنظيم نشاطات جمع التبرّعات لحزب الله من المسلمين الشيعة الأغنياء في أوروبا . كانت هذه الأموال وكذلك ما تقدّمه إيران تعبُر عن طريق السفارة الإيرانية في بون ، لتغطي نفقات حرب الاستنزاف التي يخوضها حزب الله ضد إسرائيل . كانت التقارير المختلفة التي تلقّاها ياتوم تفيد أن الزين ينشط من باريس ثم من مدريد ثم من برلين ، وكلما أرسل ياتوم من يتحقّق من ذلك لم يعثر على الشاب الأنيق ذي الاثنتين وثلاثين سنة .

أرسل ياتوم ضابط موساد إلى برن من بروكسيل التي حلّت مؤخراً محل باريس كمركز لإدارة عمليات الموساد الأوروبية . أمضى ضابط الموساد يومين وهو يبحث بلا طائل عن الزين ، ثم قرّر توسيع بحثه فاتجه جنوباً إلى ليبيفلد ، وهي بلدة مهجعية لطيفة . كانت آخر

مرّة عبر فيها ضابط الموساد شوارع تلك البلدة قبل خمس سنوات، عندما غادر سويسرا بعد مشاركته فريقاً من العملاء في تدمير رواقيد معدنية في شركة للهندسة البيولوجية قرب زوريخ كانت إيران قد اشترتها لغرض إنتاج البكتيريا. وبعد تفجير الرواقيد عَمَدت الشركة إلى إلغاء جميع عقودها مع إيران.

في ليبيفلد، اعتمد ضابط الموساد على السير الدؤوب على الأقدام، وهي أفضلُ طريقة لجمع المعلومات السرّية، فجاب الشوارع باحثاً عن أي شخص يشير مظهره إلى أنه من منطقة الشرق الأوسط. وبحث في دليل الهاتف عن مشتركين باسم الزين، واتّصل هاتفياً بالمكاتب العقارية ليعرف منها أي عقار أجّرت أو باعت لأحد أصحاب هذا الاسم. واستفسر من مستشفيات المنطقة وعياداتها ما إذا كان أحد المرضى بهذا الاسم قد أُدخل إلى أي منها. وكان في كل مرة يزعم أنه من أقرباء الشخص المعني. وبعدما أمضى يوماً كاملاً بلا جدوى، قرّر ضابط الموساد أن يقوم بجولة شاملة أخرى، مستعيناً بالسيارة هذه المرة.

كان قد أمضى بعض الوقت وهو يجوب الشوارع عندما لمح رجلاً داكن البشرة متلفّعاً لاتقاء برد الليل وهو يقود سيارة "فولفو" في الاتجاه المعاكس. كانت لمحة عابرة، لكن ضابط الموساد كان على قناعة بأن السائق هو الزين. لكنه أضاع بعض الوقت قبل أن يعثر على منعطف في الطريق للالتفاف واللحاق بالسيارة فاختفت. وعاد ضابط الموساد في الليلة التالية، فركَن سيارته في موقع ينطلق منه للتعقّب. وبعد قليل ظهرت سيارة الـ "فولفو" فلحق بها ضابط الموساد، وبعد مسيرة ميل واحد توقّفت أمام مبنى سكني وخرج منها السائق، ثم دخل المبنى الرقم 27 شارع فابرساكرشتراسه. لم يخالج ضابط الموساد أي شكّ بأن هذا الرجل هو عبد الله الزين، فتبعه إلى داخل المبنى، حيث وجد وراء الباب البلّوري بهواً صغيراً فيه صناديق بريدية كان أحدها لساكن الشقة في الطابق الثالث ويدعى "زين". كان أحد أبواب البهو يؤدي إلى منطقة المرافق في الطابق التحتاني، فعبر ضابط الموساد منه هابطاً إلى تحت، وهناك على أحد الجدران لاحظ وجود صندوق وصل لجميع خطوط الهاتف في المبنى. وبعد لحظات عاد إلى السيارة المستأجرة.

في اليوم التالي استأجر ضابط الموساد بيتاً سرياً على بعد نصف ميل من شارع فابرساكرشتراسه، وأخبر المكتب العقاري أنه يتوقّع أن ينضم إليه بعض أصدقائه ليذهبوا معاً في رحلة للتزلج.

تابع داني ياتوم التخطيط فأرسل خبيراً بالاتصالات إلى ليبيفلد لفحص صندوق الوصل الهاتفي ، فالتقط مجموعة من الصُوَر للقسم الداخلي من الصندوق وعاد بها إلى تل أبيب حيث تولّى درسها قسمُ الأبحاث والتطوير ، وتبعاً لذلك أُدخلت تعديلات على الأدوات قيد التحضير . كان بين هذه الأدوات جهاز صغير متطوّر يمكّن من مراقبة جميع المكالمات في شقة الزين . وقد رُبط هذا الجهاز بآلة تسجيل ضئيلة الحجم تختزن ساعات من المكالمات الهاتفية . وكانت لآلة التسجيل قدرة ذاتية على التفريغ الإلكتروني بإشارة معدّة مسبقاً تأتيها من البيت السريّ . وهناك في هذا البيت يجري نقل فحوى المكالمات خطياً وترسل إلى تل أبيب عبر جهاز فاكسميلي سري .

في الأسبوع الأول من شباط (فبراير) 1998 كانت الخطط التقنية قد وضعت قيد التنفيذ ، فانتقل ياتوم إلى المرحلة الحاسمة من العملية وهي اختيار فريق التنفيذ . كانت الخطة على مرحلتين ، الأولى جمع الأدلّة الكافية عن أن الزين لا يزال أحد كبار الضالعين في نشاطات حزب الله ، والثانية قتله .

وفي أواسط شباط (فبراير) كانت الاستعدادت قد اكتملت .

قبيل السادسة والنصف من صباح يوم الاثنين 16 شباط (فبراير) دخلت سيارة الـ "بيجو" إلى المرأب في الطابق التحتاني من مقر الموساد في تل أبيب ، وصعد ياتوم بالمصعد إلى قاعة الاجتماعات في الطابق الرابع حيث كان بانتظاره رجلان وامرأتان . كانوا يجلسون حول الطاولة وقد انقسموا أزواجاً كما سيظهرون على الناس في سويسرا . كانوا في أواخر العشرينات من أعمارهم صَبَغَت الشمس جلودهم ويبدون على لياقة بدنية رائعة . كانوا قد أمضوا الأيام القليلة الماضية على الثلج في شمال فلسطين وهم يستعيدون مهاراتهم في التزلّج .

كانوا في الليلة الفائتة قد اطّلعوا بصورة وافية على مهمتهم وعيّنت لهم هوياتهم المزيّفة . فالرجلان سيزعمان أنهما متعاملان ناجحان في سوق الأسهم ، وهما يمضيان إجازة قصيرة بعيداً عن قائمة التعاملات مع صديقتيهما ، لكنهما لن ينقطعا بالكلية عن أعمالهما ، وهو ما يفسّر إحضار أحدهما جهاز حاسوب صغيراً معه . كان هذا الحاسوب قد زوّد بتوصيلات تمكّنه من الوصل بين آلة التسجيل التي أخفيت داخل الطابق التحتاني من مبنى الزين وبين البيت السريّ . وقد كلّف زوجان بمراقبة التسجيل على مدار الساعة حالما

يبدأ عمله ، أما الزوجان الآخران فكانا عضوين في فريق القتلة الذي يفترض أن يستخدم أفضل الوسائل لاغتيال الزين . وقد جاءوا إلى سويسرا عزّلاً على أن يزوّدهم مكتب بروكسيل لاحقاً بالمسدسات .

كان جهاز التنصّت وآلة التسجيل على الطاولة فتفحّصهما ياتوم وقال أنهما أكثر تطوّراً مما رآه في حياته من قبل . كان شرح المهمة الأخيرة قصيراً ، فسأل كلاً من الحضور عن الاسم المستعار الذي يختاره من القائمة المحفوظة ، فاختار الرجلان اسمَي "صولي غولدبيرغ و" ماتي فنكلستين" ، واختارت المرأتان اسمَي "ليا كوهين" و" راحيل جايكوبسون" . وإذ أنهم سيسافرون من تل أبيب مباشرةً على طائرة تابعة لشركة "العال" ، فسيستخدمون جوازات السفر الإسرائيلية ثم يستعيدون أسماءهم المستعارة في سويسرا حيث تنتظرهم جوازات السفر المزيّفة .

كان الأربعة جميعاً قد استحقوا التكريم ، على حد قول أحد مصادر الاستخبارات الإسرائيلية في ما بعد . لكن الحقيقة هي أنه بعد الهزيمة الكاملة في عمّان كانت تشكيلة العملاء الصالحين لمثل هذه العملية محدودة . فقد كان فريق عمّان أفضل فريق استخدمه الموساد ، وتمكّن أفراده من إقناع الناس بأنهم كنديون ، وكانوا جميعاً قد خاضوا تجربة العمل في الميدان الدولي . أما الأربعة الذين اختيروا للمهمة السويسرية فلم يعملوا في إلاّ القاهرة ، وهي حالياً هدف آمن نسبياً في نظر الموساد . ولم يكن لأي منهم معرفة مبنية على الخبرة بالعمل السريّ في سويسرا .

وربما لذلك ، وفقاً لتقرير نشرته صحيفة "صنداي تايمز" اللندنية ، أنهى ياتوم توجيهاته بتذكير الحضور بأن لدى السويسريين الذين يقيمون في الكانتونات الألمانية اللغة ، كحال ليبيفلد ، "ميلاً لإبلاغ الشرطة بأي أمر يرتابون به" .

صافحهم ياتوم وتمنّى لهم التوفيق وهي البركة التقليدية التي تُمنح لكل فريق يُرسل في مهمّة . بعدها تسلّم أفراد المجموعة تذاكر السفر وأمضوا الأربع والعشرين ساعة التالية في بيت سريّ للموساد في المدينة .

يوم الجمعة 20 شباط (فبراير) صَعَدَ الفريق إلى طائرة "العال" المسافرة على الرحلة 347 إلى زوريخ ، وكانوا قد وصلوا إلى مطار بن غوريون قبل ساعتين من موعد الإقلاع امتثالاً لمطلب الشركة ، وانضمّوا إلى قائمة المسافرين ومعظمهم من السويسريين أو

الإسرائيليين ، في اجتيازهم المعابر الأمنية . وعند الساعة التاسعة صباحاً كان الأربعة يجلسون في مقاعدهم في درجة رجال الأعمال ويحتسون الشمبانيا ويناقشون إجازاتهم المقبلة . كانت عدّات التزلج في مخزن الطائرة .

كان بانتظارهم في مطار كلوتن في زوريخ ضابط الموساد من قسم بروكسيل ، وقد جاء بباص صغير ، فقام بدور مرشدهم السياحي وسمّى نفسه "افرايم روبنشتاين" .

قبل انتهاء فترة بعد الظهر استقر الجميع في البيت السريّ في ليبيفلد ، فأعدّت المرأتان طعام العشاء وجلسوا جميعاً يشاهدون برامج التلفزيون . وفي العشيّة وصلت سيارتان مستأجرتان من زوريخ يقودهما متطوّعان لخدمة الموساد . وإذ انتهى دورهما غادرا بالباص الصغير . وعند الساعة الواحدة من صباح السبت 20 شباط (فبراير) غادر الفريق البيت السريّ ، كلٌّ زوجين في سيارة ، وجلس روبنشتاين في السيارة الأولى ليقود الفريق إلى شارع فابرساكرشتراسه . وحالما وصلوا رُكنت السيارتان مقابل المبنى . لم تكن شقة الزين مضاءة . ومضى صولي غولدبيرغ وراحيل جايكوبسون وافرايم روبنشتاين مسرعين نحو الباب الزجاجي للمبنى . كان الأخير يحمل لفّة من البلاستيك وغولدبيرغ الحاسوب الصغير وجايكوبسون كيساً فيه أدوات التنصّت . وفي هذه الأثناء ، بدأت ليا كوهين وماتي فنكلستين بحماسة أعمال المراقبة فيما كانا يتظاهران بأنهما عاشقان .

على الجهة الأخرى من الشارع كانت امرأة عجوز تعاني من الأرق (وقد أصرّت الشرطة السويسرية في ما بعد على الإشارة إليها فقط باسم "مدام اكس") تجد صعوبة في النوم . ومن شبّاك غرفة نومها حملقت في منظر غريب . كان رجل (روبنشتاين) يلصق البلاستيك المتدلّي على الباب الزجاجي حتى لا يرى أحدٌ ما يجري في المبنى المقابل . وخلف الغطاء البلاستيكي كانت تتراءى لها هيئة شخصين آخرين . وفي الشارع كانت سيارة مركونة فيها زوجان مظلّلان . وكما نبّه داني ياتوم كان المنظر غير مألوف فعلاً . فاتّصلت المرأة بالشرطة .

بُعَيْد الساعة الثانية صباحاً وصلت سيارة "بي .أم .في ." تابعة للشرطة ، وضبط رجالها كوهين وفنكلستين وهما في غمرة العناق ، فأمروهما بالبقاء في السيارة . وفي الوقت نفسه وصلت سيارة إسناد للشرطة ، وسئل الثلاثة الذين كانوا داخل البهو إيضاح ما يفعلون ، فقال غولدبيرغ وجايكوبسون أنهما ظنّاً أنهما في المبنى الذي يقيم فيه أصدقاء لهما ، وأصرّ روبنشتاين على أنه كان يزيل ستار البلاستيك ولم يكن يعلّقه .

واتخذت الأمور بعدها طابعاً هزلياً . فاستأذن غولدبيرغ وجايكوبسون للذهاب إلى سيارتهما للتحقّق من عنوان أصدقائهما ، فلم يرافقهما إلى هناك أيّ شرطي . وفي الوقت نفسه انطرح روبنشتاين أرضاً فبدا كمن أصيب بنوبة قلبية . تجمّع كل رجال الشرطة لنجدته وجرى استدعاء الطبيب . ولم يحاول أحد إيقاف السيارتين اللتين فرّتا مسرعتين في شارع فابرساكرشتراسه في تلك الليلة الجليدية . وبعد قليل توقفت السيارتان وانتقل أحد الزوجين إلى السيارة الأخرى ، وعَبَر الأربعة الحدود إلى فرنسا في الساعات الأولى من الصباح . في هذه الأثناء نُقل روبنشتاين إلى المستشفى فقال الأطباء أنه لم يصب بنوبة قلبية ، فقُبض عليه .

وعند الساعة الرابعة والنصف صباحاً بتوقيت تل أبيب أيقظ الضابط المناوب في مقر الموساد ياتوم وأبلغه بما جرى . ولم يكلّف ياتوم نفسه عناء استدعاء سائقه فقاد السيارة بنفسه إلى المقر .

بعد العملية الفاشلة في عمّان جرى تبنّي خطة لمعالجة أي كارثة مماثلة تقع في المستقبل . والخطوة الأولى وفقاً للخطّة هي الاتصال بكبير المناوبين في وزارة الخارجية الذي يتصل بمدير مكتب رئيس الوزراء الذي يبلغ بدوره بنيامين نتنياهو . اتّصل هذا بسفير إسرائيل في المجموعة الأوروبية في بروكسيل افرايم هاليفي ، وهو دبلوماسي إنكليزي المولد أمضى حوالي ثلاثين عاماً كأحد كبار ضباط الموساد ، وكانت من أبرز مسؤولياته الحفاظ على علاقات حسنة مع أجهزة الأمن في الدول الأجنبية التي تقيم علاقات دبلوماسية مع إسرائيل . وكان قد لعب دوراً مهماً في رأب الصدع في العلاقات مع الأردن بعد العملية الخرقاء في عمّان . ويُنسب إلى نتنياهو قوله لهاليفي وقتها : "عالج هذه المشكلة وستكون صديقي مدى الحياة" .

راجع السفير مفكرته التي ينقلها أينما ذهب قبل اتخاذ قرار بمن يباشر اتصالاته ، فقرّ رأيه على جايكوب كلربرغر أحد كبار المسؤولين في وزارة الخارجية السويسرية . تكلّم هاليفي مع كلربرغر بغاية الدبلوماسية ، فقال انه وقع "حادث مؤسف" شارك فيه الموساد . فسأله : إلى أي حدّ هو مؤسف ، فقال هاليفي "إلى أقصى حدّ" . وهكذا تبلور روح الحديث فبدا أن هناك تفاهماً قريباً . أو هذا ما ظنه هاليفي قبل أن يتصل كلربرغر هاتفياً بالمدعي العام الفيدرالية السويسرية كارلا دل بونتي .

كـانـت دل بونتي تشبـه داني ياتوم بشـفـتـهـا السـفلى الناتئـة ونظارتهـا ذات الإطار الفولاذي ، وكانـت ضمن النظام القضـائي السويسري شخصية مرعبة كـما كان ياتوم في ميدان الاستخبارات الإسرائيلية . وأول سؤال طرحته أوحى باتجاهها : لماذا لم تقبض شرطة ليبيفلد على جميع عـملاء الموساد؟ لم يكن كلربرغر يعلم السبب . وأثار سؤال دل بونتي التالي مخاوف كانت مألوفة لديه : هل يحتمل أن يكون لعملاء الموساد مهمة إيرانية؟ منذ حرب الخليج وإسرائيل تكرّر الزعم بأن عدداً من الشركات السويسرية تزوّد إيران بما تحتاجه من تكنولوجيا لإنتاج الصواريخ . هل يحتمل أن تكون للعملية علاقةٌ ما بشغل إسرائيل الشـاغل الآخـر وهو مـا بات يعرف باسم "فـضيـحـة الذهب اليـهـودي"؟ كـانت المصارف السويسرية وجدت من مصلحتها التستّر على أموال ضخمة أودعها في خزائنها عدد من اليهود الألمان قبل الحرب العالمية الثانية وقبل أن يسقطوا ضحايا للنازيّة .

وخلال عطلة نهاية الأسبوع (21 – 22 شباط/ فبراير) استمرت دل بونتي في طرح الأسئلة ، بينما عمل هاليفي جاهداً لتهدئة الأمور .

لم يحسب هاليفي حساب القوى المتضافرة ضد داني ياتوم داخل إسرائيل . مع ترشّح أخبـار الحادث إلى داخل الموساد هوت المعنويات مرة أخرى . لم يمكن لياتوم هذه المرة إلقاء اللوم على نتنياهو لفشل عملية ليبيفلد ، فلم يكن رئيس الوزراء على علم مسبق بالعملية . ومن مكتب رئيس الوزراء بدأ الهمس يصل إلى وسائل الأعلام الإسرائيلية بأن ياتوم هالك . وتابع افرايم هاليفي على مدى ثلاثة أيام أخرى مناشدة كلربرغر ومجادلته لإبقاء الحادثة طيّ الكتمان . لكن كارلا دل بونتي لم تقتنع . ويوم الأربعاء الواقع في 25 شباط (فبراير) عَقَدت مؤتمراً صحافياً دانت فيه الموساد ، ومما قالته : "ما حدث أمر غير مقبول ويفسد العلاقات بين دولتين صديقتين" .

وخلال ساعات قدّم داني ياتوم استقالته . قُضِيَ على مستقبله المهني وأصبحت سمعة الموساد في الحضيض . في آخر لحظات عمله كمدير عام فاجأ موظفيه الذين كانوا متجمّعين في مطعم الموساد . اختفت نبرة الجندي البروسي الباردة واستُبدلت بنبرة عاطفية : انه آسف لاضطراره إلى الرحيل عنهم في مثل هذا الوقت ، لكنه حاول أن يكون لهم القائد الأفضل الممكن . وينبغي أن يتذكّروا دائماً أن الموساد أكبر من الأشخاص . وأنهى كلامه بتمنيات لمن سيحل محلّه بالحظ الوافر الذي سيحتاج إليه . كان هذا أقرب تعبير صدر عن ياتوم عن موقفه

من رئيس وزراء ظلّ يعتقد بإمكان سيطرة مكتبه على الموساد مهما يطل الزمن . خرج ياتوم من المطعم الساكن ، ولم يبدأ التصفيق إلاّ عندما دخل الممرّ ، ولم يلبث أن توقّف بسرعة كما بدأ .

وبعد أسبوع وافق افرايم هاليفي على تولّي إدارة الجهاز بعدما اعترف بنيامين نتنياهو في سابقة يسجّلها رئيس الوزراء بـ" إنني لا أستطيع نكران أن صورة الموساد قد تضرّرت من فشل بعض المهام" . وعلى نهج السياسيين البارعين سار نتنياهو فأغفل الدور الذي لعبه هو في هذا الفشل .

أصبح افرايم هاليفي تاسع مدير عام للموساد يوم الخميس 5 آذار (مارس) 1998 . خرج على التقاليد فلم يستدعِ كبار الموظفين لديه لسماع رأيه في كيفية إدارة الجهاز في السنتين المقبلتين . فعندما أعلن نتنياهو تعيين هاليفي ، أعلن أيضاً أنه في 3 آذار (مارس) 2000 سيتولى نائب المدير العام أميرام ليفين مسؤولية إدارة الجهاز . وقد قوبل النبأ ببعض الاستغراب ، فهذه أول مرة يعيّن فيها مديرٌ عامٌ لولاية محدّدة ، وأول مرة يوعَد فيها نائب المدير العام بتولّي المنصب الأرفع .

كان ليفين ، كسلفه مئير عميت ، بلا خبرة مسبقة بأعمال الاستخبارات ، لكنه كان الآمر المتميّز للجيش الإسرائيلي في شمال فلسطين وجنوب لبنان .

عام 1999 وجد ياتوم لنفسه موضعاً لائقاً في صناعة الأسلحة المزدهرة في إسرائيل ، وأصبح بائعاً لإحدى أكبر شركات صناعة الأسلحة في البلاد . ولا تزوّد الشركة تشكيلة من الأسلحة للاستخدام المحلي فحسب ، بل لها حصّة كبيرة في الصادرات الموجّهة إلى بلدان العالم الثالث . ويقوم ياتوم بزيارات منتظمة إلى البلدان الإفريقية وبلدان أميركا الجنوبية . وبين الحين والآخر يزور واشنطن .

كانت المهمة الأولى الملقاة على عاتق هاليفي تخفيض التوتر الهائل وحالات الاستياء الرهيبة داخل الموساد التي أضرّت كثيراً بصورة الجهاز داخل إسرائيل وخارجها . وقد تلقّى المدير العام الجديد اتصالات هاتفية من وكالة "سي .آي .أي ." وجهاز "أم .آي .6" تهنّئه بالمنصب الجديد ، كما جرت العادة ، لكن المهنئين أبلغوه أن جهازيهما يفضّلان التريث لرؤية كيفية معالجته للأزمة القائمة داخل الموساد قبل أن يُلزموا جهازيهما التزاماً تاماً بالتعاون المؤسّس على الثقة والصراحة . وأحد عوامل هذه الأزمة هم المتطرّفون في الحكومة الإسرائيلية وخصوصاً رئيس وزرائها .

فهل يتمكن هاليفي ابن المدينة والذي سيحال بعد عام على التقاعد وهو الأكبر سناً بسنوات من أيٍّ من أسلافه في هذا المنصب من منع نتنياهو من التدخّل؟ ولا نكران للمهارات الدبلوماسية الأكيدة التي يتمتع بها هاليفي الذي لعب دوراً مركزياً في المفاوضات المؤدية إلى توقيع معاهدة السلام مع الأردن عام 1994 ، لكنه بقي سنوات عدة بعيداً عن عمل الاستخبارات الفعلي . فمنذ أيام خدمته في الموساد أظهر الجهاز دلائل متزايدة على وقوعه في الفوضى نتيجة محاولات كبار الضباط العمل على الترقّي في مراتبه . وقد بقي معظم هؤلاء الذين كانوا في منتصف أعمارهم في مناصبهم . فهل يستطيع هاليفي أن يتعامل معهم بحزم؟ هل يمتلك المهارات الفنية الضرورية لرفع المعنويات؟ إن الاختلاط بالناس في مربع حفلات الكوكتيل في بروكسيل لم يكن من أفضل الاستعدادات للقيام بمهمة إبعاد كبار العملاء عن حافة الاستقالة . يشير منتقدوه إلى أنه ليس لهاليفي أي خبرة ميدانية عملانية شخصية ، فقد كان رجلاً مكتبياً في الفترة السابقة التي أمضاها في الموساد . ثم ماذا يستطيع أن يحقّق في سنتين؟ أم تراه سيوقّع على بياض لنتنياهو أو ربما لزوجة نتنياهو ، سارة؟ وقد سرت تكهّنات في أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية بأنها لعبت دوراً في إزاحة ياتوم الذي لم تكن ترتاح إليه .

نجح هاليفي في إثارة إعجابها ، فأهدى إليها رقاقة حاسوب طوّرها علماء الأبحاث في الموساد ، فإذا زُرعت تحت جلدها ساعدتها على النجاة في حال وقوعها غير المحتمل في أيدي الإرهابيين . فالإشارة التي تصدر عن الرقاقة والتي تعمل بطاقة الجسم الطبيعية تتّصل بأحد الأقمار الاصطناعية الإسرائيلية الجديدة ، الأمر الذي يساعد على تحديد مخبأ من يحملها . وليس معلوماً ما إذا كانت سارة قد زرعت الرقاقة داخل جسمها بالفعل .

ولكن سرعان ما برزت مسائل أشدّ إلحاحاً من جذب زوجة رئيس الوزراء . فالعملية الرئيسية الأولى التي صادق هاليفي عليها بحماسة وهي محاولة لإقامة قاعدة تجسُّس في قبرص واجهت الفشل الذريع . كان أمر عميلين للموساد يتظاهران بأنهما مدرّسان يمضيان إجازتهما قد أفتُضح لجهاز الأمن القبرصي الكفوء على صغره ، فاقتحم شقة العميلين واكتشف أنها مليئة بالمعدّات العالية التطوّر القادرة على التجسّس على خطط قبرص لتعزيز دفاعاتها في وجه جارتها تركيا .

أرسل هاليفي نائبه إلى قبرص للتفاوض في شأن إخلاء سبيل العميلين ..ولعله تمنّى

في ما بعد لو أنه ذهب بنفسه ، فرئيس إسرائيل عيزرا وايزمان كان صديقاً شخصياً حميماً للرئيس القبرصي بيافكوس كلاريدس (كان الرجلان قد عملا معاً في شبابهما في القوة الجوية الملكية البريطانية) . أرسل وايزمان رئيس أركانه "ليذلّ نفسه في قبرص" ، ثم هاجم هاليفي بصورة كان نتنياهو سيتردّد دون استخدامها ضد ياتوم .

وأعقب ذلك حدوث فضيحة علنية أخرى عندما اضطر إلى إلغاء خطة لاغتيال الرئيس العراقي صدّام حسين أثناء زيارته لعشيقته ، بعدما تسرّبت تفاصيل الخطة إلى أحد الصحافيين الإسرائيليين . ولم يعرف نتنياهو بما حدث إلاّ عندما اتصل الصحافي بمكتبه طالباً التعليق . ومرة أخرى وجد هاليفي السيء الطالع نفسه بمواجهة عملية تأنيب قاسية .

بقي رئيس الوزراء الزئبقي أسابيع يتجنّب الاتصالات غير الأساسية برئيس الموساد . حتى كانت نهاية تشرين الثاني (نوفمبر) 1998 ، وكان رئيس الوزراء التركي بلند أجاويد قد اتصل هاتفياً بنتنياهو وسأله إذا كان الموساد مستعداً للمساعدة على اعتقال عبد الله أوج ألان الزعيم الكردي الذي تصفه البلدان الأخرى بأنه إرهابي ، وتحمّله تركيا المسؤولية عن مقتل 30 ألفاً على أرضها . على مدى عشرين عاماً خاض حزب العمال الكردي "بي .كا .كا ." بقيادة أوج ألان حرب عصابات تهدف إلى تحقيق الحكم الذاتي للإثني عشر مليون كردي في تركيا الذين لا يتمتعون بحقوق الأقليات كالتعليم أو السماح لهم باستخدام لغتهم في البثّ .

نجح أوج ألان باستمرار في مراوغة جهاز الأمن التركي بلا عناء . كان زعيماً بثّ في شعبه حماسة مسيحانية . كان كلٌ منهم رجلاً كان أو امرأة أو طفلاً مستعداً للموت من أجله . وكان العديد منهم يعتبرونه رمزاً أسطورياً للجرأة والدهاء . وكانت أعماله البطولية تُروى بلا كلل كلما اجتمع كرديان أو أكثر . كانت هناك عاطفة صادقة في خطبه وتحدياً جريئاً في مواجهته تركيا .

في تشرين الثاني (نوفمبر) 1998 وبعدما انتقل أوج ألان بسرعة عبر موسكو ظهر في روما ، فرفضت الحكومة الإيطالية استرداده إلى تركيا . كما رفضت أيضاً طلبه الحصول على اللجوء السياسي . كان الإيطاليون قد اعتقلوا أوج ألان بموجب مذكرة توقيف ألمانية لاستخدامه جواز سفر مزوّراً . لكن أخلي سبيله عندما سحبت بون طلب استرداده مخافة

إغضاب جاليتها التركية الكبرى . في تلك اللحظة اتصل رئيس الوزراء التركي بلند بنتنياهو .

تعتبر إسرائيل قيام علاقة تعاون مع تركيا عنصراً مهماً من عناصر خطتها الاستراتيجية والدبلوماسية للبقاء ، ولذلك وافق نتنياهو ، وأمر هاليفي بالعثور على أوج ألان في عملية أخرى لا يظهر تورّط الموساد فيها جلياً . فإذا نجحت ادّعت الاستخبارات التركية الفضل كلّه لنفسها في ذلك .

أطلق الموساد على الخطة اسماً رمزياً "اليقظ" ، وهو اسم يعكس اهتمام هاليفي نفسه بعدم التسبّب بتعطيل عمليته القائمة في العراق حيث يتعاون ضباط الموساد مع المتمردين الأكراد على زعزعة نظام صدام حسين .

أُرسل ستة عملاء من الموساد إلى روما كان في عدادهم مساعدة عميل وتقنيان من وحدة الاتصالات في الموساد .

ومن منزل سري يقع قرب "البانتيون" أخضع الفريق للمراقبة شقة أوج ألان القريبة من الفاتيكان . وكُلّفت المرأة السعي للاتصال به ، فاتّبعت التعليمات الثابتة التي استخدمتها زميلة لها لإغراء موردخاي فعنونو ليلقى مصيره في المدينة عينها قبل عقد من السنين . لكن الخطة لم تنجح هذه المرة لأن الزعيم الكردي قرّر مغادرة إيطاليا فجأةً . وراح فريق الموساد يبحث عنه في حوض المتوسط ، في إسبانيا والبرتغال وتونس والمغرب وسورية . وقد زار أوج ألان كل هذه البلدان وغادرها بعدما أحجمت عن منحه اللجوء السياسي . وفي 2 شباط (فبراير) 1999 عُثر على الزعيم الكردي وهو يحاول دخول هولندا ، لكن الحكومة الهولندية منعته . وأبلغ ضابط أمن هولندي في مطار شيبول في أمستردام رئيس فرع الموساد المحلي أن أوج ألان رحل على طائرة تابعة لشركة "كا أل أم" متجهة إلى نيروبي . فانطلق متعقّبو أوج ألان وراءه نحو العاصمة الكينية التي وصلوها صباح يوم الخميس في الخامس من شباط (فبراير) .

أنشأت كينيا وإسرائيل على مر السنين "تفاهماً" وثيقاً يتعلّق بشؤون الاستخبارات . وإذ كانت كينيا جزءاً من رحلة القنص التي يقوم بها الموساد في إفريقيا الوسطى ، فقد كشف الجهاز الإسرائيلي للكينيين نشاطات شبكات التجسّس الأجنبية الأخرى . وفي المقابل استمرّت كينيا بمنح الموساد "وضعاً خاصاً" فسمحت له بالاحتفاظ ببيت سرّي في

المدينة ، وسهّلت له الاتصال بجهاز الأمن الكيني الكفوء برغم صغر حجمه .

ولم يلبث فريق الموساد أن عثر على مكان إقامة أوج ألان في مجمّع مباني السفارة اليونانية في نيروبي . كان الأكراد الذين افترض فريق الموساد أنهم حراسه الشخصيون يدخلون المجمّع ويخرجون منه بين الحين والآخر . وكان رئيس فريق الموساد يرفع تقريراً يومياً إلى تل أبيب . وكان الأمر الدائم الذي يتلقّاه : "راقبوا ولا تأتوا بحركة" ، ثم تغيّر الأمر تغيّراً مثيراً : "استخدموا كل الوسائل المتاحة" لإخراج عبد الله أوج ألان من مجمّع السفارة وإرساله إلى تركيا . كان هاليفي هو من أصدر الأمر .

ساعد الحظ في إنجاح مهمة الفريق . خرج أحد الأكراد من السفارة وسار بسيارته إلى حانة قريبة من فندق "نورفولك" الراقي . واستخدم أحد عناصر الفريق حيلة معروفة ، للموساد فسار إلى جانب الكردي واستغلّ لون بشرته الداكن وإتقانه اللهجة الكردية ليزعم أنه كردي يعمل في نيروبي . ومنه علم أن أوج ألان بدأ يتململ . فلم يأته الردّ على طلبه اللجوء السياسي في جنوب أفريقيا ، وهناك دول إفريقية أخرى مثلها تنفر من منح الزعيم الكردي تأشيرة دخول إلى أراضيها .

واستخدم فريق التنصّت في الموساد أجهزته للإصغاء إلى الاتصالات التي تجري مع المجمّع ومنه ، فاتّضح أن اليونان ترفض أيضاً منح أوج ألان اللجوء .

عندها ضرب عميل الموساد الذي التقى الكردي في الحانة ضربته . فاتصل هاتفياً بالكردي في مجمّع السفارة ودعاه إلى "اجتماع عاجل" . فالتقيا مرة أخرى في الحانة حيث أبلغه أن حياة أوج ألان في خطر إذا بقي مقيماً في المجمّع . ولا أمل له إلاّ بالالتحاق بإخوانه الأكراد ليس في تركيا بل في شمال العراق حيث الرحابة الجبلية تقيه من الخطر وتوفّر له فرصة إعادة تنظيم قواته . كان أوج ألان نفسه قد أخذ يدرس مثل هذه الخطة بالفعل ، وقد سمع فريق المراقبة الإسرائيلي ذلك . وأقنع عميل الموساد الكردي بالعودة إلى السفارة والعمل على إقناع أوج ألان بالخروج إليه لمناقشة المقترح . وهكذا نُصب الشرك القاتل . ولم يبقَ إلاّ الانتظار لتبيّن كم سيصمد أوج ألان أمام إغراء الطُعم .

وعرف فريق الموساد من اعتراض الاتصالات اللاسلكية من وزارة الخارجية اليونانية بالمجمّع أن مضيفي أوج ألان المتمنّعين لن يلبثوا أياماً قليلة حتى يطلبوا منه الرحيل . وفي رسالة سرية جداً لإطلاع السفير الشخصي وحده ، قال رئيس وزراء اليونان كوستاس

سيمتيس أن استمرار بقاء أوج ألان في المجمّع سيحدث "مجابهة سياسية وربما عسكرية" في اليونان .

وفي صباح اليوم التالي حطّت طائرة خاصة من طراز "فالكون - 900 " في مطار ويلسون في نيروبي ، وقال قائدها أنه جاء لينقل مجموعة من رجال الأعمال سيسافرون لحضور مؤتمر في أثينا .

ما حدث بعدئذ لا يزال مثار جدل واسع . فقد زعم محامي أوج ألان الألماني في ما بعد أنه "بالاستناد إلى تشويه لحقائق الموقف من جانب السلطات الكينية ، فقد جرى انتزاع (أوج ألان) بالقوة من المجمّع" . لكن الحكومة والسفارة اليونانية في نيروبي أنكرتا ذلك بشدّة ، وأصرّ اليونانيون على أن الزعيم الكردي غادر المجمّع مخالفاً نصيحتهم له بالبقاء .

لكن المؤكد هو أن الطائرة الخاصة أقلعت من نيروبي وهي تقلّ أوج ألان . وحالما خرجت من المجال الجوي الكيني بدأ طرح الأسئلة :

هل اتّبع فريق الموساد أسلوبه المعتاد فحقن أوج ألان بعقار يشلّ حركته حالما خرج من المجمّع؟ أم هل اختطف أوج ألان كما فعل فريق آخر اختطف أدولف آيخمان قبل سنوات عدة في بيونس أيرس؟ وهل تعامت كينيا عن عمل يخالف جميع القوانين الدولية؟

بعد ساعات من احتجاز أوج ألان في أحد السجون التركية ، ظهر رئيس الوزراء بلند أجاويد على التلفزيون متهلّلاً ليتحدث عن "انتصار استخباراتي ... عملية مراقبة ذكية جرت في نيروبي على مدى أثني عشر يوماً" . لم يذكر الموساد . كان هذا هو الشرط .

كان على أفرايم هاليفي أن يوازن نجاح العملية بخسارة شبكة تجسّس في العراق كانت تعتمد كثيراً على الدعم الكردي لها . ولم يكن هاليفي أول رئيس للموساد يتساءل ما إذا كانت حماسة بنيامين نتنياهو لتحويل الموساد إلى جهاز مرتزقة ستؤدي إلى عواقب بعيدة المدى في ميدان جمع المعلومات السريّة الواسع .

وما من شك في أن نجاح العملية فقد بريقه أمام فشل ذريع آخر ورثه هاليفي .

ففي الخامس من تشرين الأول (أكتوبر) 1992 هوت طائرة شحن تابعة لشركة "العال" الإسرائيلية في مبنى سكني يقع بالقرب من مطار شيبول في أمستردام ، فقُتل

ثلاثة وأربعون شخصاً وأصيب عشرات آخرون بجراح . ومنذ وقوع الحادث اعتلّت صحة المئات من سكان المنطقة . وعلى رغم حملة تضليل متواصلة لإخفاء حقيقة أن الطائرة كانت تحمل مواد كيماوية قاتلة ، ومنها المدخلات لإنتاج غاز الأعصاب المهلك "سارين" . فقد تكشّفت الحقائق وتسلّطت الأنظار على مركز أبحاث سرّي يقع في ضواحي تل أبيب ينتج فيه بعض العلماء من ضمن ما ينتجونه تشكيلةً من الأسلحة الكيماوية والبيولوجية ليستخدمها القتلة المحترفون في الموساد .

يقع "معهد الأبحاث البيولوجية "على بعد أثني عشر ميلاً جنوب شرقي وسط تل أبيب . والمعهد صلة وصل داخل نظام الدفاع المتعدّد الطبقات في إسرائيل . فداخل مختبراته وورشاته يجري تصنيع تشكيلة واسعة من الأسلحة الكيماوية والبيولوجية . وبعض كيميائيي المعهد عملوا من قبل لدى جهاز استخبارات "كي .جي .بي ." السوفياتي وجهاز "ستاسي" الألماني الشرقي ، وقد صنّعوا مع زملائهم السمّ الذي استخدم في محاولة قتل خالد المشعل ، أحد زعماء منظمة "حماس" الفلسطينية .

وتتضمّن برامج الأبحاث الحالية في المعهد إنتاج تشكيلة من الكائنات الممْرضة التي يقول تقرير سري أعدّته وكالة "سي .آي .أي ." لوزير الدفاع الأميركي وليام كوهين أنه "سيوجّه إثنياً" . ويزعم التقرير أن العلماء الإسرائيليين "يحاولون استخدام الاكتشافات الطبية لتعيين المورثات الخاصة التي يحملها بعض العرب حتى يصنعوا بكتيريا أو فيروساً معدّلاً وراثياً ليناسبهم" .

ويخلص التقرير إلى القول "أن المشروع لا يزال في مراحله الأولى لكن القصد منه هو استغلال أثر الفيروسات وبعض أنواع البكتيريا في تعديل الهوية الوراثية (دي أن أي) داخل الخلايا الحيّة للجسم الذي تدخله" . ويحاكي عمل معهد الأبحاث عملاً مماثلاً قام به علماء في جنوب إفريقيا خلال حكم الفصل العنصري لصنع "سلاح إصطباغي هدفه الأشخاص السود دون غيرهم" .

وقد تخلّت جنوب إفريقيا عن المشروع عندما وصل نلسون منديلا إلى السلطة ، لكن أثنين على الأقل من العلماء الذين عملوا في البرنامج في جنوب إفريقيا انتقلا إلى إسرائيل .

إثر اكتشاف ضلوع الدولة اليهودية في مثل هذه البرامج ، قُرعت أجراس الخطر

لأسباب ليس أقلُّها ذلك الشَبَه الرهيب بينها وبين الاختبارات الخاصة بالهندسة الوراثية التي أجراها النازيون . وقد أعلن ديدي زوكر وهو عضو في البرلمان الإسرائيلي أنه "يجب ألاّ نسمح لأنفسنا بصنع مثل هذه الأسلحة" .

كانت طائرة "العال" المتحطِّمة تحمل المواد الأولية لصنع مثل هذه الأسلحة في تلك الليلة من ليالي تشرين الأول (أكتوبر) 1992 . كانت حمولتها تزن 114 طناً وكان فيها أيضاً صواريخ "سايد ويندر" وأدوات إلكترونية . وأخطر ما في الحمولة اثنا عشر برميلاً من مادة "دي .أم .بي ." ، أحد مكوّنات غاز "سارين" ، وقد اشترتها إسرائيل من شركة "سولكاترونيك" لإنتاج المواد الكيماوية ومقرها نيو جرسي . وقد أصرّت الشركة على الدوام بأن إسرائيل أبلغتها بأن المواد الكيماوية "ستستخدم لاختبار الأقنعة الواقية من الغاز" . لكن معهد الأبحاث البيولوجية لا يقوم بمثل هذه الاختبارات .

تأسّس المعهد عام 1982 في غرفة محصّنة صغيرة تحت الأرض ، وهو اليوم يتمدّد على مساحة تزيد على أربعين ألف متر مربّع . ومن زمان أزيلت أشجار الفاكهة وحل مكانها حائط إسمنتي عال تزنّر أعلاه أجهزة حسّاسة . ويتولّى حرّاس مسلّحون تسيير دوريات في محيط المعهد الذي لم يعد منذ مدة طويلة موضوعاً للتدقيق العلني . وقد أُسقط عنوانه المضبوط في ضواحي نس زيونا من دليل الهاتف الخاص بتل أبيب . كما أُزيل موقعه عن خرائط المنطقة كلّها . ولا يُسمح لأي طائرة بالمرور في فضائه .

ولا يفوقه في السريّة إلاّ مركز ديمونا في صحراء النقب . ففي دليل الهاتف السرّي للجيش الإسرائيلي يوصف المعهد على أنه "يتولى تقديم الخدمات لوزارة الدفاع" . وكما الحال في ديمونا ، فإن عدداً من مختبرات الأبحاث والتطوير التابعة للمعهد مخفيّةً على عمق كبير تحت الأرض . وهناك يقيم العلماء البيولوجيون وعلماء الخلايا الوراثية إلى جانب عوامل الموت المقننة : السموم التي تتسبّب بتسمّم غذائي مشلّ وتؤدي إلى الموت ، وحتى السم الأكثر زعافاً الذي يتسبّب بالتهاب الدماغ والنخاع الشوكي في الخيل وكذلك بالحِمرة .

وفي مختبرات أخرى يعبر إليها العلماء من الغرف المحكمة يعمل هؤلاء على مجموعة من عوامل الأعصاب ، كالعوامل الخانقة وعوامل الدم والعوامل المسببّة القروح ، ومن هذه مادة "الطابون" التي لا تُرى ولا تُشّم عندما تنتشر في الهواء . وغاز "صومان" وهو آخر غاز أعصاب أنتجه النازيون لا يُرى في شكله البخاري لكن له رائحة الفاكهة . وتضمّ تشكيلة

العوامل المسبّبة القروح اللكورين والفوسجين والدايفوسجين التي تحاكي رائحتها رائحة العشب الذي جُزّ لتوه . أما عوامل الدم فتضمّ ما يدخل السيانايد في تركيبه ، وأما العوامل المسبّبة القروح فتدخل في إنتاجها عوامل مماثلة استخدمت في الحرب العالمية الأولى .

ولا يلفت شكل المعهد الخارجي النظر إذ ليس ثمة سوى بضع نوافذ في جدرانه الإسمنتية القاتمة اللون ، أما في الداخل فيقوم نظام أمني شديد التطوّر . فالدخول إلى أي منطقة يستلزم استخدام كلمات سرّ ووسائل تعرّف بصري . والحرس يجوبون الممرات ، والأبواب المنزلقة المضادة للقنابل لا تفتح إلاّ بتمرير بطاقات تتغيّر رموزها يومياً .

ويخضع جميع الموظفين إلى الكشوفات الطبية كل شهر . وقد خضعوا جميعاً إلى غربلة دقيقة ، كما أُخضعت عائلاتهم لتدقيق مماثل .

وتقوم داخل المعهد دائرة خاصة لصنع أسلحة السموم القاتلة ليستخدمها عملاء الموساد في تنفيذ المهام التي تقرّها الدولة وقتل الأعداء بدون محاكمتهم . خلال السنوات الماضية مات ما لا يقل عن ستة عمّال في المعهد ، لكن الرقابة العسكرية الصارمة في إسرائيل تخفي أسباب موتهم .

هذا الستار الأمني تعرّض للتفسّخ لأول مرة على يد ضابط سابق في الموساد هو فيكتور أُستروفسكي الذي قال "كنا نعلم جميعاً بأن السجناء الذين يأتون بهم إلى المعهد لن يخرجوا منه أحياء . فقد استُخدم المتسلّلون من منظمة التحرير الفلسطينية كحقول تجارب . فبواسطتهم يتحقّق العلماء من سلامة عمل ما ينتجونه من أسلحة ويتمكّنون من تحسين أدائها" . وحتى الآن لم يصدر عن إسرائيل أي إنكار لهذه الاتهامات .

مع بدء هجوم حلف شمال الأطلسي (الناتو) الربيعي ضد صربيا عام 1999 ، سنحت لهاليفي الفرصة حتى يقدّم الموساد معلومات سرية للبلدان الـ19 التي شكّلت التحالف . كان الموساد قد أقام علاقات قديمة في المنطقة لخشيته من أن تتحوّل بلاد البلقان في نهاية المطاف إلى جيب إسلامي ، مما يتيح لأعداء إسرائيل العبور من الباب الخلفي لشنّ الهجمات عليها . وأُتيحت لهاليفي فرصة ثمينة لزيارة مقر "الناتو" في بروكسيل والاجتماع بنظرائه . سافر إلى واشنطن للتباحث مع وكالة "سي .آي .أي ." ، وعندما عاد راح يعمل لساعات طويلة كل يوم ولا يأخذ يوم راحة واحداً في الأسبوع .

وفي ربيع 1999 عاد بعبع الموساد القديم فيكتور أُستروفسكي من جديد لإثارة أعصاب

الجهاز . فقد ذكرت تقارير سرّبها بعناية فريق المحامين الذين يدافعون عن الليبيين المتّهمين بتفجير الطائرة الأميركية فوق لوكربي أن أُستروفسكي سيقدّم بعض الأدلة للدفاع . ونظراً إلى أن ضابط الموساد السابق ترك الجهاز قبل مدة من وقوع الحادث ، فإن من الصعب تصوّر ما يمكن أن يساهم به . ومع ذلك فإن منظر أُستروفسكي في منصة الشهود في المحكمة المؤلفة خصيصاً للنظر في القضية في لاهاي أثار غضب هاليفي على حد ما رواه مصدر كبير في الموساد . فهو يعتقد أن "تفاهماً" نشأ بين أُستروفسكي والموساد يقضي بألاّ يتسبّب بإحراج الجهاز مرة أخرى مقابل السماح له بالعيش بلا قيود . وقد فكّر هاليفي بسلوك طريق العدالة لمنع أُستروفسكي من الإدلاء بشهادته لكنهم نصحوه بأن لا سبيل إلى ذلك .

وفي كل حال ، فعندما سيمثل أُستروفسكي أمام المحكمة للشهادة ، إذا صحّ الخبر ، سيكون هاليفي قد تقاعد .

أن تحقيق كل ما عليه تحقيقه قبل الرحيل عن الجهاز يبقى اختباراً صعباً لمقدرة هاليفي الجسدية والعقلية على الصمود . لقد استغل جهازا "أمان" و "شين بيت" فرصة الاضطرابات داخل الموساد لتحسين موقفيهما ليتقدّما على الأجهزة الأمنية كافة . لكن أحداً لم يقترح انتزاع دور جهاز الموساد كعين إسرائيل السريّة على العالم . فإذا استغنت إسرائيل عن مهاراتها فقد تواجه الهزيمة على يد أعدائها في القرن المقبل . فإيران والعراق وسورية قد طوّرت جميعاً تكنولوجيا تجب مراقبتها عن كثب .

في البداية كان أسلوب الموساد العملاني عمل ما يجب عمله ولكن في سريّة . وفي أحد اجتماعاته الثنائيّة مع أحد الموظفين قال هاليفي أنه يتمنى أن يرى أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية وقد تحوّلت مرة أخرى إلى عائلة موحّدة "ويكون الموساد العمّ الذي لا يتكلم عنه أحد" .

والوقت وحده سيظهر ما إذا كان هذا حلماً خيالياً أو ما إذا كانت خشية بعض المراقبين في محلها ، وكلما ابتعد الموساد عن دبٍّ وقع في جبٍّ .

وقد اقترب الموساد من الجبّ في حزيران (يونيو) 1999 عندما بلغه احتمال أن يطلب إليه نقل مقره الأوروبي من هولندا في أعقاب مزاعم مربكة للغاية بأنه كان يبتاع البلوتونيوم والمواد النووية الأخرى سرّاً من المافيا الروسية . وقد أطلق هذا الزعم قسم صغير لكنه مريع من أقسام الاستخبارات الهولندية يدعى "إنتل" .

أجرت "إنتل" تحقيقاتها من غرفة محصّنة تحت الأرض بُنيت لإيواء العائلة المالكة الهولندية في حال تعرّض أمستردام لهجوم نووي سوفياتي . وتقع الغرفة المحصّنة بالقرب من محطة القطار المركزية في المدينة . وأظهرت تحقيقات "إنتل" أن في المحطة الأخيرة لخطوط السكة الحديد كانت تنتهي رحلة بعض المواد النووية المسروقة من مختبرات الأسلحة الروسية ومنها "تشليابيسك-70" في جبال الأورال و"أرزاماس-16" في " نيجنيل نوفغورود" التي كان اسمها غوركي .

وكان رد بعض كبار ضباط الموساد على "إنتل" أن عملاء الاستخبارات الإسرائيلية اشتروا تلك المواد المدمّرة من المافيا الروسية لأنها بالضبط كانت مسروقة . فهذه هي الطريقة الوحيدة لمنع بيع تلك المواد إلى المجموعات الإسلامية وغيرها من المنظمات الإرهابية .

واعترف محققو "إنتل" بأن من الممكن تصديق زعم الموساد ، لكنهم باتوا مقتنعين بأن المواد النووية شُحنت سراً عبر مطار شيبول في أمستردام إلى إسرائيل لتعزيز مصنع الأسلحة النووية الإسرائيلي في ديمونا . ووفقاً للتقديرات فإن عدد الأسلحة المخزونة هناك وصل عام 1999 إلى 200 سلاح نووي .

وأعادت أخبار تعامل الموساد مع المافيا الروسية من جديد ذكرى كابوس نووي لم يكن قد تبدّد كلياً . وبينما زال مبدأ الحرب الباردة "ماد" (الدمار المتبادل المضمون) ، فقد حلّ محلّه سيناريو أخطر يجري وفقه بيع التقنية والمواد النووية . إنها الرأسمالية على الطريقة الشرقية الرهيبة حيث تتعاون عصابات الجريمة المنظّمة والمسؤولون الحكوميون الفاسدون على إيجاد أسواق جديدة للمواد النووية ، ويكون المعروض للبيع بعض أخطر الأسلحة في العالم .

ويتولى معهد "ترانسيورانيوم" الأوروبي في كارلسرووه في ألمانيا الجزء الأكبر من عمليات تتبّع خطّ سير المواد النووية المسروقة . في ذلك المعهد يستخدم العلماء أحدث المعدّات لمعرفة ما إذا كانت المواد المسروقة جاءت من مصدر عسكري أو مدني . لكنهم يعترفون بأن الأمر "يشبه التعرّف إلى هوية لصّ لم تؤخذ بصمات أصابعه" .

وحتى يتجنّب هاليفي تلقّي أسئلة ستكون محرجة بلا شك إذا عُثِرَ على بصمات أصابع الموساد ، قام بزيارة سرية إلى هولندا في أوائل حزيران (يونيو) ليشرح لـ"إنتل" دور الموساد . لكن الاستخبارات الهولندية ظلّت غير مقتنعة .

عاد هاليفي إلى إسرائيل ليخبر رئيس الوزراء الجديد إيهود باراك أن على الموساد أن تستعدّ لنقل مقرّها الأوروبي من مجمّع مباني شركة طيران "العال" في مطار شيبول .

وقد جعل الموساد مقرّه هناك منذ ست سنوات . فمن مكاتب تقع في الطبقة الثانية من المجمّع المعروف في شيبول باسم "إسرائيل الصغرى" ، يدير ثمانية عشر ضابطاً في الموساد العمليات الأوروبية . ووفقاً لأحد مصادر الجهاز فإن موقف هاليفي كان واضحاً وهو : إن رحيل الموساد عن هولندا أفضل من طردها منها كما حدث لها في بريطانيا في عهد حكومة ثاتشر .

كان قرار الموساد إدارة عملياته ضمن بريطانيا من دون إبلاغ حكومتها بالأمر هو ما أدى إلى تدهور العلاقات مع لندن . ومن المفارقات أنه إذا رحل الموساد عن شيبول فربما للعودة إلى لندن على الرحب والسعة في ظل تأييد رئيس الوزراء طوني بلير . فهذا يعتقد أن وجود الموساد القوي سيعزّز جهود جهاز "أم .آي .5" لمتابعة مراقبة المجموعات الشرق أوسطية التي تتخذ مقراً لها في لندن .

ومن العناصر الحاسمة في اتخاذ خطوة الانتقال إلى بريطانيا نقلُ شركة "العال" مقرّها من شيبول إلى هيثرو . ففي ضوء رواج تجارة الشحن التي تتولاها "العال" يُتوقّع أن تعزّز الخطوة موقف مطار هيثرو بصورة لافتة .

وقد تأكّد لـ"إنتل" أن العلاقة بين الموساد و"العال" تشكّل جزءاً أساسياً من حركة نقل المواد النووية .

وتصرّ الوكالة الهولندية بأنه ما كان للموساد أن يبدأ تجارة شراء المواد النووية المحفوفة بالمخاطر لولا وجود خطة نقل هذه المواد بأمان وسريّة إلى إسرائيل .

ويرى مساعد وزير الدفاع الأميركي السابق غراهام إليسون ، وهو حالياً مدير مركز هارفرد للعلوم والشؤون الدولية ، "أن بوسع أي مجموعة إجرامية أو إرهابية أن تشحن سلاحاً إلى الولايات المتحدة بعد تفكيكه إلى قطع صغيرة وخفيفة إلى حد يمكن إرسالها عبر البريد" .

وتشير هذه الكلمات بصورة غير مباشرة إلى أن منظمة عالية الكفاءة كالموساد تضع إسرائيل بتصرّفها إمكانات هائلة لن تجد صعوبةً تُذكر في تهريب المواد من شيبول .

وكان شك "إنتل" في شأن مثل هذا التهريب قد أثير لأول مرة عندما بلغتها معلومات تفيد بأن طائرة الشحن التابعة لشركة "العال" التي تحطّمت بعد إقلاعها بقليل من مطار شيبول في تشرين الأول (أكتوبر) 1992 كانت تحمل مواد كيماوية .

ومنذ ذلك الحين جمعت الوكالة ما وصفه مصدر في "إنتل" بأنه "دلائل ظرفيه قوية في أقل تقدير" عن أن الموساد شَحَنَ أيضاً مواد نووية وبصورة منتظمة من شيبول .

وأبلغت إحدى الساعيات ، التي قدّمت تعاونها مقابل ضمان بعدم الملاحقة القضائية ، إلى "إنتل" أنها هرّبت مواد نووية من أوكرانيا عبر ألمانيا وصولاً إلى هولندا .

وزعمت الساعية لـ"إنتل" أن شخصاً استقبلها في المحطة المركزية في أمستردام . وعندما عُرضت عليها بعض الصور ، أشارت الساعية إلى الشخص المعني فكان ضابطاً في الموساد كانت "إنتل" تعرف أنه يقيم في شيبول .

يقول مئير عميت إنه في ما مضى لم يكن عميل الموساد ليسمح بالتعرّف إليه بهذه السهولة . ويعتقد كثيرون غير عميت في أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية أن مثل هذه الإخفاقات الأساسية في العمل لا تبشّر بمستقبل مضيء للموساد على عتبة الألف الثالث .

أدّى التغيير في الموقف داخل إسرائيل إلى الشعور بالغضب وخيبة الأمل إزاء إخفاقات الموساد العملانية . في الأيام الخوالي لم يكن أحد من الإسرائيليين يكترث لكون نجاحات الموساد كثيراً ما اعتمدت على التخريب والكذب والقتل . فكل ما كان يهمّ هو أن تبقى إسرائيل .

ولكن مع اقتراب السلام أكثر فأكثر من حدود إسرائيل مع جيرانها العرب تتزايد الأسئلة التي تُطرح حول استخدام مثل هذه الأساليب في أداء دورها كدرع وسيف .

وهناك شعور معاند داخل صفوف الموساد أن لا مستقبل لأي مؤسسة عظمى "إذا أولت الاهتمام لكل همهمة لرأي جديد" على حد تعبير رافي إيتان . وفي الوقت نفسه فإن هناك شعوراً يعبّر عنه آري بنمناشي وهو أنه إذا أصرّ الموساد على حبس نفْسه في سجون الأمس "فسيواجه خطر الاختناق كفارس من القرون الوسطى داخل درعه ، وقد فقد فرسه ونسيه أصحابه على أرض المعركة" .

وراء مثل هذه الكلمات المثيرة للعواطف تقبع بعض الحقائق القاسية . بعد مرور خمسين سنة على نشوئه لم يعد الموساد يُعتبر جهاز الجرأة البطولية الذي كانت أعماله تلمع بشدّة في وجدان إسرائيل . وُلِدَ الموساد في تلك السنوات القليلة التي لا تُنسى والتي بَنَت فيها إسرائيل عالماً جديداً لنفسها ، فكان ذلك الجهاز أحد الضامنين بقاء ذلك العالم . ذلك الضمان لم يعد مطلوباً .

وقد عبّر بنمناشي عن فكرته بطريقة جيدة إذ قال : "إن على إسرائيل والعالم أن يعتبروا الموساد جرعة من الدواء الوقائي- للحماية ضد مرض يمكن أن يكون مميتاً . إنك لا تتناول الدواء إلا عندما يتهدّدك المرض . ولا تتناوله في كل الوقت" .

والسؤال الذي لا يزال بلا جواب عنه هو ما إذا كان الموساد سيقنع بلعب دور يحلّ فيه النضج والاعتدال محل سياسة القيام بأعمال شاقة من أجل أسباب عويصة .

فهرس المحتويات

هذا الكتاب

تمكّن غوردون طوماس في كتابه عن الموساد أن يكشف أسراراً خطيرة، فهو من أماط اللثام عن العميل الإسرائيلي الرفيع المستوى في البيت الأبيض وأسمه الرمزي "ميغا" والذي يرجّح الكاتب أن الموساد أعدّ فضيحة مونيكا لوينسكي ليردع الرئيس كلينتون عن البحث عن هويته.

وطوماس هو من كشف أن هنري بول مسؤول الأمن في فندق "ريتز" الباريسي الذي قاد دايانا ودودي الفايد إلى حتفهما وقضى نحبه في حادثة السير نفسها كان هدفاً للموساد، وأنهم حاولوا تجنيده وضغطوا عليه لقبول مهمة التجسّس.

ويكشف الكتاب أيضاً تفصيلات جديدة عن قتل رسام الكاريكاتور الفلسطيني المشهور ناجي العلي في لندن وعن توريط نزار هنداوي في محاولة تفجير طائرة "العال" الإسرائيلية بصديقته الحامل بطفله. وطوماس من الصحافيين الغربيين القلائل الذين أثاروا علامات استفهام حول ما جرى في مطار هيثرو في ذلك اليوم، فهل كانت المتفجرات حقيقية؟ ذلك مستبعد. إذاً فلماذا حُكم على الهنداوي بالسجن لأطول مدة في تاريخ بريطانيا القضائي الجديد إذا لم تكن صديقته الإيرلندية تحمل متفجرات حقيقية؟

من مقدمة المترجم